

الحياة الاجتماعية في مصر في عصر الدولة الفاطمية

(358 - 567 هـ / 969 - 1171 م)



تأليف

رمضان محمد رمضان الله عمر

عضو هيئة التدريس بجامعة بنغازي
(قاريونس سابقا)

رمضان محمد رمضان الله عمر

الحياة الاجتماعية في مصر في عصر الدولة الفاطمية



هذا الكتاب

حَقَّقَ العصر الفاطمي لمصر تطوُّراً ونهضةً اجتماعية لم يسبق لها مثيل من قبل ولا من بعد ، غيَّرت مجرى حياة السكان ، وأضافت إليهم الكثير من العادات والتقاليد التي لم يألفوها ، وإن كانوا قد اندمجوا فيها وانصهروا في بوتقتها ، فأصبحت جزءاً لا يتجزأ من حياتهم .

ومن المؤكَّد أنَّه لم يتسنَّ للفاطميين فرض أسلوب حياتهم المُتَّسَم بالترف والرَّفاهية واللَّهو والتسلية إلا بفهم طبيعة الشعب المصري المُحِبَّ لهذا النوع من الحياة . حيث كانت على خلاف طبيعة الشعب المغربي - التي اختبرها الفاطميون إبان وجودهم في المغرب - التي اتَّسمت بالجدِّية والرَّصانة والحياة البدوية القاسية . وبالتالي لم يتعب الفاطميون كثيراً في التأثير على الشعب المصري . وصبغته بصبغتهم لما وجدوه منهم من ميول واضحة وقبول لهذه الصَّبغة .

ولا تزال هذه الصَّبغة موجودة إلى يومنا هذا . حيث إنَّ الكثير من العادات والتقاليد والشعائر والرُّسوم المُتداولة بين الناس في وقتنا الحاضر ، ولاسيما بين المصريين ترجع في أصولها إلى العصر الفاطمي ، ولا يزال الناس مُتشبِّثين ومُحتفظين بها ، ممَّا يدلُّ على أنَّ العصر الفاطمي كان عصراً فريداً من نوعه في تاريخ مصر الإسلاميَّة .

المؤلف



الليالي الاجمالية في مصر

في عصر الدولة الفاطمية

(358 - 567 هـ / 969 - 1171 م)

تأليف

رمضان محمد رمضان الله عمر

عضو هيئة تدريس بجامعة بنغازي (قاريونس سابقا)



كل الحقوق
محفوظة

الفتى سن

للنشر والتوزيع

الإدارة : ٨ شارع بومس - الدراسة - القاهرة

ت : ٥٩٣٢٠٥٧ - ٥٩٢٩١٥٣

الكتابة : ٩ درب الأتركة



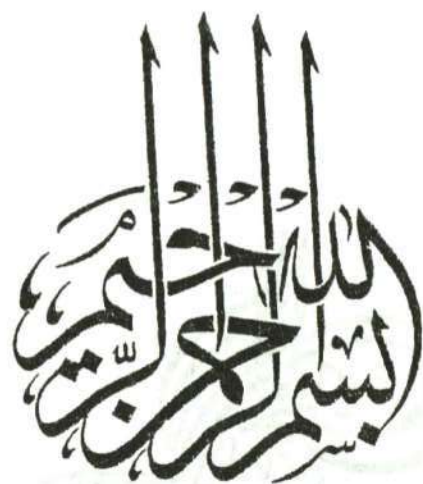
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى
وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ

اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾

بِسْمِ اللَّهِ
الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْعَظِيمِ

سورة الحجرات ، الآية (13)



رقم الإيداع

2012 / 3014

الطبعة الأولى

1432 هـ / 2012 م

الإهداء

إلى روح عتي شهيد الواجب :

عبد الله رمضان الأحمر

طيب الله ثراه وأسكنه فسيح جناته

أهدي محثي هذا

شكر وتقدير

الحمد لله الذي بنعمته تَتِمُّ الصالحات، وتوفيقه وتسديده تبلغ المقاصد والغايات ، وبإحسانه المتواصل لعباده المؤمنين يرتفعون إلى أعالي الدرجات . أحمده وأشكره وأستعينه وأستغفره ، وأشهد أنه الله الذي لا إله إلا هو ، الذي ليس لعلمه ابتداء ، ولا لحكمته انتهاء . له الحمد في الأولى والآخرة ، وله الشكر والثناء الحسن الجميل كما ينبغي لجلاله العظيم . وبعد:

فلا يسعني إلا أن أتقدم بخالص شكري وامتناني ، لأستاذي الدكتور علي حسين الشطشاط ؛ على ما قدَّمه لي من حُسن رعاية وعظيم إرشاد ، وَاكْبَا رحلتي البحثية إلى أن خرج هذا العمل إلى حَيِّز الوجود . لذلك أتوجّه إلى الله العزيز القدير أن يجزيه عَنِّي خير ما يجزي به المخلصين الصادقين ، وأن يمدد في عمره ويجعله دُخْرًا للعلم والمتعلمين .

كما أتقدّم بأسمى آيات الشكر والتقدير إلى المجرَّبِ الفاضل والأب الحنون ، الأستاذ الدكتور محمد عبد الكريم الوافي⁽¹⁾ ، الذي كانت

(1) انتقل الدكتور إلى رحمة الله تعالى آخر أيام شهر رمضان المبارك ، الموافق 30/8/2011 م قبل أن تُطبع هذه الدراسة في شكل كتاب ، أسأل الله أن يغفر له ويرحمه رحمة واسعة ، ويجعل القرآن أنيسه ، والنبي صلى الله عليه وسلّم شفيعه ، والجنة مستقره ومثواه ، إنه وليّ ذلك والقادر عليه .

لمحاضراته الدراسية ، ولساتته المنزلية المتخللة بالأحاديث العلمية المشوقة
أبلغ الأثر في صقل شخصيتي العلمية .
والشكر الموصول إلى صديقي الشيخ الأستاذ مجيد محمد حبريشة ،
عضو هيئة التدريس بقسم اللغة العربية ، على قراءته لهذه الدراسة وضبط
بعض نواحيه لُغويًا ، بالإضافة إلى إخراجها على الشكل الذي طُبِعَت فيه
حاليًا على هيئة كتاب ، فنسأل الله أن يجعل عمله في ميزان حسناته .
والشكر إلى كل من ساهم معي ولو بكلمة لإظهار هذا العمل ، من
الأهل ، والأخوة ، والأقارب ، والجيران ، والأصدقاء ، والزملاء ، والله من
وراء القصد .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد المبعوث رحمة للعالمين ، الذي أرسله الله تعالى بالهدى ودين الحق بشيراً ونذيراً وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد :

فإن الحياة الاجتماعية ما هي إلا مجموعة من الأفراد والجماعات يعيشون في منطقة أو بيئة محدودة النطاق والمعلم ، مربوطين بزمن ما . ومن الطبيعي أن تنشأ في مناخ هذه البيئة طوائف متعددة من الظواهر والاتجاهات ومظاهر السلوك ، تنشأ من اعتراك الأفراد بعضهم مع بعض ، ومن تفاعلهم مع البيئة التي يعيشون فيها ، حيث تتقابل عواطفهم وتتلاقى وجهات نظرهم وتختلف رغباتهم ، فأعطى ذلك الوضع صورة متكاملة عن حياتهم وأنماط معيشتهم ، وأفرز ذلك البناء نُظْماً لتنظيم الحياة فيه . فكانت الحياة السياسية مؤاكلة له ، سواء أكانت من داخل البناء الاجتماعي للمجتمع أم من خارجه ، فهي تتربّع على قمة الهرم الاجتماعي . وبين الحياة الاجتماعية التي يجيها أبناء المجتمع بكل سلبياتها وإيجابياتها ، وبين النُظْم السياسية التي تحكم وتُقيّد الحياة بشكلٍ عام عاشت المجتمعات على هامش حياة اقتصادية مُتباينة الاتجاهات . وفي ظل هذه النظم واندماجها تبلورت الكثير من العادات والأعراف والتقاليد ومظاهر السلوك ، وأفرز المجتمع الواحد جوانب أخرى منها ما هو متعلق بالحياة الدينية ، ومنها ما هو متعلق بالحياة الفكرية والثقافية وغيرها من الجوانب .

وتكمن أهمية دراسة موضوع (الحياة الاجتماعية في مصر في عصر الدولة الفاطمية) ، في أن مصر الإسلامية في عصر هذه الدولة ولأول مرة استقلت

استقلالاً حقيقياً ، فلم تعد تتبع أيّ جهةٍ أو خلافةٍ أُخرى ، وأصبحت عاصمتها القاهرة بُؤرةً ومركزاً لدولةٍ مُترامية الأطراف . كما أن الدولة الفاطمية هي أول دولةٍ شيعيةٍ تحكم مصر الإسلامية - وآخر دولةٍ إلى وقتنا الحاضر - ، فكان من الطبيعي أن يحدث تغيّر كبير في سير الحياة الاجتماعية للسكان فيها ، الذي أخذ في التطوّر ليواكب ويساير عقائد ومتطلبات وسياسات وأهداف الدولة الجديدة .

وتهدف هذه الدراسة إلى عدّة أمورٍ منها :

- 1- التعريف بالعناصر السكانية التي يتكوّن منها المجتمع المصري في العصر الفاطمي، وتحديد العلاقات التي تربط فيما بينهم ، وأثر هذه العناصر على الحياة الاجتماعية فيه .
- 2- ذكر للطبقات التي تألّف منها المجتمع ، مع عرض للفئات المُكوّنه لكل طبقة ، والوضع الاجتماعي الذي تعيشه وتأثيرها على الحياة العامة في البلاد .
- 3- إبراز الدور الذي قامت به المرأة في المجتمع ، سواء المرأة الفاطمية أم غيرها .
- 4- محاولة توضيح الأحوال المعاشة للسكان من مَأْكَلٍ ومَشْرَبٍ ومَلْبَسٍ ومَسْكَنٍ ، بالإضافة إلى وسائل لهوهم وتسليتهم ، وما تفسّى بينهم من مظاهر سلبية وأمراض اجتماعية .
- 5- ذكر وعرض وشرح لأهم الأعياد والمناسبات والمواسم التي كان يحتفل بها السكان في ذلك الوقت ، مع التركيز على اهتمام الفاطميين بهذه الأعياد والمواسم ، والصّبغة التي صبغوها بها ، حتّى أمست سِمَةً من السّمات البارزة لذلك العصر .

ولمّا كان الخوض في الدراسات والبحوث التاريخية يستلزم دون شك فترةً زمنيةً طويلةً ، وجهدٍ مُضنٍّ ، وإلى تتبعٍ دقيقٍ لأغلب المصادر والمراجع المتوفرة

عنها. وإنَّ ما يتحصَّل عليه الباحث - بعد البحث والتنقيب - من مادةٍ تاريخيةٍ ، تحتاج منه إلى فرزٍ وتنسيقٍ وتبويبٍ ، ثم استنطاق وتوظيفٍ . ولكي يُحيط بالموضوع إحاطةً تامةً يجد نفسه يتَّبِع في كتابته أكثر من منهجٍ من مناهج دراسة التاريخ . ولهذا استخدمت في كتابة هذه الدراسة المنهج التاريخي السردى ، والتحليلي ، والوصفي ، والمقارن في بعض الأحيان ، لكي تكون صورة الموضوع واضحة أمامها حتَّى تصل إلى الهدف المطلوب منها .

أمَّا عن الصعوبات التي واجهتني في إعدادها ، فهي الصعوبات التي تُواجه كل باحثٍ في التاريخ الاجتماعي . حيث تكون المادة العلمية عن مثل هذه المواضيع مُشَتَّتة ومُبَعَثرة في بطون الكتب . فإذا كان الباحث في التاريخ السياسي أو العسكري يفتح كتاباً فيجد فيه صفحاتٍ متتالية لسيرة خليفة أو وصف معركة أو فتنة ما ... الخ . فإن الباحث في التاريخ الاجتماعي يستقي معلوماته التي يستعين بها في كشف الكثير من الحقائق ، فيما كان يَرِدُ له عرضاً بشكلٍ غير مباشر في النوادر والحكم والتراجم والوقائع . لذلك كنت أضطر في كثيرٍ من الأحيان - بسبب شُحِّ المادة - إلى قراءة المصدر كاملاً ولأكثر من مرّة ، لكي أظفر منه بأيِّ معلومة أو لمحة أو إشارة تُعيني في تجلّي الحقيقة . كما أن بعض جزئيات الموضوع كان يكتنفها الغموض والنقص . ولما كانت الحياة الاجتماعية تمتاز بشيءٍ من الثبات وعدم التغيير أو بطئه الشديد ، بعكس الحياة السياسية التي مزاجها التبدل وعدم الاستقرار ، فأبني كنت في بعض الأحيان في حِلٍّ من أن أُلجأ إلى بعض المصادر المتقدمة أو المتأخرة قليلاً عن العصر الذي أدرسه ، لكي أستكمل النقص ، وذلك مع مُراعاة الحيطة والحذر .

وقد استلزمي الأمر لإتمام الدراسة والإحاطة بها ، على الاستعانة بالعديد من المصادر ، وكذلك المراجع الحديثة ؛ من الكتب والمعاجم والقواميس والموسوعات ودوائر المعارف ، بالإضافة إلى الدوريات والمجلات والندوات العلمية وغيرها .

ومن أهم المصادر المخطوطة التي اعتمدت عليها :

1- مخطوط (شرح لمعة من أخبار الإمام المعز لدين الله) ، لمؤلفه محمد أبي الحسن الإسكندراني (مجهول الترجمة) . تحدّث فيه عن الفتح الفاطمي لمصر وبناء القاهرة وتقسيم خِطَطِهَا على الجند ، كما تناول فيه بعض الموضوعات الأخرى التي لم يُراعَ فيها الترتيب الزمني للأحداث . وقد استفدت منه في تأكيد بعض المعلومات في الفصلين الأول والثاني من الكتاب .

2- مخطوط (كتاب دفع مزار الأبدان بأرض مصر) ، للطبيب المصري علي بن رضوان (م: سنة 453هـ / 1061م) . وهو مخطوط طبيّ هدف به صاحبه إلى توضيح أسباب انتشار الأمراض في مصر في العصر الفاطمي ، وكيفية الحيلة في منع ذلك ، مُتَطَرِّقاً من خلاله للكثير من الموضوعات المتعلقة بالأطعمة والأشربة والمسكن ، وتأثير البيئة والمناخ على الناس . فكانت هذه الموضوعات ذات فائدة لي عند كتابة الفصل الرابع من الكتاب .

وإلى جانب المخطوطات كان هناك المصادر المطبوعة ، التي استقيت منها

جُلُّ مادة الدراسة ، ومن أهمها :

1- كتاب (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) ، والمعروف بالخطّ المقرئية .

تأليف شيخ مؤرّخي مصر الإسلامية تقي الدين أحمد بن علي المقرئ (م: سنة 845هـ / 1441م) . وهو يُعدّ من أهم مصادر الدراسة على الإطلاق ، وليس من المبالغة لو قلت إنّها لا تكتمل بدونه ، فقد ضَمَّنَهُ صاحبه معلوماتٍ غزيرة عن

الفاطميين بمصر ، مُبَيَّنًا أنظمة حكمهم وإدارتهم ودواوينهم وقضائهم ، ورسوم بلاطهم ومواكب خلفائهم ومآذيم وأعيادهم ومواسمهم . بالإضافة إلى التفصيل في خِطَطهم وحرارتهم ومدارسهم ومساجدهم وقصورهم ، وغيرها من الموضوعات التي تُعطي صورة حقيقية لما كان عليه المجتمع المصري في ذلك العصر . لذلك كان هذا الكتاب خير عونٍ لي في دراستي ، فلم يَخُلُ جانب من جوانبها إلا واحتوى على معلوماتٍ منه .

2- كتاب (صُبْحُ الأَعشى في كتابة الإنشا) ، لأبي العباس أحمد بن علي القلقشندي (م: سنة 821هـ/ 1418م) . وهو ثاني أهم المصادر في الدراسة ، ولا يمكن القول عنه إنه كتاب ، بل هو موسوعة احتوت على عشر مقالات طُبِعَتْ في أربعة عشر جزءاً ، أَرَّخ فيها مؤلفها للكثير من الموضوعات والعلوم والفنون المعروفة آنذاك . وقد اقتصر استخدامي على الأجزاء : الثاني والثالث والتاسع والرابع عشر ، وإن كان أكثرهن أهمية للدراسة الجزء الثالث ، الذي احتوى على معلوماتٍ وفيرة عن بناء القاهرة وخططها وحرارتها وجوامعها ، مع ذكر وتفصيل لأجناد الدولة الفاطمية وأرباب الوظائف فيها ، ونظام الوزارة ، وكذلك الخلافة ولوازمها وآلاتها ، وعن كيفية احتفال الفاطميين بالأعياد والمواسم ، وغيرها من المعلومات التي كانت بحق ذات أهمية كبرى في جميع فصول الكتاب .

3- كتاب (سَفَرُ نَامَةِ) ، للشاعر الفارسي ناصر خَسْرُو عَلَوي (م: سنة 481هـ — 1188م) ، ترجمه عن الفارسيّة الدكتور يحيى الخشّاب رحمة الله عليه . والسفّر نامة عبارة عن رحلة قام بها المؤلف في الفترة الواقعة ما بين سنتي (437- 444 هـ/ 1045- 1052م) ، جال فيها بلاد إيران ، وأذربيجان ، وأرمينية ، ومصر ، والحجاز ونجد ، وجنوب العراق ، ثم عاد بعدها إلى إيران مُنتهياً إلى مدينة

بَلَّخَ فِي خُرَّاسَانَ . وَلَمَصَرَ مِنْ هَذِهِ الرَّحْلَةِ النَّصِيبَ الْأَكْبَرَ ؛ حَيْثُ أَقَامَ بِهَا الرَّحَالَاتِ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِ سِنُونَ ، مِنْ 7 صَفَرِ سَنَةِ 439 هـ / 1047 م ، إِلَى أَوَاخِرِ جُمَادَى الثَّانِيَةِ مِنْ سَنَةِ 442 هـ / 1050 م . عَنِّي فِيهَا بِوَصْفِ مَا شَاهَدَهُ أَيَّامَ حُكْمِ الْخَلِيفَةِ الْمُسْتَنْصِرِ بِاللَّهِ (427-487 هـ / 1035-1094 م) . فَشَغَلَ وَصْفَهُ نَحْوَ ثَلَاثِ الْكُتَابِ ، قَدَّمَ خِلَالَهُ مَعْلُومَاتٍ فِي غَايَةِ الْأَهْمِيَّةِ عَنِ الْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ اِحْتَوَتْ عَلَى وَصْفِ لَثَرَوَاتِ الْخُلَفَاءِ وَكِبَارِ رِجَالِ الدَّوْلَةِ مِنْ طَبَقَةِ الْخَاصَّةِ وَحَيَاتِهِمْ ، بِالإِضَافَةِ إِلَى مَعْلُومَاتٍ ظَرِيفَةٍ عَنِ حَيَاةِ الْعَامَّةِ مِنْ أَرْبَابِ الْحِرْفِ وَالصَّنَاعَاتِ . نَاهِيكَ عَنِ وَصْفِهِ الدَّقِيقِ لِكَيْفِيَّةِ اِحْتِفَالِ الْفَاطِمِيِّينَ بِتَخْلِيْقِ عَمُودِ الْمَقْيَاسِ وَفَتْحِ الْخَلِيجِ ، كَمَا شَاهَدَهُ بِنَفْسِهِ فِي هَذِهِ الرَّحْلَةِ . لِذَلِكَ يُعَدُّ هَذَا الْكُتَابُ مِنْ أَهْمِ الْكُتُبِ فِي بَابِهِ وَقَدْ اعْتَمَدْتُ عَلَيْهِ فِي جَمِيعِ فُصُولِ الدِّرَاسَةِ .

هَذَا بِالإِضَافَةِ إِلَى الْكَثِيرِ مِنَ الْمَصَادِرِ الْمُخْتَصَّةِ بِالتَّرَاجِمِ وَالطَّبَقَاتِ ، وَالْجُغْرَافِيَا وَالرَّحَلَاتِ ، وَالْأَدَبِ وَاللُّغَةِ وَالشَّعْرَ ، وَالْوَثَائِقَ وَالسَّجَلَّاتِ وَالْبَرْدِيَّاتِ ، وَالْحَسَبَةَ وَالْأَطْعَمَةَ ، وَغَيْرَهَا مِنَ الْمَصَادِرِ الَّتِي تَضَمَّنَتْهَا قَائِمَةُ مَصَادِرِ الْكُتَابِ .

أَمَّا فِيمَا يَخُصُّ الدِّرَاسَاتِ وَالْمَرَاجِعَ الْحَدِيثَةَ ، فَمِنْ أَهْمِهَا عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ :

1- كُتَابُ (تَارِيخُ الدَّوْلَةِ الْفَاطِمِيَّةِ فِي الْمَغْرِبِ وَمِصْرَ وَسُورِيَّةَ وَبِلَادِ الْعَرَبِ) ، تَأَلَّفَ الدُّكْتُورُ حَسَنُ إِبرَاهِيمَ حَسَنَ . وَهُوَ مِنْ أَفْضَلِ مَا كُتِبَ عَنِ تَارِيخِ الدَّوْلَةِ الْفَاطِمِيَّةِ إِجْمَالاً ، اِحْتَوَى عَلَى أَرْبَعَةِ عَشَرَ فِصَالاً ، تَتَنَاوَلُ الْجَوَانِبَ السِّيَاسِيَّةَ وَالْإِدَارِيَّةَ وَالدِّينِيَّةَ وَالثَّقَافِيَّةَ وَالاِقْتِصَادِيَّةَ وَالاجْتِمَاعِيَّةَ وَالْفَنِّيَّةَ ، وَغَيْرَهَا مِنَ الْجَوَانِبِ بِمَا فِيهَا مَنَاقِشَةٌ مُشْكَلَةُ النِّسَبِ الْفَاطِمِيِّ . وَبِطَبِيعَةِ الْحَالِ أَفَادَنِي هَذَا الْكُتَابُ فِي أَغْلَبِ الْفُصُولِ .

2- كتاب (الدولة الفاطمية في مصر سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة في عهدها) ، تأليف الدكتور محمد جمال الدين سرور . وهو صغير الحجم عظيم الفائدة . قَسَّمَهُ مؤلِّفه إلى ستة أبواب ؛ تناول فيها أصول الدعوة الإسماعيلية إلى قيام الدولة الفاطمية في المغرب ثم انتقالها إلى مصر . مُوضَّحاً موقف الفاطميين من أهل السُّنة فيها ، وسياستهم تجاه أهل الذمَّة . كما تحدّث عن أثر التنافس بين العناصر الأجنبية في حالة مصر ، وما سبَّبه نفوذ الوزراء وتصارعهم على الحكم - في أواخر الدولة - من سقوط الخلافة الفاطمية . ولم ينسَ المؤلِّف أن يُخصِّص باباً لدراسة المظاهر الحضارية ؛ من نظم حكم وإدارة ، وحياة اقتصادية ، واجتماعية ، وثقافية . فكان هذا الكتاب من الكتب التي ساعدتني في كتابة الفصول الأربعة الأولى مع التمهيد .

3- كتاب (الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية) ، لحمد عبد الله عِنان . وهو دراسة مكينة عن الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (386-411هـ / 996-1020م) وعصره . تحدّث فيها المؤلِّف عن شخصية الحاكم وخلاله ، وعن المراسيم والقيود الاجتماعية والدينية التي فرضها على المصريين في عصره ، وعن نشاط الدعوة السريّة الشيعية ومراتبها . ثم أتبعها بدراسة عن خواص العصر الفاطمي - بمجمله - السياسية والاجتماعية والعقلية . ولما كانت فترة خلافة الحاكم من الفترات الغريبة والعجيبة في تاريخ العصر الفاطمي ؛ حيث شهدت الكثير من التحوّلات الداخلية أثّرت ولاشك في حياة الناس الاجتماعية ، لذلك كان هذا الكتاب من أهم الكتب التي أثّرت الدراسة ، ولاسيّما في الفصول الأربعة الأولى منها .

وهذه عيّنة فقط من المراجع ، أمّا الصُّحف والدُّوريات والندوات والقواميس والمعاجم ودوائر المعارف وما يجري مجراهم ، فلا يتسع المجال هنا لذكر عيّناتٍ منها ، وإن كنت قد أدرجتهم بكاملهن في قوائم خاصة من ضمن مصادر الكتاب ، ومراجعته .

وأنتقل الآن إلى الحديث عن مضمون الدراسة أو ما يُعرف بالخطّ المتَّبعة في الدراسة . التي رأيت أنها تستلزم أن تُقسَّم إلى مقدمة وخمسة فصول وخاتمة . وقد مهَّدتُ للفصول بعرضٍ موجزٍ عن ماهية الدولة الفاطمية ، وبدايات انتشار مذهبها في بلاد المغرب العربي ، وكيفية توطيد أركانها فيه ، ثم انتقلها بعد ذلك إلى مصر والاستقرار بها نهائياً منذ عام 358هـ / 969م .

وفي الفصل الأول تحدثت عن (عناصر سكان مصر في العصر الفاطمي وأثرهم في الحياة الاجتماعية) ، موضحاً أصول كل عنصر ومواطن سُكنائه في مدينة القاهرة ، بالإضافة إلى علاقته بالعناصر الأخرى . وهذه العناصر على التوالي هي : المغاربة والأتراك والسودان والأرمن ، إلى جانب عناصر أقلّ عدداً مثل : الصقالبة والروم والديلم والعُزّ والأكراد .

أمّا الفصل الثاني المُعنون بـ (طبقات المجتمع المصري في العصر الفاطمي) ، فقد أسهبت الحديث فيه عن الطبقات المُكوّنه للمجتمع المصري في ذلك الوقت . وهي طبقة الخاصة المتمثلة في الخليفة والوزير وأرباب الوظائف . وطبقة العامة التي تشمل أغلب فئات المجتمع ، من العلماء والفقهاء والتجار والحرفيين والفلاحين والفقراء والعبيد والمساكين . بالإضافة إلى موضوع أهل الذمة الذين على الرغم من اندراجهم من ضمن الطبقتين السابقتين ، إلاّ أنهم يعتبرون كطبقة مُستقلة لها عالمها الخاص المخالف لجمهور الشعب المصري المُسلم .

وإكمالاً للفصل الثاني خَصَّصت الفصل الثالث للحديث عن (المرأة ودورها في المجتمع المصري في العصر الفاطمي) ، وذلك بصفحتها جزءاً لا يتجزأ من التركيبة السكانية للمجتمع ، لها أوضاعها وكذلك أدوارها المهمة فيها . وقد قسمته إلى مبحثين ؛ مبحثٌ مُخصَّص للمرأة الفاطمية ، ومبحثٌ للمرأة المصرية .

وفي الفصل الرابع الموسوم بـ (مظاهر الحياة الاجتماعية في مصر في العصر الفاطمي) ، تناولت موضوع الأحوال المعاشة للناس ، فتحدثت عن الأغذية والأشربة والألبسة والمساكن . كما بيَّنتُ فيه وسائل اللُّهو والتَّسليَّة التي شغفوا بها وأقبلوا عليها ، والتي من أهمها : الذهاب إلى المنتزهات ، وتنظيم مجالس الغناء والطَّرب ، والخروج إلى الصيد ، والاهتمام بالألعاب الذهنية وكذلك الرياضة ، وغيرها من وسائل الترفيه عن النفس . واختتمت الفصل بذكر أهم المظاهر السلبية المنتشرة في ذلك الوقت .

وكان موضوع (الاحتفالات والمناسبات والأعياد الدينية في مصر خلال العصر الفاطمي) ، محور دراستي في الفصل الخامس . وقد صَنَّفته إلى خمسة مباحث ؛ يختص الأول بالاحتفالات والأعياد الإسلامية العامة ؛ كاحتفال أول العام الهجري ، والاحتفال بعيدي الفطر و الأضحى ، وبشهر رمضان... الخ . والثاني بالمناسبات والأعياد الشيعية الخاصة التي استنتها الدولة الفاطمية ، وهي : عيد الغدير ، والاحتفال بالموالد الأربعة ، وإحياء يوم عاشوراء . في حين اهتمَّ الثالث بأعياد واحتفالات أهل الذمة ، ومنها : عيد النيروز ، وعيد الميلاد ، وعيد الغطَّاس ، وخميس العهد ، وغيرها كثير . أما الرابع فكان للاحتفالات والأعياد القوميَّة ، مثل : الاحتفال بالخروج لسجن يوسف (عليه السلام) ، والاحتفال بفتح

الخليج ، والاحتفال بمولد الخليفة الحاضر ، وبتولية ولي العهد... الخ . وكانت الاحتفالات والمناسبات الأسرية مضمون المبحث الخامس .
أما الخاتمة فهي حوصلة لِمَا في البحث من نتائج واستنتاجات وتوصيات تطلبتها الدراسة .

وهكذا بعد هذا الجهد المتواضع - الذي توخيت فيه الإنصاف والإخلاص بما يبلغ إليه الإمكان - حاولت أن تكون دراستي مُتمتعة بالعمق المطلوب في البحث ، وأن تكون فقراتها بعيدة كل البعد عن السطحية ، والجُمَل الفضفاضة العامة التي تمس الموضوع دون الوُلُوج فيه ، وذلك لكي تصل إلى الأهداف المطلوبة منها . فإن وُفِّقْتُ فذلك قصدي ومُرَادِي ، وإن أخطأت فعن غير عمدٍ مِنِّي ، وما العصمة إلا لله وحده . وخير ما أختتم به كلامي قوله الذي لا يُعلَى عليه قائل :

{ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا }

سورة البقرة ، الآية (285)

رمضان محمد رمضان الأحمر

بنغازي : 2011/5/20م

التمهيد

التمهيد

الإسماعيلية فرقة من فِرَق الشيعة^(*) عُرِفَتْ بذلك ، نسبةً إلى الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق المتوفى سنة 143هـ/760م⁽¹⁾، وسُمُّوا بالفاطمية لأنهم يرون أنهم يعودون بنسبهم إلى علي بن أبي طالب (عليه السلام) من زوجته فاطمة الزهراء - رضي الله عنها - ابنة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)⁽²⁾.

وقد استطاع الفاطميون إقامة دولة لهم في المغرب الأدنى (أفريقية) في أواخر القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي (297هـ/909م). ولم يأت قيام دولتهم هذه فجائياً ، أو على سبيل المصادفة ؛ إنما سبقها تنظيمٌ دقيقٌ ودعوةٌ ، ثم جهادٌ حربي طويل إلى أن استطاعوا توطيد أركانها .

ويرجع الفضل الأول في نجاح الدعوة الإسماعيلية (الفاطمية) ببلاد المغرب إلى الداعية أبو عبد الله الشيعي^(**)، الذي يعتبر المؤسس الحقيقي للدولة الفاطمية

(*) الشيعة هم فرقة من الناس شايعوا (تابعوا) علياً رضي الله عنه ، وقالوا بإمامته (خلافته) نصاً ووصيةً ، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده ، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره = الشهرستاني ، أبو الفتح محمد بن عبد الكرم : الملل والنحل ، تحقيق أبو عبد الله السعيد المنذوه ، مؤسسة الكتب الثقافية ، ط2 (بيروت ، 1998م) 106/1 . كذلك ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم : لسان العرب ، دار صادر ، ط6 (بيروت ، 1997م) 189/8 .

(1) التَّوْبِيخِي ، الحسن بن موسى وسعد بن عبد الله القُمِّي : كتاب فِرَق الشيعة ، حَقَّقَهُ وَصَحَّحَ نصوصه وَعَلَّقَ عليه وَقَدَّمَ له بدراسة وافية عبد المنعم الحفني ، دار الرشد (القاهرة ، 1992م) ص78 . كذلك الشهرستاني : مصدر سابق ، 140/1 .

(2) العَقَّاد ، عباس محمود : فاطمة الزَّهراء والفاطميون ، فضة مصر ، ط7 (القاهرة، 2008م) ص61 .
(**) هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا المعروف بالشيوعي . من أهل صنعاء باليمن ، تُوفِّي في مدينة رَقَّادَة بالمغرب سنة 298هـ/910م . ابن حَلَّكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن =

بالمغرب⁽¹⁾. على أن هذا الداعية لم يكن أول من دعا للشيعة بالمغرب الإسلامي ، فقد سبقه في هذا المجال دعاة آخرون مهّدوا السبيل لنجاح دعوته ، حيث إن جعفر الصادق (80-148هـ/699-765م) كان قد أوفد داعيين أحدهما يُعرف بالحلواني والآخر بأبي سفيان إلى بلاد المغرب وقال لهما : "إن المغرب أرض بور ، فاذهبا فاحرثا حتى يجيء صاحبُ البذر"⁽²⁾. فذهبا إلى هناك وأخذوا يدعون الناس لطاعة آل البيت ، حتى استملا قلوب الكثير من قبيلة كُتامة المغربية وغيرها ، وظلّا هناك إلى أن ماتا⁽³⁾.

بعد الدور الذي قام به الحلواني وأبو سفيان أصبحت بلاد المغرب الإسلامي مُهيأة لتقبل الداعية الجديد . عند ذلك أرسل ابن حوشب^(*) أبا عبد الله الشيعي

=محمد بن أبي بكر : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان فيما ثبت بالنقل أو السماع أو أثبتته البيان ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر، ط4 (بيروت ، 2005م) 192/2 .

(1) العبادي ، أحمد مختار : في التاريخ العباسي والفاطمي ، دار النهضة العربية (بيروت ، بدون تاريخ) ص224.

(2) ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، تحقيق تركي فرحان المصطفى ، دار إحياء التراث العربي (بيروت ، 2006م) 35/4 .

(3) المقرئزي ، تقي الدين أحمد بن علي : اتساع الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، تحقيق جمال الدين الشّيال ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، ط2 (القاهرة ، 1996م) 41/1 .

(*) أبو القاسم الحسن بن فرّح بن حوشب بن زاذان النجار ، من أهل الكوفة . رحل إلى اليمن سنة 268هـ/881م ، وعمل على نشر الدعوة الإسماعيلية فيها ، فنجح نجاحاً كبيراً ، وتلقب بالمنصور . وقد عمل ابن حوشب على تفريق دعاة الإسماعيلية في اليمن واليمامة والبحرين والسند والهند ومصر والمغرب . = ابن خلدون : مصدر سابق ، 35/4 . كذلك عماد الدين ، إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب "القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار وفنون الآثار في ذكر النسب المصطفى ووصيه الكرار وألهما الأقطار" ، تحقيق محمد اليعلاوي ، دار الغرب الإسلامي (بيروت ، 1985م) ص59، 61، 68-72.

وكلفه القيام بالدعوة للمذهب الإسماعيلي في تلك البلاد ، قائلاً له : "إن أرضَ كُتامةَ من المغرب قد حرثها الحلوّاني وأبو سفيان ، وقد ماتا وليس لها غيرك ، فبادر فإنها موطأةٌ ممهدة لك"⁽¹⁾.

فغادر أبو عبد الله الشيعي بلاد اليمن قاصداً مكة أولاً ، فوصلها في موسم الحج سنة 288هـ/900م ، وسأل عن حجاج كُتامة ، حتى لا قاهم واجتمع بهم وسمعهم يتحدثون عن فضائل آل البيت ، فاشترك معهم في الحديث ، ثم سألوه عن الجهة التي سوف يرحل إليها بعد الحج فقال إنه يريد مصر ، فسروا لصحبته ورجعوا جميعاً من مكة متجهين نحو أوطانهم، وهو يخفي عنهم أغراضه الحقيقية ، وما لبثوا أن تعلقوا به لما شهدوه من ورعه وزهده . وقد استطاع أبو عبد الله بما اجتمع إليه من ضروب الخيل أن يقف على جميع أحوال حجاج كُتامة . فلما وصلوا مصر أخذ يودعهم ، فشقّ عليهم فراقه وسألوه عن حاجته بمصر ، فادّعى أنه يريد أن يُعلّم بها ، فدعوه إلى بلادهم للقيام بهذه المهمة قائلين له : "إذا كنت تقصد هذا ، فبلادنا أنفع لك ، ونحن أعرف بحقك"⁽²⁾. وما زالوا به حتى أجاهم إلى المسير بصحبتهم ، ونزل عندهم في منتصف ربيع الأول من سنة 288هـ/900م⁽³⁾.

أكرم أهالي كُتامة وفادة أبي عبد الله الشيعي ، وتهافت كل منهم على إنزاله في بيته ، ولم يلبث أن تطايرت شهرته ، وذلك بفضل ما استخدمه من مكائد وحيل؛ منها السحر والطلاسم ، التي تذهل العقول وتبهر النفوس فتكالب عليه

(1) ابن الأثير ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني : الكامل

في التاريخ ، تحقيق أبي الفدا عبد الله القاضي ، دار الكتب العلمية (بيروت ، 1987م) 450/6 .

(2) المقرئزي : مصدر سابق ، 55/1 - 56 .

(3) المصدر نفسه ، 56/1 .

الناس . ولم يلبث أن كشف نواياه لرجال كتامة ؛ فأخبرهم بأنه صاحب البذر الذي ذكره لهم أبو سفيان والحلواني . فازدادت محبتهم له ، وتعظيمهم لأمره ، وأتته القبائل من كل مكان⁽¹⁾ .

هكذا نجح أبو عبد الله الشيعي في نشر الدعوة الفاطمية في إفريقية ، التي كانت آنذاك تحت حكم الأغالبة (184-296هـ / 800-908م) . ولم يكتفِ الشيعي بهذا النجاح فقط ، بل عمل على تدشينه بإنشاء دولة بقوة السلاح ، فجمع جيوشه من الكتاميين ، وبدأ نشاطه الحربي ، فوَقعت في يده العديد من المدن المغربية منها مَيْلَة^(*) وسَطِيف^(**) وغيرهما الكثير ، وقد حاول أمير الأغالبة زيادة الله الثالث (290-296هـ / 902-908م) مقاومة هذا الاجتياح فأرسل ثلاثة جيوش متوالية ، ولكنها هُزمت كلها وانتهى الأمر به بالفرار إلى مصر ، ودخول أبي عبد الله الشيعي مدينة رَقَّادَة^(***) ثم القيروان سنة 296هـ / 908م⁽²⁾ ، وانتهى بذلك حكم الأغالبة بإفريقية وابتدأ حكم الفاطميين .

(1) ابن الأثير : مصدر سابق ، 451/6 .

(*) مَيْلَة : مدينة صغيرة بأقصى إفريقية ، اعتمادها على الزراعة وإن كانت قليلة الماء ، في وسطها عين تُعرف بعين أبي السباع مجلوبة تحت الأرض من جبل بني ساروت . = ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبو عبد الله : معجم البلدان ، دار صادر (بيروت ، 1977م) 244/5 .

(**) سَطِيف : مدينة ببلاد المغرب في جبال كتامة بين تاهرت والقيروان ، وهي صغيرة إلا أنها ذات مزارع وعشب عظيم . = ياقوت الحموي : مصدر سابق ، 220/3 .

(***) رَقَّادَة : بلدة كانت بإفريقية . بناها إبراهيم بن أحمد بن الأغلِب (261-289هـ / 874-901م) سنة 263هـ / 876م ، ولما أمَّها انتقل إليها من مدينة القصر القديم . وكانت تتميز بالبساتين ، ولم يكن بإفريقية أطيَب هواء ولا أعدل نسيماً وأرقّ تربةً منها . = ياقوت الحموي : مصدر سابق ، 55/3 .

(2) القاضي النعمان : أبو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيّون : رسالة افتتاح الدعوة (رسالة في ظهور الدعوة العبيدية الفاطمية) ، تحقيق وداد القاضي ، دار الثقافة (بيروت ، 1970م) ص

وكان أبو عبد الله الشيعي خلال انتصاراته الأخيرة — وقبل أن يقضي نهائياً على حكم الأغالبة — قد أرسل وفداً من كُتامة إلى الإمام الفاطمي عبيد الله المهدي (297-322هـ / 909-933م) ، يخبره بما أنجزه من انتصارات ويدعوه للقدوم للمغرب⁽¹⁾. وكان المهدي آنذاك محتفياً في بلدة سَلَمِيَّة^(*) خوفاً من العباسيين الذين يترصدون أخباره ، ولكن أمره كان قد افتضح فخرج من الشام إلى العراق ، ومعه ابنه أبو القاسم وخاصته ومواليه، وجدَّ السير إلى أن وصل مصر متنكراً في هيئة الثَّجَّار . ومن مصر رحل إلى طرابلس الغرب ، فوجد أن الأغالبة لازالوا أصحاب البلاد ، وأن الداعية الشيعي لا يزال في حرب معهم ، فاضطر إلى مواصلة السير حتى وصل سِجِلْمَاسَة^(**) بالمغرب الأقصى ، وكان عليها آنذاك اليَسَّع بن مدرار^(***) ، الذي جاءه كتاب من زيادة الله بن الأغلب يعلمه فيه بأن

(1) ابن الأثير : مصدر سابق ، 453/6 . كذلك ابن خلدون : مصدر سابق ، 38/4 . المقرئبي : مصدر سابق ، 60/1 .

(*) سَلَمِيَّة : هي بُلَيْدَة في ناحية البرية من أعمال حماة ، وكانت تعد من أعمال حمص . = ياقوت الحموي : مصدر سابق ، 240/3 .

(**) سِجِلْمَاسَة : مدينة بالمغرب الأقصى ، تبعد عن القيروان بستة وأربعين فرسخ (حوالي 222 كم) ، كان بناؤها سنة 140هـ / 757م . وفي سنة 160هـ / 776م اتخذها بنو مدرار حاضرة للملكهم . = البكري ، أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز : المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب " وهو جزء من كتاب المسالك والممالك " ، دار الكتاب الإسلامي (القاهرة ، بدون تاريخ) ص 148 - 149 .

(***) هو اليَسَّع بن ميمون بن مدرار بن اليسع بن سَمْعُون بن مدلان المكناسي . من الصُّفْرِيَّة تولى أمر سجلماسة في صفر 270هـ / 883م ، وتلقب بالمنتصر على اسم جده . تعرض لحصار الداعية الفاطمي أبو عبد الله الشيعي فهرب من سجلماسة ، ولكن لم يلبث أن قبض عليه وقتل في سنة 298هـ / 910م . فكانت مدة حكمه لسجلماسة 27 سنة هجرية / 26 سنة ميلادية = ابن عذارى المراكشي ، أبو العباس أحمد بن محمد : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنسال ، دار الثقافة (بيروت ، بدون تاريخ) 157/1 .

الرجل الذي عنده إنما هو الذي يدعو إليه أبو عبد الله الشيعي ، عند ذلك قبض اليَسَع على عبيد الله وسجنه عنده⁽¹⁾ .

ظلَّ المهدي في حبسه بسجلماسة حتى تم للداعية أبو عبد الله النصر على الأغالبة . فسار في قوة كبيرة إلى سجلماسة لإنقاذ المهدي مزيلاً من طريقه كل القبائل التي اعترضته ، ولما سمع اليسع بن مدرار بوصول أبي عبد الله خرج إليه وقاتله، ولكنه هُزِمَ وهرب ليلاً من المدينة حاملاً معه أقاربه وأمتعته ، في حين دخل أبو عبد الله سجلماسة وأخرج المهدي من سجنه في ذي الحجة سنة 296هـ/908م . فأقام المهدي بسجلماسة أربعين يوماً ، ثم رجع إلى أفريقية فوصل رقّادة في ربيع سنة 297هـ/909م ، واستولى على ملك بني الأغلب فيها ، وجُدِّدت له البيعة ، وذكر اسمه في الخطبة ، وتلقب بـ(المهدي أمير المؤمنين) . ثم قام بتقسيم أعمال دولته الجديدة على رؤساء كُتّامه الذين ساعدوا على إقامتها ، ودوّن الدواوين ، وجبى الأموال ، واستقرت قدمه في البلاد⁽²⁾ .

على أن الدولة الفاطمية في ذلك الوقت كانت لا تزال مضطربة ناشئة وفي حاجة ماسة إلى استقرار وتدعيم . وكان على الخليفة المهدي نفسه أن يقوم بهذه الأعمال⁽³⁾ . فكان أول عمل قام به في سبيل إرساء دعائم دولته الجديدة هو اغتيال الداعية أبي عبد الله الشيعي في جمادى الآخرة سنة 298هـ/910م⁽⁴⁾ . أي بعد عام واحد من نشأة الدولة الفاطمية . والسبب في ذلك أن الخليفة الفاطمي لما

(1) ابن خلدون : مصدر سابق ، 38/4 . كذلك المقرئبي : مصدر سابق ، 60/1 - 62 . أبو الفدا ، عماد

الدين إسماعيل : المختصر في أخبار البشر ، دار المعرفة (بيروت ، بدون تاريخ) 65/2 .

(2) ابن خلدون : مصدر سابق ، 40/4 . كذلك المقرئبي : مصدر سابق ، 65/1 - 66 .

(3) أحمد مختار العبادي : مرجع سابق ، ص 230 .

(4) ابن عذارى : مصدر سابق ، 164/1 .

استقامت له البلاد أخذ بمباشرة أمور الدولة بنفسه . في حين أن الداعية الشيعي كان لا يزال يحاول الاستمرار في ممارسة سلطانه ؛ حيث ورد عنه قوله للمهدي : " لو كنت تجلس في قصرك وتتركني مع كُتامة أمرهم وأنهاهم ، لأني عارف بعاداتهم ، لكان ذلك أهيب لك في أعين الناس " (1).

غير أن المهدي لم يأبه له ، واستمر في السياسة التي انتهجها بإدارة الأمور بنفسه ، فأتار هذا العمل غضب الداعية وأصحابه فأخذوا يتآمرون على قتل المهدي ويُؤلبون الناس ضده ، ولكن المهدي علم من جواسيسه أن الداعية وأصحابه يتآمرون على قتله ، فعزم على التخلص منهم ، وذلك بتوزيع المتآمرين على الولايات المختلفة ، وأرسل سرّاً إلى عمال تلك الولايات بقتلهم بمجرد وصولهم . أما الداعية وأخوه أبو العباس ، فقد وضع لهم المهدي من قتلهم وهم في طريقهم إلى القصر الخلافي بقرّادة (2).

أما العمل الثاني الذي قام به المهدي لتدعيم أركان دولته ، فهو بناء العاصمة الجديدة المهدية حوالي عام 300 هـ / 912م واتخذها داراً لملكه (3) ، ويُعدّ تأسيس المهديّة قمة التنظيمات التي وضعها المهدي للدولة الفاطمية ببلاد المغرب ؛ فقد جاء هذا العمل متفقاً مع السياسة التي جرى عليها مؤسسو الدول الإسلامية في المشرق والمغرب ؛ إذ حرص كل منهم على بناء عاصمة جديدة له تكون مقراً لحكمه ودلالة على العصر الذي يحاول فرض معالمه ودعم مؤسساته . ورأى عبيد

(1) المقريري : مصدر سابق ، 67/1.

(2) ابن الأثير : مصدر سابق ، 462/6-463 . كذلك ابن خلدون : مصدر سابق ، 462/6 - 463 .

المقريري : مصدر سابق ، 67/1 - 68 .

(3) القزويني ، زكرياء بن محمد بن محمود : آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر (بيروت ، بدون تاريخ) ص 276 . كذلك ابن عذاري المراكشي : مصدر سابق ، 1/169.

الله المهدي أن قيام الدولة الفاطمية واستقرار أوضاعها يتطلب بناء عاصمة جديدة ، لا لتكون مركزاً لحكمه فحسب ، بل لتكون حصناً يدافع به عن تلك الدولة ، وصد أي هجوم أو فتن قد تتعرض لها⁽¹⁾.

وببناء المهدي توطدت أركان الدولة الفاطمية ببلاد المغرب . ولكن لم يكن حلم الفاطميين لينتهي بتأسيس دولتهم المغربية هذه ، فإنها لم تكن سوى هدفٍ مبدئي وخطوة أولى نحو تحقيق أملهم الواسع ، في حكم كل البلاد الإسلامية من أقصى المغرب الإسلامي إلى أقصى المشرق⁽²⁾ . ولكي يحقق الفاطميون حلمهم ذلك كان عليهم أن ينتقلوا بحكمهم إلى قاعدة متينة لهم في المشرق الإسلامي . فتوجهت أنظارهم إلى مصر ، فقد كانت غنية في ثرواتها ، موفرة في خيراتها ، ذات موقع استراتيجي مهم يمكن منه الاستيلاء على المراكز الإسلامية القديمة ؛ كمكة والمدينة ودمشق ، بل والنفاذ والسيطرة على بغداد نفسها حاضرة الخلافة العباسية المعادية لهم⁽³⁾.

ومن هنا حرص الفاطميون منذ عصر خليفتهم الأول على غزو البلاد المصرية ؛ فتتابعت حملاتهم الحربية عليها ، الحملة تلو الأخرى . فكانت أولى حملاتهم في سنة 301هـ/913م ، والتي جهَّز فيها المهدي جيشاً من إفريقية تحت إمرة ولده وولي عهده أبي القاسم - الملقب بالقائم بأمر الله (322-334هـ/933-945م) - وقائده حُبَّاسَة بن يوسف . فساروا إلى برقة واستولوا عليها في ذي الحجة من السنة نفسها ، ثم إلى الإسكندرية والفيوم وضيقوا على أهلها ؛

(1) الحمد ، عَادلة علي : قيام الدولة الفاطمية ببلاد المغرب ، دار المستقبل (القاهرة ، 1980م) ص320 .

(2) جمال الدين ، عبد الله محمد : الدولة الفاطمية قيامها ببلاد المغرب وانتقالها إلى مصر إلى نهاية القرن

الرابع = المجري مع عناية خاصة بالجيش ، دار الثقافة (القاهرة ، 1991م) ص4.

(3) المرجع نفسه والصفحة . كذلك أحمد مختار العبادي : مرجع سابق ، ص247.

فبعث لهم الخليفة العباسي المقتدر بالله (295-320هـ / 907-932م) القائد مؤنس الخادم^(*) في جيش كثيف ، فحاربهم وأجلاهم عن مصر إلى أرض المغرب⁽¹⁾.

وفي سنة 306هـ/918م أرسل المهدي حملته الثانية للاستيلاء على مصر بقيادة ابنه أبي القاسم أيضاً . فوصل الإسكندرية في ربيع الآخر من السنة نفسها واستولى عليها . ثم أخذ في التوغل في أراضي مصر . وتمكن من الاستيلاء على الأشمونين^(**) والفيوم . فأرسل إليه الخليفة المقتدر قائده مؤنس الخادم للمرة الثانية على رأس جيش ، فانتصر على الفاطميين واستطاع هزيمة النجدة البحرية القادمة من إفريقية لمساندة أبي القاسم . فأحرق الكثير من مراكب الفاطميين وأسر جندهم. أما الجيش الفاطمي البري بقيادة أبي القاسم فقد غلب على أمره ، وانتشرت الأمراض والأوبئة بين جنده ، فمات الكثير منهم، في حين رجع من بقي

(*) مؤنس الخادم الملقب بالمظفر المعتضدي . أحد الخدام الذين بلغوا رتبة الملوك . كان من خدم المعتضد العباسي (279 - 289هـ/892 - 901م) ، وكان أبيض البشرة فارساً شجاعاً من الساسة الدهاة . بقي ستين سنة أميراً ، وندب لحرب المغاربة العبيديين . وولي دمشق للمقتدر ثم حاربه وقتل المقتدر وخلفه القاهر بالله (320 - 322هـ/931 - 933م) ، فلما تمكن القاهر قتله = الزركلي : خير الدين : الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين) ، دار العلم ، ط5 (بيروت، 2002م) ، 335/8.

(1) ابن الأثير : مصدر سابق ، 483/6 . كذلك ابن الأبار ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي : الحلة السيرة ، تحقيق حسين مؤنس ، دار المعارف ، ط2 (القاهرة ، 1985م) 286/1 . المقرئزي : مصدر سابق ، 68/1 - 69 .

(**) الأشمونين : مدينة قديمة أزلية عامرة أهلة . وهي قصبة كورة من كور الصعيد الأدنى ، غربي النيل . ذات بساتين ونخل كثير ، وسُميت باسم مُعمرها أشمن بن مصر بن بيسر بن حام بن نوح . = ياقوت الحموي : مصدر سابق ، 200/1 .

حيّاً مع أبي القاسم إلى إفريقية . وبذلك حلّت الهزيمة بالحملة الفاطمية الثانية⁽¹⁾. وكان من أهم عوامل إخفاقها وهزيمتها أن الخطة التي وضعها المهدي لم تنفذ بدقة⁽²⁾.

أما الحملة الفاطمية الثالثة على مصر فقد ظلّت ثلاث سنين من سنة 321 إلى سنة 324هـ / 933 إلى 935م ، تَخَلَّلَتْهَا معاهدة صلح أبرمت بين الجيش المغربي (الفاطمي)، وبين أهل مصر في سنة 322هـ/933م . ولكن هذا الصلح لم يُطْلَ أمدُه ؛ فقد انضمَّ بعض زعماء المصريين إلى جيش الفاطميين الذي دخل الإسكندرية في ربيع الثاني سنة 324هـ/935م ، فبعث إليهم الإخشيد⁽³⁾ جيشاً أحلَّ بهم هزيمة ساحقة ، وأسر منهم الكثير ، وأرغمهم على العودة إلى بلادهم⁽³⁾. وعلى الرغم من الهزائم المتتالية التي لحقت بالفاطميين إلا أنهم لم ييأسوا من حلم السيطرة على مصر . بل أخذوا يجهزون أنفسهم ويعدُّون العُدَّة إلى أن تحين

(1) المقرئزي : مصدر سابق ، 71/1 - 72.

(2) سرور ، محمد جمال الدين : الدولة الفاطمية في مصر سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة في عهدها ، دار الفكر العربي (القاهرة ، 1966م) ص 62 .

(*) أبو بكر محمد بن أبي طُغْج بن جُفِّ بن يَلْتِكِين بن فُوران بن فُوري بن خاقان . الملقب بالإخشيد . صاحب مصر والشام والحجاز . تولّى أمر مصر من قِبَل الخليفة العباسي الراضي بالله (322 - 329 هـ / 934 - 940م) فدخلها في شهر رمضان 323 هـ / 934م ، واستمر في حكمها إلى أن توفي في ذي الحجة سنة 334هـ / 945م . = ابن خلكان : مصدر سابق ، 56/5 ، 58 - 59.

(3) الكندي ، أبو عمر محمد بن يوسف : كتاب الولاة وكتاب القضاة ، تحقيق رفن كَسْت ، مطبعة الآباء اليسوعيين (بيروت ، 1908م) ص 281 - 287 . (أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد) . كذلك حسن ، حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، مكتبة النهضة المصرية ، ط 15 (القاهرة ، 2001م) 153/3 .

الفرصة المناسبة لغزوها . ففي سنة 355هـ/965م أمر الخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله (341-365هـ/952-975م) بإنشاء الطرق وحفر الآبار وإقامة القصور على طول الطريق من المغرب إلى مصر استعداداً لذلك⁽¹⁾.

وقد واتت الظروف الفاطميين أخيراً بوفاة كافور الإخشيدي(334-357هـ/945-967م) عاهل مصر ؛ إذ إن البلاد أصبحت تعاني أزمات سياسية واقتصادية شديدة ؛ حيث لم يكن بها حاكم قوي يستطيع أن يقبض على زمام الأمور فيها، كما لم تكن بها قوة مادية أو معنوية من جانب شعبها الذي أنهكه الجوع والمرض ؛ نتيجة لانخفاض النيل عدة سنوات متتالية ، وما صحب ذلك من قحط وغلاء ومجاعات وأوبئة⁽²⁾. إلى جانب وجود جماعة في الحكم تدين بمذهب الشيعة لا بأس بعددها⁽³⁾.

جهَّز المعز لهذه الحملة جيشاً جرَّاراً يتكون من مائة ألف فارس أو أكثر من قبائل مختلفة . سلَّم قيادته إلى قائده جوهر الصقلي (312-381هـ/924-991م)

(1) ابن أبي دينار ، أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيبي : المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس ، تحقيق محمد شمام، المكتبة العتيقة ، ط3 (تونس ، 1387هـ) ص64. كذلك النويري ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب : نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق محمد محمد أمين ومحمد حلمي محمد أحمد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة ، 1992م) 121/28.

(2) ابن كثير ، عماد الدين أبي الفدا إسماعيل بن عمر : البداية والنهاية ، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي ، دار هجر (القاهرة ، 1998م) 317/15 - 318 .

(3) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب ، مكتبة النهضة المصرية ، ط3 (القاهرة ، 1964م) ص136 . كذلك أيوب ، إبراهيم رزق الله : التاريخ السياسي الفاطمي ، منشورات جامعة سيها (سيها ، 1996م) ص29 .

(1). فسار جوهر على رأس الحملة من بلاد المغرب قاصداً مصر في اليوم الرابع عشر من شهر ربيع الثاني سنة 358هـ/969م . وكانت جيوش الفاطميين منظمة تنظيمًا دقيقاً . وقد زودها المعز بالأموال الضخمة والرجال والعتاد والمؤن ، حتى لا يتطرق إليها الضعف . ولا غرو فقد أنفق الخليفة الفاطمي على إعداد هذه الجيوش أربعة وعشرين مليون دينار ، عدا ما حمله ألف جمل من المال ، الذي رُصد للإنفاق على هذه الحملة⁽²⁾.

وصلت الحملة إلى مصر واستولى جوهر على الإسكندرية . ثم واصل زحفه إلى الجيزة فوصلها في 17 شعبان من السنة نفسها ، وعبر النيل وقضى على المقاومة الإخشيدية التي أُعدت لقتاله ، ودخل مدينة الفسطاط^(*) منتصراً . ولقد كتب جوهر أماناً لأهل مصر مبيناً فيه السياسة الإصلاحية التي سيتبناها من نشر العدل ، وبسط الحق ، ورفع الظلم ، وإصلاح الطرق ، وترميم المساجد ، وتحديد

(1) ابن عبد الظاهر ، محيي الدين أبو الفضل عبد الله بن رشيد الدين : الروضة البهية الزاهرة في خطط المُعزِّيَّة القاهرة ، تحقيق أيمن فؤاد سيّد، أوراق شرقية (بيروت ، 1996م) ص12 . كذلك المقرئزي : مصدر سابق ، 113/1 .

(2) المقرئزي : مصدر سابق ، 97/1 . كذلك حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله ، مكتبة النهضة المصرية ، ط2 (القاهرة ، 1963م) ص84 .

(*) الفسطاط : أول مدينة إسلامية في مصر ، بناها عمرو بن العاص عند فتحه لها حوالي سنة 20هـ/640م . وسبب تسميتها بالفسطاط نسبة إلى فسطاط (بيت من آدم وشعر) عمرو بن العاص الذي نصبه في مكان بناء المدينة فيما بعد ، وذلك عند حصاره لحصن بابلون الذي اختبأ فيه الروم . = ياقوت الحموي : مصدر سابق ، 263/4 .

السكّة . كما ضمن جوهر للمصريين حرية العقيدة ، وأن يقوم بما تتطلبه البلاد من وجوه الإصلاح... الخ⁽¹⁾ .

وكان أول عمل قام به القائد جوهر بعد فتح مصر ، هو اختطاط مدينة القاهرة بأمر من الخليفة المعز . وقسمها إلى عدة حارات ، ووهبها لأمرء عسكره ، وأمرهم ببنائها . فسُميت كل حارة باسم مقدمها ، أو الطائفة أو القبيلة التي نزلت بها⁽²⁾ . ثم شرع جوهر في بناء الجامع الأزهر ، وهو أول جامع بناه الفاطميون بمصر ، وفرغ من بنائه في شهر رمضان سنة 361هـ/971م ، بعد أن كان قد ابتنى القاهرة⁽³⁾ .

استمر جوهر مستقلاً بتدبير شؤون مصر ، وتنظيم أمورها الداخلية قبل وصول الخليفة المعز إليها مدة أربع سنين وعشرين يوماً⁽⁴⁾ . وقد كانت هذه السنين من أهم فترات التاريخ الفاطمي في مصر ؛ فقد تمّت فيها التغييرات المذهبية والإدارية اللازمة التي عبّرت عن مظاهر انتقال السيادة إلى الفاطميين ، ومهدّت

(1) النويري : مصدر سابق ، 130/28 . كذلك عماد الدين ، إدريس : عيون الأخبار وفنون الآثار في فضائل الأئمة الأطهار "السبع السادس أخبار الدولة الفاطمية" ، تحقيق مصطفى غالب ، دار الأندلس (بيروت ، 1978م) ص 147 - 148 .

(2) ابن تغري برّدي ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، تحقيق محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية (بيروت ، 1992م) 33/4 .

(3) المقرئزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطّ والآثار ، تحقيق محمد زينهم و مديحة الشرفاوي ، مكتبة مدبولي (القاهرة ، 1998م) 213/3 .

(4) ابن خلكان : مصدر سابق ، 380/1 .

لقُدوم الخليفة المعز وانتقاله إلى الشرق ليعلن مصر دار خلافة ، وليقود دولته المنتظرة في الشرق⁽¹⁾.

ولما أيقن المعز أن دعائم ملكه قد توطدت في مصر ، عوّل على الرحيل إليها. فاستخلف أبو الفتوح بُلْكِين بن زيري بن مُناد الصنهاجي^(*) على إفريقية والمغرب⁽²⁾، وخرج منها في شوال سنة 361هـ/971م متوجهاً إلى مصر ، وبصحبه حاشيته وخدمه وأتباعه وجميع أولاده وإخوته وعمومته⁽³⁾، ومعه خمسة عشر ألف من الجمال تحمل الصناديق التي فيها الأموال والسلاح ، بالإضافة إلى مائة جمل تحمل شبه الطواحين من الذهب⁽⁴⁾. كما أحضر معه جثث آباءه الخلفاء - عبيد الله المهدي ، والقائم بأمر الله ، والمنصور بنصر الله (334 - 341هـ/ 945 - 952م) - الذين ماتوا في إفريقية⁽⁵⁾. وهذه دلالة واضحة على أن المعز أراد ترك المغرب نهائياً والإقامة والاستقرار بمصر .

(1) سيد ، أيمن فؤاد : الدولة الفاطمية في مصر (تفسير جديد) ، الدار اللبنانية المصرية (القاهرة ، 1992م) ص 76 .

(*) تُوفِّي في ذي الحجة سنة 373هـ/983م بموضع يقال له واركلان مجاور إفريقية . = ابن خلكان : مصدر سابق ، 286/1 .

(2) عماد الدين : عيون الأخبار "السبع السادس" ، ص 185. كذلك ابن تغري بردي : مصدر سابق ، 31-30/4 .

(3) المقريري : اتعاظ الحنفا ، 134/1 .

(4) ابن دقماق ، إبراهيم بن محمد بن أحمد بن أيْدَمَر العلاءي : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، المكتب التجاري (بيروت ، بدون تاريخ) القسم الثاني ، ص 36 .

(5) الذَّهَبِي ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز : دُول الإسلام ، تحقيق حسن إسماعيل مَرَوَة ، دار صادر (بيروت ، 1999م) 329/1 . كذلك ابن إياس ، محمد بن أحمد : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، دار ومطابع الشعب (القاهرة ، 1960م) 35/1 .

تابع المعز سيره ماراً ببرقة حتى دخل الإسكندرية في شعبان سنة 362هـ/972م ، فاستقبله أعيان البلاد ، وعلى رأسهم القاضي أبو طاهر محمد بن أحمد^(*) قاضي مصر . وجلس المعز عند منارة الإسكندرية ، وألقى خطبة وضّح فيها بـ " أنه لم يرد دخول مصر لزيادة في ملكه ولا لمال . وإنما أراد إقامة الحق والحج والجهاد ، وأن يُختم عمره بالأعمال الصالحة ، ويعمل بما أمر به جده ﷺ " ⁽¹⁾ . ثم وعظ الحاضرين وخلع على القاضي وبعض رفاقه . ولما أتم ذلك غادر الإسكندرية ، قاصداً القاهرة في أواخر شعبان ، فوصلها في أوائل رمضان من السنة نفسها دون أن يمر على مدينة الفسطاط - وكان أهلها قد أقاموا معالم الزينة على جانبي الطريق ظناً منهم أنه سيزورها - وسار متجهاً إلى القصر الخلافي الذي بناه له جوهر . فلما وصله خبرٌ ساجداً لله تعالى ، وصلى ركعتين . وبذلك غدت القاهرة مركز الخلافة الفاطمية ، وتحولت البلاد المصرية من دار إمارة إلى دار خلافة⁽²⁾ .

ولقد دام حكم الفاطميين لمصر منذ دخول القائد جوهر إليها إلى سقوط دولتهم فيها مائتين وثمان سنوات هجرية وأربعة أشهر واثنين وعشرين يوماً . كان أولها يوم الثلاثاء السابع عشر من شعبان سنة 358هـ/969م ، وآخرها يوم الأحد

(*) محمد بن أحمد بن عبد الله بن نصر بن أسامة الذهلي أبو الطاهر . أصله من البصرة . ولد في شعبان سنة 280هـ/893م . كان فقيهاً على مذهب مالك ، تولى القضاء في البصرة سنة 331هـ/942م ، ثم في دمشق إلى أن صرف منها ، فترح إلى مصر سنة 340هـ/951م ، وتولى القضاء فيها سنة 348هـ/959م . وكان سهلاً في أحكامه لا يتشدد فيها . واستمر أبو الطاهر في تولي القضاء زمن الفاطميين إلى أن أصابه فالج وتوفي سنة 367هـ/977م . = الكندي : مصدر سابق ، ص 581 - 585 .

(1) ابن خلكان : مصدر سابق ، 227/5 .

(2) ابن خلكان : مصدر سابق ، 227/5 . كذلك المقرئ : اتعاط الحنفا ، 134/1 .

العاشر من محرم سنة 567هـ/1171م . وكان عدد خلفائهم المتواترين على الحكم فيها أحد عشر خليفة⁽¹⁾.

وقد ظهر التأثير الفاطمي واضحاً وجلياً على مصر في تلك السنين ، ولاسيما على الجانب الاجتماعي فيها ؛ حيث صُبغت الحياة في تلك الفترة بالصبغة الشيعية ، وظهر تمازج وانصهار واضح بين الفاطميين وبين الكثير من سكان مصر ، لدرجة أن خلافة الفاطميين في مصر اشتهرت في كتب المعاصرين لها باسم خلافة المصريين ، والخليفة الفاطمي باسم الخليفة المصري⁽²⁾.



(1) المقريري : الخطط ، 3 / 112 .

(2) ابن عبد الظاهر : مصدر سابق ، ص 139 .

الفصل الأول

**عناصر سكان مصر في العصر الفاطمي
وأثرهم في الحياة الاجتماعية**

المبحث الأول : المغاربة

المبحث الثاني : الأتراك

المبحث الثالث : السودان

المبحث الرابع : الأرمن

المبحث الخامس : عناصر أخرى

كان المجتمع المصري في العصر الفاطمي يتكوّن من عناصر متعددة ومختلفة من السكان ، الأمر الذي لفت نظرَ العالم أبو الصلت الأندلسي (م: سنة 528هـ/ 1133م) الذي زار مصر في العصر الفاطمي سنة 489 هـ/ 1095م ، وعاش فيها ردحاً من الزمن فعبرَ عن ذلك الاختلاف بين السُكَّان كما شاهده وراه فقال : " وأما سُكَّان أرضِ مصر فأخلاقٌ من الناس مختلفةُ الأصناف: من قبط وروم وعرب وبربر وأكرادٍ وديلم وحُباشان وأرمن وغير ذلك من الأصناف والأجناس على حسب اختلافاتهم " (1).

وحاول أبو الصلت توضيح العِلَّة في كثرة العناصر واختلاطها في مصر في ذلك الوقت ؛ ذاكراً أن السبب في ذلك هو " اختلاط المالكين لها والمتغلبين عليها من العمالقة*) واليونانيين والروم والعرب وغيرهم ؛ فلهذا اختلطت أنسابهم فاقتصروا من التعريف بأنفسهم على الانتساب إلى مواضعهم ، والانتماء إلى مساقطهم ومواقعهم " (2).

ومن المعروف أن مصر كانت منذ القدم أجناساً مختلطة بسبب توالي الهجرات عليها منذ أقدم أزمنة التاريخ ، قبل زمن الفراعنة بل إنَّ الفراعنة أنفسهم كان أكثرهم من الغازيين الغرباء ، فكانوا إذا فتحوا مصر واستقام لهم الأمر فيها

(1) أبو الصلت الأندلسي ، أمية بن عبد العزيز : الرسالة المصرية "وردت ضمن سلسلة نواذر المخطوطات" ، جمع وتحقيق عبد السلام محمد هارون ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، ط2 (القاهرة ، 1972) ص23-24 .

(*) العمالقة هم قدماء العرب وخاصة أهل شمالي الحجاز مما يلي شبة جزيرة سيناء فتحوا مصر باسم الشاسو (البدو أو الرعاة) ويسميهون اليونان "هكسوس" . = لجنة من العلماء والباحثين العرب : عمالقة ، الموسوعة العربية المُيسَّرة ، دار القلم (القاهرة ، 1965م) ص 1235 - 1236 .

(2) أبو الصلت الأندلسي : مصدر سابق ، ص 24 .

هاجر إليهم أهل عصبيتهم لاستثمار ذلك الفتح ، فيأتون على أن تكون إقامتهم وقتية ريثما يجتمع لهم المال ولكن أكثرهم لا يرجعون ، ولا تمضي بضعة أجيال حتى يختلطوا بالسكان ويصيروا جزءاً منهم كما حدث في زمن الرعاة والفرس واليونان والرومان وغيرهم ممن استولوا على مصر قبل الإسلام. هذا إلى جانب من يأتي مصر للتجارة أو الاستثمار ، لاشتهارها بالخصب والرخاء⁽¹⁾.

وكل الأقوام التي وفدت على مصر واستوطنتها أثرت ولا شك في التكوين الجنسي العام للسكان، ولكن كل ما فعلوه أنهم أضافوا إلى ثروة مصر وسكانها في المميزات الجنسية المتوارثة، ولم يغيروا الطابع العام للسكان فبقي المصريون على مر الزمن جزءاً من سلالة البحر الأبيض المتوسط ، أضيفت إليهم دماء خارجية فاستوعبوها بفضل عددهم الكبير وحياتهم المستقرة وتوافر العوامل الجغرافية والطبيعية لهم، التي حفظت على مصر شخصيتها في السلالة والتكوين الجنسي العام ؛ تلك الشخصية التي لا تزال تحتفظ بكيانها وطابعها حتى عصرنا الحاضر . فمصر استطاعت أن تهضم الوافدين عليها - سواء بالغزو أم بغيره - وأن تحتفظ بشخصيتها الجنسية على مرّ العصور⁽²⁾.

وإنني ههنا لست أحاول دراسة العناصر المختلفة التي وفدت على المجتمع المصري على مر العصور ، واندجت فيه وانصهرت في بوتقته ، وإنما غرضي التحدث عن الأجناس والطوائف التي جاءت مع الفاطميين إلى مصر ، أو في أثناء حكمهم لها ، والتي كانت لها أدوار ومشاركات وأحداث في بناء الحياة فيها ؛ وإن

(1) زيدان ، جرجي : تاريخ التمدن الإسلامي ، دار مكتبة الحياة (بيروت ، بدون تاريخ) المجلد الثاني ، 529/5.

(2) حزين ، سليمان : سكان مصر ودراسة تاريخهم الجنسي ، المجلة التاريخية المصرية ، العددان الأول والثاني (القاهرة ، 1948م) المجلد الأول ، ص 23 - 24 ، 27.

احتفظت كل منها بتكوينها وعصبيتها واستقلالها عن بقية الأجناس والعناصر الأخرى.

المبحث الأول : المغاربة

المغاربة هم مجموعة من القبائل سُموا باسم إقليمهم الذي أتوا منه وهو بلاد المغرب الإسلامي^(*) ، وقد اشتهروا باسم المغاربة في العصر الفاطمي بمصر لتمييزهم عن العنصر الشرقي (الأتراك والديلم) الذي سُمي بالمشاركة⁽¹⁾. والمغاربة هم الذين قامت على أكتافهم الدولة الفاطمية ببلاد المغرب ثم في مصر؛ فبعد أن ساعدوا الفاطميين في إقامة دولتهم في المغرب ساعدوهم في الاستحواذ على مصر سنة 358 هـ/968م بقيادة جوهر الصقلي؛ حيث إنهم كانوا يُكوّنون غالبية عظمى في الجيش الفاطمي⁽²⁾.

وقد شهدت مصر في العصر الفاطمي - ولاسيّما في أوائله - هجرة الكثير من القبائل المغربية إليها ، فقد كان لقدم أعداد كبيرة من المغاربة إلى مصر مع الجيش الفاطمي دافعٌ لتلاحق العديد منهم تباعاً إلى القاهرة، وكانت هجرتهم مع

(*) إن مصطلح بلاد المغرب يُطلق على كل الأراضي الواسعة والبعيدة التي تمتد من حدود مصر الغربية إلى ساحل المحيط الأطلسي ؛ بحيث تنتشر هذه الأراضي بمحاذاة البحر المتوسط في الشمال وتوغل حتى عمق الصحراء الكبرى إلى الجنوب . ومن الواضح أن هذه الكلمة كان لها مدلول جغرافي محض يقصد به تلك البلاد الواقعة إلى الغرب من الدولة الإسلامية الأولى = الغنيمي ، عبد الفتاح مقلد : موسوعة المغرب العربي ، مكتبة مدبولي (القاهرة ، 1994م) المجلد الأول ، 15/1 - 16.

(1) ماجد ، عبد المنعم : نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ، مكتبة الأجلو المصرية ، ط3 (القاهرة، 1985م) 195/1.

(2) النويري : مصدر سابق ، 28/122.

جيش الفتح هذا بمثابة إشارة البدء لتيار متلاحق من المحجرات المغربية⁽¹⁾. فكانت هناك هجرة مغربية في عام الفتح نفسه سنة 358 هـ/968 م، ألحقتها هجرة أخرى في شهر صفر من العام نفسه. وفي سنة 359 هـ/969 م قدمت جماعات مغربية للقاهرة بصحبتها هدية من الخليفة الفاطمي المعز لدين الله إلى قائده جوهر⁽²⁾. وفي سنة 360 هـ/970 م وفدت هجرة مغربية كبيرة إلى القاهرة متمثلة في جيش كبير تحت قيادة سعادة بن حيان^(*). ثم كانت هناك هجرة أخرى وفدت مع المعز لدين الله إلى القاهرة في رمضان سنة 362 هـ/972 م⁽³⁾. ولم تكن هذه آخر المحجرات المغربية إلى القاهرة بل إنها توالى عليها إلى ما بعد قدوم المعز، واستمرت إلى عصر العزيز بالله (365-386 هـ/975-996 م)⁽⁴⁾.

وقد ذكرت المصادر التاريخية الفاطمية أسماء العديد من القبائل المغربية التي استوطنت القاهرة في العصر الفاطمي، كما حاولت هذه المصادر تحديد مواطن سكنها فيها. ومن أهم هذه القبائل:

(1) البنداري، فاتن محمد: الحياة الاقتصادية والمظاهر الاجتماعية للمغاربة في القاهرة في العصر الفاطمي (358-567 هـ / 969-1171 م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة (القاهرة، 1995 م) ص 14.

(2) عماد الدين: عيون الأخبار وفنون الآثار، ص 164. كذلك فاتن محمد البنداري: مرجع سابق، ص 14.

(*) أحد قواد جيوش المعز لدين الله، تُوفّي في القاهرة في محرم سنة 362 هـ / 972 م وإليه يُنسب باب سعادة أحد أبواب القاهرة = المقريري: الخطط، 2/104.

(3) النويري: مصدر سابق، 28/144. كذلك المقريري: الخطط، 2/390.

(4) القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي: صُبْحُ الأَعْشَى في كتابة الإنشا، تحقيق محمد عبد الرسول إبراهيم، المطبعة الأميرية الكبرى (القاهرة، 1914 م) 3/357.

1- كُتامة :

كتامة هي عصب الدولة الفاطمية وقوتها في مصر⁽¹⁾، فهي من أكبر القبائل المغربية الراحلة مع الفاطميين إليها، فلا غرو أن كانت الأعداد الراحلة من هذه القبيلة من الكثرة بحيث أدى ذلك إلى انهيار نفوذها في موطنها الأصلي ببلاد المغرب⁽²⁾. وقد سكن الكُتاميون القاهرة في حارة عرفت بهم (حارة كتامة)⁽³⁾. وهي تقع بالقرب من الجامع الأزهر وبالتحديد في الركن الجنوبي الشرقي منه⁽⁴⁾. واشتهر في حارتهم خط قصر ابن عمّار نسبة إلى أبو محمد الحسن بن عمّار^(*) أحد شيوخهم⁽⁵⁾.

- (1) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، ص 621. كذلك محمد جمال الدين سرور: مرجع سابق، ص 101.
- (2) حنفي، أحمد عبد اللطيف: المغاربة والأندلسيون في مصر الإسلامية من عصر الولاة حتى نهاية العصر الفاطمي (21- 567 هـ/642- 1171م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة، 2005م) ص 159.
- (3) ابن عبد الظاهر: مصدر سابق، ص 42. كذلك الدوّاداري، أبو بكر عبد الله بن أيك: الدرّة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية "وهو الجزء السادس من كتاب كثر الدرر وجامع الغرر"، تحقيق صلاح الدين المنجد، المعهد الألماني للآثار (القاهرة، 1961م) ص 140. القلقشندي: مصدر سابق، 3/358. ابن تغري بردي: مصدر سابق، 4/50. المقرئزي: الخطط، 2/388.
- (4) فاتن محمد البنداري: مرجع سابق، ص 31. كذلك أحمد عبد اللطيف حنفي: مرجع سابق، ص 159.
- (*) الحسن بن عمّار بن علي بن أبي الحسين، أبو محمد الكلبي، أمين الدولة، تولّى الوصاية على الخليفة الحاكم بأمر الله بعد وفاة والده العزيز، فاستبدّ بأمر دولته، ولكنه لم يلبث أن عُزل منها سنة 387هـ/997م، وبقي بعيداً عن مناصب الدولة إلى أن قتل سنة 390هـ/999م. = المقرئزي: كتاب المُقَفَّى الكبير، تحقيق محمد اليعلّوي، دار الغرب الإسلامي (بيروت، 1991م) 3/433-434، 437، 440.
- (5) المقرئزي: الخطط، 2/443.

2- زويلة :

زويلة أولى القبائل المغربية التي بنت لها حارة في القاهرة فور اختطاطها ، عرفت بحارة زويلة، وحفرت فيها بئر عرفت أيضاً ببئر زويلة⁽¹⁾. وتوالت هجرة أفراد هذه القبيلة إلى مصر إلى ما بعد سنة 358هـ /969م ، فوفدت مجموعة كبيرة منهم على القاهرة مع المعز لدين الله سنة 362هـ /972م ، نزلوا مع أفراد قبيلتهم - الذين سبقوهم - في حارتهم التي اختطوها⁽²⁾. وقد كانت أعداد هذه القبيلة من الكثرة بشكل جعل حارتهم واسعة عظيمة. وإليها يُنسبُ البابان الواقعان في الضلع الجنوبي من سور القاهرة، المعروفان ببابي زويلة⁽³⁾.

3- المصامدة :

المصامدة طائفة مغربية من طوائف الجيش الفاطمي ، جاءت إلى القاهرة بصحبة الخليفة الفاطمي المعز لدين الله⁽⁴⁾. وقد بلغ عدد أفرادها في الجيش الفاطمي في عصر الخليفة المستنصر بالله حوالي عشرين ألف رجل⁽⁵⁾. ولم يكن للمصامدة حارة خاصة بهم في القاهرة في أوائل العصر الفاطمي ، ويبدو أنهم كانوا منتشرين بين سكانها في الحارات المختلفة . واستمر حالهم على ذلك إلى خلافة الأمر بأحكام الله (495-524هـ/1101-1129م) ، إذ إنه بعد سنة 515هـ/1121م

(1) الدوّاداري : مصدر سابق ، ص 140 .

(2) ابن دقماق : مصدر سابق ، ص 37 .

(3) ابن عبد الظاهر : مصدر سابق، ص 16 . كذلك المقرئزي : الخطط ، 375/2 . أحمد عبد اللطيف

حنفي : مرجع سابق ، ص195 .

(4) القلقشندي : مصدر سابق ، 363/3 .

(5) ناصر خسرو : سَفَرُ نامة ، ترجمة يحيى الخشاب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط2 (القاهرة ،

1993م) ص109 .

أصبح لهذه الطائفة شأنٌ لدى وزيره المأمون البطائحي^(*)، فأمر لهم بحارة فاخبطوا حارة المصامدة التي عرفت بهم⁽¹⁾. كما كانت لهم حارة أخرى في القاهرة تُدعى بحارة بني سوس نسبةً إلى جماعة منهم عُرفوا بهذا الاسم سكنوا فيها⁽²⁾. ويبدو أن بني سوس كانوا يشكلون جزءاً كبيراً من عدد المصامدة الموجودين في مصر الفاطمية ؛ لدرجة أن كان لهم حارة خاصة بهم وحدهم دون غيرهم من طوائف المصامدة .

4- لواته :

لواته هي إحدى القبائل المغربية ، سميت بلواته نسبة إلى لوا بن زحيك بن ماد غيس الملقب بالأبتر ، ومنه تشعبت بطونهم⁽³⁾. وهي من القبائل المغربية التي استوطنت مصر في العصر الفاطمي، وقيل إن عددهم بلغ في خلافة المستنصر بالله حوالي خمسين ألف رجل⁽⁴⁾. ولم تحدد المصادر التاريخية مساكنهم في مدينة القاهرة ، وإن كان جزء منها قد نزل بالمنوفية واستوطنها⁽⁵⁾.

(*) محمد بن فاتك أبو عبد الله بن أبي شجاع البطائحي . الوزير المأمون. تولَّى الوزارة للأمر سنة 515هـ/ 1121م فَبَحَّ سيرة الأمر وأساءها ، وَلَمَّا كَثُرَ ذلك منه قَبَضَ عليه في رمضان سنة 519هـ/ 1125م واستصفى جميع أمواله ، ثم قتله في شهر رجب سنة 521هـ/ 1127م ، وصلبه بظاهر القاهرة = الصَّفْدي ، خليل بن أيك بن عبد الله : الوافي بالوفيات ، تحقيق أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى ، دار إحياء التراث العربي (بيروت ، 2000م) 222/4 .

(1) ابن عبد الظاهر : مصدر سابق ، ص 133 . كذلك المقرئزي : الخطط ، 408/2 .

(2) المقرئزي : الخطط ، 400/2 .

(3) فاتن محمد البنداري : مرجع سابق ، ص 11 .

(4) السَّجَلَاتُ المُسْتَنْصِرِيَّةُ : سجلات وتوقعات وكتب لمولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين إلى دعاة اليمن وغيرهم قدس الله أرواح جميع المؤمنين ، تحقيق عبد المنعم ماجد ، دار الفكر العربي (القاهرة ، 1954م) سجل (56) ، ص 184 .

(5) المقرئزي : الخطط ، 103 /2 .

5- سنهاجة :

انحدرت سنهاجة من صلب سنهاج بن برنس بن برّ⁽¹⁾. وهي من أكبر القبائل المغربية ، فلا يخلو قطر من أقطار المغرب من بطن من بطونها ، حتى قيل إنّ سنهاجة تبلغ ثلث أمم المغرب⁽²⁾. وقد كان لها دورٌ كبير مع كتامة في نصرة الفاطميين وقيام دولتهم في المغرب⁽³⁾. وعندما انتقل الفاطميون إلى مصر انتقل معهم أعداد كبيرة منهم⁽⁴⁾. يبيد أن المصادر لم تحدد مواطن سكناها فيها .

6- بنو الشعيرة :

بنو الشعيرة طائفة من طوائف المغاربة التي وفدت على مصر ، وكانت هي ومزانة وزيارة وهوارة من أحلاف قبيلة لواته التي نزلت بالمنوفية . وإليهم يُنسب باب الشعيرة أحد أبواب القاهرة⁽⁵⁾.

هذه هي القبائل المغربية التي استوطنت القاهرة في العصر الفاطمي والتي ذكرتها المصادر التاريخية بأسمائها ، وإن كان هناك قبائل وطوائف مغربية أخرى وفدت مع الفاطميين من المغرب ولكن لم تذكرها المصادر بأسمائها وإنما نسبتها إلى إقليمها أو إلى أحد شيوخها أو مُقدّميها أو إلى حادثة ما تعرّضت لها فسُميت بها . وهذه الطوائف هي :

- (1) مارسية : سنهاجة ، دائر المعارف الإسلامية ، ترجمة أحمد الشتاوي ، انتشارات جهان (طهران ، بدون تاريخ) 359/14 .
- (2) فاتن محمد البنداري : مرجع سابق ، ص 9 .
- (3) ابن خلدون : المقدمة ، دار الجيل (بيروت ، بدون تاريخ) ص 173 . كذلك مارسية : مرجع سابق ، 360/14 . عبد الفتاح مقلد الغنيمي : مرجع سابق ، المجلد الأول ، 38/1 .
- (4) المقريري : الخطط ، 410/2 .
- (5) المصدر نفسه ، 103/2 .

1- البرقية :

طائفة من الطوائف المغربية كانت من ضمن عساكر الجيش الفاطمي ، سُميت بالبرقية نسبة إلى إقليمها برقة⁽¹⁾. وقد وفدت هذه الطائفة مع القائد جوهر إلى مصر سنة 358هـ/969م⁽²⁾. وقيل إنما وفدت مع المعز لدين الله سنة 362 هـ / 972م⁽³⁾. وكانت كثيرة العدد فاخترت لها حارة في القاهرة عرفت بـ (حارة البرقية)⁽⁴⁾. وإليها يُنسب باب البرقية أحد أبواب القاهرة⁽⁵⁾.

2- المَحْمُودِيَّة :

إحدى طوائف المغاربة⁽⁶⁾ ، من ضمن عساكر الجيش الفاطمي⁽⁷⁾. وفدت على مصر في أيام العزيز بالله . وقد كانت في القاهرة حارة تسمى حارة المحمودية لعلها منسوبة إلى هذه الطائفة⁽⁸⁾.

3- العدوية :

هي أيضاً إحدى الطوائف المغربية ، وفدت على مصر كإحدى فرق الجيش الفاطمي بصحبة العزيز بالله ، وكانت لها حارة خاصة بها سُميت باسمها⁽⁹⁾.

(1) ابن دقماق : مصدر سابق ، ص 37 .

(2) القلقشندي : مصدر سابق ، 358/3 .

(3) ابن عبد الظاهر : مصدر سابق ، ص 42 . كذلك ابن تغري بردي : مصدر سابق . ، 50/4 .

(4) ابن عبد الظاهر : مصدر سابق ، ص 42 . كذلك القلقشندي : مصدر سابق ، 358/3 . المقرئزي :

الخطوط ، 391/2 . ابن تغري بردي : مصدر سابق ، 50/4 .

(5) أحمد عبد اللطيف حنفي : مرجع سابق ، 159/1 .

(6) فاتن محمد البنداري : مرجع سابق ، ص 34 .

(7) المقرئزي : الخطوط ، 375/2 .

(8) القلقشندي : مصدر سابق ، 357/3 .

(9) فاتن محمد البنداري : مرجع سابق ، ص 34 .

4- الباطلية :

الباطلية لقب لطائفة مغربية وفدت على مصر قبل قدوم المعز إليها ، وهي فرقة من فرق الجيش الفاطمي بلغ عدد فرسائها في عصر المستنصر بالله حوالي خمسة عشر ألف⁽¹⁾. ولا يعرف الاسم الأصلي لهذه الطائفة أو القبيلة بل اُتفقت معظم المصادر الفاطمية على أن تسميتها بالباطلية جاء نتيجة حادثة ظريفة وقعت لها ؛ تتلخص في أن المعز لما جاء إلى مصر وقسم العطاء على الناس جاءت هذه الطائفة وسألت عطاءً فقيل لها : فرغ ما كان حاضراً ولم يبقَ شيء ، فقالوا : "رحنا نحن في الباطل" فسُموا من يومها بالباطلية ، وإليهم تُنسب حارة الباطلية في القاهرة⁽²⁾.

هذه هي أهم القبائل والطوائف المغربية التي وفدت على مصر واستوطنت القاهرة في العصر الفاطمي. وقد كان مغاربة العصر الفاطمي متفاهمين متضامين مع بعضهم بعضاً ، فلا نقرأ عن اشتباكات أو صراعات حدثت فيما بينهم . كما كانوا مُستقرين في سُكناهم مُرتاحين فيها، فقد كانت حاراتهم في القاهرة تتميز بانفصالها عن بعضها بعضاً ؛ بحيث إن سور كل منها أو الجوار لا يقابل الجوار الآخر المجاور له . وكانت هناك مساحات واسعة خضراء بين كل منزل وآخر ، وكان الجامع الأزهر يتوسط كل هذه الحارات فيَسر ذلك على سكانها تأدية الفروض الخمسة داخل المسجد بكل سهولة ويسر⁽³⁾.

(1) ناصر خسرو : مصدر سابق ، ص 109.

(2) ابن عبد الظاهر : مصدر سابق ، ص 42 . كذلك الدواداري : مصدر سابق ، ص 140 . المقرئ : الخطط ، 383/2 . القلقشندي : مصدر سابق ، 3/ 57 . ابن تغري بردي : مصدر سابق ، 49/4 .

(3) فاتن محمد البنداري : مرجع سابق ، ص 35 .

وقد احتفظ المغاربة في مصر بمكانتهم المميزة لدى الفاطميين ولاسيما في السنين الأولى من الحكم الفاطمي لها . فبمجرد دخول القائد جوهر مصر أخذ في تنظيم البلاد اقتصاديا وإدارياً ، وعمل على تثبيت رجال الدولة الفاطمية - المغاربة - فيها وذلك بإشراكهم مع المصريين في أعمالها ودواوينها⁽¹⁾. لذلك لم يدع جوهر "عملاً إلا جعل فيه مغربياً شريكاً لمن فيه"⁽²⁾.

إلا إن تلك المكانة لم تلبث أن تَضَعُضَعَتْ بوفاة المعز لدين الله سنة 365هـ/975م وتولي ابنه العزيز من بعده. فقد أهمل العزيز جانبهم وعمل على اصطناع الأتراك والديلم بدلهم ، فاستكثر منهم وقدمهم وجعلهم خاصته⁽³⁾. ويبدو أن العزيز كان غرضه من ذلك الحد من نفوذهم وسلطتهم التي إذا ازدادت قد تدفعهم إلى التغلب عليه والاستبداد بشؤون البلاد . ولكنه بإدخال عناصر جديدة في دولته يعمل ذلك على إنقاص سلطة المغاربة فيها وإيجاد نوع من التوازن في القوى.

كذلك الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله (411-427 هـ/1020-1035م) ، سار على سياسة جده العزيز ومال إلى الأتراك والمشاركة ؛ فانحط جانب المغاربة أكثر وما زال قدرهم يتناقص حتى كاد يتلاشى. ولما ملك المستنصر بعد أبيه الظاهر استكثرت أمه من العبيد (السودان) في جيش الدولة ، حتى قيل إنهم بلغوا نحواً من خمسين ألفاً. واستكثر هو من الأتراك فأصبح الجند طائفتين كبيرتين تتنافسان وتتسابقان إلى الاستئثار بالنفوذ . وآل التنافس إلى حرب شَقِيَّتْ بها مصر فاضطرَّ

(1) النويري : مصدر سابق ، 28 / 133.

(2) المقريري : اتعاط الحنفا ، 1 / 119.

(3) المقريري : الخطط ، 2 / 390 .

الخليفة إلى استنصار رجال دولته في الشام ، فأتاه أمير الجيوش بدر الجمالي^(*) من عكاً ، وهو أرمي الأصل فصار من حينئذٍ معظم الجيش من الأرمن ، وذهب نفوذ المغاربة وصاروا من جملة الرعية ، ولم يبقَ لهم شأنٌ يُذكر في الدولة بعد أن كانوا وجوهها وأكابر أهلها⁽¹⁾.

المبحث الثاني : الأتراك

الترك أمةٌ قديمةٌ رعوية تتألف من قبائل متعددة سكنت جبال الألباني ، أو جبال الذهب في أواسط آسيا ، بين الصين والهند وسيبيريا ، وتعرف بلادهم باسم تُركستان⁽²⁾.

وعند الفتح الإسلامي لبلادهم لم يدعن الترك للمسلمين إلا بعد حروبٍ طويلةٍ شهدتها سائر أيام دولة بني أمية ، وصدرًا من دولة بني العباس ، فامتلات أيدي العرب من سبيهم ، واتخذوهم في المهن والصنائع⁽³⁾ ، وأدخلوهم في جيوشهم أيضاً.

(*) بدر الجمالي ، تولّى الوزارة للمستنصر سنة 466 هـ/1073 م ، فساس البلاد أحسن سياسة ، وبه انصلح حال الدولة ، وكان وزير السيف والقلم معاً ، واستمرّ في وزارته إلى أن تُوفّي سنة 488 هـ/1095 م بعد مرضٍ ألَمَّ به . = ابن خلّكان : مصدر سابق ، 449/2 - 450 .

(1) المقرئزي : الخطط ، 2 / 391 . كذلك جرجي زيدان : مرجع سابق ، المجلد الثاني ، 4 / 503 .

(2) كيرة ، نجوى : حياة العامة في مصر في العصر الفاطمي (358-567 هـ/969-1171 م) ، مكتبة زهراء الشرق (القاهرة ، 2004م) ، ص 84 ، هامش (1) .

(3) البستاني ، بطرس : الترك ، كتاب دائرة المعارف ، مطبعة المعارف (بيروت ، 1882م) 6 / 95 .

وقد عرفت مصر العنصر التركي منذ أيام الدولة الطولونية (25-292 هـ -868/904م) ؛ حيث إنَّ مؤسسها أحمد بن طولون (254-270 هـ /868-883م) هو " أوَّل من جَلَب المماليك التُّرك إلى الديار المصرية ، واستخدمهم في عسكرها "(1). فبلغ عددهم في جيشه على ما يزيد على أربعة وعشرين ألف جندي(2).

ولمَّا دالت الدولة الطولونية ، وقامت الدولة الإخشيدية (323-358 هـ -934/968م) ، اعتمد محمد بن طغج الإخشيدى- هو الآخر - في جيشه على المماليك الأتراك والديلم(3) واستكثر منهم ، فبلغت عدَّة ذلك الجيش بمصر والشام أربعمئة ألف جندي(3). بالإضافة إلى حرسه الخاص الذين بلغ عددهم ثمانية آلاف مملوك(4). وكان لكافور الإخشيدى في أُخْرِيَّات أيامه طائفة من الغلمان خاصِّين به تتكون من ألفٍ وسبعين تركياً ، عدا الروم والمولدين(5).

ولمَّا أقام الفاطميون دولتهم في مصر، كانوا في حاجة ماسَّة إلى جيش كبير ليُوطِّدوا به أركانها وليُعيَّنهم في تنفيذ ما اعتمروه من مد سلطاهم إلى بلاد الشرق(6). فكان جيشهم في أوائل دولتهم يتكون معظمه من العناصر المغربية ، من قبيلة كُتامة وغيرها من القبائل المغربية الأخرى . إلاَّ أنَّهم لم يلبثوا أن ساروا على

(1) القلقشندي : مصدر سابق ، 428/3 .

(2) ابن عبد الظاهر : تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ، تحقيق مراد كامل ، الشركة العربية للطباعة والنشر (القاهرة ، 1961م) ص 34 (من مقدمة المحقق). كذلك المقرئري : الخطط ، 1 / 271 .

(*) عن الديلم يُنظر : ص 88 من هذا الكتاب .

(3) ابن عبد الظاهر : تشریف الأيام والعصور ، ص 34 . كذلك المقرئري : الخطط ، 1 / 271 .

(4) النويري : مصدر سابق ، 28 / 49 .

(5) المقرئري : الخطط ، 2/425 .

(6) ابن عبد الظاهر : تشریف الأيام والعصور ، ص 34 .

نُحج الطولونيين والإخشيديين في الاعتماد على المالكي في جيوشهم⁽¹⁾. فأدخلوا عليها العنصر التركي وغيره من العناصر الشرقية. فكان الخليفة العزيز بالله " أول من اتخذ منهم الأتراك واصطنعهم وجعل منهم القواد"⁽²⁾.

وقد سكن الأتراك في العصر الفاطمي في مدينة القاهرة في حارة عرفت بحارة الأتراك ، كما عرفت أيضاً بدرب الأتراك ، وهي تجاه الجامع الأزهر ، وكانت نافذاً إلى حارة الديلم . وأول من نزلها أفتكين المعزّي⁽³⁾ بجنده الأتراك سنة 368 هـ / 978م ، لدى عرفت بهم⁽³⁾.

وكان للأتراك ظهور واضح في الدولة منذ اصطناعهم فيها ولاسيما في أيام الوزير ابن كلّس^(*)، الذي عمل على إذلال المغاربة وقهرهم وقدم عليهم الأتراك⁽⁴⁾. وفي خلافة الحاكم بأمر الله ووساطة ابن عمّار ضعف حالهم ؛ إذ إنّ ابن عمّار حطّ من مراتبهم وقطع أكثر الرسوم والأرزاق التي كانت تُطلق لهم ،

(1) عاشور ، سعيد عبد الفتاح : العصر المالكي في مصر والشام ، دار النهضة العربية (القاهرة ، 1965م) ص 2 .

(2) المقريري : اتعاظ الحنفا ، 294/1 .

(*) أفتكين المعزّي ، غلام المعز بن بويه الديلمي (334 / 356 هـ - 945 / 966م) . كان قد تغلب على الشام أيام المعز الفاطمي وقاتل القائد جوهرًا واستنصر بالقرامطة ، فخرج إليه العزيز بالله وأسرّه في الرملة وقدم به إلى القاهرة وبدلاً من أن يضطهده أجزل له العطاء وأنزله هو وأصحابه فيها = القلقشندي : مصدر سابق ، 358/3 .

(3) المقريري : الخطط ، 387 / 2 .

(**) أبو الفرج يعقوب بن يوسف إبراهيم بن كلّس. كان يهودياً ثم أعلن إسلامه، اتصل بالمعز الفاطمي وهو ببلاد المغرب ، وجاء معه إلى مصر ، ولم يزل يترقى في الدولة الفاطمية إلى أن تولّى الوزارة للعزيز سنة 368 هـ / 978 م ، وكانت وفاته سنة 380 هـ / 990م بالقاهرة. = ابن خلكان : مصدر سابق ، 27/7 - 29 ، 34 .

(4) المقريري : اتعاظ الحنفا ، 261/1 .

واصطنع بدلهم أحداث المغاربة الذين كثر عتيتهم وشرهم في البلد ، فامتدت أيديهم إلى الناس في الطرقات وغيرها ينتهبون أشياءهم . واستمروا على ذلك إلى أن اشتعلت الفتنة بينهم وبين الأتراك⁽¹⁾. تلك الفتنة التي كان من نتائجها بداية أفول نجم المغاربة في الدولة وازدياد قوة العنصر التركي فيها .

وكان السبب في هذه الفتنة أن جماعة من المغاربة تعرّضوا لبعض الأتراك في الطريق محاولين أخذ ثيابهم ، فنار لذلك قتال بين الطرفين نتج عنه مقتل أحد المغاربة و غلام من الأتراك. فازداد لهيب الفتنة بينهم واجتمع أكابر الطائفتين ودخلوا في حرب قتل فيها الكثير ، واقتتلوا لمدة يومين وفي اليوم الثالث ركب ابن عمّار لابساً آلة الحرب وحوله المغاربة ، واجتمع الأتراك واشتدت الحرب بينهما وازداد عدد الجرحى والقتلى بين الطرفين⁽²⁾، واستمر القتال إلى أن انتهى بهزيمة ابن عمّار⁽³⁾، الذي اضطر للانسحاب والعودة إلى داره . وجاء برّجوان^(*) ليصلح الأمر ، ولكن الأتراك ثاروا وركبوا إلى دار ابن عمّار للفتك به ولكنه نجا بنفسه وهرب إلى داره الأخرى بالفسطاط . وفي هذه الأثناء انبسطت أيدي المغاربة وأحداث الغلمان والنّهابة والعامّة ، فانتهبوا دار ابن عمّار وإسطبلاته وأخذوا ما لا يحصى

(1) المقرئبي : الخطط ، 444/2-445 . كذلك المقرئبي : المقفى الكبير ، 439/3 .

(2) المقرئبي : اتعاط الحنفا ، 12/2 .

(3) ابن القلانسي ، أبو يعلى حمزة : ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق هـ ف آمدروز (بيروت ، 1908م) ص49 (أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد) .

(*) الأستاذ أبو الفتوح برّجوان ، الذي تُنسبُ إليه حارة برّجوان بالقاهرة . كان من خُدّام العزيز بالله ومُدبّرِي دولته . نظر في أيام الحاكم سنة 388 هـ / 998م في ديار مصر والحجاز والشام والمغرب وأعمال الحضرة (القاهرة) ، وتُوفّي مقتولاً سنة 390 هـ / 998م في القصر الخلافي بالقاهرة بأمر من الخليفة الحاكم نفسه . = ابن خلكان : مصدر سابق ، 270/1 .

عدده⁽¹⁾. أما ابن عمّار فانتهى به الأمر مقتولاً سنة 390 هـ / 999م، وهو عائد من القصر الخلافي على يد جماعة من الأتراك أعدوا لذلك⁽²⁾.

وعلى الرغم من هذا النصر الذي حققه الأتراك ومن ازدياد قوتهم في الدولة - ولاسيما بعد تولية برجوان الذي زاد من عطاياهم واستخدمهم في القصر - إلا أن التنافس بينهم وبين المغاربة لم ينته، واستمرت الفتن دائرة فيما بينهم إلى خلافة الظاهر لإعزاز دين الله. ففي سنة 420 هـ / 1029م قامت فتنة بين الطائفتين قتل فيها الكثير، وكان الظفر فيها باديء الأمر للأتراك، ولكن المغاربة لم يلبثوا أن تقوّوا بمعاونة العامة لهم، فانتصروا على الأتراك، وقتلوا الكثيرين منهم وقاموا بإخراج بقيّتهم من المدينة. إلا أن الأمور لم تلبث أن هدأت بينهم بفضل جهودات الخليفة الظاهر، الذي كان كثير الميل إلى الأتراك، فبعث إليهم بالصلح ومَشَى الدعاة بينهم إلى أن اصطلحوا⁽³⁾.

وفي خلافة المستنصر بالله أصبح للأتراك كلمة مسموعة في الدولة، حيث إن المستنصر استكثر منهم وقرّبهم إليه. إلا أنهم لاقوا منافسةً شديدة من السودانيين، الذين كانوا يتحصّلون على دعم وتأييد من أم الخليفة نفسه^(*). لذلك شهد عصر

(1) المقرئزي: اتعاظ الحنفا، 13/2. كذلك المقرئزي: المقفى الكبير، 440/3.

(2) المقرئزي: الخطط، 445/2. كذلك المقرئزي: المقفى الكبير، 440/3.

(3) المقرئزي: اتعاظ الحنفا، 177/2.

(*) وذلك لأن أم المستنصر كانت أمة سوداء فعلت على الاستكثار من بني جلدتها على حساب المماليك الأتراك. فأخذت في شرائهم وجعلتهم طائفة لها وخصّتهم بالنظر وبسطت لهم الرزق ووسعت عليهم وأمطرتهم بالنعم "حتى صار العبد بمصر يحكم حكم الولاة". = المقرئزي: اتعاظ الحنفا، 267/2.

المستنصر تنافساً كبيراً بين هاتين الطائفتين أدّى إلى سلسلة من الفتن والقلاقل والحروب الدامية⁽¹⁾.

وقد اندلعت الشرارة الأولى بينهما في سنة 454 هـ/1062م ، وذلك عندما خرج المستنصر ومعه جماعة من العبيد (السُّودان) والأتراك إلى جُبِّ عُمَيْرَة^(*) للترهة فحدث أن جرّد أحد الأتراك سيفاً في سكرة منه على بعض العبيد ، فاجتمع عليه عدّة منهم وقتلوه⁽²⁾. فغضب لذلك الأتراك واجتمعوا بأسرهم ودخلوا على المستنصر وقالوا له : "إن كان هذا الذي قُتِلَ مِنَّا عن رضاك فالسمع والطاعة وإن كان قتله عن غير رضا أمير المؤمنين فلا صبر لنا على ذلك"⁽³⁾. فأنكر المستنصر أن قتله كان برضاه أو بأمره. فخرج الأتراك عندئذ يطلبون العبيد، ودخل الفريقان في حروب كثيرة بناحية كُومِ شريك^(**) قتل فيها الكثير منهما ، وانتهت بانتصار الأتراك وهزيمة العبيد⁽⁴⁾.

(1) المقرئزي : الخطط ، 391/2 .

(*) جُبِّ عُمَيْرَة : نسبة إلى عُمَيْرَة بن تميم بن جزء التحيبي . وهو موضع بالقرب من القاهرة يبرز إليه الحجاج عند خروجهم من مصر إلى مكة، لذلك عرف أيضاً ببركة الحجاج . = ياقوت الحموي : مصدر سابق ، 100/2 . كذلك المقرئزي : الخطط ، 752/2 .

(2) ابن مُيسَّر ، تاج الدين محمد بن علي بن يوسف بن جَلَب رَاغِب : المنتقى من أخبار مصر ، حَقَّقَه وكتب مقدمته وحواشيه ووضع فهرسه أيمن فؤاد سيّد ، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية (القاهرة، 1981م) ص 24 . كذلك النويري : مصدر سابق ، 224/28 - 225 .

(3) المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، 265/2 .

(**) كُومِ شَرِيك : موضع بالقرب من القاهرة، عرف بشريك بن سمى بن عبد يغوث بن جزء المرادي القطيفي ، من أصحاب رسول الله (ﷺ)، كان على مقدمة جيش عمرو بن العاص عند فتح الإسكندرية = المقرئزي : الخطط ، 515/1 .

(4) ابن ميسر : مصدر سابق ، ص 24-25 . كذلك المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، 265/2 - 266 .

وعلى الرغم من انكسار العبيد في هذه الحروب إلا أن الفتن بينهم وبين الأتراك لم تنته وظلت مستمرة إلى سنة 459هـ/1066م . وفي أثناء ذلك قويت شوكة الأتراك واشتد بأسهم وطلبوا الزيادة في واجباتهم ورواتبهم في حين ضاقت الأحوال بالعبيد وساءت . ولكن هذا الوضع لم يرض أم المستنصر فعملت جاهدة على الاستكثار منهم وساعدتهم بالأموال والسلاح، وأمرتهم بالاستعانة بزملائهم من شبرا دمنهور ، والتجمع في الجيزة لمحاربة الأتراك⁽¹⁾.

ولكن الأتراك تمكنوا بزعامة ناصر الدولة الحسين بن حمدان^(*) من هزيمة السودان وتبع فلولهم من الجيزة حتى الصعيد . ولم يلبث العبيد أن تجمعوا وقاموا بإعادة تنظيم أنفسهم وبلغ عددهم نحو خمسة عشر ألف ما بين فارس وراجل وتمكنوا من مفاجأة الأتراك وتوجيه ضربة قوية لهم. ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد إذ قرّر ابن حمدان -رداً لهزيمته هذه- أن يتتبع العبيد الموجودين بالقاهرة وأن ينتقم منهم ، فأسرف في القتل فيهم حتى لم يبق بمصر والقاهرة منهم إلا القليل⁽²⁾ . وواصل ابن حمدان حملة انتقامه هذه ، فرحل إلى الإسكندرية لتتبع بقية العبيد الموجودين فيها ، فتمكّن من محاصرتهم وضيق الخناق عليهم ، حتى أجبرهم على طلب الأمان ، فأمنهم وأسند أمرهم إلى من يثق به⁽³⁾.

(1) ابن ميسر : مصدر سابق ، ص 31 . كذلك المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، 273/2 .

(*) الحسين بن الحسن بن الحسين بن عبد الله التغلبي الحمداني ، ناصر الدولة الملقب سلطان الجيوش . كان من أسرة بني حمدان التي كانت قاعدة ملكها بالموصل ، ولما انقرضت دولتهم دخل أهل ناصر الدولة هذا في خدمة العزيز بالله ، وقد قُتل ناصر الدولة بمؤامرة في رجب سنة 465 هـ/ 1072م على ما سأذكر في الصفحات التالية = المقرئزي : المقفى الكبير ، 357/3 ، 500 ، 504 .

(2) ابن ميسر : مصدر سابق ، ص 31-32 . كذلك ابن الأثير : مصدر سابق ، 398/8 .

(3) ابن ميسر : مصدر سابق ، ص 32 . كذلك النويري : مصدر سابق ، 227/28 . المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، 274/2 .

أما بقية العبيد فقد سيطروا على الصعيد وأفسدوا فيه وضيّقوا على الناس ، فتوجه إليهم ابن حمدان سنة 460 هـ/1067م للقضاء على شرورهم ، ولكنهم تكاثروا عليه وهزموه عند الجيزة ، فاتهم الأتراك المستنصر بأنه هو الذي ساعدهم وقوّى شكيمتهم ، لكنه أنكر ذلك ، فاجتمع الأتراك مرة ثانية ، وتوجهوا لمقاتلة العبيد واستطاعوا كسر شوكتهم وهزيمتهم ، وقتلوا منهم أعداداً غفيرة ، بحيث لم ينجُ منهم إلا القليل ، فانتهى بذلك أمرهم في هذا العصر⁽¹⁾.

وقد أدى انتصار الأتراك هذا إلى سيطرتهم على أجهزة الحكم في البلاد، وبرز قائدهم ناصر الدولة ابن حمدان الذي اتّصف بالطموح السياسي والترعات السلطوية ، ويبدو أنه كان يسعى لتقويض أركان الدولة الفاطمية التي قضت على ملك بني حمدان في شمال بلاد الشام . فأخذ في الإساءة في معاملة المستنصر وطالبه بزيادة مرتبات جنوده وضغط عليه حتى استجاب له وكان ذلك في سنة 460 هـ /1067م ، فارتفعت من ثمان وعشرين ألف دينار شهرياً إلى أربعمئة ألف دينار⁽²⁾.

وعلى الرغم من ذلك لم يقنع الأتراك بالمرتبات التي خُصّصت لهم ، وألحوا على المستنصر في زيادتها، فاعتذر لهم عن عجزه عن تلبية طلباتهم لقلة إيرادات الدولة. فألزموه على بيع ذخائره وذخائر آبائه. فأخرجها إليهم وقوموها على

(1) ابن ميسر : مصدر سابق ، ص 33/32 . كذلك النويري : مصدر سابق ، 227/28 . المقرئبي : اتعاط الحنفا ، 276/2 .

(2) النويري : مصدر سابق ، 227/28 . كذلك طقوش ، محمد سهيل : تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقية ومصر وبلاد الشام ، دار النفائس (بيروت ، 2001م) ص 336 .

أنفسهم بأبخس الأثمان⁽¹⁾. واستمروا في مطالبته على أن يبيع ما في خزائنه للإنفاق عليهم^(*)، وكانوا يطلبون ذلك شيئاً فشيئاً "حتى أمست خزائنه من المال بُلُغاً"⁽²⁾. وعلى الرغم من خلو الخزائن من الأموال والذخائر وغيرها، إلا أن الأتراك لم يكتروا لذلك ولم يكفوا عن مطالبتهم بالنفقات. فمات لهم المستنصر لعدم قدرته على توفير ما يطلبون. فقاموا بالهجوم على التربة التي بالقصر^(**)، فأخذوا ما فيها من قناديل الذهب، وكانت قيمتها مع ما اجتمع إليهم من الآلات الموجودة هناك من مداخن ومجامر وحلي المحاريب وغير ذلك خمسين ألف دينار⁽³⁾. وهكذا وصل الأتراك إلى قمة نفوذهم وسلطتهم في الدولة بقيادة ناصر الدولة بن حمدان، إلى درجة أنهم صاروا يتحكمون في مصير الخليفة نفسه. إلا أن

(1) ابن ميسر : مصدر سابق ، ص 32 . كذلك النويري : مصدر سابق ، 227/28 . المقرئزي : اتعاط الحنفا ، 275/2 - 276 .

(*) كان الذي أُخْرِجَ من خزائن المستنصر - من التحف والذخائر والمتاع والحلي وغيره - واستولى عليه الأتراك مما يثير العجب والدهشة من كثرته وتنوعه ونفاسته وغناه . وقد عبّر عن ذلك القاضي الرشيد بن الزبير الذي كان معاصراً للأحداث بقوله : "... فإنه لم يخرج بمثله فيما تقدم من الدول منذ ظهور الإسلام إلى وقتنا هذا نفاسةً وجلالةً وغرابةً وكثرةً وحسنًا وملاحقةً وجودةً وسناءً قيمةً وغلةً فمن". وليبيان تفصيلي عن هذه الذخائر التي أُخرجت من خزائن المستنصر يُنظر: ابن الزبير ، الرشيد أبو الحسن أحمد بن الرشيد : كتاب الذخائر والتحف ، تحقيق محمد حميد الله ، مطبعة حكومة الكويت (الكويت ، 1984م) ص 250-263 . كذلك حسن ، زكي محمد : كنوز الفاطميين ، دار الرائد العربي (بيروت ، 1981م) ص 37-64 .

(2) السجلات المستنصرية : مصدر سابق ، سجل (55) ، ص 183 .

(**) كانت هذه التربة من جملة القصر الكبير وتُسمى بالتربة المُعزّية وتُعرف أيضاً بتربة الزعفران . وفيها دَفَنَ المعز لدين الله آباءه الذين أحضرهم في توابيت معه من بلاد المغرب ، واستمرت هذه التربة مدفناً يُدْفَنُ فيه الخلفاء الفاطميون وأهاليهم إلى سقوط دولتهم . = المقرئزي : الخطط ، 161/2 .

(3) المقرئزي : اتعاط الحنفا ، 292/2 . كذلك المقرئزي : الخطط ، 162/2 .

الوحشة لم تلبث أن دبَّت بين ناصر الدولة وبين الأتراك ؛ بسبب استبداده بالأمر دونهم واستثثاره بالأموال ، فجعلهم ذلك يسعون إلى الخلاص منه فرفعوا شكواياتهم من تصرفاته إلى خطير الملك^(*) وزير المستنصر . ولما تحقق هذا الوزير من صدق قولهم لامهم على انضمامهم إليه أول الأمر ، ثم حسَّن لهم الخروج عليه ومناهضته ، فتوجهوا إلى المستنصر وأظهروا له استيائهم من ناصر الدولة ، وطلبوا منه أن يخرجهم من الديار المصرية، فبعث إليه المستنصر يأمره بالرحيل عن مصر، ويهدِّدهُ بِالْحَقِّ الأذى به إن امتنع عن الخروج منها. فسار ناصر الدولة إلى الجيزة، ثم عاد من ليلته إلى دار القائد تاج الملوك شاذي^(**) بالقاهرة ، وقَدَّم له فروض الطاعة وطلب منه أن يعاونه على التخلص من خطير الملك وإلْدِكِر^(***) لاعتقاده أنهما كان السبب في حمل الأتراك على مناهضته ، وكذلك اضطهاد المستنصر له . فوعده تاج الملوك بتنفيذ رغبته ، وأخذ يَتَحَيَّنُ الفرصة إلى أن تَمَكَّن من قتل خطير الملك، أمَّا إِدِكِر فقد التجأ إلى قصر المستنصر واستجار به وأخذ يجرِّضه على قتال ناصر الدولة. فلقي هذا القول قبولاً من الخليفة، فخرج على رأس عدد كبير من الجند

(*) محمد بن الحسن بن علي بن عبد الرحمن أبو الحسن ، القاضي الأجل خطير الملك وأمينه ، وهو ابن الوزير الناصر لدين الله أبو محمد البازوري (442 - 450هـ / 1050 - 1058م) تولى الوزارة والقضاء معاً للمستنصر في صفر 461 هـ / 1068م وصُرف عنهما في شوال من السنة نفسها . = المقرئزي : المقفى الكبير ، 549/5 - 550 .

(**) تاج الملوك شاذي ، أمير الأمراء من القادة الأتراك الذين شاركوا في التضييق على المستنصر ونهب خزائنه ، وقد انتهى مصيره على يد ناصر الدولة ابن حمدان . = المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، 282/2 ، 292 ، 306 .

(***) أسد الدولة إِدِكِر ، كان شيخ الأتراك والمقدم عليهم . تزوج ابنة ناصر الدولة ، ولم يمنع هذا من أن يُدبِّر كل منهما المكائد للآخر . = المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، 279/2 . وإِدِكِر هذا هو الذي قتل ناصر الدولة سنة 464 هـ / 1071م = النويري : مصدر سابق ، 232/28 .

والعامة ، وألحق بناصر الدولة هزيمة ساحقة؛ فمضى منهزماً في نفر قليل من أصحابه إلى إقليم البحيرة، حيث انضم إليه فريق من الأعراب⁽¹⁾.

وعلى الرغم من الانتصار الذي حققه المستنصر بفضل مساعدة بعض الجند الذين ظلوا على ولائهم له ، إلا أن سلطته كانت لا تتعدى حدود عاصمته ؛ إذ إن بقية البلاد كانت تحت رحمة المشاغبيين من بقايا السودان من جهة ، وقبيلة لواته وبقية المغاربة من جهة أخرى، هذا عدا المناطق التي سيطر عليها ناصر الدولة . ومما زاد الحالة سوءاً تلك المجاعة^(*) التي حلت بالبلاد والتي بدأت بانخفاض النيل سنة 457 هـ / 1064م واستمرت لسبع سنين قلت فيها الأقوات بالقاهرة ومصر وغلت فيها الأسعار ، وأصابت فيها الفاقة الناس ، وعانى منها كبار رجال الدولة مثلما عانى منها الفقراء تماماً . الأمر الذي اضطر بعض أصحاب النفوذ والأعيان إلى مغادرة مصر والرحيل عنها إلى بلاد الشام والعراق⁽²⁾.

أدرك الجند الأتراك فداحة ما حل بهم وبالخليفة المستنصر من الشدائد المتمثلة في الضائقة الاقتصادية والمجاعات من جهة ، وإلى ضغط ناصر الدولة عليهم من

(1) ابن ميسر : مصدر سابق ، ص 33-34 . كذلك ابن الأثير : مصدر سابق ، 399/8 . النويري : مصدر

سابق ، 227/28-229 . محمد جمال الدين سرور : مرجع سابق ، ص 103-104 .

(*) عُرِفَت هذه المجاعة في الكتب العربية باسم "الشدّة العظمى" أو "الشدّة المستنصرية". وهي أشد المجاعات التي حلّت بمصر زمن الفاطميين ، ويقال إنه لم يحدث مثلها منذ زمن سيدنا يوسف عليه السلام . ولمعرفة أسباب هذه الشدة ، والأضرار التي صحبتها ، وأحوال الناس فيها يُنظر : المقرئزي : إغاثة الأمة بكشف الغمّة ، تحقيق محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، ط3 (القاهرة ، 2002م) ص 24-27 . كذلك الصّاوي ، أحمد السيد : مجاعات مصر الفاطمية (أسباب ونتائج) ، دار التضامن (بيروت ، 1988م) ص 50-68 .

(2) محمد جمال الدين سرور : مرجع سابق ، ص 104-105 .

جهة أخرى ؛ حيث قام بقطع المؤن والإمدادات عن القاهرة والفسطاط⁽¹⁾، كما كان قد أرسل إلى السلطان السلجوقي ألب أرسلان (455-465هـ / 1063/1072م) ملك العراق سنة 462هـ / 1069م ، يسأله أن يُسّر إليه عسكرياً من قبّله ليقوم بالدعوة العباسية، على أن تؤول إليه السيادة على مصر . فرحّب ألب أرسلان بذلك غير أنّه ما لبث أن شغل بمحاربة الروم عن المسير إلى دمشق - التي كان يُخطب فيها للفاطميين - ثم إلى مصر⁽²⁾.

إزاء هذه الظروف رأى الأتراك أن يصلحوا ابن حمدان على أن يظل مقيماً بالبحيرة ، في حين يُحمل إليه مبلغ مقرر من المال ويكون تاج الملوك شاذي نائباً عنه في القاهرة . فرضي ابن حمدان بذلك وأرسل الغلال إلى القاهرة مما أدى إلى توفر القوات الضروري للسكان⁽³⁾. على أن تاج الملوك شاذي ما لبث أن استبدّ بالأمر في القاهرة سنة 464هـ / 1077م ونقض الصلح مع ناصر الدولة وخفّض ما كان يُرسَله إليه من الأموال . فاستاء هذا الأخير فزحف بمجموعة من العربان إلى الجيزة واستدعى إليه تاج الملوك وبعض المقدمين من رجال الدولة فخرجوا للقائه، فقبض عليهم ثم قام بنهب الفسطاط وحرّقها . فبعث إليه المستنصر عسكرياً استطاع هزيمته، فرجع بمن معه إلى البحيرة ، وهناك قطع الخطبة عن المستنصر، وبعث إلى الخليفة العباسي القائم بأمر الله (42-467 هـ / 1030-1074م) ببغداد يلتمس منه الخلع والألوية السوداء⁽⁴⁾.

(1) محمد جمال الدين سرور : مرجع سابق ، ص 104 . كذلك محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص 237 .

(2) ابن ميسر : مصدر سابق ، ص 35-36 .

(3) المصدر نفسه ، ص 37 . كذلك النويري : مصدر سابق ، ص 28/230 . المقرئزي : اتعاط الحنفا ،

305/2 . محمد سهيل طقوش : مرجع سابق، ص 338.

(4) ابن ميسر : مصدر سابق ، ص 38 . كذلك المقرئزي : اتعاط الحنفا ، ص 2/306 .

ولم تمضِ شهور كثيرة حتى استطاع ناصر الدولة السيطرة على مصر ، ثم استولى على القاهرة واستبدَّ بالأمور فيها ، وبالغ في إهانته المستنصر وأهله مبالغة عظيمة، واستولى على أموالهم وممتلكاتهم؛ مما اضطرَّ الكثير منهم إلى التروح إلى المغرب والعراق ، وقيل إن أمَّ المستنصر فرَّت إلى بغداد⁽¹⁾. فخشي الأتراك على أنفسهم من استبداد ناصر الدولة، وإقامته الدعوة للعباسيين، ومحاولته القضاء على الخلافة الفاطمية . فاجتمع بهم إِدِكِزٌ وَبَلْدَكُوزٌ^(*) وأعلماهم بأنَّه إن تحقق لناصر الدولة ما يريد ، فلن يُبقي على أحد منهم، لذلك اتفقوا على قتله فذهبت جماعة منهم إلى داره في رجب سنة 465 هـ / 1072م وانقضوا عليه بسيفهم واجتزوا رأسه ولم يكتفوا بذلك فقط بل تتبعوا كل أفراد أسرة بني حمدان بمصر وتخلصوا منهم، فانقطع ذكرهم من البلاد⁽²⁾.

بعد مقتل ابن حمدان تَفَسَّحَ لِإِدِكِزٍ وَبَلْدَكُوزٍ المجال وظهرت عندئذٍ نواياهم تجاه المستنصر ودولته . فاستبدوا بالأمور دونه وغالوا في التضيق عليه ، وبلغت

(1) ابن ميسر : مصدر سابق ، ص 38 . كذلك ابن ظافر الأزدي ، أبو الحسن علي بن أبي المنصور : أخبار الدول المنقطعة ، تحقيق عصام هزيمة ومحمد محافظة ومحمد طعيان وعلي عبابنة ، دار الكتب والوثائق القومية (القاهرة ، 1969م) ص 224 . النويري : مصدر سابق، 232/28 .

(*) من أكابر الأتراك . دَبَّرَ مع إِدِكِزٍ مؤامرة اغتيال ناصر الدولة، ولَمَّا تمكن من ذلك اشتدت شوكته ومن معه وَضَبَّقُوا الخناق على المستنصر ، واستمروا في ذلك إلى أن انتهى مصيره مع غيره من الأتراك على يد بدر الجمالي . = ابن ميسر : مصدر سابق ، ص 39-40 .

(2) المصدر نفسه ، ص 39 . كذلك المقرئزي : اتعاظ الخنفا ، 310/2 . محمد جمال الدين سرور : مرجع سابق ، ص 107 . محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص 339 .

سيطرة إلكز ونفوذ حداً مكنه من فرض حظر الدخول إلى القاهرة أو الخروج منها ولعله سعى إلى الملك أيضاً⁽¹⁾.

أيقن المستنصر أن مصير خلافته في مهب الرياح ، فقد تحالف عليه الأتراك بعد فناء معظم السودان والمغاربة ، واستبد به اليأس فلم يجد حلاً لهذه الأزمة إلا استدعاء قائده بدر الجمالي من عكا لعله يستطيع إنقاذه من تسلط إلكز والأتراك عليه. فقبل بدر المهمة شريطة أن يقدم بعسكر معه من الشام ، وأن لا يبقى على أحد من عساكر مصر أو وزرائها. فأجابهُ المستنصر إلى ذلك⁽²⁾.

سار بدر إلى مصر ومعه جنوده في مائه مركب سنة 466هـ / 1073م ، واستمرت رحلته أربعين يوماً في البحر إلى أن وصل دمياط ، ومنها نزل إلى قليوب^(*) بالقرب من القاهرة ومن هناك أرسل إلى المستنصر يطلب منه القبض على بلدكوز حتى يتمكن من دخول القاهرة ، فبادر المستنصر إلى ذلك⁽³⁾.

عندها دخل بدر القاهرة يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الأولى، وقام بإرسال كل أمير من أمرائه إلى قائد من قواد الدولة ليلاً ، وأمره أن يأتيه برأسه فلم

(1) عبد المنعم ماجد : ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر (التاريخ السياسي) ، دار الفكر العربي ، ط 4 (القاهرة ، 1994م) ص 324 .

(2) ابن ميسر : مصدر سابق ، ص 40 . كذلك النويري : مصدر سابق ، 235/28 . المقرئزي : اتعاط الحنفا ، 311/2 .

(*) قليوب : مدينة عظيمة من أعمال مصر يقال إنه كان بها ألف وسبعمائة بستان ، وبها أنواع كثيرة من الفواكه. وهي من عمل هامان وزير فرعون = القرماني ، أحمد بن يوسف بن أحمد : أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ ، تحقيق فهي سعد وأحمد حطيط ، عالم الكتب (بيروت، 1992م) 436/3- 437 .

(3) ابن ميسر : مصدر سابق ، ص 40 . كذلك النويري : مصدر سابق ، 235/28 . المقرئزي : اتعاط الحنفا ، 311/2- 312 .

يصبح الصبح إلا وأحضر إليه رؤوس الكثيرين منهم. ثم أخذ بدر بعد ذلك في تتبع بقية الأتراك والقبض عليهم ، حتى لم يدع منهم أحداً يشار إليه⁽¹⁾. هكذا كان حال الأتراك مع الفاطميين - كما كان حالهم مع العباسيين قبلهم- وُجدوا في الدولة كجند وقواد مصطنعة ، ولكنهم لم يلبثوا أن استبدوا بشؤونها وتحكموا في دقائقها . ولو لم يتدارك المستنصر الأمر - باستدعائه بدر الجمالي - لربما حدث للفاطميين ما حدث للعباسيين في بغداد في العصر العباسي الثاني (232 - 334 هـ / 846 - 945م) من استبداد الأتراك عليهم ؛ حيث سيطروا على خلفائهم سيطرةً تامة وصاروا يتحكمون في مصائرهم فيولون من يريدون ويعزلون من لا يريدون مستخدمين في ذلك كل الوسائل ولاسيما غير الإنسانية منها ، المتمثلة في الاضطهاد والتعذيب والسجن ، بل والقتل أيضاً .

المبحث الثالث : السودان

السُّودان في اللغة هم السُّود⁽²⁾، وتُطلق أيضاً على بلاد السود⁽³⁾؛ فقد أطلق العرب لفظة (بلاد السودان) على الجهات الأفريقية التي تسكنها الجماعات سود

(1) ابن ميسر : مصدر سابق ، ص 40 . كذلك النويري : مصدر سابق ، 235/28 . المقرئبي : اتعاط الحنفا ، 312/2 . الصاوي : مرجع سابق ، ص 60 .

(2) ابن منظور : مصدر سابق ، 224/3 . كذلك الزبيدي ، مُحِب الدين أبو الفيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي : تاج العروس من جواهر القاموس ، تحقيق عبد العزيز مطر ، وزارة الإرشاد والأبناء ، ط 2 (الكويت ، 1994) 226/8 . البُستاني ، بطرس : محيط المحيط ، مكتبة لبنان (بيروت ، بدون تاريخ) 1022/1 . (نسخة طبق الأصل طُبعت بطريقة "الفوتو أوفست" عن طبعة بيروت ، 1870م) .

(3) شَقِيرٌ ، نَعُومٌ : جغرافية وتاريخ السودان ، دار الثقافة (بيروت ، 1967م) 9/1 . كذلك شلبي ، أحمد : موسوعة التاريخ الإسلامي ، مكتبة النهضة المصرية ، ط 11 (القاهرة ، 1999م) 621/6 .

البشرة ، والتي يحدها شمالاً مصر والصحراء الكبرى ، وجنوباً المقاطعات البحرية على شاطئ أفريقيا الغربي وحوض الكونغو والبحيرات الاستوائية ، وشرقاً الحبشة ومرتفعات الجبال⁽¹⁾.

وقد عرفت مصر العنصر السوداني منذ القدم ، ولكن ابتداءً ظهورهم واضحاً فيها زمن الطولونيين ، حيث إن أحمد بن طولون لما أسس دولته في مصر عمل على تقويتها بإنشاء جيش كبير ، فأخذ في شراء العبيد من مختلف الجنسيات وتجنيدهم فكان منهم العبيد السودان⁽²⁾.

ولما كثرت عساكر ابن طولون ، وضافت السُّكُنَى بهم في مصر عمل على اختطاط مدينة القطائع ، وبنى فيها قصره والميدان ، وسرَّح لأصحابه وأتباعه وعساكره أن يَخْتَطُّوا لأنفسهم حوله ، فَقَطَّعَت القطائع وسميت كل قطيعة باسم من سكنها ، فكانت للسودان قطيعة فيها عرفت بـ "قطيعة السودان"⁽³⁾ . وقد استمر ابن طولون في الاستكثار من السودان في جيشه، حتى أصبح أكثر جنده منهم⁽⁴⁾ ، فقبل إن عددهم بلغ حوالي أربعين ألف أسود⁽⁵⁾ . وقد تبع الإخشيدون الطولونيين في اصطناع السودان واستخدامهم في الجيوش، واستمروا على ذلك إلى أواخر دولتهم⁽⁶⁾ .

(1) العدوي ، إبراهيم أحمد : يقظة السودان، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط2 (القاهرة، 1979م) ص 10،

هامش (1) .

(2) البَلَوِي ، أبو محمد عبد الله بن محمد المدني : سيرة أحمد بن طولون ، تحقيق محمد كرد علي ، مكتبة

الثقافة الدينية (القاهرة ، بدون تاريخ) ص 51.

(3) المقريري : الخطط ، 1 / 865 ، 869 .

(4) القلقشندي : مصدر سابق ، 3 / 471.

(5) المقريري : الخطط ، 1 / 271 . كذلك ابن عبد الظاهر : تشریف الأيام والعصور ، ص 34 .

(6) القلقشندي : مصدر سابق ، 3 / 471.

أمّا عن الفاطميين فقد عرفوا استخدام السودان قبل مجيئهم إلى مصر ، وذلك منذ قيام دولتهم في إفريقية ؛ حيث إن المهدي عبّيد الله لما استولى على رقّادة من الأغالبة، وشرع في تنظيم شؤون دولته الجديدة فيها اتّخذ العبيد من الروم والسودان⁽¹⁾.

واستمر استخدام السودان من قبل الخلفاء الفاطميين الذين تلو المهدي في المغرب. وفي سنة 362 هـ / 972م لما رحل المعز نهائياً إلى مصر جلب معه الكثيرين منهم⁽²⁾، وعلى الرغم من ذلك لم يكن لهم أيُّ ظهور أو نشاط واضح في المجتمع في ذلك الوقت؛ ولربما ذلك راجع إلى عدم استخدامهم في الجيش وفي المناصب الإدارية الكبرى في البلاد ، واقتصار استخدامهم على القصور الفاطمية ، وعلى خدمة الخلفاء الفاطميين فقط .

وأول من أدخل من الخلفاء الفاطميين السودان في الجيوش الفاطمية ، هو الخليفة العزيز بالله⁽³⁾، وإن كان بشكل بسيط جداً ؛ بسبب ميله للعناصر الشرقية من الأتراك والديلم على غيرهم من عناصر الجيش الأخرى⁽⁴⁾.

وكان الظهور الفعلي للسودان في مصر زمن الفاطميين في عصر الخليفة الحاكم بأمر الله ، الذي أخذ في شرائهم وعتقهم حتى كثرت أعدادهم⁽¹⁾. ويبدو

(1) عماد الدين : تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ، ص 177.

(2) الجوّذري : أبو علي منصور العزيري : سيرة الأستاذ جُوذَر "وبه توقيعات الأئمة الفاطميين" ، تحقيق

محمد كامل حسين و محمد عبد الهادي شعيرة ، دار الفكر العربي (القاهرة ، بدون تاريخ) ص 146.

(3) الشّيئال ، جمال الدين : تاريخ مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي ، دار المعارف

(القاهرة ، 1967م) 236/1 .

(4) المقريري : الخطط ، 390/2 .

أن غرضه من ذلك كان لإيجاد عنصر جديد قوي في الدولة ليُحَدِّدَ به من نفوذ العنصرين المتنافسين فيها وهما المشاركة والمغاربة⁽²⁾. وقد استمر السودان في الزيادة شيئاً فشيئاً إلى خلافة المستنصر بالله ، فتضاعفت أعدادهم بشكل ملحوظ ، حتى صاروا يُشكِّلونَ فرَقاً هائلةً في الجيش الفاطمي بقيت حتى آخر عصر الدولة⁽³⁾.
وقد ذكرت المصادر الفاطمية أسماء العديد من الطوائف والفرق السودانية التي استوطنت مصر في العصر الفاطمي ، ولعبت دوراً في الحياة فيها ومن أهم هذه الطوائف : طائفة العطفية التي تُنسب إلى عطف^(*) ذلك الخادم الأسود الذي خدم ستّ الملك^(**) أخت الحاكم بأمر الله⁽⁴⁾، وقد سكنت هذه الطائفة القاهرة في حارة العطفية⁽⁵⁾. وطائفة الملحية ، وهي من جملة عسكر الفاطميين وقد تردّد

(1) ابن سعيد الأندلسي ، علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك : النجوم الزاهرة في حُلَى حضرة القاهرة "القسم الخاص بالقاهرة من كتاب المُعَرَّبُ في حُلَى المُعَرَّب" ، تحقيق حسين نصار ، مطبعة دار الكتب (القاهرة ، 1970م) ص 67.

(2) أحمد مختار العبادي : في التاريخ الأيوبي والمملوكي ، مؤسسة شباب الجامعة (الإسكندرية ، 1992م) ص 30 .

(3) عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ، 200/1 .

(*) قُتِلَ سنة 401 هـ / 1010م على يد جماعة من الأتراك تربصوا له في دهاليز القصر الخلافي واحتزّوا رأسه ، وذلك بأمر من الخليفة الحاكم = المقريري ، الخطط ، 394/2 .

(**) ستّ الملك بنت العزيز بالله الفاطمي ، سيدة حليلة ذات نفوذ وسلطان وسياسة وإدارة ورأي وعقل ، تُوفيت سنة 415 هـ / 1024م = كحالة ، عمر رضا : أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام ، مؤسسة الرسالة (بيروت ، 1959) 166/2 ، 170 .

(4) ابن تغري بردي : مصدر سابق ، 53/4 . كذلك داود ، سوزي أباطة : السودان في جيش مصر الإسلامية حتى سقوط الدولة الفاطمية ودورهم في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية ، جامعة القاهرة (القاهرة ، 1989م) ص 73 .

(5) القلقشندي : مصدر سابق ، 359/3 . كذلك المقريري : الخطط ، 394/2 .

ذكرها في أيام المستنصر بالله من ضمن الطوائف التي خاضت غمار الفتنة في عصره⁽¹⁾. بالإضافة إلى هاتين الطائفتين كانت هناك طائفة الفرجية، وهي من جملة عبيد الشراء، وكان من ضمن أفرادها جماعة مختصون بضرب الطبول وذلك في بعض أعياد الدولة الفاطمية⁽²⁾. وقد نزلت هذه الطائفة حارة بالقاهرة عرف باسمها (حارة الفرجية)⁽³⁾. وكذلك طائفة الميمونية، التي تُنسبُ إلى ميمون⁽⁴⁾ أحد الخدام⁽⁴⁾. وطائفة الحسينية التي سكنت حارة الحسينية بالقاهرة⁽⁵⁾. وطائفة الریحانية وهم عبيد الخليفة الحافظ لدين الله (524-544 هـ / 1129-1149م)، وقد سكنت هذه الطائفة في حارة عرفت بهم، ولكن اسمها لم يلبث أن اندثر لما سكنها الطواشي بماء الدين قراقوش⁽⁶⁾، فاشتُهرت به وتُسي ما قبل ذلك⁽⁶⁾.

- (1) ابن ظافر: مصدر سابق، ص 223. كذلك سوزي أباطة داود: مرجع سابق، ص 73.
- (2) المُسبَّحِي، عزَّ الملك محمد بن عبيد الله بن أحمد بن إسماعيل بن عبد العزيز: الجزء الأربعون من أخبار مصر، حققه وكتب مقدمته وحواشيه ووضع فهرسه أيمن فؤاد سيّد وتياري بيانكي، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية (القاهرة، 1978م)، 65/1، 80.
- (3) المقرئزي: الخطط، 395/2.
- (*) لم تذكر المصادر الفاطمية إلا شخصاً واحداً بهذا الاسم، وهو ميمون دُبة الذي يُكنى بأبي سعيد، وهو أحد خدام العزيز بالله ومن المقرئين له، وكان خصياً = ابن ميسر: مصدر سابق، ص 17. كذلك ابن سعيد: مصدر سابق، ص 46. المقرئزي: الخطط، 463/2.
- (4) المقرئزي: الخطط، 396/2.
- (5) المصدر نفسه والجزء والصفحة.
- (**) خادم صلاح الدين، وقيل بل هو خادم أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين فأعتقه. ولما استقل صلاح الدين بالديار المصرية جعله زمام القصر الفاطمي، كما ناب عنه مدة بالديار المصرية، واعتمد في تدبير أحوالها عليه. كانت وفاته بالقاهرة سنة 597هـ/1200م. = ابن خلكان: مصدر سابق، 91/4 - 92.
- (6) القلقشندي: مصدر سابق، 356/3.

ومن طوائف السودان في القاهرة أيضاً طائفتا الجيوشية والإسكندرانية اللتان دخلتا في صراع شديد مع طائفة الريحانية ، وذلك في أواخر عصر الخليفة الحافظ⁽¹⁾، فكانت بينهم الكثير من المعارك والوقعات التي انتهت بانتصارهما وهزيمة الريحانية وهروبها إلى الجيزة⁽²⁾.

أما أكبر طوائف السودان - ولاسيما في أواخر العصر الفاطمي - فطائفة المنصورية التي سكنت حارة المنصورة ، وهي من أضخم الحارات في القاهرة ، فقد كانت كبيرة ومتسعة جداً ، وبها الكثير من المساكن التي يقطنها السودان⁽³⁾.

هذه هي الطوائف السودانية التي ورد ذكرها في مصر في العصر الفاطمي . وقد كان لكل طائفة من هذه الطوائف عُرفاء يتولون أمورها وينظمونها⁽⁴⁾. وفي أواخر العصر الفاطمي صار للسودان شوكة وقوة كبيرة ، حيث كان لهم في كل قرية ومحلة وضبعة بمصر مكانٌ مفردٌ خاص بهم لا يدخله والٍ ولا غيره احتراماً لهم⁽⁵⁾.

كما كان لهم في مصر أدوارٌ كثيرة ، وإن تميّزت معظمها بالسلبية ؛ فقد كانوا كثيري الفتن والقلقل ؛ حيث اشتركوا في معظم الثورات التي قامت فيها خلال العصر الفاطمي⁽⁶⁾. وكان ضرر الناس بهم عظيماً لامتداد أيديهم إلى أموالهم

(1) ابن مُنقذ ، أبو المظفر مؤيد الدولة مجد الدين أسامة بن مُرشد بن علي : كتاب الاعتبار ، تحقيق قاسم السمراي ، دار الأصاله (الرياض ، 1987م) ص 29 - 30.

(2) المقريري : تعاضد الحنفا ، 189/3 .

(3) المقريري : الخطط ، 405/2 ، 407 .

(4) المسيحي : مصدر سابق ، 89 /1 .

(5) المقريري : الخطط ، 405/2 .

(6) سوزي أباطه داود : مرجع سابق ، ص 117.

وأهاليهم⁽¹⁾. وكانوا عند حدوث المجاعات في البلاد يقومون بإثارة الفتن والاضطرابات ، ويدخلون في اشتباكات مع الأهالي ويهاجمون دورهم ودكاكينهم لنهبها . فكانت السلطة الحاكمة في أغلب تلك الظروف تتدخل لردعهم منعاً للفتن . فكانت تترل بهم العقوبات التي تصل إلى القتل ورمي الجثث للكلاب في بعض الأحيان⁽²⁾.

وأولى فتن السودان الظاهرة في العصر الفاطمي كانت سنة 410 هـ/1019م بمدينة الفسطاط ، هاجموا فيها أهلها ونهبوها وأحرقوا دورهم وممتلكاتهم ، وكانت فتنهم هذه بتشجيع وتأييد من الخليفة الحاكم نفسه⁽³⁾ . فقد أثار أهل مصر (الفسطاط) غضبه ، حيث كانوا مؤثورين^(*) منه ، فكانوا يدسّون إليه الرقاع المختومة بالدعاء عليه والسب له ولأسلافه . فعملوا له مرّة تمثال امرأة من قراطيس^(**) وألبسوها ملابس النساء ونصبوها في إحدى الطرقات وتركوا في يدها رقعة كأنها ظلامه^(***) . وكان الحاكم ماراً في موكبه ولما رآها تقدم وأخذ

(1) المقريري : الخطط ، 405/2 .

(2) المسيحي : مصدر سابق ، 87/1 .

(3) النويري : مصدر سابق ، 193/28 .

(*) موتورون أو موتورين : مفردا موتور : وهو الذي قتل له قتيل ولم يدرك بدمه ؛ أي لم يأخذ بثأره = ابن منظور : مصدر سابق ، 274/5 . وهي كلمة معبرة على مدى ما يكنه أهل مصر للخليفة الحاكم من حقد وظغينة .

(**) قراطيس : مفردا قُرطاس أو قَرطاس، وهي الصحيفة - أي الورقة - التي يُكتب فيها = ابن منظور : مصدر سابق ، 172/6 .

(***) كان الناس في مصر يتحينون فرصة خروج الخلفاء الفاطميين من قصورهم ، ويتزاحمون عليهم في الطرقات؛ ليسلموهم القصص أو الرقاع التي عادة ما يكتبها أصحابها لطلب صدقة أو صلة معينة ، أو للشكوى من ظلم وقع عليهم ويسألون الخليفة في رفعه = المقريري : اتعاظ الخنفا ، 14/2 ، 96 ، 104 .

الرقعة من يدها وفتحها فرأى في أولها ما استعظمه ، فسأل رجاله عن هذه المرأة ، فقيل له : إنها معمولة من قرّاطيس، فأدرك أن أهل مصر قد سخرُوا منه وكان في الرقعة كلام قبيح. فعاد من وقته إلى القاهرة ، ونزل في قصره واستدعى إليه القواد والعُرفاء ، وأمرهم بالمسير إلى مصر وضربها بالنار ونهبها وقتل من يظفروا به من أهلها⁽¹⁾.

فنفذَ السودان الأوامر التي صُدرتْ إليهم ، وارتكبوا أعمالاً غاية في الوحشية، وقاموا بنهب البيوت والدكاكين والأسواق ، وشرّدوا الكثير من الأهالي⁽²⁾. ويقول السيوطي(م:سنة 911هـ / 1505م) عن هذه الأحداث: "... وقاتلهم أهل مصر قتالاً عظيماً ثلاثة أيام والنار تعمل في الدور والحريم ، واجتمع الناس في الجوامع ورفعوا المصاحف وجأروا إلى الله واستغاثوا به. وما انجلى الحال حتى احترق من مصر نحو ثلثها ، ونُهب نحو نصفها ، وسي حريم كثير وفعل بمنّ الفواحش ، واشتري الرجال من سببي لهم من النساء والحريم من أيدي العبيد"⁽³⁾.

ولمّا جاء اليوم الرابع رأى الأتراك والمغاربة ما يحدث لأهل مصر ، فرقّوا لحالمهم وطلبوا من الحاكم أن يأمر بوقف هذا الاعتداء الصارخ عليهم وعلى أموالهم ، خصوصاً وأنّ لهم بين المصريين كثيراً من الأصدقاء والأقارب ، ولهم في مصر كثير من الأملاك. فتظاهر الحاكم بإجابة مطلبهم، ولكنّه أوعز إلى العبيد أن يستمروا في

(1) الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري ، دار الكتاب العربي ، ط2 (بيروت ، 1990م) 237/28. كذلك ابن تغري بردي : مصدر سابق ، 182/4.
(2) ابن ظفر : مصدر سابق ، ص 207 . كذلك سوزي أباطه داود : مرجع سابق ، ص 118.
(3) السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن : حُسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية (القاهرة ، 1967م) 1/ 603 .

القتال ، وأن يتأهبوا لصدِّ الترك والمغاربة . فاضطرت المعارك بين الفريقين ودافع الترك والمغاربة عن أهل مصر وفرّقوا جموع العبيد ونكّلوا بهم ، ثم هدّدوا الحاكم باقتحام القاهرة وحرقتها إذا لم يضع حدًّا لتلك الجرائم . فخشي الحاكم العاقبة فأمر العبيد بالتفرق ولزوم السكنية ، واعتذر لأشراف مصر وزعماء الأتراك والمغاربة عمّا وقع وتنصّل من كل تبعه فيه . وانتهى الأمر بأن أصدر أماناً لأهل مصر قُريءَ على المنابر ، فسكنت بذلك الفتنة الشنعاء، بعد أن لبثت الفسطاط بضعة أسابيع مسرحاً لمناظر مروعة من السفك والعبث والنهب ، وأحرقت معظم شوارعها ومبانيها ، وخُرِّبت معظم أسواقها ونهبت ، وسي كثير من نساؤها واعتدي عليهن ، وانتحر كثير منهن خشية العار، وتتبع المصريون أزواجهم وبناتهم وأمهاتهم وافتدوهن من الخاطفين العبيد⁽¹⁾.

ولم يتوقف العبيد السودان عن إثارة الفتن والاضطرابات طوال العصر الفاطمي ولاسيّما في أيام الخليفة الظاهر وذلك بعد الغلاء الشديد الذي حلّ بالبلاد ، والذي انتشرت على أثره المجاعات وتفشّت الأمراض وكثر الموت بين الناس ، وضاق الحال بهم لدرجة أنهم كانوا يعرضون أمتعتهم للبيع فلا يجدوا من يشتريها⁽²⁾. ففي ظل هذه الأحوال لطالما أثار العبيد القلق والرعب في نفوس الناس بما يقومون به من هجمات عليهم كان سببها الأول والمباشر هو الجوع . وقد أورد المُسبّحي (م: سنة 420هـ/1029م) المعاصر لأيام الظاهر ولأفعال العبيد فيها رواية ظريفة تدل على ما كانت تسببه أفعال العبيد هذه للأهالي من هواجس وإرهاصات

(1) الذهبي : تاريخ الإسلام ، 238/28 . كذلك ابن تغري بردي : مصدر سابق ، 183/4 - 184 . عِنان ،

محمد عبد الله : الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ، مكتبة الخانجي ، ط3 (القاهرة ، 1983م)

ص 207 - 208 .

(2) المقرئبي : الخطط ، 40/2 .

جعلتهم يعيشون في قلق دائم ويتوقعون في كل لحظة أن تجتاحهم هجمة منهم . وملخص هذه الحادثة أنه في عشية أحد الأيام من سنة 415 هـ / 1024م سقط دُبُّ كبير من جبل المُقَطَّم^(*) إلى داخل المقابر ، فلما رآه الناس فزعوا ولاذوا بالهرب ، فظنَّ بقية الأهالي أنهم تعرضوا لكبسة لحقتهم من العبيد فلاذوا هم الآخرون بالفرار ، وسقط بعضهم على بعض من شدة الخوف والفرع⁽¹⁾.

وعلى الرغم مما سبَّبه السودان من اضطرابات وقلقل للفاطميين بما أتوه من أعمال شغبٍ ونهبٍ ، وبما عملوه من فتنٍ وثوراتٍ إلا أنهم كانت لهم مواقف إيجابية إلى جانب الفاطميين. ففي أواخر الدولة صار السودان يُشكِّلون قوة لا بأس بها داخل القصر الفاطمي . وكان الخلفاء الفاطميون وحريمهم يعتمدون عليهم ويُسندون إليهم تنفيذ بعض المهام ، ولاسيما تلك التي تتعلق بتدبير المؤامرات واغتيال الوزراء الذين تمادوا في سيطرتهم على الخلفاء الفاطميين واستبدوا بشؤون الدولة دونهم⁽²⁾.

ومن أشهر أدوار السودان إلى جانب الفاطميين كانت قبيل سقوط دولتهم وبالتحديد سنة 564هـ / 1168م ، وذلك عندما تولَّى صلاح الدين الأيوبي (567-589 هـ / 1171-1193م) الوزارة للخليفة العاضد لدين الله (555-567 هـ / 1160-1171م) ، فاستبدَّ بالأمر دونه وأضعف جانبه وقام بتضييق

(*) جبل المُقَطَّم : هو جبل يُشرف على القَرافة (مقبرة فسطاط مصر والقاهرة) ، ويمتد من أسوان وبلاد الحبشة على شاطئ النيل الشرقي إلى آخر طرف القاهرة، ويُسمَّى في كل موضع باسم = ياقوت الحموي : مصدر سابق ، 176/5.

(1) المسيحي : مصدر سابق ، 80/1 .

(2) النويري : مصدر سابق ، 324/28 . كذلك المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، 166/3 ، 168-173 ، 183-184 ، 246-248 .

الحناق على أهل القصر الفاطمي. فأثار ذلك كله استياء مؤتمن الخلافة ، وهو من أكابر خدام القصر ، فأرسل إلى الفرنجة يستنجد بهم ويحثهم على مهاجمة مصر ، وإذا ما خرج صلاح الدين إلى لقائهم ثار هو ومن معه من أمراء الدولة وجندها عليه من داخل البلاد وقاموا بمحاصرته والقضاء عليه⁽¹⁾.

على أن صلاح الدين ما لبث أن وقف على ما دبَّره له مؤتمن الخلافة ، فشدَّ الرقابة عليه وأخذ يتحين الفرصه للتخلص منه إلى أن تمكَّن من ذلك سنة 564 هـ/1168م وجعل زمام القصور^(*) عوضه الطواشي بهاء الدين قراقوش الأسدي⁽²⁾.

ولمَّا علم السودان بمقتل مؤتمن الخلافة ثاروا لذلك وتجمعت طوائفهم من ربحانية وجيوشية وفرحية وغيرها ، مع من انضمَّ إليهم من الأمراء المصريين وعوام البلد ، فصار عددهم يزيد على الخمسين ألفاً⁽³⁾، زحفوا لمحاربة صلاح الدين فدار

(1) أبو شامة ، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي : الرُّوضَتَيْنِ فِي أَخْبَارِ الدَوْلَتَيْنِ التُّورِيَّةِ وَالصَّلَاحِيَّةِ ، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد ، المؤسسة المصرية العامة (القاهرة ، 1962م) القسم الثاني ، ص450 . كذلك المقرئبي : الخطط ، 371/2 .

(*) أي المسؤول عن القصور ، وهي وظيفة من الوظائف التسعة الخاصة بالأستاذين المُحَنِّكِينَ = القلقشندي : مصدر سابق ، 484/4-485 .

(2) النويري : مصدر سابق ، 360/28-361 . كذلك المقرئبي : اتعاظ الحنفا ، 312/3 .

(3) أبو شامة : عُيُونُ الرُّوضَتَيْنِ فِي أَخْبَارِ الدَوْلَتَيْنِ ، تحقيق أحمد البيسومي ، وزارة الثقافة (دمشق ، 1991م) القسم الأول ، ص 195 . كذلك النويري : مصدر سابق ، 361/28. المقرئبي : اتعاظ الحنفا ، 312/3 . سوزي أباطة داود : مرجع سابق ، ص 148 .

بينهم وبين قواته قتال عنيف في المكان المعروف بين القصرين^(*). وكادت الغلبة تكون لهم في أول الأمر ولكن صلاح الدين ما لبث أن تدارك الأمر وأرسل قواته إلى أعظم حارات السودان المنصورة ، فأحرقها وهدم مساكنها وشرّد أهلها فضعف السودان عند ذلك وتفرقوا في أنحاء القاهرة منهزمين فتتبعهم أنصار صلاح الدين وأعملوا السيوف فيهم إلى أن أجلوهم من القاهرة ومضت فلولهم هاربة إلى الجيزة⁽¹⁾.

وكان صلاح الدين قد وطّد العزم على القضاء على قوة السودان بالديار المصرية ، فأرسل قواته إلى الجيزة لتتبع العبيد الموجودين فيها وقتلهم ، كما أرسل خاله شهاب الدين الحارمي إلى الصعيد لسحق تجمعاتهم فيه⁽²⁾. وكتب إلى جميع ولاية البلاد بقتل من يجدونه منهم⁽³⁾. أما عن حارتهم المنصورة التي كانت رمزاً لسلطتهم وقوتهم في مصر فقد خربها وصيّرها بستاناً في حين ورّع باقي أملاكهم ومساكنهم في القاهرة على رجاله وأنصاره⁽⁴⁾.

(*) بين القصرين : هو الميدان الواقع بين القصر الكبير الشرقي ، وبين القصر الصغير الغربي، وكان يُستخدم لعرض الجند ويسع حوالي عشرة آلاف عسكري مابين فارس وراجل = مشرفة ، عطية مصطفى : نظم الحكم بمصر في العصر الفاطمي (358-567هـ/968-1171م) ، دار الفكر العربي (القاهرة ، 1948م) ص 16 .

(1) الدوّاداري : الدرّ المطلوب في أخبار ملوك بني أيّوب "وهو الجز السابع من كتاب كثر الدرر وجامع الغرر" ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور ، المعهد الألماني للآثار (القاهرة ، 1972م) ص 44 . كذلك المقريري : اتعاظ الحنفا ، 313/3 .

(2) المقريري : اتعاظ الحنفا ، 314/3 .

(3) النويري : مصدر سابق ، 361/28 .

(4) المقريري : اتعاظ الحنفا ، 313/3-314 .

وعلى الرغم من هذه الإجراءات التي اتخذها صلاح الدين للقضاء نهائياً على السودان إلا أن ثوراتهم عليه لم تنته، واستمرت لعدة سنوات⁽¹⁾ كانت آخرها سنة 572هـ/1176م بقيادة كَنْز ، الذي ثار في الصَّعيد وجمع حشداً كبيراً من السودان وغيرهم بلغوا حوالي المائة ألف ، سار بهم إلى القاهرة محاولاً إعادة الخلافة الفاطمية. فنشب قتال بينه وبين الأيوبيين انتهى بمقتله ومقتل حوالي ثمانين ألف جندي من جنده . فانكسرت شوكة السودان بذلك واستأصلت شأفتهم بمصر ، وضاعت آمالهم في استرجاع الخلافة الفاطمية فيها⁽²⁾.

ولعلَّ القاريء لهذه الأحداث يأخذه العجب والدهشة من استماتة السودان هذه للقضاء على صلاح الدين ومحاولاتهم لإعادة أجماد الدولة الفاطمية!! . ويسأل نفسه لماذا قام السودان بذلك دون غيرهم من عناصر السكان الأخرى في مصر؟ وما هدفهم من وراء ذلك لدرجة أنهم يُضْحُون بأنفسهم لتحقيقه؟

والجواب الأقرب على هذه الأسئلة هو أنه كان للسودان قبيل مجيء صلاح الدين سلطانٌ وقوةٌ هائلةٌ في مصر فرضت احترامها على الجميع ، الأمر الذي عبَّر عنه المقرئزي بقوله : " كانت البلاد كلها لا تخلو مدينةً ولا محلةً من أن يكون فيها مكانٌ مُعدُّ للعبيد مَحْمِيٌّ لا يدخله وال ولا غيره "⁽³⁾. وقد وصل نفوذ السودان هذا إلى الوزراء الفاطميين أيضاً الذين كانوا يعدون الحكام الفعليين لمصر في ذلك الوقت . فكان هؤلاء الوزراء مع كبار رجال الدولة الآخرين يَحْسِبُونَ

(1) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص 197 .

(2) الذهبي : تاريخ الإسلام ، 13/40 - 14 . كذلك ابن العماد ، شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي أحمد بن محمد العسكري الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط ، دار ابن كثير (دمشق ، 1986م) 6/400 .

(3) المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، 314/3 .

للسودان ألف حساب ويرهبون جانبهم ، بل وفي بعض الأحيان يُختبئون ويتحصّنون بمنازلهم خشيةً منهم⁽¹⁾؛ حيث كان السودان " إذا أقاموا على وزير قتلوه واجتاحوه وأذلّوه واستباحوه واستحلّوه " ⁽²⁾.

وبقدوم صلاح الدين مصر وتولّيهِ الوزارة للعاضد واستئثاره بالسلطان دونه ، أذهبت المكانة التي كان يحتلها السودان في البلد، ولاسيما أنه كان يعمل على التنازل عن خدماتهم مع غيرهم من جيوش الدولة الفاطمية وإحلال جند من عنده يثق فيهم بدلهم . وقد عمل صلاح الدين علي تنفيذ ذلك بمجرد أن خلا له الجو . فيقول ابن إياس لما " انفراد صلاح الدين يوسف بمملكة الديار المصرية ، والبلاد الشامية وصفا له الوقت ، فأزال ما كان بمصر من العساكر المملّقة ، وكانوا ما بين صقالبة وكدانة ومصامدة وأرمن وشناترة العرب والعبيد السود . فمَحَا تلك الطوائف جميعها واتخذ بمصر عساكر من الأكراد خاصّة ، فكانت عدّتهم اثني عشر ألف فارس من شجعان الرجال الذين لا يكلّون من الحروب " ⁽³⁾.

وصلاح الدين حين يفعل ذلك يكون قد قضى على نفوذ السودان العسكري في مصر ، وبالتالي ينعكس ذلك سلباً على وضعهم في الحياة العامة فيها ، ولاسيما أن الكثير من أهالي مصر يَكُونون لهم الحقد والكراهية ويتمنون لهم الفناء ؛ وذلك لما سبّبوه لهم من مضايقات وقلاقل ومن نهبٍ وسلبٍ وتشريد طوال العصر الفاطمي . وفي محاولة للسودان لتجنب هذا المصير المحتوم وقفوا جميعاً - من عبيد وخدام وقادة جيش وأمراء ورجال دولة وعمامة - صفّاً واحداً للقضاء على

(1) المُسَبَّحي : مصدر سابق ، 88 / 1 .

(2) أبو شامة : الروضتين ، 1 / القسم الثاني ، ص 451 .

(3) ابن إِيَّاس : مصدر سابق ، 56 / 1 .

الأيوبيين ، ومحاوله إعادة خلافة الفاطميين التي كانوا يتمتعون في ظلها بالقوة والنفوذ والسُّطوة .

المبحث الرابع : الأرمن

الأرمن أمة من أقدم الأمم ، بدأ ظهورها بعد الطوفان بزمن قليل ومؤسسها الحقيقي يدعى هايكوس بن طوركومبوس ، الذي وفد على أرض أرمينية - كما سُميت بعد ذلك- بمن معه من أولاده وأولاد أولاده وكانوا قرابة الثلاثمائة بصحبتهم خدامهم وعبيدهم . فتزل بها وعمّر فيها مدينته التي سَمّاها باسمه ، واستقرّ فيها مع أهله، وكان ذلك قبل ميلاد المسيح بألفين ومائة وسبع سنين تقريباً⁽¹⁾.

ولفضل هايكوس في تثبيت أقدام الأرمن ، وتشيد دولة لهم عُرف الأرمن في أوّل أمرهم بـ (هايكين) نسبةً له . ولكنهم لم يلبثوا أن اشتهروا في الأقاليم المجاورة لهم باسم أرميين أو أرمن ، كما اشتهرت أقاليم بلادهم باسم أرمينية أو أرمينية ؛ وذلك نسبةً إلى أرام الملك، الذي استطاع بفضل اجتهاداته الكبيرة وحرابه المتوالية من هزيمة أعدائه وتوسعة رقعة بلاد الأرمن . فجعل لشعبه شخصية مُهابه ، وصيتاً واسع النفوذ لذلك عُرفوا به⁽²⁾.

وقد عرف المسلمون بلاد أرمينية لأول مرة بعد غزوهم للفرس وفتحهم لبلاد الشام. فمنذ نهاية العام التاسع عشر للهجرة إلى أوائل العام العشرين/ ستمائة وأربعون ميلادية بدأ المسلمون يوالون الغارة على أرمينية ، وينازعون الروم عليها

(1) خانجي ، القس أنطون : مختصر تواريخ الأرمن ، دَيْر الأبا الفرنسيسكانيين (أورشليم، 1868م) ص 22-

(2) المرجع نفسه ، ص 10 ، 25 ، 26 ، 29 ، 30 ، 32.

فكانت أكبر غزوة قاموا بها وأخضعوا تلك البلاد لأول مرة في عصر الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه (23- 35 هـ / 643- 655م) في أواخر العام : الرابع والعشرين وأوائل العام : الخامس والعشرين للهجرة / ستمائة وخمسة وأربعون ميلادية⁽¹⁾.

ولقد أسلفت القول في الصفحات السابقة ، أنه في سنة 466 هـ / 1073م قدم بدر الجمالي إلى مصر لإنقاذ الموقف فيها . فكان من نتائج قدومه هذا أن أوجد فيها عنصراً سكانياً جديداً وهو العنصر الأرمني ، المتمثل في جنده الذين قدموا معه⁽²⁾.

وقد خاض بدر بجنده الأرمن حروباً كثيرة وشديدة في الكثير من نواحي مصر ، مستهدفاً إعادة الأمن والنظام إليها بآذلاً في ذلك كل جهد ، حتى قيل إنه قتل من المشاغبين من أهل البحيرة وحدها حوالي عشرون ألف إنسان ، وذلك عدا غيرهم من أهل دمياط والإسكندرية والشرقية والغربية ، وبلاد الصعيد ، وأسوان ، ومن أهل القاهرة والفسطاط أيضاً⁽³⁾.

وعلى الرغم من أهوال الحروب التي خاضها الأرمن ، إلا أنهم لم يظهروا تذمراً من ذلك وآثروا البقاء في مصر مُتَشَبِّهِينَ بالإقامة فيها على العودة لبلادهم التي تعذر حصولهم فيها على مقومات الحياة الضرورية⁽⁴⁾. فاستقروا في مدينة القاهرة ، ونزلوا مع عبيد الشراء في الحسينية ، المنسوبة لجماعة من الأشراف الحسينيين⁽⁵⁾.

(1) سترك : أرمنية ، دائرة المعارف الإسلامية ، 1/ 642 - 643.

(2) المقريري : الخطط ، 2/ 391.

(3) المصدر نفسه ، 2/ 103.

(4) محمد جمال الدين سرور : مرجع سابق ، ص 108.

(5) المقريري : الخطط ، 2/ 411. كذلك ابن تغري بردي : مصدر سابق ، 4/ 48.

وكانت ثمانني حارات : حارة حامد ، وبين الحارتين ، والمنشية الكبيرة ، والمنشية الصغيرة ، والحارة الكبيرة والحارة الوسطى ، وحارة السوق الكبير ، والوزيرية . وكانت كلها سكن الأرمين فارسهم وراجلهم ، وكانوا قرابة سبعة آلاف أو أكثر⁽¹⁾ .

ظلَّ الأرمين بمصر وازداد نفوذهم فيها بتوليَّ بهرام الأرميني^(*) الوزارة للخليفة الحافظ . وكان بهرام نصرانياً ومنحازاً إلى بني جلدته فبعث في طلب الكثير منهم ، فأخذوا في التوافد على مصر من تلُّ باشير^(**) ، ومن بلاد الأرمين حتى صار منهم فيها حوالي الثلاثين ألفاً وذلك في فترة محدودة جداً⁽²⁾ . فعظُم ضرر المسلمين بهم ، حيث كثرت استطالتهم واشتدَّ جورُهم وتظاهروا بدين النصرانية ، وأكثروا من بناء الكنائس والأديرة حتى صار لكل رئيس منهم كنيسة بجوار داره⁽³⁾ .

فاشتدت غيرة أهل مصر على الإسلام ، وخافوا من غلبة النصارى على بلادهم فتنابَعوا في الشكاية من أهل بهرام وأقاربه . ومما زاد الأمر سوءاً بالمسلمين

-
- (1) ابن عبد الظاهر : الروضة البهية الزاهرة ، ص 123/122 . كذلك المقرئبي : الخطط ، 411/2 .
 (*) بهرام بن أسيد ، الوزير سيف الإسلام تاج الملوك الأرميني . كان من جملة الجند أخذ في الترقى في الخدم حتى تولَّى الوزارة للخليفة الحافظ سنة 529 هـ/1134م . فكان أولَّ نصرانيَّ يتولَّى الوزارة للفاطميين .
 تُوفِّي بالقاهرة سنة 535 هـ/1140 . = المقرئبي : المقفى الكبير ، 512/2-516 .
 (***) تلُّ باشير : قلعة حصينة وكورة واسعة في شمالي حلب . بينها وبين حلب يومان (حوالي 100 كم) . بها ريبض وأسواق ، وهي عامرة أهلة ، وأهلها من النصارى الأرمين = ياقوت الحموي : مصدر سابق ، 40/2 .
 (2) ابن ميسر : مصدر سابق ، ص 124 . كذلك النويري : مصدر سابق ، 28 / 301 . المقرئبي : اتعاظ الحنفا ، 159 / 3 .
 (3) النويري : مصدر سابق ، 28 / 302 . كذلك المقرئبي : المقفى الكبير ، 514 / 2 .

وصول الأخبار من قُوص^(*) بأنّ مُتَوَلِّيها المدعو الباساك - وهو أخو بهرام - قد جار على الناس هناك واستباح أموالهم وبالغ في أذيتهم وظلمهم . فعظم ذلك على الأمراء والقادة فأرسلوا إلى رضوان بن ولخشي^(**) - وكان يتولّى الغربية آنذاك - يطلبون منه القدوم إلى القاهرة وإنقاذهم مما لحقهم من جور الأرمن وسطوتهم⁽¹⁾ .

فأجاب رضوان طلبهم ، وقدم إلى القاهرة على رأس جيش كبير، انضمَّ إليه الجنود المسلمون في جيش بهرام ، فازدادت بذلك قوته. الأمر الذي اضطرَّ بهرام إلى الرحيل عن القاهرة بمن معه ، والالتجاء إلى أخيه الباساك في قُوص . ولكنه لما وصلها وجد أهلها قد ثاروا فيها وقاموا بقتل أخيه ومثّلوا بجثته ، فقام بهرام بقتل بعض أهلها ثم انتهبها انتقاماً لأخيه . بعد ذلك سار عنها إلى أسوان ، فترل بالأديرة البيض^(***) واستقرَّ بها بأهله، في حين افترق عنه كثيرٌ من الأرمن هناك وساروا يريدون بلادهم⁽²⁾ .

(*) قُوص : كانت من أعظم ولايات مصر زمن الفاطميين . ومتوليها يحكم جميع بلاد الصعيد . ويليها في الأهمية الولايات الثلاث الرئيسية : الشرقية ، والغربية ، والإسكندرية = القلقشندي : مصدر سابق ، 497/3 - 498 .

(**) وُلِدَ سنة 489 هـ/1095م ، وأول ولاية وليها في الدولة الفاطمية الأعمال القوصية ، والأعمال الإخميمية سنة 528هـ/1133م ، ولم يلبث أن تولّى الوزارة للحافظ سنة 531 هـ/1136م ولُقّب بالأفضل = النويري : مصدر سابق ، 303/28 ، 306 .

(1) ابن ميسرّ : مصدر السابق ، ص 124 . كذلك النويري : مصدر سابق ، 302/28 .

(**) الأديرة البيض : هي أماكن حصينة في غربي إخميم . وإخميم هذه بلدة صغيرة عامرة بالنخل والزرع على النيل الشرقي = ابن ميسرّ : مصدر سابق ، ص 125 . كذلك القرمانى : مصدر سابق ، 311/3 .

(2) ابن ميسر : مصدر سابق ، ص 125 .

أما منازل الأرمن وأملاكهم التي عمروها بالحسينية في القاهرة فقد امتدت إليها أيدي الأهالي ونهبوها كما نهبوا كنائسهم وقبورهم⁽¹⁾. ولما تولّى رضوان الوزارة للحافظ بعد هذه الأحداث أعاد الأمور إلى نصابها واشتدّ في مطالبة النصارى من أصحاب بهرام ، وصادر أملاكهم وقتل الكثيرين منهم وعمل على استخدام المسلمين في المناصب التي كانوا يتولّونها في القاهرة⁽²⁾. في حين لم يجد الأرمن الذين فرّوا من القاهرة - ولم يعودوا إلى بلادهم - مفرّاً من الانصياع للحكومة الفاطمية والرّضوخ لها ، فسألوها مواضع يسكنونها فأفردت لهم بعض النواحي في صعيد مصر استقروا بها واشتغلوا بالزراعة⁽³⁾.

وهكذا صار الأرمن من ضعاف الرعية بعد أن تمتّعوا بالقوة والنفوذ في البلاد وإن كان لفترة بسيطة . ولم تكن ثورة المسلمين من أهالي مصر على الأرمن لكونهم جنساً غريباً عنهم ، بل على العكس فقد رحّب المجتمع المصري بمختلف الطوائف التي وفدت عليه وتعايش معها وتصاهر منها ، سواء من المغاربة ، أم الأتراك ، أم السودان ، أم الصقالبة وغيرهم . ولكن هؤلاء الأرمن كانوا قد تبادوا في تصرفاتهم واستفزازهم للأهالي إلى حد التطاول عليهم ، فكان هذا تحدياً سافراً لمشاعر الشعب الذي رحّب بهم⁽⁴⁾. فلا نستغرب إذاً ردود فعل الأهالي في مصر تجاههم، وما آلت إليه أحوالهم نتيجةً لهذه الردود .

(1) ابن ميسر : مصدر سابق ، ص125 . كذلك المقرئبي : المقفى الكبير ، 515/2 .

(2) المقرئبي : اتعاط الحنفا ، 163/3 ، 165 .

(3) المصدر نفسه ، 162/3 . كذلك المقرئبي : المقفى الكبير ، 515/2 .

(4) نجوى كيرة : مرجع سابق ، ص 98 .

المبحث الخامس : عناصر أخرى

كانت إلى جانب العناصر السكانية السالفة الذكر ، عناصر أخرى شكّلت مع سابقتها مضمون المجتمع المصري في العصر الفاطمي ، وإن كانت العناصر التي سأذكرها ههنا أقلّ عدداً وأقلّ مشاركةً في الحياة العامّة في المجتمع بجوانبها المختلفة . وهذه العناصر هي :

1- الصقّالبة^(*):

الصقّالبة أمة بل أمم كثيرة مرجعها إلى أصل واحد^(**)، وقد أكثر من ذكرها مؤرخو اليونان والرومان والعرب ، ولكن أكثر أقوالهم جاءت مبهمة لا تدل دلالة صريحة على منشئها ، وتوزعها في بلاد أوربا وآسيا . ومن مؤرخي العرب من جعلها فئة قليلة ، ومنهم من توسّع فنسب إليها بلاداً وأممًا لم تكن منها⁽¹⁾. أما الدراسات الحديثة فقد جعلت غرب روسيا هو الموطن الأم الذي انزاحت منه الشعوب الصقلية ، حيث رجّح أن الموطن الأصلي لهم كان في نطاق الغابات النفضية في روسيا ، في المنطقة الممتدة من أعالي الفستولا ومستنقعات البريت غرباً

(*) اسم الصقّالبة هو اللفظة العربية لكلمة سلاف بالإنجليزية ، ويقال لهم أيضاً سلافون ، وهي مأخوذة من كلمة سلافا باللسان الصقّلي ؛ ومعناها المجد ، أو سلوفو ومعناها الكلام ، وفسّروها بأنه يراد منها الدلالة على أمم مختلفة تتكلم لغة واحدة = بطرس البستاني : الصقّالبة ، كتاب دائرة المعارف ، مطبعة الهلال (القاهرة ، 1898م) 728/10 .

(**) ذكر سعيد عبد الفتاح عاشور نقلاً عن : (W.R.Morfill) أن الصقّالبة (السلاف) يرجعون في أصلهم إلى الجنس الآري (Aryens) أو الهند أوربي (Indo - Europeene) = سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربًا العصور الوسطى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط6 (القاهرة ، 1975م) 596 /1 .

(1) بطرس البستاني : الصقّالبة ، مرجع سابق ، 728/10.

، إلى المرتفعات التي ينبع منها الدون والدينير والفولجا شرقاً⁽¹⁾. ويُرجَّح بارتولد (Parthold) أن نهر الدون كان يُطلق عليه في أول الأمر نهر الصقالبة⁽²⁾.

وقد انتشر الصقالبة في أوروبا وآسيا وأفريقيا كعبيد للشراء ، وكان الاتجار بهم رائجاً⁽³⁾؛ حيث تميزوا بالشعر الأشقر والبشرة البيضاء والعيون الزرق ، حتى أن الأرقاء منهم كان يُنظر إليهم في العصور الوسطى على أنهم استقراطية العبيد . كما اتصفوا بالشجاعة والجَلَد وقوة المراس؛ مما جعلهم مطلوبين في أسواق النخاسة للقيام بالوظائف العسكرية⁽⁴⁾.

وأغلب ما يَفِدُ على الدولة الإسلامية من العبيد الصقالبة كان يُستجلب من الأندلس ولاسيما الخصيان منهم، حيث كان التجار اليهود يجلبونهم من أوروبا ويقومون بخصائهم بالقرب من الأندلس ، ثم يبيعونهم في أسواق النخاسة⁽⁵⁾. فكان المسلمون في الأندلس يحصلون عليهم إمَّا عن طريق الشراء من هذه الأسواق ، وإمَّا

(1) التيهوم ، هدى حسن : دور الصقالبة في الأندلس منذ عصر الإمارة حتى نهاية عهد الطوائف الأول (180-468هـ) ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة قاريونس (بنغازي ، 1998م) ص 14-15.

(2) بارتولد : الصقالبة ، دائر المعارف الإسلامية ، ترجمة صبحي ، 14/ 254 .

(3) جرجي زيدان : مرجع سابق ، المجلد الثاني ، 494/4 - 495 .

(4) هدى حسن التيهوم : مرجع سابق ، 204-205 .

(5) المقدسي ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر : كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، تحقيق دي غوية ، مطبعة بريل ، ط2 (ليدن ، 1909م) ص 242 . (أعادت طبعه بالأوفست دار صادر بيروت) . كذلك ابن حوقل النصيبي ، أبو القاسم : كتاب صورة الأرض ، تحقيق ج . ك . كرامرز ، مطبعة بريل ، ط 2 (ليدن ، 1938) القسم الأول ، ص 110 . (أعادت طبعه بالأوفست دار صادر بيروت) .

بأسرهم في الحروب الدائرة بينهم وبين الأسيان في الشمال⁽¹⁾. ومن الأندلس كان الرقيق الصقلية ينتشرون في بقية الأقاليم الإسلامية ، ولاسيما المغرب ومصر⁽²⁾. وقد استخدم الفاطميون الصقلية مند قيام دولتهم في بلاد المغرب ، حيث إن أكثر عبيدهم في تلك الفترة كانوا من الصقلية الذين كانوا في الغالب من الخصيان الذين يُجلبون من الأندلس⁽³⁾، والذين ورثتهم الدولة الفاطمية عن الدولة الأغلبية بعد قضائها عليها سنة 296هـ/ 908م⁽⁴⁾.

وقد اهتم الخلفاء الفاطميون بهؤلاء العبيد الصقلية ودققوا في اختيار من يكون أهلاً للخير منهم ، لينشئوهم ويتعهدوهم بالرعاية ويغرسوا الوفاء في أنفسهم ، ويربطوهم بالدولة عن طريق حسن المعاملة وشرف الولاية . والعادة أن يكون الصقلية أرقاءً يُجلبون صغاراً ، فبعد أن يتدرَّجوا في المراتب يُعتقون عتقاً مسجلاً بوثيقة ، ويكون العتق عادةً في مناسبة سعيدة . وكانت الطائفة الأولى من هؤلاء الصقلية طبقة أولى انتسب إليها من جاء بعدهم مع انتسابهم للأئمة أيضاً (الخلفاء) ؛ فهم كطبقة المماليك التي عُرفت بهذا الاسم ، وكانوا مختلطين خصياناً وغير خصيان⁽⁵⁾.

وإزاء النجابة والوفاء التي أظهرها الصقلية مع الفاطميين ، اعتمد عليهم الخلفاء اعتماداً كبيراً ، ولاسيما المعز لدين الله الذي جعل منهم القواد والأمراء في

(1) هدى حسن النيهوم : مرجع سابق ، ص 205 .

(2) المقدسي : مصدر سابق ، ص 242 . كذلك ابن حوقل : مصدر سابق ، القسم الأول ، ص 110 .

(3) الجوزري : مصدر سابق ، ص 3 ، 7-8 (من مقدمة المحققين) .

(4) المصدر نفسه ، ص 35 .

(5) الجوزري : مصدر سابق ، ص 13-14 (من مقدمة المحققين) .

جيشه ودولته منهم على سبيل المثال جوهر القائد الذي ارتبط اسمه بفتح مصر⁽¹⁾، وكذلك نصير الصقلي الذي سيّره المعز قائداً على أحد جيوشه إلى الشام فدخل بيروت سنة 364هـ/974⁽²⁾.

ولما قَدِمَ الفاطميون إلى مصر جلبوا معهم الكثيرين منهم ، فاستوطنوا القاهرة وظهر أثرهم واضحاً وملموساً فيها . وليس أدلُّ على ذلك من انتساب الكثير من الحارات والبساتين والدُّروب والأزقة في العاصمة إلى أشخاص صقالبة . منها حارة الجوذريّة المنسوبة إلى جماعة يُعرفون بالجوذريّة ، وكانوا حوالي الأربعمئة رجل وهم منسوبون إلى جُوذَرٍ خادم المهدي عبيد الله⁽³⁾ . وحارة اليانسيّة التي عُرِفَتْ بطائفة العسكر اليانسية ؛ نسبةً إلى أبي الحسن يانس الصقلي أحد خدام العزيز بالله⁽⁴⁾ . وكذلك بُسْتان الرّيدانية نسبةً إلى ريدان الصقلي (م: سنة 393 هـ / 1002م) حامل المظلة على رأس الخليفة العزيز وكذلك الحاكم . وهذا البستان كان يقع خارج باب الفتوح أحد أبواب القاهرة⁽⁵⁾ . وبُسْتان المُختار الصقلي متولّي زمام القصر الفاطمي ، وكان بستاناً عظيماً وبه منظره عظيمة⁽⁶⁾ . ودرّب نادر المنسوب إلى سيف الدولة نادر الصقلي (م: سنة 382 هـ / 992م)

(1) زيادة ، محمد مصطفى : نقد كتاب سيرة الأستاذ جوذر تصنيف أبو علي منصور العيزري الجوذري ،

المجلة التاريخية المصرية (القاهرة ، 1956م) المجلد الخامس ، ص 178 .

(2) المقريري : تعاض الحنفا ، 218/1 .

(3) ابن عبد الظاهر : الروضة البهية الزاهرة ، ص 54 . كذلك القلقشندي : مصدر سابق ، 357/3 . ابن

تغري بردي : مصدر سابق ، 54/4 .

(4) المقريري : الخطط ، 400/2 .

(5) المصدر نفسه ، 690/2 .

(6) ابن عبد الظاهر : الروضة البهية الزاهرة ، ص 138 . كذلك المقريري : الخطط ، 443/2 .

وهو أحد خدام العزيز بالله أيضاً⁽¹⁾. ودرب الصقالبة الذي بحارة زويلة⁽²⁾، ولا يزال هذا الدرب موجوداً في القاهرة إلى وقتنا الحاضر ، ويُعرف حالياً بشارع الصقالبة بقسم الجَمَّالية⁽³⁾.

وقد حقق الصقالبة نجاحاً كبيراً مع الفاطميين في مصر ، وذلك بما تَوَلَّوه من مناصب رفيعة في دولتهم ؛ حيث كانوا يُكوِّنون عنصراً مهماً في الجيش والحرس الفاطميين⁽⁴⁾. كما اعتمد عليهم الخلفاء الفاطميون في تولي بعض الأقاليم والولايات وإدارتها خارج البلاد . هذا إلى جانب الوظائف التي شغلوها داخل القصور الفاطمية ، والتي ليس من المبالغة لو قُلْتُ إنها كانت شبه حِكْرٍ عليهم ، ولاسيما تلك التي تتعلق بخدمة الخلفاء الفاطميين ؛ كتولي أمر الستر⁽⁵⁾، وتولي حمل مظلَّه الخليفة في المواكب والمواسم والأعياد⁽⁶⁾. وكذلك حمل رمحه وسيفه⁽⁷⁾. وغير ذلك من الوظائف التي ملأت القصور واحتصوا بها ، فلا عجب أن كان الصقالبة زمن

(1) المقرئزي: الخطط ، 458 / 2.

(2) ابن عبد الظاهر : الروضة البهية الزاهرة ، ص 57.

(3) ابن تغري بردي : مصدر سابق ، 55 / 4 ، هامش (4) .

(4) المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، 128/2 ، هامش (1) .

(5) المسبحي : مصدر سابق ، 55/1 . وعن هذه الوظيفة يعتقد الدكتور جمال الدين الشَّيْبَال أن صاحبها هو الذي كان يتولَّى أمر الستارة التي تحجب الخليفة الفاطمي على عرشه حتى يُعَدَّ المجلس - في مجالسه العامة - ثم تُرفع بعد ذلك . = المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، 97/1 ، هامش (3) .

(6) القُضاعي ، محمد بن سلامة بن جعفر بن علي بن حكمون : عيون المعارف وأخبار فنون الخلائف ، تحقيق جميل عبد الله المصري ، مركز البحوث وإحياء التراث الإسلامي (مكة المكرمة، 1995 م) ص 574 ، 579 . كذلك المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، 48/2 .

(7) ابن خلكان : مصدر سابق ، 270/1 .

الفاطميين يُشكّلون طائفة ذات أهمية اعتمد عليها الفاطميون كثيراً داخل قصورهم وخارجها⁽¹⁾.

2- الروم :

شكّل الروم عنصراً من عناصر سكان مصر في العصر الفاطمي . وقد عرفت مصر الروم منذ قدم الزمان ؛ حيث إنها كانت ولاية من الولايات الخاضعة لهم منذ سنة 47ق.م . واستمرت على ذلك إلى الفتح الإسلامي لها حوالي سنة 20 هـ/640م أي ما يعادل سبعة قرون تقريباً⁽²⁾.

وقبيل الفتح كان بمصر طائفة من الروم بلغت عددها حوالي الثلاثمائة ألف ، كان جُلهم من الجند المقاتلين الذين استطاع المسلمون هزيمتهم وطردهم بعد قتالٍ وممانعة⁽³⁾ . ولم ينقطع وجودهم عن مصر منذ ذلك الوقت ؛ حيث إن كثيراً منهم أعلنوا إسلامهم ورفضوا الرجوع إلى بلادهم ، آثرين البقاء في مصر مُستظّلين بالعدل الإسلامي فيها⁽⁴⁾.

وفي أيام الدولة الطولونية زاد عددهم في مصر ، وصاروا يُشكّلون جزءاً من جيش أحمد بن طولون ، الذي عمل على الاستكثار منهم كجند مرتزقة لتقوية دولته فأسكنهم معه في مدينته (القطائع)، ففي القطيعة التي عرفت بهم (قطيعة الروم)⁽⁵⁾.

(1) المسبحي : مصدر سابق ، 1/ 87. كذلك المقرئبي : اتعاظ الحنفا ، 2/ 127.

(2) عبد الهادي ، جمال : فتح مصر (20هـ/641م)، دار الطباعة والنشر الإسلامية (القاهرة ، 1999) ص14.

(3) المقرئبي : الخطط ، 3/ 765.

(4) جمال عبد الهادي : مرجع سابق ، ص 42.

(5) البلوي : مصدر سابق ، ص51، 53 . كذلك المقرئبي : الخطط، 1/ 865 ، 869 .

أمّا عن الفاطميين فإنهم استخدموا الروم كعبيد لخدمتهم منذ قيام دولتهم بالمغرب⁽¹⁾. ولكنهم لم يلبثوا أن استكثروا منهم وأدخلوهم من ضمن جيوشهم ، ولاسيما في أيام المعز لدين الله الذي كان يعدّ العدة ويُجهّز الجيوش من مختلف الأجناس والطوائف للاستيلاء على مصر . فكان جنده لذلك خليطاً ما بين "كُتامة وروم وصقالبة وبربر ومغاربة ، وكانوا في العدد لا يُحصون لكثرتهم"⁽²⁾.

وقد نزل الروم مع غيرهم من طوائف جند الدولة الفاطمية في مدينة القاهرة واختلطوا لهم فيها حارتين : حارة الروم البرّانية وحارة الروم الجوّانية . وقد عرفنا بمضي الزمن ، وتسهيلاً من الناس في نُطقِهِمَا باسم حارة الروم وحارة الجوّانية ، وكان الوراقون في ذلك الوقت يكتبونهما في الأوراق الرسمية باسميّ حارة الروم السُفلى ، وحارة الروم العُليا المعروفة بالجوانية⁽³⁾.

وفي عصر الحاكم وبالتحديد سنة 392 هـ/1001م وبأمرٍ منه أُخرج الروم من حارتهم التي يسكنون بها ، وهُدِمَ ما كان لهم فيها من المنازل والكنائس ، وعُمِرَ مكانها مسجدٌ كبير في حين حوّل ساكنوها إلى الموضع المعروف بالحَمراء^(*) ، وعملوا لهم بها حارة أنشؤوا فيها ثلاث كنائس عوضاً عن الكنائس التي هُدِمَت لهم في حارتهم السابقة⁽⁴⁾.

(1) عماد الدين : تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ، ص 177.

(2) ابن إياس : المصدر السابق ، 36/1 .

(3) الإسكندراني ، محمد أبو الحسن: شَرَحُ لُمَعَةٍ من أخبار الإمام المعز لدين الله ، مخطوط تحت رقم (1761) وميكروفيلم (507). بمتحف المخطوطات والكتب النادرة. بمكتبة الإسكندرية ، ورقة 6 ظهر . كذلك ابن عبد الظاهر : الروضة البهية الزاهرة ، ص 21 .

(*) الحَمراء : منطقة بمدينة الفسطاط = ياقوت الحموي : مصدر سابق ، 301/2 .

(4) الأنطاكي : يحيى بن سعيد بن يحيى : تاريخ الأنطاكي " المعروف بصلة تاريخ أوتياخا " ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري ، جرّوس برس (طرابلس الشام ، 1990م) ص 253 .

وعلى الرغم من وجود الروم واستيطانهم لمصر في العصر الفاطمي ، إلا أنه لم يكن لهم ظهور واضح أو مشاركات بارزة فيها . ولم يرد ذكرهم كبقية العناصر السابقة في صنع مجريات الأحداث في ذلك الوقت اللهم إلا في حادثة واحدة في أواخر عصر العزيز بالله وتحديدًا سنة 386هـ/996م . وذلك عندما احترق الأسطول الفاطمي بدار الصناعة التي بالمقس^(*) وأتت النار على جميع ما فيه من العدة والسلاح ، حتى لم يبقَ منه غير ستة مراكب فارغة لاشيء فيها . فأتتهم بذلك الروم المقيمون بجوار دار الصناعة ، فثار عليهم المغاربة وعامة الناس ، وأعملوا فيهم القتل حتى قُتل منهم مائة وسبع أنفس⁽¹⁾، وفي رواية أخرى مائة وستون⁽²⁾، وقاموا بطرح جثثهم في الطرقات .

ولم يكتفِ العامة بذلك بل قاموا بمهاجمة دارهم التي بالقرب من دار الصناعة، ونهبوا ما كان فيها من أمتعة وأموال وغير ذلك⁽³⁾. وتمادوا في اعتداءاتهم إلى أن نهبوا كنيسة ميخائيل التي للملكية^(**) بقصر الشمع^(***) وأخذوا ما بها من

(*) المقسُ: ضيعة بين يدي القاهرة كانت تُسمى قبل الإسلام بأَم دُئِن، وكانت فيها حصن ومدينة قبل بناء الفسطاط = ياقوت الحموي : مصدر سابق ، 175/5 . وسبب تسميتها بالمقس : لأن العشار ، وهو المكأس كان فيها يستخرج الأموال فليل له المكأس ، ثم قيل المقس . = ابن تغري بردي : مصدر سابق ، 57-56/4 .

(1) المقريري : الخطط ، 21/3 .

(2) الأنطاكي : مصدر سابق ، ص 233 .

(3) المقريري : الخطط ، 21/3 .

(**) الملكية أو الملكانية : هو المتواتر في الكتب بإحدى الفرقتين الدينيتين اللتين نشأتا في مصر المسيحية قبل الإسلام والثانية هي " اليعقوبية" . والملكية على مذهب الكاثوليك = الأنطاكي : مصدر سابق ، ص 253 ، هامش (4) .

(***) قصر الشمع : قصر كان في موضع الفسطاط من مصر قبل تمصير المسلمين لها . = ياقوت الحموي : مصدر سابق ، 357/4 .

متاع وأواني من ذهب وفضة. كما نهبوا كنيسة النسطورية^(*) التي مات أسقفها متأثراً بجراح من جرّاء الاعتداء عليه⁽¹⁾. فكانت ثورة عارمة من الناس بلغ فيها حدّهم وكرهيتهم للروم لدرجة أنّ "أغلب أحداث الناس وعامتهم يلعبون برؤوس القتلى ويجرّون بأرجلهم في الأسواق والشوارع"⁽²⁾.

ولم تسكت الحكومة الفاطمية عن هذا الاعتداء الصارخ على الروم ، فسارع عيسى ابن نسطورس^(**) ومعه بعض كبار رجال الدولة إلى مكان الحادث وقام بإيقاف عملية الاعتداء هذه . وتُودي في البلد بأن يرد كل واحد من النّهابة ما أخذه من الروم "ومن علم بشيء أو كتم شيئاً أو جحده أو أخره حلت به العقوبة الشديدة"⁽³⁾. وأخذ ابن نسطورس في تتبع النهابة وقبض على الكثيرين منهم وأنزل عليهم أشد العقوبات؛ فقد أمر بضرب أعناق بعضهم ثم صلّبهم ، وآخرون أمر بسجنهم ، في حين أنّ بعضهم الآخر جُلِدُوا بالسياط وطُيف بهم وفي عنق كل واحدٍ منهم رأس رجلٍ ممن قتل من الروم⁽⁴⁾. أمّا من نجا من الروم من

(*) النسطورية أو النساطرة : نسبةً إلى نسطور بطريك القسطنطينية سنة 431م وهو مذهب أقرب إلى التوحيد. = الأنطاكي : مصدر سابق ، ص 253 ، هامش (1).

(1) الأنطاكي : مصدر سابق ، ص 233 .

(2) المقريري : الخطط ، 21/3 .

(**) كان نصرانياً من أقباط مصر تولّى الوزارة للعزیز سنة 380هـ/990م فمال للنصارى وقلّدهم الأعمال والدواوين في حين طرد المسلمين منها. فضجّ الناس بالشكوى للخليفة العزیز فعزله عن منصبه ولكنه لم يلبث أن أعاده إليه شريطة أن يستخدم المسلمين في دواوينه وأعماله . = ابن القلانسي : مصدر سابق ، ص 33 .

(3) المقريري : الخطط ، 21/3 .

(4) المصدر نفسه ، 21/3-22 .

حوادث القتل هذه فقد أُحضروا وعُوِّض كل شخصٍ ما انْتَهَبَ منه أو فقده في هذه الفتنة⁽¹⁾.

ونلاحظ العقوبة الشديدة التي أنزلتها الحكومة الفاطمية على القائمين بهذه الفتنة، وقد ذكرت فيما سلف أن الفاطميين منذ قيام دولتهم في مصر اهتموا بالمحافظة على الأمن والنظام فيها ، وكيف أنهم كانوا يعاقبون المشاغبين وعاملي الفتن بأقصى أنواع العقوبات ، التي منها الجلد والسجن وفي بعض الأحيان القتل ورمي الجثث للكلاب أيضاً . ومن غير شك أن الحكومة الفاطمية كانت تهدف من وراء هذه القسوة إلى فرض سطوتها وهيبتها على الناس ، وكذلك لردع المعتدين وجعلهم عبرةً لغيرهم ، حتى لا تتكرر أمثال هذه الاعتداءات التي تُؤثّر سلباً على سير الحياة العامة في المجتمع ، وتؤدي إلى نزاع الأمن والطمأنينة من قلوب سكانه ، مما يجعلهم يفقدون ثقتهم في حكومتهم، فتعم الفوضى البلاد ، ويبدأ المجتمع في الانحلال داخليا ، هذا الانحلال الذي سيؤدي في نهاية المطاف إلى انهيار كيان الدولة ومن ثمَّ سقوطها .

3- الدَّيْلِم :

الدَّيْلِم جيلٌ من الناس يسكنون في بلاد الديلم ، التي هي الجزء الجبلي من جيلان^(*)(2) . ويجدُّها من الجنوب قزوين والطرْم وشيءٌ من أذربيجان وبعض من بلاد الري ، ويتَّصلُ بها من جهة المشرق بقية أعمال الري وطبرستان . في حين

(1) الأنطاكي : مصدر سابق ، ص 234 .

(*) جيلان : اسم لبلاد كثيرة وراء طبرستان ، لا تحتوي على مدينة كبيرة بل هي مجموعة من القرى في مروج بين جبال = ياقوت الحموي: مصدر سابق، 201/2.

(2) إيوار : الديلم ، دائرة المعارف الإسلامية ، ترجمة إبراهيم زكي حورشيد ، 367/9 .

يَتَّصِلُ بِهَا مِنَ الشَّمَالِ بَحْرَ الْخَزْرِ ، وَمِنَ الْمَغْرِبِ شَيْءٌ مِنَ أَدْرِيَجَانَ وَبِلْدَانَ الرَّانِ⁽¹⁾ .
وَتَمْتَلِيزُ هَذِهِ الْبِلَادُ بِأَنَّهَا جِبَالٌ مَنِيعَةٌ مَفِيدَةٌ لِلتَّحْصَنِ ، وَهِيَ كَثِيرَةُ الْغِيَاضِ
وَالشَّجَرِ⁽²⁾ .

وَقَدْ اِخْتَلَفَ الْمُؤَرِّخُونَ وَالْجُغْرَافِيُونَ الْعَرَبُ حَوْلَ أَصْلِ الدَّيْلِمِ ، فَقَدْ حَاوَلَ
بَعْضُهُمْ أَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَسَبًا عَرَبِيًّا ، فَذَكَرُوا أَنَّهُمْ مِنْ بَنِي ضَبَّةَ وَأَنَّهُمْ هَاجَرُوا فِي الْبَدْيِ
إِلَى أَدْرِيَجَانَ ثُمَّ تَفَرَّقُوا فِي الْبِلَادِ الَّتِي هِيَ مَوْطَنُهُمُ الْآنَ . وَكَانَتْ هِجْرَتُهُمْ بِسَبَبِ
نِزَاعٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ جِيرَانِهِمْ مِنَ الْقَبَائِلِ الْآخَرَى . وَعِنْدَ هِجْرَتِهِمْ افْتَرَقُوا فِرْقَتَيْنِ ؛ لِأَنَّ
كَانُوا يُنْسَبُونَ إِلَى أُخْوَيْنِ "دَيْلِمٍ" وَ"جَيْلٍ" فَبَقِيَتْ ذَرِيَّةُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْأَخْوَيْنِ
مَنْسُوبَةٌ إِلَيْهِ . وَعَلَى هَذَا الْأَسَاسِ يَرْجِعُونَ إِلَى أَصْلِ عَرَبِيٍّ . وَلَكِنْ لَمْ يَأْخُذْ مَعْظَمُ
الْمُؤَرِّخِينَ بِهَذَا الرَّأْيِ وَوَقَفُوا مِنْهُ مَوْقِفًا مَتْحَفْظًا⁽³⁾ ، فِي حِينِ رَفْضِهِ ابْنَ خَلْدُونَ
بِتَاتَا⁽⁴⁾ .

وَهَنَّاكَ مِنْ يَرَى بِأَنَّ الدَّيْلِمَ جَنْسٌ مَتَمْتِيزٌ عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَجْنَاسِ ، وَكَذَلِكَ
الْجَيْلِ^(*) . وَإِنْ مَنَاطِقُهُمُ الَّتِي سَكَنُوهَا فِي الْجَنُوبِ الْغَرْبِيِّ مِنْ بَحْرِ قَزْوِينَ هِيَ مَوْطَنُهُمْ
الْأَصْلِي ، وَقَدْ تَمَيَّزُوا عَنْ غَيْرِهِمْ بِصِفَاتٍ وَعَادَاتٍ وَأَخْلَاقٍ خَاصَّةٍ مِمَّا أَعْطَاهُمْ
شَخْصِيَّةً مَسْتَقْلَةً . وَمِمَّا يُوَكِّدُ عَلَى هَذِهِ الشَّخْصِيَّةِ الْمَسْتَقْلَةِ اللُّغَةُ ؛ فَمَعْظَمُ

(1) الْأَصْطَخْرِيُّ ، أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْفَارَسِيِّ : الْمَسَالِكُ وَالْمَمَالِكُ ، تَحْقِيقُ مُحَمَّدِ جَابِرِ عَبْدِ الْعَالِ
الْحَيْبِيِّ ، دَارُ الْقَلَمِ (الْقَاهِرَةُ ، 1961) ص 121 .

(2) الْمَصْدَرُ نَفْسُهُ وَالْجُزْءُ وَالصَّفْحَةُ . كَذَلِكَ ابْنُ حَوْقَلٍ : مَصْدَرٌ سَابِقٌ ، الْقِسْمُ الثَّلَاثِي ، ص 375 .

(3) مَنِيمَةٌ ، حَسَنٌ : تَارِيخُ الدَّوْلَةِ الْبُوَيْهِيَّةِ السِّيَاسِيَّ وَالْاِقْتِصَادِيَّ وَالْاجْتِمَاعِيَّ وَالثَّقَافِيَّ - مِقَاطَعَةُ فَارَسِ -
334-447 هـ / 945-1055 م) ، الدَّارُ الْجَامِعِيَّةُ (بِدُونِ مَكَانٍ ، 1987) ص 84 .

(4) ابْنُ خَلْدُونَ : الْعَبْرُ وَدِيْوَانَ الْمَبْتَدَأِ وَالْخَبْرِ ، 10/2 .

(*) الْجَيْلُ هُمُ أَهْلُ جَيْلَانَ الْمَذْكُورَةِ أَنْفَا = يَاقُوتُ الْحَمَوِيِّ : مَصْدَرٌ سَابِقٌ ، 202/2 .

الجغرافيين العرب يقرُّون بأن لغة الديلم تختلف عن غيرها من عربية وفارسية وأرمنية ، بل إنَّه في منطقة الديلم نفسها قبيلة تتكلم لغة تختلف عن لغة الديلم والجيل⁽¹⁾. يقول ابن حوقل(م:سنة 380هـ / 990م) : "ولسانهم منفرد عن الفارسية والرائية والأرمنية ، وفي بعض الجليل ففة وطائفة تخالف لسان الجليل والديلم"⁽²⁾.

وقد وصف المؤرخون والجغرافيون الديلم بالعديد من الأوصاف ، فيقول فيهم ابن حوقل : "والغالب على خَلْقِهِم النحافة وخِفَّةُ الشعر ، والعجلة والطيش والبدار وقلةُ المبالاة والاكتراث"⁽³⁾. ويصفهم المقدسي (م:سنة 380هـ / 990م) بأنهم : "لا ترى لهم لباقة ولا علم ولا ديانة... ولهم رسوم عجيبة"⁽⁴⁾. أمَّا القزويني (م:سنة 682هـ / 1283م) فيراهم : " أشد الناس حُمقاً وجَهلاً ! بينهم قتال فإذا قُتل واحد منهم قتلوا من تلك القبيلة أيَّ واحدٍ كان "⁽⁵⁾.

وإلى جانب هذه الصفات عُرفوا بصفة أساسية اشتهروا بها وهي : الصلابة والقدرة على التحمل " وصبرهم على المجاعة والشدة في الحرب"⁽⁶⁾. وهذه الصفات جميعها جعلت منهم شعباً محارباً مقاتلاً ، اشتهروا كقُوَّات عسكرية مشاة في الجيوش المختلفة ، وإن كانوا دائماً نموذجاً للقوات المرتزقة التي تنتقل من طاعة أمير

(1) حسن منيمنة : مرجع سابق ، 84-85 .

(2) ابن حوقل : مصدر سابق ، القسم الثاني ، ص 376 .

(3) المصدر نفسه ، ص 376-377 .

(4) المقدسي : مصدر سابق ، ص 355 .

(5) القزويني : مصدر سابق ، ص 330 .

(6) مسكويه ، أبو علي أحمد بن محمد: كتاب تجارب الأمم وتعاقب الهمم ، تحقيق هـ . ف. آمدروز ، شركة التمدن الصناعية (القاهرة ، 1915م) 140/2 . (أعدت طبعه بالأوفست مكتبة المنى ببغداد) .

أو دولة إلى طاعة خُصومِهما وراء الكسب المادي فقط والمنفعة المباشرة ، ولمَّ يشعروا إطلاقاً بحرج في ذلك⁽¹⁾.

ولطبيعة الديلم المتقلبة الشرسة أثرها في عدم دخول الإسلام لبلادهم مبكراً ، حيث كانوا من أكثر الشعوب تمرداً ومقاومة للفتح الإسلامي ، لدرجة أن الحملات العسكرية الإسلامية لبلادهم قد بلغت من عصر الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه (13-23هـ/634-643م) إلى عصر الخليفة العباسي المعتصم بالله (218-227هـ/823-227م) حوالي عشر غزوات . وعلى الرغم من خضوعهم للمسلمين في هذه الغزوات وقبولهم الصلح ودفع الجزية ، إلا أنهم كانوا لا يلبثون أن يشقُّوا عصا الطاعة ويمتنعوا عن دفع الجزية ، فترسل لهم الخلافة الإسلامية قوات لإخضاعهم من جديد⁽²⁾.

واستمر حالهم على ذلك وظلُّوا على وثنتهم واستقلالهم إلى أن دخل الإسلام بلادهم في وأخر القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي على يد الحسن بن علي بن الحسن الأطروش^(*)، الذي مكثَ بينهم نحواً من ثلاث عشرة سنة ، أخذ يدعوهم فيها إلى الإسلام ؛ فاجتمعوا عليه واستجابوا له وأسلم منهم خلقٌ

(1) حسن منيمنة : مرجع سابق ، ص 86 .

(2) البلاذري ، أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر : فتوح البلدان ، راجعه وعلّق عليه رضوان محمد رضوان ، دار الكتب العلمية (بيروت ، 1978م) ص 313-320 .

(*) الحسن بن علي بن الحسن بن عمر بن زين العابدين العلوي الهاشمي ، أبو محمد، الملقب بالناصر ، ثالث ملوك الدولة العلوية بطبرستان . كان شيخ الطالبين وعالمهم ، وُلد بالمدينة سنة 325هـ/936م وتوفي بطبرستان سنة 403هـ/916م . وعُرف بـ(الأطروش) لصمم أصابه من ضربة سيف في إحدى المعارك = خير الدين الزركلي : مرجع سابق ، 200/2 .

كثير. فبني لهم الأطروش المساجد في بلادهم ليعبدوا فيها اسم الله وليحافظوا على إيمانهم⁽¹⁾.

أمّا عن الديلم في مصر في عصر الدولة الفاطمية فقد بدأ ظهورهم فيها زمن الخليفة العزيز بالله الذي كان مُعَرِّمًا باصطناع العناصر المشرقية والاستكثار منها على حساب العناصر المغربية. فكان أن أدخل الكثير من الديلم في عساكره⁽²⁾، وقدّمهم مع الأتراك وجعلهم من رجاله وخاصته، الأمر الذي أثار حفيظة المغاربة وغيرتهم فكان التحاسد والتنافس بينهما مستمراً إلى أن مات العزيز بالله سنة 386هـ/ 996م⁽³⁾.

وكان للديلم في زمن العزيز مبانٍ كثيرة في القاهرة، فاختموا لهم حارة بجوار باب زويلة القديم عرفت بحارة الديلم، كما عرفت بعد ذلك بحارة الأمراء وبحارة خوش قدم⁽⁴⁾. وهي منسوبة إلى الديلم الواصلين صُحبة أفتكين المعزّي غلام مُعز الدولة بن بُويّه^(*)، وذلك حين قَدِمَ إلى القاهرة ومعه أولاد مولاه وجماعة من

(1) ابن الأثير: مصدر سابق، 481/6.

(2) ابن إياس: مصدر سابق، 37/1.

(3) المقرئ: الخطط، 390/2.

(4) مبارك، علي: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، المطبعة الكبرى الأميرية (بولاق، 1306هـ) 10/1.

(*) أبو الحسين أحمد بن أبي شجاع بويه فَنَاحَسُرُو الملقب مُعز الدولة. أحد ملوك الديلم ولد سنة 303 هـ/ 915م، وفي جمادى الأولى من سنة 334 هـ/ 945م دخل بغداد متملكاً لها فملكها بلا كلفة، وكانت مدة ملكه للعراق إحدى وعشرين سنة وأحد عشر شهراً. وتوفي في ربيع الآخر من سنة 356 هـ/ 966م، ودفن بداره في بغداد. = ابن خلكان: مصدر سابق، 174/1 - 176.

الديلم والأتراك⁽¹⁾. فترل الديلم هذه الحارة في حين نزل أفتكين بأتراكه في حارة الأتراك أو كما عرفت بعد ذلك بدرب الأتراك⁽²⁾.

ولم يكن للديلم ذكر ومشاركات كثيرة في أحداث المجتمع الفاطمي ، إلا أنهم اشتهروا كطائفة من طوائف الجند الرَّاجِلَة ، كان لها قُوَاد ومقدّمون يأتمرون لها⁽³⁾. وكانت تشارك مع غيرها من طوائف الجند الأخرى في احتفالات الركوب^(*) وذلك بالخروج مع الخليفة والوزير وكبار رجال الدولة في استعراضات يشقون بها شوارع القاهرة في بعض أعياد الدولة ولاسيما الاحتفال بأول العام الهجري⁽⁴⁾ ، وبعيد فتح الخليج⁽⁵⁾.

وقد أورد ناصر خسرو وصفاً شيقاً لاحتفال ركوب فتح الخليج كما شاهده بنفسه في عصر الخليفة المستنصر ، عارضاً فيه بالتفصيل طوائف الجند المشاركة في هذا الاحتفال بما فيها طائفة الديلم ، التي كانت تسير أمام الخليفة في الاستعراض . فيقول فيهم : " وأمامه - يعني الخليفة المستنصر - ثلاثمائة راجل

(1) الإسكندراني : مصدر سابق ، ورقة 4 وجه . كذلك ابن عبد الظاهر : الروضة البهية الزاهرة ، ص 22.

(2) المقرئزي : الخطط ، 387/2 .

(3) القلقشندي : مصدر سابق ، 482/3 .

(*) هي احتفالات يخرج فيها الخليفة والوزير ورجال الدولة والجيش في موكب رسمي ، وقد لبسوا الملابس الفاخرة واصطحبوا الآلات الملوكية المميزة وذلك في أيام معلومة خلال العام . وكان هذا الركوب على نوعين : الأول الركوب في المواكب العظام وهي : ركوب الخليفة في أول العام الهجري ، وركوبه أول شهر رمضان وركوبه في أيام الجمع الثلاث من شهر رمضان ، وركوبه لصلاة عيد الفطر والأضحى ، وركوبه لتخليق المقياس عند وفاء النيل ، وركوبه لفتح الخليج . أما النوع الثاني من الركوب ، فهو الركوب في المواكب المختصرة ، وهي : أربعة أيام أو خمسة فيما بين أول العام الهجري وشهر رمضان ولا يتعدى ذلك يَوْمِي السبت والثلاثاء = القلقشندي : مصدر سابق ، 503/3 - 521 .

(4) المصدر نفسه ، 508/3 .

(5) ناصر خسرو : مصدر سابق ، ص 112 .

دَيْلَمِي عليهم ثياب رومية مُذَهَّبَةٌ ، وقد حزموا خصورهم وأكمامهم واسعة كما يلبس رجال مصر ، ومعهم النَّشَاشِيْب والسهم وقد عصبوا سيقانهم "(1).

وعلى الرغم من قلة أعداد الديلم في مصر الفاطمية ، ومن عدم ظهورهم فيها بشكل واضح ، إلا أنهم استطاعوا تخليد اسمهم في تاريخها ؛ فإلى جانب حارتهم التي عُرفَتْ بهم في القاهرة ، أُطْلِقَ اسم الديلم على أحد أبواب القصر الفاطمي الكبير (الشرقي) وهو الباب الذي يُدخَلُ منه إلى المشهد الحسيني (2)*.

4- العُزُّ :

العُزُّ طائفة من الترك ، وهم أهل بادية لهم بيوت من شعر يَحَلُّون بها فترة ثم يرتحلون (3). كانوا يدينون بالإسلام ويعيشون في بلاد ما وراء النهر ، ولم يلبثوا أن تركوها قسراً ورحلوا عنها إلى خُرَّسان ، فأقاموا بنواحي بَلْخ يراعون في مراعيها (4). وقد دخلوا في طاعة سلاطين بني سلجوق (447- 590 هـ/ 1055- 1193م)، فكانوا يدفعون لهم خراجاً سنوياً استمروا في دفعه إلى زمن السلطان سنجر بن

(1) ناصر خسرو : مصدر سابق ، ص 112 .

(*) مشهد الحسين : هو المكان الذي دُفِنَ فيه رأس الحسين بن علي بن طالب (رضي الله عنهما) ، بعد جلبه من عسقلان . ويقع هذا المشهد داخل القصر الفاطمي ، وهو من عمل الخليفة الفائز بنصر الله (549- 555هـ/ 1154-1160م) ، وقد نقل إليه الرأس سنة 549هـ/ 1154م . = ابن عبد الظاهر : الروضة البهية الزاهرة ، ص 30 . كذلك القلقشندي : مصدر سابق ، ص 351/3 .

(2) القلقشندي : مصدر سابق ، ص 350/3 . كذلك المقرئزي : الخطط ، ص 223/2 . ابن تغري بردي : مصدر سابق ، ص 37/4 .

(3) ابن فضالان ، أحمد بن فضالان بن العباس بن راشد بن حماد : رسالة ابن فضالان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة 309 هـ / 921م ، حققها وعلّق عليها وقَدَّم لها سامي الدّهان ، المجمع العلمي العربي (دمشق، 1960) ص 91 .

(4) ابن الأثير : مصدر سابق ، ص 384/9 .

ملكشاه (490-552هـ/1096-1157م) . حيث امتنعوا بعد ذلك عن دفع ما كان مُقررًا عليهم فنشب الصراع بينهم وبينه سنة 548هـ/1153م ، وانتهى بهزيمته ومقتل معظم جنده ، واستطاع الغز أسره هو وزوجته وقاموا بنهب أملاكه ومُدخراته ، ولم يكتفوا بذلك بل امتدَّ نهبهم وتشريدهم للأهالي حتى شمل كَرمان ونيسابور وطوس ومعظم بلاد خُرسان⁽¹⁾ . وعلى الرغم من انتصارهم وتحريرهم من سلطان السلاجقة واكتساحهم لأملاكهم إلا أنهم لم يستطيعوا أن يُكوّنوا حكومة أو دولة خاصّة بهم⁽²⁾ .

أمّا عن الغز في مصر فإنهم كانوا يُشكّلون في العصر الفاطمي طائفة من طوائف الجند كان لها قوَّاد ومقدمون يحكمون عليها⁽³⁾ ، وكانت لها مشاركات مع غيرها من طوائف الجيش الأخرى في استعراضات الجيش في الاحتفالات والأعياد الفاطمية⁽⁴⁾ .

وفي أواخر سنين الدولة ازداد عددهم في مصر وتحدّياً في القاهرة ؛ حيث إنهم كانوا يُشكّلون غالبية عظمى في جيش نور الدين زنكي (541 - 569 هـ / 1146-1173م) الذي أرسله إلى مصر سنة 564هـ/ 1168م تحت قيادة أسد الدين شيركوه (م: سنة 564هـ/1168م)، وذلك لمحاربة الفرنجة وطردهم منها⁽⁵⁾ .

(1) ابن الأثير : مصدر سابق ، 384/9 - 385 . كذلك حلمي ، أحمد كمال الدين : السلاجقة في التاريخ

والحضارة ، ذات السلاسل ، ط2 (الكويت ، 1986م) ص 135 - 137 .

(2) المرجع نفسه ، ص 145 .

(3) القلقشندي : مصدر سابق ، 482/3 .

(4) المصدر نفسه ، 508/3 .

(5) المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، 393/3 - 300 .

وبعد وفاة شيركوه واستلام ابن أخيه صلاح الدين الأمر من بعده ، كان للجنح الغز الفضل الأكبر في نصرته وفي تثبيت سلطانه في مصر ، حيث إنهم جاهدوا وبشجاعة الفتنة التي قام بها السّودان بقيادة مؤتمن الخلافة ، والتي حاولوا فيها الإطاحة به والتحرر من نفوذه⁽¹⁾. فلولا العُز وبسالتهم في هذه الفتنة لَمَا انتصر صلاح الدين ، ولَمَا قامت الدولة الأيوبية في مصر محلّ الدولة الفاطمية .

5- الأكراد :

كان الأكراد من ضمن عناصر السّكان الذين شكّلوا المجتمع المصري في العصر الفاطمي ؛ فقد ورد ذكرهم - هم الآخرون- كفرقة من فرق الجيش كانت لها مشاركات في أعياد الدولة واحتفالاتها⁽²⁾. والأكراد شعبٌ يعودون في أصلهم إلى الجنس الإيراني ، أي إلى العرّق الهندي الأوروبي⁽³⁾. وهم قومٌ أشداء وأكثرهم أهل بادية وخصونة وجفاء ، يقيمون في الخيام وينقسمون إلى قبائل وعشائر وبطون. وهم أقلّ قبولاً للحضارة من الفرس والترك وغيرها من الأمم الشرقية التي دانت للإسلام . وكانت الدول تستعين بهم في الحروب البدوية الشبيهة بالغزو ، ومقامهم على الأكثر في كردستان وأرمينية وجزيرة العراق كالموصل وديار بَكْر^(*)(4).

(1) المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، 311/3-314 . كذلك المقرئزي : الخطط ، 371/2-373 .

(2) القلقشندي : مصدر سابق ، 482/3 ، 508 . كذلك عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ، 200/1 .

(3) مُعَوّض ، أديب ناصيف : الأمة الكردية ، دار الغمّار (الحازمية ، بدون تاريخ) ص 19 .

(*) ديارُ بَكْر : ناحية بين الشام والعراق ذات مدن وقرى كثيرة ، قصبته الموصل وحرّان ، وبها نهر دجلة

والفرات = القزويني : مصدر سابق ، ص 368 . كذلك القرماني : مصدر سابق ، 368/3 .

(4) جرجي زيدان : مرجع سابق ، المجلد الثاني ، 474/4 .

وفي مصر استوطن الأكراد القاهرة وسكنوا حارة البستان فيها ، التي كانت تعرف أيضاً بحارة الأكراد⁽¹⁾. ويبدو أنهم كانوا قليلي العدد وليس لهم أي تأثير يُذكر في المجتمع المصري في العصر الفاطمي؛ فقد أهمل مؤرخو الدولة الفاطمية ذكرهم في كتاباتهم عند الحديث عن مجريات الحياة في مصر في تلك الفترة .

ولكن من المؤكد أن أعدادهم قد تزايدت قبيل سقوط الدولة الفاطمية ، وبالتحديد بعد قدوم أسد الدين شيركوه وصلاح الدين - الكُرْدِيِّينَ الأَصْل - إليها سنة 564 هـ/1168م . ولاسيما أن صلاح الدين لما استتب له الأمور وصار السلطان الفعلي في البلاد في يده لا في يد الخليفة الفاطمي، أرسل في طلب والده وإخوته وأقاربه ، فقدم الكثير منهم من الشام في سنة 565 هـ/1169م⁽²⁾.

ولم يكتفِ صلاح الدين بإحضار أهله وأقاربه ، بل عمل على جلب الكثيرين من أبناء جلدته من الأكراد - الذين يثق فيهم - وجعلهم عماد جيشه المصري . فقد ذكر ابن إياس - كما أسلفت الذكر - أن صلاح الدين لما انفرد بملك الديار المصرية عمل على إزالة ما كان بمصر من عساكر مملوكة ، كانت ما بين صقالبة ومصامدة وأرمن وعرب وعبيد سود وغيرهم ؛ فَمَحَا تلك الطوائف جميعها وأتخذ بمصر عساكر من الأكراد خاصة ، كانت عدّتهم اثني عشر ألف فارس من شجعان الرجال الذين لا يكلون الحروب⁽³⁾.

(1) المقرئزي : الخطط ، 395/2 .

(2) ابن شدّاد ، بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق جمال الدين الشيال ، مكتبة الخانجي ، ط2 (القاهرة ، 1990م) ص 85 . كذلك أبو شامة : عيون الروضتين ، القسم الأول ، ص 293-294 . المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، 315/3 .

(3) ابن إياس : مصدر سابق ، 56/1 .

هذه هي أهم العناصر السكانية التي تكوّن منها المجتمع المصري في العصر الفاطمي ، والتي كان لها أدوار وأحداث تُذكر سبّرت الحياة فيه . وعلى الرغم من التباين والاختلاف بين هذه العناصر ، ومن الصّراعات التي نشبت فيما بينها في الكثير من الأحيان ، إلا أنّ ذلك لم يمنعها - بعد اندماجها بالمصريين - من إنتاج النهضة التي ظهرت آثارها في جميع نواحي الحياة المصرية - في ذلك الوقت - من اقتصادية واجتماعية وثقافية ومعماريّة وغير ذلك . حيث إن قوة الدولة الفاطمية - التي أنتجت هذه النهضة - نبعت أساساً من قدرتها على الاستفادة من إمكانيات كل الأفراد المنتمين إلى مختلف التكتلات العنصرية والاجتماعية ، التي كانت تؤلف مجموع الشعب المصري استفادة لم يسبق لها مثيل من قبل ، وذلك لمصلحة الدولة والجماعة على حدّ سواء . الأمر الذي جعل من عصر الفاطميين في مصر - بما أرسوه فيها - عصرًا مجيداً ، بل ومُحيراً في تاريخها الطويل⁽¹⁾.



(1) جرونباوم ، جوستاف فون : إنجازات العصر الفاطمي "مقالة وردت ضمن أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة مارس - أبريل 1969م" ، مطبعة دار الكتب (القاهرة ، 1970م) ، 364/1 ، 365 .

الفصل الثاني

طبقات المجتمع المصري في العصر الفاطمي

المبحث الأول : طبقة الخاصة

المبحث الثاني : طبقة العامة

المبحث الثالث : أهل الذمة

انقسم المجتمع المصري في العصر الفاطمي إلى طبقتين اثنتين⁽¹⁾؛ طبقة الخاصة وتتضمن الخليفة والوزير وأرباب الوظائف من الأمراء والقادة وأصحاب الدواوين وولاة الأقاليم... الخ . وهؤلاء عددهم قليل مقارنةً بالطبقة الأخرى العامة التي تشمل بقية سكان مصر من علماء وفقهاء وتجار وحرفيين وفلاحين وفقراء وعبيد وغيرهم .

وتقسيم المجتمع الفاطمي إلى خاصٍّ وعامٍ يختلف عن مفهوم التقسيم عند الكثير من مجتمعات العصور الوسطى، التي كان فيها الخاصة دائماً ما ينفردون بالغنى والعيش الهانئ، والحياة الرغدة الباذخة، في حين أن أغلب العامة يكونون في فقر ومهانة إلا من اتصل منهم بالخاصة⁽²⁾. فالمجتمع المصري في العصر الفاطمي لم ينطبق عليه المفهوم المتعارف عليه لهذا التقسيم، فالعامة فيه وإن كانوا أقل امتيازات وأقل غنى من الخاصة، إلا أنهم كانوا أفضل بكثير من غيرهم في المجتمعات الأخرى المعاصرة لهم؛ حيث تمتعوا بالاحترام والأمان والعيش الرغد في معظم الأوقات، الأمر الذي لفت نظر الرحالة ناصر خسرو عند زيارته لمدينة الفسطاط - مركز العامة - وأثار استعجابه وانبهاره في الوقت نفسه⁽³⁾. حيث أنه لم يرَ رغد الحياة واستقرارها التي كان يعيشها عامة المصريين في العصر الفاطمي لا في مجتمعه - الذي جاء منه - ولا في أيٍّ من المجتمعات الأخرى التي زارها في رحلته. وليس هذا بغريب عن الفاطميين أن تكون طبقة العامة في عصرهم بهذه

(1) القاضي النعمان : كتاب المجالس والمسائرات ، تحقيق الحبيب الفقهي وإبراهيم شُبُوح ومحمد اليعلاوي ،

دار المنتظر (بيروت ، 1996م) ص 556 . كذلك المقرئزي : اتعاط الحنفا ، 126/2 ، 181.

(2) أمين ، أحمد : ظُهر الإسلام ، دار الكتاب العربي ، ط5 (بيروت، بدون تاريخ) 1 / 114 .

(3) ناصر خسرو : مصدر سابق ، ص121 ، 122.

المكانة، وهم الذين سعوا لاكتساب حب وولاء الشعب المصري بجميع فئاته في محاولة للتأثير عليه وإدماجه في المذهب الشيعي⁽¹⁾. وسوف أستهلُّ حديثي في هذا الفصل عن طبقة الخاصة ، وذلك بما يقتضيه واجب التقسيم الهرمي - عن مثل هذه المواضيع - بدءاً من الأعلى إلى الأسفل وهكذا .

المبحث الأول : طبقة الخاصة

أولاً : الخليفة :

الخليفة الفاطمي هو رأس الدولة وقائدها وزعيمها ومُسيِّرها . فالخلافة هي " أشرف ملابس أهل الديانة ، وأزهى حُلل الصِّيانه ، وهي أصل كل سيادة يُتوصَّل إليها ، ورياسة جلّ الاعتماد عليها . إذ هي أجلّ المناصب وأتمها ، وأشرفها وأرفعها وأسناها ، وأنفسها وأعلاها وأغلاها " ⁽²⁾.

وإذا كان تولّي منصب الخليفة لدى أهل السنة يأتي نتيجة انتخاب أو تعيين من الخليفة السابق تؤكد مبايعه عامة ، فإن الإمام الفاطمي هو خليفة من سبقه بموجب الحق الإلهي ، ويُختار ليكون وصياً للنبي (ﷺ) ولعلي بن أبي طالب (ﷺ)^(*). وتنتقل الإمامة من الأب إلى الابن الأكبر ، أي يجب أن تكون في

(1) بدوي ، جمال : الفاطمية دولة التفاريح والتباريح ، دار الشروق (القاهرة ، 2004م) ص 9-11 .

(2) السيوطي : مصدر سابق ، 82/2.

(*) يعتقد الشيعة - من بينهم الفاطميون - أن علياً (ﷺ) كان وصي محمد (ﷺ) والإمام من بعده باختيار إلهي . وحتتهم الكبرى في هذا أن الرسول عليه السلام لما عاد من مكة بعد حجة الوداع سنة 10هـ - 631/ ، نزل بغدير خم (موضع بين مكة والمدينة) وأخى علي بن أبي طالب ، وهناك قام خطيباً في =

الأعقاب⁽¹⁾. وهم يختلفون في ذلك عن الأمويين والعباسيين الذين كانوا يبيحون انتقال الخلافة - أحياناً - إلى الأخ أو ابن العم أو إلى أكبر أفراد الأسرة سنّاً . وكان لهذا النظام الذي اتبعه الفاطميون فوائد كثيرة ، أهمها أنه كان عاملاً من عوامل الاستقرار وأنه جنّب الأسرة والدولة - إلى حدّ كبير - عوامل المنافسة والتراع والتخاصم في سبيل العرش⁽²⁾.

وقد أُحيط شخص الخليفة الفاطمي في مصر بالرهبة والقداسة ، وذلك لما رَوَّجَهُ الدعاة له - بين الأهالي - من صفات خارقة ، عن طريق مدارس خاصّة لتعليم عقائد المذهب الذي يقوم على تقديس الأئمة . فكان من أثر هذه الجهود أن راجت فكرة تقديس الإمام الفاطمي في مصر⁽³⁾، وتيقّن الشعب أن لخليفتهم قدرات خارقة للعادة؛ لأن الله اصطفاه من شجرة النبوة الباسقة - كما يزعمون - ليحكم بين الناس بروح من عنده، فعليهم السمع والطاعة له ، لأن حكمه هو

=الحجيج قائلاً لهم : " ألسنتُ أولى بالمؤمنين من أنفسهم، " قالوا: " بلى يا رسول الله "، قال: " فمن كنت مولاة فعليّ مولاة ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وانصر من نصره، واخذل من خذله " . كذلك وتردد بعض الكتب رواية أخرى مؤداها أن النبي (ﷺ) في أثناء غزوة تبوك قال لعليّ (ﷺ) : " أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى " . ويعلّق الشيعة على هذين الحديثين أهمية كبرى ، إذ يعتبرونهما بمثابة مبايعة علنية من الرسول (ﷺ) قبيل وفاته لعلي بن أبي طالب (ﷺ) = للمزيد يُنظر: عبد المنعم ماجد: نظم الفاطميين ، 52/1 - 53 .

- (1) أيمن فؤاد سيد : مرجع سابق ، ص 248 .
- (2) مجموعة الوثائق الفاطمية : وثائق الخلافة وولاية العهد والوزارة، جمعها وحقّقها وأعدّها للنشر مع دراسات تحليلية مقارنة جمال الدين الشيبان، مكتبة الثقافة الدينية (القاهرة، 2002م) ص 25 (من مقدمة المحقق) .

(3) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص 265 .

الحق والعدل الملهم به له من الله سبحانه وتعالى . فلإمام عند الفاطميين صلة روحية بالله من جنس التي للأنبياء والرسل⁽¹⁾ .

وهو ليس ككل الناس ، قد يجور وقد يعدل وإن جار استطاعت الرعية عزله، وإنما هو إمام "يتلقى علمه من الله عن طريق الوحي، ويُعِدُّه الله إعداداً خاصاً من حين أن يكون نطفة ، ويحفظه برعايته السامية ويعصمه من الذنوب ويورثه علم الأنبياء والمرسلين ويُطلعه على كل ما كان وما سيكون"⁽²⁾ . فهو من طينة تخالف طينة سائر الناس ، لا يُسأل عمّا يفعل وفي يده كل السلطات وما عمله خير، وما نهي عنه فهو شر . وليس لأحد أن يعترض عليه أو يثور في وجهه ، والعدل ما يفعله ؛ لأن حكمه يرتكز على حكم ديني معصوم ، لا يجوز عليه خطأ ولا نسيان . فأمره أمر من الله وفعله بأمر الله ، ومعرفة الله تكون بالائتمام به والبراءة إلى الله عزّ وجل من عدوه⁽³⁾ ؛ لأن الأئمة هم ولاة الله وخزنة علمه ونوره⁽⁴⁾ ، ويؤكد نظرهم تلك قول الخليفة المعز لدين الله وهو يتحدث عن نفسه : " أنا كلمات الله الأزليات ، وأسماءه التامات، وأنواره الشعشعائيات ، وأعلامه النيرات ، ومصايحه البينات ، وبدائعه المنشآت ، وآياته الباهرات ، وأقداره النافذات ، لا يخرج منّا أمر ولا يخلو منّا عصر"⁽⁵⁾ .

(1) الكليني ، أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق: الأصول من الكافي "مع تعليقات نافعة مأخوذة من عدة شروح" ، صحّحه وعلّق عليه علي أكبر الغفاري ، دار الكتب الإسلامية ، ط 3 (طهران ، 1388هـ) - 199/1 - 200 . كذلك عطية مصطفى مشرفة : مرجع سابق، ص 73 .

(2) أحمد أمين : ضحى الإسلام، دار الكتاب العربي ، ط 10 (بيروت، بدون تاريخ) 220/3 .

(3) الكليني : مصدر سابق ، 1 / 180 .

(4) المصدر نفسه ، 199/1 - 200 .

(5) المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، 194/1 .

وإزاء هذه الاعتقادات التي استطاع الفاطميون ترسيخها في عقول بعض الناس ، وإزاء مظاهر العظمة والجلال التي أسبغها خلفاؤهم على أنفسهم ، أصبحوا في نظر عدد كبير من رعيّتهم أشخاصاً مقدسين مهابين لهم سلطاتهم الروحي والديني ، لدرجة أن بعض المقرّبين لهم كانت تأخذهم الروعة وتغلبهم العبرة فلا يستطيعون أن ينطقوا بكلمة في حضرّتهم من جلال الموقف ورهيبته . ويتجلّى ذلك بوضوح في حديث الداعي هبة الله الشيرازي ، الذي يصف فيه مقابلته للخليفة المستنصر بالله في مجلس الخلافة بالقاهرة ، فيقول : " فلم تقع عيني عليه إلا وقد أخذتني الروعة، وغلبتني العبرة ، وتمثّل في نفسي أنني بين رسول الله وأمير المؤمنين - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمَا - ماثل وبوجهي إلى وجهيهما مقابل . واجتهدت عند وقوعي إلى الأرض ساجداً لولي السجود ومستحقه ، أن يشفعه لساني بشفاعة حسنة بنطقه ، فوجدته بعجمة المهابة معقولاً ، وعن مزية الخطابة معزولاً... ومكثت بحضرته ساعة لا ينبعث لساني بنطق ولا يهتدي لقول ، وكلما استطرّد الحاضرون منّي كلاماً ازددت إعجاباً ولعقبة العي اقتحاماً . وهو - خلد الله ملكه - يقول : دعوه حتى يهدأ ويستأنف . ثم قمت أخذت يده الكريمة فترشفتها وتركتها على عيني وصدري وودعت وخرجت..."(1).

ولم تقتصر القداسة على شخص الخليفة فقط، بل ارتبطت بكل ما يتعلق به ، فكان يُضاف إلى كل شيء يخصّه صفة تدلّ على تقديسه مثل: " التاج الشريف"(2)، و"المائدة الشريفة"(3). وكانت ملابسه - هي الأخرى - مقدسة،

(1) الشيرازي ، المؤيد في الدين هبة الله بن موسى بن داود: سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة " ترجمة حياته

بقلمه" ، تحقيق محمد كامل حسين ، دار الكاتب المصري (القاهرة ، 1949) ص 85.

(2) المقريري : الخطط ، 250/2 .

(3) المصدر نفسه ، 312/2 .

فكان على الولاة وغيرهم أن يقفوا احتراماً عند استلامهم لها من المناسج⁽¹⁾، وكان من التبرك والمفاخرة للشخص أن يلبس ثوباً من الملابس التي كان قد لبسها الخليفة⁽²⁾. واعتبروا تقبيل رداءه شرفاً عظيماً⁽³⁾. وفي الأعياد كان التجار يُزينون الطرق التي قد يمرّ منها موكبه بأشياء من تجارهم لطلب البركة من نظرته⁽⁴⁾. وكان الناس عند مروره بجوارهم يُخزّون سجداً له ويدعون له كلما اقترب منهم⁽⁵⁾، وإذا ذُكرَ اسمه في الخطبة قاموا وقوفاً احتراماً وإجلالاً⁽⁶⁾. وكانت العادة أن يُعطي الخليفة بركته للجيش وللأسطول وذلك بتوديعهما عند ذهابهما للحرب أو عند القدوم منها⁽⁷⁾. وكانوا يعتقدون أنّ له القدرة على أن يشفع للمؤمنين خطاياهم⁽⁸⁾، أمّا من نال غضبه فكانت العادة أن يخرج إلى باب الفتوح⁽⁹⁾ ويكشف عن رأسه ويستغيث بعفوه⁽⁹⁾.

(1) المقريري: الخطط، 300/2-301.

(2) السجلات المستنصرية: مصدر سابق، سجل (4)، ص 61.

(3) عطية مصطفى مشرفة: مرجع سابق، ص 79.

(4) ابن المأمون البطائحي، جمال الدين أبو علي موسى: نصوص من أخبار مصر، حَقَّقَهَا وكتب مقدمتها وحواشيها ووضع فهرسها أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية (القاهرة، 1983) ص 58.

(5) ناصر خسرو: مصدر سابق، ص 112.

(6) عطية مصطفى مشرفة: مرجع سابق، ص 79.

(7) القلقشندي: مصدر سابق، 523/3. كذلك المقريري: الخطط، 324/2.

(8) عبد المعجم ماجد: نظم الفاطميين، 70/1.

(*) باب الفتوح: أحد أبواب القاهرة بناه القائد جوهر الصقلي، ولكنه لم يلبث أن اندثر فقام الأفضل بن بدر الجمالي (487-515هـ/1094-1121م) ببنائه من جديد وإن كان قد غيّر موقعة = المقريري: الخطط، 101/2.

(9) عطية مصطفى مشرفة: مرجع سابق، ص 80.

ونظراً للصيغة القدسية التي تمتع بها الخليفة الفاطمي ، كان من الطبيعي أن تتجمع لديه كل السلطة وأن تأخذ مظهر الحق الإلهي المقدس ، فكانت سلطته لذلك واسعة - مثلما كان موجوداً في معظم دول العصور الوسطى - فهو يقوم بدور مهم في كل الأمور ، وييدي رأيه في كل المسائل ، ويهيمن بنفوذه على كل الدقائق التي تتعلق بالسياسة ، ويستقبل رُسل الملوك ويدير دفّة الأمور الحربية . وكان موظفو الدولة مسؤولين أمامه ، فهو يُفوض سلطته إلى عدد كبير منهم ، من وزراء وولاة وقواد وقضاة ودعاة وغيرهم . فكانت سلطة هؤلاء مستمدة من سلطته التي لا يمنحها إلا للذين حازوا ثقته وبرهنوا على إخلاصهم الشديد لعقيدة الدولة⁽¹⁾ . وكان يكافئهم حسب كفاية كل منهم ، ويملاً أعينهم بالعتاء الكثير ، ويُفسح لكل منهم المجال حسب إخلاصه ويتدرج بهم في المناصب حتى يصلوا إلى أعلاها ، وفي الوقت نفسه يعاقب من ينحرف منهم عن جادة الصواب أو تثبت عليه رشوة أو يخرج على قوانينه ، وله الحق في عزلهم عن مناصبهم ، وكان يأمر أحياناً بمصادرة أملاكهم وأموالهم إذا اتضح له أنهم جمعوها بطرق غير مشروعة . وكان له أيضاً أن يتولّى القضاء بنفسه ، وأن ينظر في المظالم⁽²⁾ .

وكان الخلفاء الفاطميون يميلون إلى الاحتفاظ بمظهرهم كرؤساء للدين أكثر من كونهم ملوكاً ، فهم قبل كل شيء زعماء المذهب الإسماعيلي (الفاطمي)⁽³⁾ . فكان على الإمام أن يقوم بالعديد من الواجبات في هذا الخصوص منها: أن يساعد الناس في فهم أصول دينهم - أي على العقيدة الشيعية - فهو

(1) عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ، 72/1 .

(2) عطية مصطفى مشرفة : مرجع سابق ، ص 81 .

(3) عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ، 68/1 .

بنفسه يُعين الدعاة ويكلفهم بنشر العقيدة التي يشرحها لهم . وهو وحده المسؤول عن صحتها ، حيث يقوم الدعاة بتقديم التفسير أو التأويل للنص القرآني إليه قبل قراءته على الحاضرين في مجالس الدعوة أو في المساجد ، فإذا نال موافقته وضع عليه علامته⁽¹⁾، فيصبح الكلام الذي يُلقى - عندئذٍ - مُقدساً غير قابل للتبديل أو التغيير . وفي بعض الأحيان كان الإمام يُرتب في قصره مجالس يُلقى فيها المحاضرات بنفسه⁽²⁾، أو في الجامع الأزهر، فقد كان للخليفة المعز لدين الله فيه ثلاثة أيام من كل أسبوع يُلقى فيها الدروس على الطلبة في الحديث والتفسير والفقه الإسماعيلي⁽³⁾. وغير ذلك أنه يدعو العلماء إلى تأليف الكتب عن عقائد المذهب الفاطمي⁽⁴⁾. وكان المعز يراجع بعناية جميع المؤلفات التي تُقدم إليه فصلاً فصلاً وباباً باباً ، فيثبت الثابت منها ويسد الخلل الذي فيها حتى تجيء في غاية الإحكام⁽⁵⁾. كذلك كان على الإمام أن يقوم بواجب الجهاد ضد الكفار ، وهو فرض صريح في العقيدة الفاطمية⁽⁶⁾.

(1) المقرئزي : تعاض الحنفا ، 373/3. كذلك المقرئزي : الخطط ، 121/2 - 122.

(2) ناصر خسرو : مصدر سابق ، ص30، 32 (من مقدمة المترجم) .

(3) قاسم ، حسن : الجامعة الأزهرية ، مجلة لواء الإسلام ، العدد الثاني عشر للسنة الثانية (القاهرة ، 1949م) ص63 .

(4) القاضي النعمان : المجالس والمسائرات ، ص 117، 401، 545 . كذلك عماد الدين : تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ، ص 56 .

(5) القاضي النعمان : المجالس والمسائرات ، ص360، 545 . كذلك عماد الدين : تاريخ الخلفاء الفاطميين ، ص562.

(6) القاضي النعمان : دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن أهل بيت رسول الله عليه وعليهم أفضل السلام ، تحقيق آصف بن علي أصغر فيضي ، دار المعارف ، ط3 (القاهرة ، 1969م) 1 /347 وما بعدها .

وعلى الرغم من السلطة الروحية والدينية والزمنية التي كانت لدى الخلفاء الفاطميين ، وفخامة الملك ومظاهر العظمة التي أحاطوا بها أنفسهم ، إلا أنهم لم يترفعوا كثيراً عن رعيّتهم وكانوا يُخصّصون جزءاً من أوقاتهم للنظر في شكاوهم وتظلماتهم . فكان من جملة القصر الكبير موضع يُعرف بالسقيفة مخصصاً لهذا الغرض ، فكان إذا ظلم أحد وقف تحتها وقال بصوت عالٍ : " لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، عليّ وليّ الله " ، فيسمعه الخليفة فيأمر بإحضاره إليه أو يُفوض أمره إلى الوزير أو القاضي أو الوالي ⁽¹⁾ . وكان إن حصل أن ألمّ بالخليفة ظرف أو أصابه المرض ، فإنه يُوكّل أمر النظر في شؤون الناس إلى وليّ عهده ⁽²⁾ .

ولرحابة صدر الخلفاء الفاطميين كان الناس يتحينون فرص خروجهم من قصورهم فيجتمعون عليهم لطلب حوائجهم . فكان الخلفاء لا يمنعون أحداً من ذلك ، ويقفون معهم وقوفاً طويلاً ⁽³⁾ ، ويقرؤون بعض رقاعهم في الطريق ⁽⁴⁾ ، حتى إن بعضهم قد يترك موكبه ويتأخر في عودته إلى القصر من كثرة وقوفه ومحادثته للعوام ⁽⁵⁾ . كما كانوا يزورون البيمارستانات (المستشفيات) لتفقد أحوال المرضى فيها والاطمئنان على الخدمات العلاجية التي تُقدم لهم . ففي سنة 415 هـ / 1024 م ، زار الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله بيمارستاناً وهو متنكراً بين عبيده ، فطافه وشاهد المرضى فيه من المجانين ، وأعطى لكل منهم خمسين درهماً وللقائم عليهم خمسمائة درهم ، وأمر أن يُعمّر البيمارستان ويُوصّل الماء إليه ، وأن

(1) المقريري : الخطط ، 156/2 .

(2) المقريري : اتعاظ الحنفا ، 228/1 .

(3) المقريري : الخطط ، 235/3 .

(4) المصدر نفسه ، 231/3 .

(5) المقريري : اتعاظ الحنفا ، 96/2 - 97 ، 104 .

يُطبخ للمرضى فيه كل يوم ما يأكلونه ، وأن يُنفق عليهم فيما يستعملونه من الأدوية والأشربة⁽¹⁾.

أمّا عن طبيعة الحياة التي كان يعيشها الخلفاء الفاطميين ، فكانت رغبةً هنية، كلها بذخ ورفاهية . وقد تجلّى ذلك بوضوح في خزائن الفرش والأمتعة والجواهر والخيام والشراب... الخ التي كانوا يمتلكونها⁽²⁾. وفي عظمة القصور التي بنوها واتخذوها مساكن لهم ولأفراد أسرهم⁽³⁾. وفي أُبهة وفخامة المواكب والحفلات التي كانوا يُحيونها⁽⁴⁾، وفي سخاء وتنوع المآدب والأسمطة التي يُقيمونها⁽⁵⁾. فكان الرخاء والبذخ يحيط بكل ما يتعلق بهم . ولكي يحافظوا على هذه الحياة وعلى أُبهة البلاط الخلافي كان ذلك يتطلب منهم الاستحواذ على موارد مالية طائلة لا يمكن إدماجها مع الموارد العامة للدولة . لذلك كانت مصادر الدخل الخاصة بهم متعددة ؛ فقد ذكر ناصر خسرو أن للخليفة الفاطمي أملاًكاً عقارية كثيرة في القاهرة والفسطاط ، منها ما لا يقلّ عن عشرين ألف دكان يؤجر الواحد منها بعشرة دنانير مغربية في الشهر ، وليس بينها ما تقلّ أجرته عن دينارين . كما كان عنده ثمانية آلاف بيت يُحصّل أجرتها هي الأخرى ، هذا إلى جانب العديد من الأربطة والحمامات وأبنية أخرى لا حصر لها⁽⁶⁾.

(1) المسيحي : مصدر سابق ، 1 / 35 .

(2) يُنظر المقرئبي : الخطط ، 163/2 - 197 .

(3) المصدر نفسه ، 105/2 - 109 ، 154 - 162 .

(4) يُنظر القلقشندي : مصدر سابق ، 3 / 503 - 522 .

(5) المصدر نفسه ، 3 / 527 - 529 . كذلك ابن تغري بردي : مصدر سابق ، 4 / 101 - 102 .

(6) ناصر خسرو : مصدر سابق ، ص 104 .

بالإضافة إلى أنهم يملكون أراضٍ وحنان وبساتين كثيرة يقع جزء منها في قرية قليوب⁽¹⁾، وجزء آخر واقع على الخليج تشمل مساحته ثلاثمائة قرية⁽²⁾، وغيرها في مختلف أنحاء مصر . وليس من المستبعد أن تكون لهذه الأراضي والبساتين غلالٌ تُشكّل جزءاً من الدخل الخاص بهم . وقد اضطر الخليفة المستنصر في زمن الشدة العظمى إلى بيع الكثير من أملاكه منها إحدى وعشرون ألف ضيعة وعشرون ألف دار⁽³⁾ .

ومن مصادر دخلهم الخاصة - أيضاً - التجارة ، ويبدو أنها كانت خارجية؛ فقد كان للمستنصر الكثير من السفن في طرابلس الشام ، التي كانت تسافر إلى بلاد الروم وصقلية والمغرب للتجارة⁽⁴⁾ . بالإضافة إلى سفنه التي ترابط دائما حول جزيرة تَنيس ، التي تبلغ حوالي الألف سفينة⁽⁵⁾ . ولا أعتقد أن الخليفة كان يتحمل مسؤولية هذه التجارة بنفسه ، فالراجح أن هذه السفن تُوجَر لمن يريد نقل بضائعه من التجار ، أو أنها كانت تُشعَل بالتجارة ويرجع إيرادها للخليفة بالمشاركة أو ما شابه ذلك .

وقد ظلَّ الخليفة الفاطمي رجل الدولة الأول وسيدها ، محتفظاً بمكانته الروحية والدينية ، و متمسكاً بسلطاته الزمنية طوال العصر الفاطمي الأول (358-

(1) المقرئزي : الخطط ، 344/2.

(2) ناصر خسرو : مصدر سابق ، ص 107.

(3) ابن إياس : مصدر سابق ، 48/1.

(4) ناصر خسرو : مصدر سابق ، ص 58.

(5) المصدر نفسه ، ص 94 .

465هـ / 969-1072⁽¹⁾. ولكن الحال لم يلبث أن تغير بعد توالي الشدائد على الخليفة المستنصر واضطراب الفتن بحاضرتة القاهرة ، فضعف أمره وافتقر جانبه وضاعت هيئته وآل حاله إلى أن قال لرجلٍ من خواصه طالبه بشيء : "والله لقد أصبحت لا ينفذ لي أمرٌ إلا من مكاني إلى باب قصري ، ولا أملك مالاً إلا ما تراه عَلَيَّ وتحتي"⁽²⁾. وهو بذلك يقصد أنه لم يعد له سلطان إلا على الموجودين في قصره فقط ، وأنه لا يملك شيئاً من متاع الدنيا إلا ما لبسه التي يرتديها وبساطه الذي يجلس عليه . الأمر الذي اضطره - كما أسلفت الذكر - إلى استدعاء بدر الجمالي من الشام⁽³⁾.

وبقدوم الجمالي إلى مصر وتوليّه الوزارة للمستنصر، بدأ عصر جديد في مصر الفاطمية ، كانت السلطة والسيادة المطلقة فيه في يد الوزراء ، وأصبح الخلفاء الفاطميون مجرد واجهة أو شعار ديني ، في حين أنهم كانوا العُوبة في يد وزرائهم . وقد عُرف هذا العصر في تاريخ مصر بالعصر الفاطمي الثاني (466-567هـ/1073-1171م) ، أو بعصر الوزراء العظام⁽⁴⁾.

(1) الرافي ، عبد الرحمن وسعيد عبد الفتاح عاشور : مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي حتى الغزو

العثماني ، دار النهضة العربية (القاهرة ، بدون تاريخ) ص 263.

(2) ابن فضل الله العمري ، أحمد بن يحيى: في الإنصاف بين المشرق والمغرب " قطعة من مسالك الأبصار في

ممالك الأمصار " ، دراسة وتحقيق زينب طاهر ساق الله ، دار المدار الإسلامي (بيروت، 2004م) ص 221.

(3) يُنظر الفصل الأول من هذا الكتاب ، ص 59 .

(4) عبد الرحمن الرافي وزميله : مرجع سابق ، ص 206 . كذلك جمال بدوي : مرجع سابق ، ص 102.

الناوي ، محمد حمدي : الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي ، دار المعارف (القاهرة ، 1970م) ص

ثانياً : الوزير :

لم يكن هناك وجود لمنصب الوزير في مصر في أوائل العصر الفاطمي، حيث إن الخليفة المعز عند قدومه إليها فضّل أن لا يُفوض سلطانه إلى أحد ، فكان " يياشر التدبير بنفسه ولا يُعوّل فيه على غيره"⁽¹⁾. ولم يظهر لقب الوزير في مصر الفاطمية إلاّ في رمضان سنة 368 هـ / 979م ، عند منح الخليفة العزيز بالله يعقوب بن كلس لقب "الوزير الأجل"⁽²⁾. وأصبح بذلك أول الوزراء في تاريخ الدولة الفاطمية⁽³⁾.

وبعد موت ابن كلس لم يستوزر العزيز بعده أحد ، إنّما أوجد منصب "الوساطة"⁽⁴⁾. وكان صاحبها الذي يتولّاها يُسمّى "بالوسيط" ؛ لأنه كان يتوسّط بين الخليفة ورعيته⁽⁵⁾. ولم يظهر منصب الوزير من جديد ويثبت رسمياً إلاّ في زمن الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله ، وذلك بتوليته أبا القاسم علي بن أحمد الجرجاني⁽⁶⁾ الوزارة في سنة 418 هـ / 1027م⁽⁶⁾. فأصبحت الوزارة منذ هذا

(1) ابن الصيرفي ، أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان : الإشارة إلى من نال الوزارة " نُشِيرَ معه في الكتاب نفسه وللمؤلف نفسه كتاب القانون في ديوان الرسائل " ، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، الدار المصرية اللبنانية (القاهرة ، 1990م) ص 47.

(2) المصدر نفسه ، ص 49 .

(3) المقرئزي : الخطط ، 232/2.

(4) ابن ميسر : مصدر سابق ، ص 177 . كذلك المقرئزي : الخطط ، 232/2.

(5) ابن القلانسي : مصدر سابق ، ص 81.

(*) هو من أهل جرجايا - قرية بسواد العراق - وفد على مصر والتحق بالحكومة الفاطمية، وأخذ الترقى في مناصبها إلى أن تولّى الوزارة للخليفة الظاهر سنة 418 هـ / 1027م . ولما تُوفي الظاهر وتولّى ابنه المستنصر من بعده أبقاه في وزارته ، فمكث فيها إلى أن تُوفي سنة 436 هـ / 1044م = ابن الصيرفي :

مصدر سابق ، ص 68 - 70.

(6) المصدر نفسه ، ص 69 .

التاريخ منصباً وتكليفاً ، وصارت أرفع وظائف الدولة الفاطمية وأعلىها رتبة ، وكانت تارة تكون في أرباب السيوف وتارة في أرباب الأقاليم⁽¹⁾، إلى أن تولّاها بدر الجمالي للخليفة المستنصر سنة 466 هـ / 1073م، فكان وزيراً للسياق والقلم معاً ، واستمرت من بعده على ذلك⁽²⁾.

وكانت الوزارة الفاطمية وزارة فردية ، فلم يكن هناك أكثر من وزير في آنٍ واحد ، فكان الوزير يُؤلّى الوزارة فإذا ما تُوفّيَ أو عُزل من منصبه يُؤلّى آخر مكانه وهكذا . كما كانت في العصر الفاطمي الأول وزارة تنفيذ ، أي على الوزير أن يُنفذ أوامر الخليفة لا أكثر ، من دون اجتهادات شخصية ، الأمر الذي جعل سلطته محدودة ، وكان بقاءه في منصبه يتوقف على تأييد الخليفة ورضاه عليه . ولكن الوضع لم يلبث أن تغير في العصر الفاطمي الثاني ، وأصبحت الوزارة وزارة تفويض وذلك بعدما ضعف الخلفاء وسلموا مقاليد الأمور - برُمّتها - لوزرائهم . فازداد نفوذهم في ذلك العصر على حساب سلطة الخلفاء أنفسهم⁽³⁾. وجمعوا إلى جانب قيادة الجيش جميع الإدارات المدنية والقضائية وحتى الدينية ، وأصبحت جميع شؤون الدولة - من دون استثناء - خاضعة لسلطتهم ، ولم يبقَ للخلفاء معهم أيّة سلطة⁽⁴⁾.

ولم يجعل الفاطميون شروطاً فيمن يتولّى منصب الوزارة إلا أن يكون كُفؤاً في عمله قادراً على تدبير شؤون منصبه . لذلك تولّى الوزارة خلال عصرهم الكثير من أهل الذمة ، كما تولّاها بعض المسلمين غير الشيعيين ، وذلك دون أن

(1) القلقشندي : مصدر سابق ، 482/3.

(2) ابن ميسر : مصدر سابق ، ص 40 . كذلك المقرئبي : الخطط ، 233/2.

(3) عبد الرحمن الرفاعي وزميله : مرجع سابق ، ص 262-263.

(4) أيمن فؤاد سيد : مرجع سابق ، ص 252-253.

يحول مذهب السني بينهم وبينها . فلم يكن للمعتقدات الدينية دخل في تقلد منصب الوزارة ، وعلى ذلك لم يكن الخليفة الفاطمي يُفرّق في دولته بين المسلم والنصراني واليهودي ، بل كانت وظائف الدولة مُباحة للجميع سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين ، وذلك متى توفرت فيهم الكفاءات المطلوبة⁽¹⁾ .

ولمكانه الوزير الرفيعة في الدولة الفاطمية جعلت له رسوم خاصّة تقتضيها وظيفته ، فمثلاً : كانت تُحمل إليه الدّواة المحلّاة بالذهب من خزانة الخليفة⁽²⁾ . وكان يُلزم سائر الناس بالترجل له وإن كانوا من أهل الدولة⁽³⁾ . وكانت له حاشية من الخدم والحرس والحُجّاب يُحيطون به في المواقب العامة⁽⁴⁾ . وكان من رسوم مواكبه التي تصحبه في جميع تنقلاته الطّبل والبوق والبنود⁽⁵⁾ . وكانت له مكانة الشرف بين الحاضرين في حفلات القصر الرسمية ، فهو وحده له حق الجلوس على (مخدة) توضع بجوار الخليفة ، في حين أنّ بقية أرباب الوظائف وأعيان الدولة يبقون وقوفاً في أماكنهم المقرّرة⁽⁶⁾ .

وكان على الوزير الفاطمي أن يُؤدّي إلى جانب مهامه الإدارية والسياسية والعسكرية المعروفة ، مهاماً أخرى اجتماعية أو بروتوكولية خاصة ، فكان عليه مثلاً أن يرافق الخليفة عند دخوله للقصر ، وأحياناً ينتظره مع غيره من الأمراء

(1) عطية مصطفى مشرفة : مرجع سابق ، ص 129 .

(2) المقريري : الخطط ، 233/2 .

(3) المصدر نفسه ، 444/2 .

(4) المصدر نفسه ، 252/2 ، 232 . كذلك القلقشندي : مصدر سابق ، 507/3 .

(5) ابن شدّاد : مصدر سابق ، ص 80 . كذلك أبو شامة : الروضتين ، 1/ القسم الثاني ، ص 436 .

(6) المقريري : الخطط ، 111/2 . كذلك عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ، 91/1 .

والقاضي والمقرّبين... الخ على باب القصر إذا أراد الخروج⁽¹⁾. وعليه أيضاً أن يرافقه في احتفالات الدولة الرسمية كعيد فتح الخليج⁽²⁾، وأول العام الهجري⁽³⁾، وعيدي الفطر والأضحى⁽⁴⁾. وأن يُلازمه في الاحتفالات الدينية داخل المسجد، وأن يحضر هو أو ابنه أو أخوه سِمَاط^(*) شهر رمضان ويجلس في صدره، وإلاّ تصدر صاحب الباب السّمَاط⁽⁵⁾.

كما كان الوزير كثيراً ما يُشارك الخليفة في تعليم الناس أصول دينهم على المذهب الشيعي، حيث شارك ابن كِلْس في المجالس العلمية التي كانت تُقام في قصر الخليفة وفي الجامع الأزهر، وألّف في الدعوة الفاطمية كتاباً سَمَاه "الرسالة الوزيرية"، وكان بيته مجتمعاً للعلماء من أهل زمانه. وكذلك الوزير اليازوري^(**)

(1) إبراهيم رزق الله أيوب : مرجع سابق ، ص 99 .

(2) ناصر خسرو : مصدر سابق ، ص 112 . كذلك القلقشندي : مصدر سابق ، 516/3 .

(3) القلقشندي : مصدر سابق ، 506/3-507 .

(4) ابن عبد الظاهر : الروضة البهية ، ص 40-41 . كذلك ابن تغري بردي : مصدر سابق ، 98/4 - 100 .

(*) السّمَاط : كلمة شاع استعمالها في أيام الفاطميين للدلالة على ما يُسَاط ليوضع عليه الطعام ، فهناك أسمطة رمضان ، وأسمطة عيدي الفطر والأضحى، وسِمَاط الحزن ، وغيرها من الأسمطة التي كانت تُمدّ في الأعياد والمواكب التي كثرت في عصر الفاطميين .

(5) المقريري : الخطط ، 112/2 .

(**) أبو محمد الحسن بن علي بن عبد الرحمن اليازوري ، من أهل يازور (قرية من عمل الرّملة بالشام) قَدِمَ إلى القاهرة وتولّى خدمة السيدة والدة الخليفة المستنصر، ولم يلبث أن تولّى الوزارة له سنة 442 هـ / 1050 م . انتهى به الأمر أن قُبِض عليه في محرم سنة 450 هـ / 1058 م ، وسُيّر إلى تيبس وقتل فيها = ابن الصيرفي : مصدر سابق ، ص 73، 76، 81 .

كان كبير الدعاة الفاطميين قبل أن يصل إلى الوزارة وكذلك في أثناء توليه إياها⁽¹⁾.

وقد ارتفعت منزلة الوزراء كثيراً في الدولة الفاطمية ، وعلت مكانتهم لدرجة أن منهم من كَتَبَ اسمه على السِّكَّة مع الخليفة⁽²⁾، وشاركه في نسج اسمه على الطراز أيضاً⁽³⁾، فقد أذن العزيز بالله بوضع اسم وزيره يعقوب بن كلس على الطراز تقديراً له⁽⁴⁾. كذلك الوزير المأمون البطائحي ، تَبَّت اسمه ونَعَتَه على طراز ما يُعمل في أعمال الخلافة من الملابس والفرش والآنية⁽⁵⁾.

وكان الوزير الفاطمي يُعامل معاملة خاصة تختلف عن المعاملة التي يُعامل بها رجال الدولة الآخرين ؛ فكان يتحصَّل على أعلى دخل شهري في الدولة وهو خمسة آلاف دينار نقداً . وكان يُصرف لإخوته وأبنائه - أيضاً - مرتبات شهرية تتراوح ما بين مائتين إلى خمسمائة دينار⁽⁶⁾. هذا إلى جانب مُقرَّرات عينية وكسوات في أوقات معلومة⁽⁷⁾.

وبالإضافة إلى ذلك كان الوزير يتحصَّل على مصروف مطبخه ، فكان لابن عمَّار - على سبيل المثال- في كل شهر ما قيمته خمسمائة دينار من اللحم

(1) ناصر خسرو : مصدر سابق ، ص32 (من مقدمة المترجم) .

(2) ابن ظافر : مصدر سابق ، 241/1 . كذلك السيوطي : مصدر سابق ، 202/2.

(3) زكي محمد حسن : مرجع سابق ، ص 118 .

(4) الإسكندراني : مصدر سابق ، ورقة 5 ظهر . كذلك ابن ظافر : مصدر سابق ، 241/1 . حسن ، علي

إبراهيم : مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي إلى الفتح العثماني ، مكتبة النهضة المصرية ، ط 5

(القاهرة ، 1993م) ص384 .

(5) ابن الصيرفي : مصدر سابق ، ص 105 .

(6) المقرئزي : الخطط ، 147/2 .

(7) المصدر نفسه ، 169/2 - 170 .

والتوابل، مع ما كان له من الفاخرة في كل يوم سلّة بدينار . إلى جانب عشرة أرطال شمع يومياً ، وحمل ثلج عن كل يومين وغير ذلك⁽¹⁾. أما الوزير اليازوري فـ"كان راتب مائدته في كل يوم كموائد الملوك في الأعياد والولائم"⁽²⁾. وكان لا يشتري لمطبخه من الطير إلاّ أجود أنواعه حتى في أوقات الشدة والجفاف . الأمر الذي أثار دهشة الخليفة المستنصر ، الذي اكتشف أن مائدة طعام وزيره تحتوي على أصناف من الأطعمة ولحوم الطير لا تحتويها مائدته⁽³⁾.

وقد عاش الوزراء - سواء في العصر الفاطمي الأول أم الثاني - حياة تتسم بالغنّى والترّف والرفاهية ، وهي شبيهة إلى حدّ كبير بعيشة الخلفاء الفاطميين ، بل وفي بعض الأحيان كادت ثروات هؤلاء الوزراء وأملاكهم تفوق على ثروات الخلفاء أنفسهم . وقد أورد المؤرخون في كتبهم وصفاً لثروات بعض الوزراء محاولين تجسيد حياة الأبهة والفاخرة والعظمة التي كانوا يعيشونها ، وذلك من خلال عرض مدخراتهم وأملاكهم ، فعلي سبيل المثال : كان لابن كِلّس إقطاعٌ يدرُّ عليه في كل سنة ثلاثمائة ألف دينار . وخلف وراءه بعد وفاته الكثير من الأملاك والضياع والقياسير والرباع (المنازل) وأواني من ذهب وفضة . بالإضافة إلى الجواهر والعنبر والطيب والثياب والفرش والكتب والمصاحف والجواري والعبيد والخيل والبغال والإبل والغلال ، والخزائن مابين أشربة وأطعمة ما قوّم بأربعة ملايين دينار⁽⁴⁾.

(1) المقريري : اتعاظ الحنفا ، 13/2 .

(2) المصدر نفسه ، 239/2 .

(3) المصدر نفسه ، 240/2 .

(4) المقريري : الخطط ، 382/2 .

أمّا الوزير الأفضل بن بدر الجمالي فقد فاقت ثروته ثروات أسلافه من الوزراء⁽¹⁾؛ حيث خلف وراءه ثروة طائلة من بينها : ستة ملايين ومائة وخمسون ألفاً من الأموال نقداً . إلى جانب ستة ملايين دينار عيناً ، وتسعمائة ثوب من ديباج وخمسمائة صندوق من دقّ دمياط وتيس لكسوته . ومن الطيب والنحاس والآلات ما لا يُحصيه عدد ، ومن الأبقار والجاموس والأغنام والجمال ما بلغ منتوجه من الألبان أربعين ألف دينار في السنة . وترك دواة يُكتب منها مُرصّعة بالجواهر ، قوّم جوهرها باثني عشر ألف دينار . بالإضافة إلى خمسمائة ألف مجلد من الكتب⁽²⁾ .

ولا يسعني المجال هنا لذكر كل ما تركه الأفضل من مدخّرات ، وهذه عينة فقط من ثروته ويكفي لتخيل مقدارها قول المقرئزي : " وأخذ الأمر في نقل ما بدار الأفضل إلى القصر وهو يُرتّب ما يُحمل بنفسه هو وأصحابه ، واستمر ذلك مدّة شهرين وأيام والأموال تحمل على بغالٍ وجمالٍ إلى القصر ، والأمر يطلع إلى القصر ويعود كلّ غداةٍ ويقيم حتى يرتفع النهار ويُرتّب ما يفعل"⁽³⁾ . ولم يكن امتلاك الأفضل لمثل هذه الثروة أمراً غريباً أو يُثير الدهشة ، فهو كان قد استبدّ بدواوين الدولة ونقلها إلى داره التي عُرفت بدار الملك⁽⁴⁾ ، فصارت أموال تلك الدواوين وكأنّها أمواله الخاصة يتصرّف فيها كيفما يشاء .

(1) علي إبراهيم حسين : عظمة الفاطميين ، مجلة الكتاب ، العدد الأول للسنة الثانية (القاهرة ، 1946م)

المجلد الثالث ، ص 231 .

(2) ابن مُيسّر : مصدر سابق ، ص 80 .

(3) المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، 70/3 .

(4) المقرئزي : الخطط ، 137/2 .

أما عن العلاقة التي كانت تربط بين الخلفاء والوزراء فقد كانت - في الغالب - علاقة حسنة تنطوي على الاحترام والتقدير . حيث كان الخلفاء دائماً ما يُكرِّمون وزراءهم في المناسبات والاحتفالات الرسمية، ففي عيد غدِيرِخُم^(*) مثلاً كان الخليفة يخلع على وزيره - الذي جاء لِيُسَلِّم عليه - خلعةً كاملة ، ويُقلِّده سيفاً مرصعاً بالياقوت والجوهر ، وعندما ينهض الوزير لِيُقْبِل الأرض بين يديه ، كان يُقلِّده أيضاً عقداً من الجواهر يُلبسه له بنفسه ، ويبالغ في إكرامه والثناء عليه⁽¹⁾ .

وكان عندما يُصيب الوزير مرضٌ أو يتوفاه الأجل ، فإن الخليفة يتأثر لحاله ويحزن عليه حزناً شديداً . فعندما اعتلَّ ابن كلس علة الموت حزن عليه العزيز وزاره في بيته للاطمئنان عليه ، فلمَّا وجده في حالة اليأس اغتمَّ لأجله وقال له : " وَدِدْتُ أَنَّكَ تُبَاع فَأَشْتَرِيكَ بِمُلْكِي أَوْ تُفْتَدَى فَأَفْدِيكَ بَوْلَدِي"⁽²⁾ . وعندما تُوفي حزن عليه حزناً شديداً ، وحضر جنازته وصلَّى عليه وألحده بيده في قبره . واحتراماً لِدِكْرَاهُ أغلق الدواوين وعطلَّ الأعمال أياماً⁽³⁾ ، وأقيم العزاء على قبره لمدة شهر⁽⁴⁾ .

(*) اتخذ الشيعة - ومن بينهم الفاطميون - من ذكرى يوم غدِيرِخُم (18 ذي الحجة) عيداً يحتفلون به كل عام، لأنهم يرونه يوماً مباركاً ، فيه أوصى النبي (ﷺ) لعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه) بالخلافة من بعده كما يزعمون . وللمزيد عن هذا العيد يُنظر المبحث الثاني من الفصل الخامس من هذا الكتاب .

(1) المقريري : الخطط ، 120/2 .

(2) ابن تغري بَردي : مصدر سابق ، 161/4 .

(3) المصدر نفسه ، 161/4 . كذلك ابن القلانسي : مصدر سابق ، ص 32 .

(4) المقريري : تعاط الحنفا ، 269/1 .

وكذلك عندما مرض علي بن جعفر بن فلاح^(*)، سنة 406 هـ / 1015م "ركب الإمام الحاكم إلى داره لعيادته، وحمل إليه مرتبة ديباج وخمسة آلاف دينار، وكانت هذه عادته إذا عاد أحداً"⁽¹⁾. وعندما مرض الوزير الأفضل حزن عليه الخليفة الأمر وتلثم لوفاته وبكاه ساعة، وسار بنفسه لحضور جنازته - وهو مُلثم - وقام بالصلاة عليه وهمم بتزول القبر ليُلجده بيده، بيد أنه أمر الداعي فتزل وألحده، وهو قائم على حافة القبر إلى أن كملت مواراته⁽²⁾.

ثالثاً : أرباب الوظائف :

كانت الدولة الفاطمية كدولة مستقلة كبيرة في حاجة ماسة إلى نظام إداريٍّ مُحكم، يضمن إقرار الأمور وإحكام الإشراف وتنفيذ سياسة الدولة في الداخل والخارج. وقد تحقق ذلك للفاطميين عن طريق عدد كبير من الدواوين التي كان يُطلق على وظائفها اسم "الوظائف الديوانية"⁽³⁾. ومن هذه الدواوين ديوان الإنشاء وديوان التحقيق وديوان المجلس، وديوان الكسوة وديوان الطراز، وديوان الرواتب، وديوان الجهاد، وغيرها كثير⁽⁴⁾. وكان يُشرف على كل ديوان من هذه

(*) علي بن جعفر بن فلاح، أبو الحسن، الملقب بوزير الوزراء ذي الرياستين الأمر المظفر قطب الدولة. تولّى الوزارة للحاكم سنة 406 هـ / 1015م. وفي سنة 409 هـ / 1018م قُتل على يد فارسين مُتتكرين بالقاهرة = محمد حمدي المناوي : مرجع سابق، ص 249-250.

(1) ابن الصيرفي : مصدر سابق، ص 63.

(2) المقريري : اتعاظ الحنفا، 63/3، 66، 67.

(3) القلقشندي : مصدر سابق، 489/3.

(4) المصدر نفسه، 490/3-496.

الدواوين موظف كبير مسؤول هو صاحب الديوان الذي يعاونه عدد من الكتبة وصغار الموظفين⁽¹⁾.

وإلى جانب موظفي الدواوين هؤلاء كان هناك عدد كبير من الموظفين شغلوا الوظائف المختلفة داخل القصر الفاطمي وخارجه ، وإن كان معظم المناصب الكبيرة كان أصحابها يُديرونها من داخله ، حيث اهتمّ الفاطميون منذ قدمهم إلى مصر على تركيز زمام السلطة الإدارية في أيديهم ، ولكي يضمنوا ذلك جعلوا النظام الإداري شديد المركزية تدار شؤونه من داخل القصر⁽²⁾.

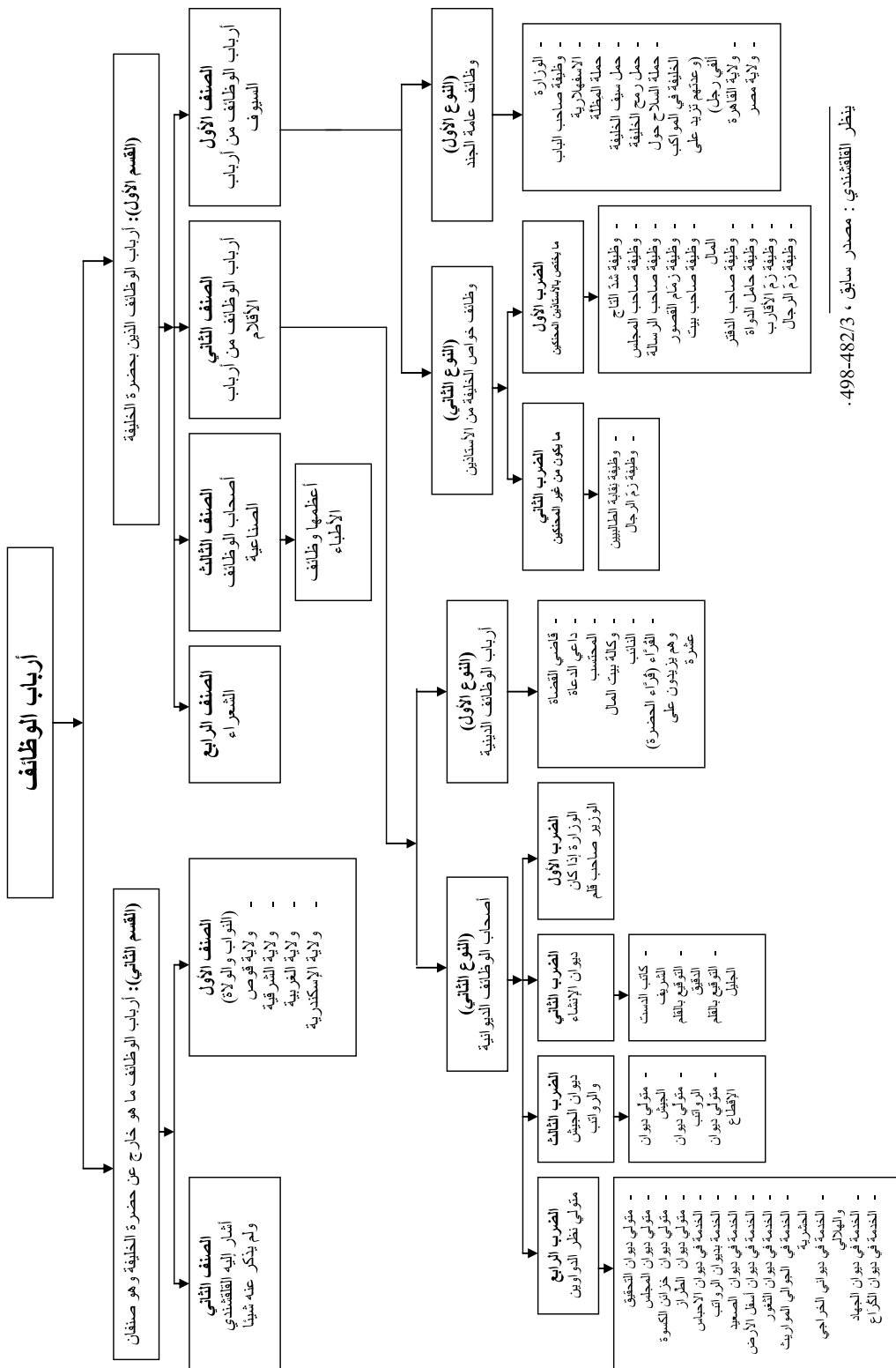
وقد قَسَمَ القلقشندي أرباب الوظائف في الدولة الفاطمية إلى قسمين كبيرين، القسم الأول : يشمل ما بحضرة الخليفة من أرباب الأقلام وأرباب السيوف وأرباب الوظائف الصناعية . والقسم الثاني : يشمل ما هو خارج عن حضرة الخلافة من النواب والولاة وغيرهم⁽³⁾. ولا يتسع المجال للتفصيل في هذين القسمين وما يتفرع منهما ، وإن كنتُ سأبيِّنُ ذلك في رسمٍ توضيحيٍّ مستوحى مما عرضه القلقشندي لهذا التقسيم الوظيفي .

وكان أرباب الوظائف - هؤلاء - يتقلّدون سلطتهم مباشرة من قبل الخليفة الفاطمي ، ولكن لما ضُعُفَت سلطة الخليفة كان لوزير التفويض التصرف المطلق في الشؤون الإدارية ، فكان ينوب عن الخليفة في تعيين كبار موظفي الإدارة المركزية والمحلية في وظائفهم . أمّا جملة الموظفين من درجة أقل - الذين يملؤون الدواوين المختلفة - فكان يقوم باختيارهم كبار الموظفين المُقلِّدين ، وإن كان من

(1) عبد الرحمن الرفاعي وزميله : مرجع سابق ، ص 264 .

(2) عبد المنعم ماجد : نُظُمُ الفاطميين ، 95/1 .

(3) القلقشندي : مصدر سابق ، 482/3 - 498 .



ينظر القلقشندي : مصدر سابق ، 498-482/3.

حق الوزير - سواء أكان وزير تنفيذ أم تفويض - التدخل في هذا الاختيار لعموم نظره في كل شؤون الدولة⁽¹⁾.

ومهما يكن الأمر سواء أكان تعيين الموظفين من قبل الخليفة الفاطمي نفسه أم من قبل وزيره ، فإن موظفي الدولة - ولاسيما الأمراء والقادة وكبار موظفي الدواوين- قد لاقوا اهتماماً كبيراً من قبل الحكومة الفاطمية ، التي عملت على توفير أسباب الحياة الكريمة لهم ، كي يشعروا بالأمان والاستقرار ، مما يرفع من كفاءتهم ويزيد من قدراتهم على الإنجاز في العمل والتفاني في خدمة الدولة ورفع شأنها .

وقد اتبع الفاطميون في ذلك عدّة طرق ، كان من بينها التشجيع والتقدير المعنوي، وذلك باتباع بعض الإجراءات التي تُحسّسهم بالمكانة الاجتماعية الرفيعة التي وصلوا إليها بتقلدهم لمناصبهم . فقد كان لكبار الموظفين رسوم تكريمية عديدة عند تنصيبهم ، من بينها الإنعام عليهم بالخلع (الملابس) من أرقى أنواع المنسوجات المطرزة بالذهب وغيره ، وكذلك الهدايا القيّمة التي تتضمن الأموال والثياب والدواب ، بل والعبيد في بعض الأحيان⁽²⁾.

وإلى جانب هذه الخلع والهدايا كان الفاطميون يمنحونهم الألقاب الرئّانه التي تُضفي عليهم مظاهر الإجلال والهيبة ، مما يتيح للكثيرين منهم أن يتبوؤوا مكانة متميزة داخل مجتمعهم الذي يعيشون فيه⁽³⁾. فعلى سبيل المثال أكرم الخليفة الظاهر

(1) عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ، 100/1.

(2) المسيحي : مصدر سابق ، 14/1 ، 47-48 . كذلك المقرئزي : اتعاض الحنفا ، 7/2.

(3) سليمان ، سمير عبد الله : الدواوين في مصر خلال العصر الفاطمي (358-567هـ/969-1171م) ، الحياة المصرية العامة للكتاب (القاهرة ، 2006م) ص 245-246.

لإعزاز دين الله قائده مِعْضَاد الخادم الأسود^(*) بتلقيبه " القائد الأجل عزّ الدولة وسناها أبي الفوارس معضاد الظاهري " ، وكتب له سجلاً رسمياً بذلك قُرِيء علناً على عامّة الناس وخاصتها⁽¹⁾. كما لُقّب الخليفة المستنصر بالله اليازوري عندما كان يتولّى ديوان أمّه في سنة 440 هـ / 1048م ، بـ " الناصر للدين غياب المسلمين خليل أمير المؤمنين "⁽²⁾. وغير هؤلاء كثير.

وعدا هذه الألقاب الممنوحة من الخلفاء ، كان هناك الكثير من الوظائف يُلقَّب أصحابها بألقابٍ بمجرد توليهم إياها ، فعلى سبيل المثال لا الحصر كان يُخاطب مُتولّي ديوان الإنشاء بـ "الشيخ الأجل"⁽³⁾. وكان يُقال لمتولي خدمة الباب أو صاحب الباب بـ "المُعظّم"⁽⁴⁾. في حين يُنعت صاحب المجلس الذي يتولّى أمر مجلس الخليفة بـ " أمين الملك "⁽⁵⁾. وكان صاحب الرسالة الذي يخرج برسالة الخليفة إلى رجال دولته من وزير وغيره لِيُبلّغهم إياها يُسمى في أواخر الدولة الفاطمية بـ "الأمير الثقة"⁽⁶⁾.

وبالإضافة إلى ذلك كان لكبار الموظفين علامات تُمنح لهم عند تعيينهم تتفق وطبيعة عملهم ، فكان يُقدم لبعض الموظفين المعيّنين الدّواة التي تُرمز إلى وظيفتهم

(*) مِعْضَاد الخادم الأسود ، أستاذ الخليفة الظاهر وأقرب خدمه . كان يتولّى ديوان الكُتّامين ، وكانت له سلطات واسعة في الدولة تسمح له باتخاذ القرارات دون الرجوع إلى الخليفة = المقريري : اتعاط الحنفا ، 127/2 ، 139، 141، 148.

(1) المسيحي : مصدر سابق ، 24/1 - 25 .

(2) سمير عبد الله سليمان : مرجع سابق ، ص 246.

(3) المقريري : الخطط ، 49/2 .

(4) المصدر نفسه ، 151/2 .

(5) القلقشندي : مصدر سابق ، 485/3 .

(6) عطية مصطفى مشرفة : مرجع سابق ، ص 108.

الديوانية⁽¹⁾. وهذه الدّواة كانت أيضاً من علامات الخليفة والوزير ، وهذه دلالة واضحة عن الدفعة المعنوية التي كان يتحصّل عليها كبار الموظفين من قبل الحكومة الفاطمية . وكان من بين علاماتهم المرتبة العظيمة للجلوس عليها بالمخاد والمسند أو بدونهما حسب درجة الشخص المعين . وكان لهم أيضاً الحجاب والفرّاشون والأستاذون ، وهم يصحبونهم في أثناء العمل ، أو في الحفلات الرسمية حسب تفاوت المنصب⁽²⁾.

كذلك اهتم الفاطميون بالجانب المادي للموظفين ، فكانوا يمنحونهم رواتب نقدية كافية لمتطلباتهم الدنيوية ، بالإضافة إلى ما كان لهم من رواتب عينية وأقوات تُصرف لهم من مخازن غلال الدولة المعروفة بـ "الأهراء السلطانية"⁽³⁾ ، وكذلك من المطابخ التي كان عليها موظف يُطلق عليه "حامي المطابخ" ، يقوم بتنظيم عملية إخراج هذه الرواتب المقررة كل يوم ، وكانت تحتوي على أصناف متعددة من الأطعمة والشمع والسكر واللحم ، وغير ذلك من سائر الأصناف التي عمّرت بها المطابخ⁽⁴⁾.

كما كان يُصرف لأولادهم - أيضاً - مقررات عينية يومية من هذه المطابخ ، وفي أعياد الدولة المختلفة ، ولا يتّسع المجال للتفصيل فيها ، وإن كنت أختتم كلامي في هذا الصدد بما ختمه المقريري عند عرضه للمقررات العينية التي كان يحصل عليها أبو البركات بن أبي الليث - مُتولّي ديوان المجلس سنة 517 هـ / 1123م - وأبناؤه بقوله : " فانظر أعزك الله إلى سعة أحوال الدولة من معلوم

(1) القلقشندي : مصدر سابق ، 490/3 ، 493 ، 494 .

(2) المصدر نفسه ، 490/3 . كذلك عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ، 102/1 .

(3) المقريري : الخطط ، 288/2 - 289 .

(4) سمير عبد الله سليمان : مرجع سابق ، ص 235 .

رجلٍ واحدٍ من كُتّاب دواوينها ، يتبيّن لك بما تقدم ذكره في هذه المرافعة من عظم الشأن وكثرة العطاء، ما يكون دليلاً على باقي أحوال الدولة"⁽¹⁾.

وكانت أعياد الدولة ومواسمها المختلفة من الوسائل التي أتبعها الفاطميون في إظهار اهتمامهم بالموظفين والعناية بهم ؛ فقد أبدت الدولة الفاطمية اهتماماً كبيراً بالأعياد وبالغت في إقامتها والإكثار منها ، وكانت تُقام وتُجرى حسب رسوم مخصوصة، يُصيب مُوظَّفُو الدولة فيها من الخيرات الواسعة والإنعامات الكثيرة ما يجعلهم ينتظرون حلولها ، لما كان يغدق عليهم فيها من أنواع الخير والبر"⁽²⁾.

وأخيراً فإن الحكومة الفاطمية كانت لا تهضم حقوق مُوظَّفيها ، ولا تنسى أتعابهم بعد وفاتهم . فكان إذا ما تُوفي أحدهم ينتقل مرتبه إلى أهله وذويه من بعده ، فيقول القلقشندي في ذلك : " ويُراعون - أي الفاطميون - من يموت في خدمتهم في عقبه ، وإن كان له مرتب نقلوه إلى ذريته من رجال أو نساء"⁽³⁾. وهذا الإجراء شبيهه بنظام "الضمان الاجتماعي" الذي يُعرف في وقتنا الحاضر ، والذي يشمل كل موظفي الدولة . وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدلُّ على الرقي الحضاري الذي وصلت إليه الدولة الفاطمية ممَّا جعلها تَسْتَنُّ العديد من النظم أصبحت ولازالت أساساً في نُظُمنا الحضارية الآن .

وهكذا فإن المكانة الاجتماعية الحسنة التي كانت للموظفين في الدولة الفاطمية ، وما كانوا يتمتعون به من مكانه اقتصادية عالية - بفضل ما كانوا

(1) المقريري : الخطط ، 142/2 - 145 .

(2) سمير عبد الله سليمان : مرجع سابق ، ص 237 .

(3) القلقشندي : مصدر سابق ، 524/3 .

يحصلون عليه من رواتب ومنح وأعطيات وهدايا ، مع ما كان يشملهم من ضمانات مستقبلية لهم ولأهاليهم - كل ذلك جعلهم في رغدٍ من العيش والحياة الهانئة، الأمر الذي سهّل عليهم القيام بواجباتهم على أحسن وجه ، فلم يألوا جهداً في العمل على تقدم مرافق البلاد المختلفة ودفع أسباب الفساد عنها .

المبحث الثاني : طبقة العامة

هم باقي أفراد الشعب المصري بفئاته المختلفة ، وكانوا يشكلون أغلبية عظمى في المجتمع الفاطمي ، ومحل سكناهم مدينة الفسطاط⁽¹⁾. ولم يكن مسموحاً لهؤلاء العامة بدخول مدينة القاهرة - التي كانت " منزل سُكنى للخليفة وحرمه وجنده وخواصه " ⁽²⁾ - إلاّ بإذن خاص يُصرّحُ لصاحبه الدخول من إحدِي بواباتها⁽³⁾. كما لم يكن مسموحاً لهم بالمبيت فيها ، على الرغم من أنّ بعضهم كان لديه عملٌ يوميٌّ مستمرٌ فيها ، فكان عليهم مغادرتها قبل حلول الليل إذ " أنّ المتعيشين بالقاهرة والمستخدمين يُصلُّون العشاء الأخيرة بالقاهرة ، ويتوجهون إلى مساكنهم بمصر " ⁽⁴⁾.

(1) الدوّاداري ، أبو بكر بن عبد الله بن أيك: دُرر التيجان وُغُرر تواريخ الأزمان ، مخطوط تحت رقم (3828/ج تاريخ) بمتحف المخطوطات والكتب النادرة بمكتبة الإسكندرية ، ورقة 251 .

(2) المقريري : الخطط ، 60/2 .

(3) زكي ، عبد الرحمن : نشأة القاهرة وامتدادها في أيام الأيوبيين ، المجلة التاريخية المصرية (القاهرة ، 1971م) المجلد الثامن عشر ، ص 116 .

(4) المقريري : الخطط ، 409/2 .

وسأبدأ حديثي عن هذه الطبقة بفئة العلماء والفقهاء والمتقنين ، بوصفهم أرقى العامة مكانةً وأقربهم إلى الخاصة احتراماً .
أولاً : العلماء والفقهاء والمتقنون :

في عصر الدولة الفاطمية بمصر راجت حركة العلم - بجميع فروعها - رواجاً عظيماً لم يسبق له مثيل من قبل ، وذلك لأن خلفاءهم أرادوا ذلك ، وهم كما عُرفوا كبار الهمم مُتَحَرِّقِينَ في العطاء ، فكانت مصر على أيامهم في حركة دائبة : " مصريون يد أبون في التحصيل لينالوا ما تشرَّبُ إليه أعناقهم من تكريم ومترلة سامية ، وأغراب يقصدون البلاد لما سمعوا من جُود خلفائها وأمرائها ووزرائها واحتفالهم بكل ذي قدم في فته أو علمه ، ثم خلفاء مُقْبِلُونَ بأنفسهم على العلم يدرسونه ويعنون بأخبار العلماء في أقطار الدنيا ، فيبدلون لهم الرغائب ليحضرُوا إلى مصر ويجعلوها بيئتهم العلمية أو مجال تجارهم الفنية " (1).

وقد برز اهتمام الفاطميين بالعلم ومن ثمَّ بالعلماء في مصر منذ أيام خليفتهم الأول المعز لدين الله ، الذي عُرف بثقافته الرفيعة وإجادته للعديد من اللغات ، وكذلك وُجِعَ بالعلوم ودرايته بالأدب (2). فكان كثير التشجيع للعلماء والفقهاء والمتقنين ، فاتحاً لهم أبواب قصره مُبِيحاً لهم الاطلاع على الكتب المختلفة التي بمكتبة القصر (3). تلك المكتبة التي عُدَّت من مفاخر الفاطميين " وكانت من عجائب الدنيا ، ويُقال : إنَّهُ لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التي

(1) مصطفى ، محمود : الأدب العربي في مصر من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الأيوبي ، دار الكتاب العربي (القاهرة ، 1967) ص 247.

(2) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص 93 . كذلك محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص 149.

(3) محمد جمال الدين سرور : مرجع سابق ، ص 177.

كانت بالقاهرة في مصر⁽¹⁾. حيث ضُمَّت في داخلها مليون وستمئة ألف كتاب في مختلف العلوم والفنون ، من فقه على سائر المذاهب إلى نحو ولغة وكتب الحديث والتاريخ والسِّير والرياضيات والفلسفة والكيمياء ، وغير ذلك من العلوم⁽²⁾.

كذلك شهد عصر العزيز اهتماماً كبيراً بالعلماء والفقهاء ، ولاسيما من قبل وزيره ابن كلِّس ، الذي كان مُحبّاً للعلماء مشجعاً لهم مُغدقاً المنح والعطايا عليهم ، فكان دائماً ما يجمع في داره العلماء والأطباء والكتّاب والأدباء والشعراء والفقهاء والمتكلمين ، وكان يعدّ لهم المجالس ليتناظروا فيها بين يديه ، كما كان في داره العديد من القُراء والأئمة يصلون في مسجدٍ أقامه فيها . واتخذ فيها أيضاً الكثير من التّسّاحين يقومون بنسخ القرآن الكريم والكتب المختلفة ، في الفقه والطب والأدب وغيرها من العلوم . وأقام فيها مطابخ لإعداد الطعام له ولجلسائه ولغلمانه وحواشيه . وكان ينصب مائدة ليأكل عليها مع خاصّته من أهل العلم ووجوه الكتّاب وخواص أتباعه ومن يستدعيه عليها . وينصب موائد أخرى عديدة يأكل عليها الحُجّاب وبقية الكتّاب والحاشية . وكان دائماً ما يُقيم الأُطعمة في شهر رمضان للفقهاء وغيرهم من العلماء⁽³⁾.

(1) المقرئزي : الخطط ، 165/2 . كذلك المقرئزي : مُسوّدة كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، حقّقها وكتب مقدمتها ووضع فهرسها أيمن فؤاد سيّد ، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي (لندن ، 1995م) ص139 .

(2) المقرئزي : الخطط ، 165/2 . كذلك حسين ، محمد كامل : الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربي حتى آخر الدولة الفاطمية ، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة ، 1959م) ص 83 .

(3) ابن خلّكان : مصدر سابق ، 29/7 . كذلك المقرئزي : الخطط ، 379/2 .

وقد أثمرت اهتمامات ابن كلس بالعلم والعلماء في فكرة جديدة راودته استشار عليها الخليفة العزيز في سنة 378 هـ / 988م ، وذلك بتحويل الجامع الأزهر إلى مكانٍ للدراسة بعد أن كان مقصوراً على إقامة الدعوة الفاطمية (الشيعة). فاستأذنه في أن يُعيّن بالأزهر ، بعض الفقهاء للقراءة والدرس ، على أن يعقدوا مجالسهم بهذا الجامع في كل جمعة من بعد الصلاة إلى العصر . فرحّب العزيز بذلك ، وأنشأ لهؤلاء الفقهاء داراً ليسكنوا بها بجوار الأزهر ، ورثب لهم أرزاقاً شهرية ثابتة تكفيهم⁽¹⁾. فكانت هذه أوّل مرة يتحصّل فيها الفقهاء على أموالٍ من قبل السلطان مقابل دروسهم العلمية ، هذا إلى جانب الصلة المالية التي يتحصلون عليها من ابن كلس في كل سنة⁽²⁾.

ولم يقتصر اهتمام الفاطميين على العلماء الذين يُدرّسون بالأزهر ، بل اهتموا أيضاً بطلاب العلم فيه ، فكانوا يقدمون إليهم المأكل والملبس والمسكن ، وكل ما يُوفّر لهم وسائل المعيشة وأسباب الراحة من غير أجر ، فأصبح الأزهر بذلك نبراساً للعلم ، ومكاناً يقصده الكثير من الطُلاب من أرجاء البلاد الإسلامية كافة⁽³⁾.

ولم يختلف الخليفة الحاكم عن جده وأبيه في اهتمامه بالعلماء وتشجيعه لطالبي العلم والمثقفين . وقد توجّج اهتمامه بإنشاء دار العلم (الحكمة) التي افتتحت أبوابها رسمياً للناس في العاشر من جمادى الآخرة من سنة 395 هـ / 1004م . وكان بها كثير من الكتب في سائر العلوم والآداب ما لم يُرَ مثله مجتمعاً لأحد .

(1) الإسكندراني : مصدر سابق ، ورقة 11 وجه . كذلك المقريري : الخطط ، 3 / 213 .

(2) المقريري : الخطط ، 3 / 384 .

(3) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص 427 .

وقد أباح الحاكم ذلك كله لسائر الناس على فئاتهم ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها . فوفد إليها القُرَّاء والمنجِّمون والنحويون وأصحاب اللغة والأطباء . فكان منهم من يحضر لقراءة الكتب ومنهم من يحصر للنسخ ومنهم للتعلم . كما أجلس الحاكم فيها الكثير من الفقهاء والعلماء لِيُدرِّسُوا الناس العلوم المختلفة ، وعيَّن بها خزاناً وخداماً وفرّاشين ، وأجرى الأرزاق لمن رسم له الجلوس فيها والخدمة بها ، ووفّرَ فيها ما يحتاج إليه الناس من حبر وأقلام وورق ومحابر⁽¹⁾، فكانت دار العلم تجمع ما بين عمل المكتبة العامة وبين الجامعة العلمية ؛ فكانت كثيراً ما تُقام فيها المناظرات والمناقشات العلمية بين علمائها⁽²⁾ . وكان الخليفة الحاكم بنفسه يطلب حضور مشاهير العلماء من هذه الدار في الرياضيات والمنطق والفقه والطب وغيرها من العلوم إلى قصره ، حيث كان يعدُّ لهم مجلساً ليتناظروا فيه بين يديه ، وعند انفضاض المجلس يمنحهم الخِلعَ والجوائز⁽³⁾ .

ولم يقتصر اهتمام الفاطميين بالعلماء والفقهاء والمتقنين على الناحية العلمية فقط ، التي تمثلت في إقامة المساجد ودور العلم الفخمة لوجودهم ، وتوفير الكتب العلمية ومتطلبات الدراسة المختلفة لهم ، وإجراء الأرزاق الشهرية عليهم ، وإعداد المجالس العلمية لمناظراتهم ، بل اهتمُّوا أيضاً بوضعهم ومكانتهم في المجتمع بين سائر الناس ، فكانوا يُكرِّمُونهم بحضور الاستقبالات الرسمية في المناسبات المختلفة مع رجال الدولة من أرباب الوظائف والأشراف وعلية القوم ، حيث كان العلماء من بين الفئات التي استقبلت جوهر الصقلي قبل دخوله إلى مصر ليسألوه

(1) الأنطاكي : مصدر سابق ، ص 258 . كذلك ابن سعيد : مصدر سابق ، ص 60 . المقرئزي : اتعاط

الحنفا ، 56/2 . أحمد أمين : ظهر الإسلام ، 200/2 .

(2) محمد كامل حسين : مرجع سابق ، ص 83 .

(3) المقرئزي : الخطط ، 275/2 . كذلك حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص 435 .

الأمان ، كما كانوا في استقباله في الجزيرة قبل عبوره إلى الفسطاط في شعبان سنة 358هـ / 968م⁽¹⁾. والشيء نفسه عند قدوم المعز إلى مصر سنة 362هـ / 972م ، حيث خرج لاستقباله في الإسكندرية جوهر الصقلي ومعه وجوه التجار وسائر الشهود والفقهاء⁽²⁾. كذلك كان أهل العلم من الذين يُشرفون بالركوب مع الخليفة عند الاحتفال بأعياد الدولة ، لاسيما عيد ركوب فتح الخليج الذي يُعدُّ من أعظم الأعياد القومية في مصر في العصر الفاطمي⁽³⁾.

كما كانت هناك نواحٍ أخرى بسيطة تدلُّ على اهتمام الفاطميين برفع المكانة الاجتماعية للعلماء والمتعلمين عن سائر فئات عامة الناس ، منها أن المصريين كانوا يستخدمون في تنقلاتهم داخل أزقة البلاد وشوارعها الحمير ولا يُسمح لهم بركوب الخيل الذي كان مخصّصاً للجند والعسكر ، فلا يركبها التجار ولا القرويون ولا أصحاب الحرف ، في حين سُمح للعلماء بركوبها والتنقل بها⁽⁴⁾. وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدلُّ على المكانة الاجتماعية الرفيعة التي كانت للعلماء في المجتمع المصري في العصر الفاطمي ، والتي ميّزتهم عن سائر الأهالي وجعلتهم على رأس طبقة العامة فيه .

وكان لتشجيع الفاطميين هذا أثره في ظهور طائفة كبيرة من العلماء والفقهاء في مصر ، قاموا بإثراء الحياة العلمية فيها بمختلف فروعها ، الأمر الذي جعل فيها نهضة علمية وفنية لم تشهدها البلاد من قبل ، وعلى تراث هذه النهضة

(1) المقريري : تعاضد الحنفا ، 110/1.

(2) المصدر نفسه ، 133/1.

(3) ناصر خسرو : مصدر سابق ، ص 108 ، 111 ، 112 .

(4) المصدر نفسه ، ص 121.

- ولاسيما الفكرية منها - قامت الدراسات في مصر طوال العصر الوسيط ، بل ولا يزال العالم الإسلامي يعتمد كثيراً على ما تركه علماء مصر في هذا العصر⁽¹⁾ .
ثانياً : التُّجَّار والحرفيون والفلاحون :

1- التُّجَّار :

هم أهل اليسار وأولو النعمة من ذوي الرفاهية كما يُسمِّيهم المقرئزي⁽²⁾ . وقد حظي التجار على مرّ العصور بمكانة مرموقة في المجتمع الإسلامي ؛ حيث كانت التجارة من المهن ذات الاحترام والتقدير ، ويتَّصفُ أغلب من يمارسها بالمروءة والأخلاق الحسنة والسمعة الطيبة⁽³⁾ . وكانت على مختلف أنواعها ومستوياتها من أكثر الأنشطة التي مارسها الناس في مصر في العصر الفاطمي⁽⁴⁾ ؛ حيث كانت مصر من أكثر البلدان الإسلامية رواجاً في التجارة⁽⁵⁾ .
وقد اهتمَّ الفاطميون بالتجارة ومن ثمَّ بالتجار ، فبعد أن اتخذوا القاهرة حاضرة لخلافتهم الفتيّة ، وتحقيقهم لهذا الكسب السياسي الكبير ، عملوا على حمايته ودعمه بتقدم وتفوق اقتصادي يتناسب مع مشروعهم الكبير وأهدافهم التي ترمي إلى ضم كل البلاد العربية إليهم . لذلك كانت السياسة العامة للخلفاء الفاطميين تقوم على العناية بالتجارة والحثُّ على عوامل النهوض بها ، ومتابعة

(1) محمد كامل حسين : مرجع سابق ، ص 83 .

(2) المقرئزي : إغائة الأمة ، ص 72 .

(3) الدمشقي ، أبو الفضل جعفر بن علي : كتاب الإشارة في محاسن التجارة ومعرفة جيد الأعراض ورتبها وغشوش المُدلسين فيها ، مخطوط تحت رقم عام (543) وتصنيف (330/أ.د) بقسم المخطوطات بجامعة الملك سعود بالرياض ، ورقة 26 ظهر - 27 وجه .

(4) سلطان ، عبد المنعم عبد الحميد : الأسواق في العصر الفاطمي (دراسة وثائقية) ، مؤسسة شباب الجامعة (الإسكندرية ، 2005م) ص 159 .

(5) المقدسي : مصدر سابق ، ص 35 .

رعايتها⁽¹⁾. وذلك من خلال العديد من المشاريع ، كان من بينها تشييد الأسواق اللازمة لها وتنظيم عملية التجارة بها بتخصيص سوق لكل نوع من البضائع إن أمكن . وقد وردَ في العصر الفاطمي أسماء العديد من الأسواق ذات النشاط الواحد ومنها : سوق القناديل⁽²⁾، وسوق الجبن أو دار الجبن ، وكذلك دار التفاح والرطب⁽³⁾، وسوق اللجميين لبيع آلات اللحم ونحوها ممَّا يتَّخذ من الجلد⁽⁴⁾، وسوق السمَّاكين ، وسوق الزيتين⁽⁵⁾ لبيع أنواع الزيوت ، وغيرها كثير .

كما أنشأ الفاطميون الوكالات والفنادق ليزل بها التجار المصريون ، وكذلك التجار القادمون من بلاد المشرق الإسلامي ببضائعهم ، فذكر ابن ميسر (م: سنة 677هـ / 1278م) في تاريخه أن الوزير المأمون البطائحي أمر سنة 516هـ / 1122م ، ببناء وكالة بالقاهرة لمن يصل من العراق والشام من التجار⁽⁶⁾.

وإلى جانب هذه المنشآت كانت هناك أبنية أخرى أُعدَّت للتجار أُطلق عليها اسم القياسر⁽⁷⁾. وكانت القيسارية كمجموعة من المباني العامة ، بها حوانيت ومخازن ومساكن ، وكان في بعضها ميضأة ومسجد للصلاة ، ويعلوها رباغ يُقيم

- (1) زيود ، محمد : التجارة بين مصر والشام في العصر الفاطمي ، مجلة دراسات تاريخية ، العددان 57، 58 السنة السابعة عشر (دمشق ، 1996م) ص 117، 118.
- (2) ناصر خسرو : مصدر سابق ، ص 118.
- (3) المقريري : الخطط ، 2/299.
- (4) المصدر نفسه ، 2/588.
- (5) ابن دُقمق : مصدر سابق ، ص 33.
- (6) ابن ميسر : مصدر سابق ، ص 92 .
- (7) المقريري : الخطط ، 2/564 .

فيها الصُّناع والتجار بأجر ، وقد أنشئ في مصر في العصر الفاطمي عدد غير قليل من هذه القياسر⁽¹⁾.

وقد حرصت الدولة كل الحرص على هذه المنشآت والأسواق ، وذلك بعدم السماح بنشر الفوضى فيها وحمايتها من السرقة والنهب ، ولاسيما في أثناء الخطوب والفتن والأزمات السياسية⁽²⁾. كما حرص الخلفاء الفاطميون على توفير الأمن والأمان للتجار ، وعدم التعرض لأموالهم وبضائعهم بالمصادرة مهما كانت الظروف والأزمات التي تمرُّ بها البلاد ، والتي قد تُبرِّر لهم مثل هذا التصرف⁽³⁾.

ونتيجةً لهذا الاهتمام - بأمن التجار ومتاجرهم - بلغ اطمئنان التجار وثقتهم بحكومتهم ، لدرجة أن البزازين (تجار الأقمشة) وتجار الجواهر والسيارة كانوا لا يغلقون أبواب دكاكينهم ، بل يسدلون عليها الستائر ولم يكن أحد يجروء على مد يده إلى شيء منها⁽⁴⁾. كما كان التجار بالسوق على ثقة بأن الخليفة لا يظلم أحداً ولا يطمع بمال أحد ، لذلك كانوا لا يخفون أو يُنكرون شيئاً مما يملكون⁽⁵⁾. فكان أن وُجدَ بعض التجار يملكون أموالاً لا أحد لها ، فقد ذكر ناصر خسرو أن تاجراً نصرانياً في عصر الخليفة المستنصر كان لديه من المراكب والأموال والأموال ما لا يمكن عدُّه ، وكان لديه من الغلال في مخازنه ما يُطعمُ أهل مصر من الخبز لمدة

(1) محمد جمال الدين سرور : مرجع سابق ، ص 159. كذلك البرأوي ، راشد : حالة مصر الاقتصادية في

عهد الفاطميين ، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة ، 1948م) ص 272 .

(2) المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، 170/2. كذلك محمد زيود : مرجع سابق ، ص 123.

(3) عبد المنعم عبد الحميد سلطان : مرجع سابق ، ص 164.

(4) ناصر خسرو : مصدر سابق ، ص 124.

(5) المصدر نفسه ، ص 121، 122.

ست سنوات⁽¹⁾. وهذا الكلام وإن كان فيه الكثير من المبالغة إلا أنه يُعطي صورة عن ثروات التجار في ذلك الوقت .

وعلى الرغم من اهتمام الدولة الكبير بالتجار وحریتهم إلا أنها في الوقت نفسه كانت لا تسمح لهم بالغش أو التجاوزات ، فمنذ أوائل سنين الدولة وبالتحديد في رمضان 383هـ/993م ، كُتِبَ سجل في الأسواق بالنهاي عن الغش، وخوَّفَ التجار بأنَّ من وُجِدَتْ عنده صنجة أو كيل أو ميزان بعد ثلاثة أيام من إعلان هذا السجل وفيها عيب حَلَّت به العقوبة مهما كان وضعه أو مكانته في المجتمع⁽²⁾.

وقد كان للمحتسب دوره الكبير في الحدِّ من هذه التجاوزات ومعاقبة فاعليها. لذلك كان تجار مصر يصدقون في كل ما يبيعون ، وإذا ما كذب أحدهم على مشترٍ أو غشَّه ، فإنه يوضع على حملٍ ويُعطى جرساً في يده ويُطاف به في المدينة وهو يدق الجرس وينادي قائلاً : " قد كذبت وها أنا أعاقب ، وكل من يقول الكذب فجزأوه العقاب "⁽³⁾.

وكانت الحكومة الفاطمية تُعامل التجار في بعض الأحيان معاملة تنطوي على القسوة والتهديد ، وذلك للحدِّ من أطماعهم ومنعهم من استغلال أوقات الشدائد والجماعات لزيادة مكاسبهم . وقد أورد المقرئزي في كُتُبِهِ العديد من الروايات التي استغلَّ فيها التجار الأزمات وقاموا بتخزين الغلال لمضاعفة مكاسبهم

(1) ناصر خسرو : مصدر سابق ، ص 121.

(2) المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، 280/1.

(3) ناصر خسرو : مصدر سابق ، ص 120.

، بيد أن الحكومة كانت تُجابهُ جشعهم بالترهيب والتهديد ، ومن لم ينفذ فيه ذلك قد تصل العقوبة إلى الضرب الموجه والتشهير في الأسواق⁽¹⁾.

أمَّا عن حياة التجار داخل المجتمع فقد كانت لهم مشاركات واضحة فيه ، حيث كانت أسواقهم غالباً ما تشارك في الاحتفالات الرسمية والشعبية في ذلك الوقت ، منها على سبيل المثال أنه كان يقيم في الدولة الفاطمية احتفالٌ شعبيٌّ كل عام ، يتجمع فيه الكثير من الناس للخروج إلى سجن يوسف (السَّجْنُ) ^(*) للترك والدعاء . وكان هذا الاحتفال وثيق الصلة بتجار الأسواق وأصحاب الحوانيت ؛ إذ كان من عادة المحتفلين قبل رحيلهم إلى مكان السجن ، أن يجوبوا الأسواق لعدّة أيام يجمعوا فيها من التجار والباعة ما ينفقونه في مُضَيِّبِهِمْ . فكانت الأسواق تتحول خلال تلك الأيام إلى شعلة من النشاط ؛ إذ يطوفُ بها الناس بالعاجم المختلفة ، وهم يدقُّون الطبول وينفخون الأبواق في احتفالات كبيرة⁽²⁾. كذلك كانت غرّة السنة الهجرية من المناسبات التي تُزَيَّن فيها الأسواق ، ويهتم التجار بعرض سلعهم أمام حوانيتهم أثناء مرور الخليفة في موكبه احتفالاً بهذه المناسبة⁽³⁾.

وكان هناك كثيرٌ من التجار ممن يتعاملون مع الخلفاء وكبار أمراء الدولة ووزرائها ، فيعرضون عليهم البضائع ويُلَبُّون طلباتهم من السلع النفيسة ويهدونهم

(1) المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، 120/1. كذلك المقرئزي : إغائة الأمة ، ص 17-18، 24-28.

(*) يقع سجن يوسف (السَّجْنُ) بقرية بوضير بالقرب من الجزيرة ، وقد أجمع أهل المعرفة من أهل مصر صحّة هذا المكان . ويُقال إنَّ سطح السجن موضع معروف بإجابة الدعاء ، ولذلك كان الناس - على ما يبدو - يخرجون لزيارته كل عام = المقرئزي الخطط ، 578/1-579.

(2) المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، 144/2-146. كذلك عبد المنعم عبد الحميد سلطان : مرجع سابق ، ص 175، 176.

(3) ابن المأمون : مصدر سابق ، ص 58. كذلك عبد المنعم عبد الحميد سلطان : مرجع سابق ، ص

في بعض الأحيان الهدايا والطرائف الثمينة . لذلك تمتع كبار التجار باحترام الخلفاء وكبار رجال الدولة وتقديرهم ، وكانت لهم حظوة عندهم وكانوا ينظرون في مطالبهم وقد يستجيبون لها⁽¹⁾.

وعلى الرغم من هذه المرتبة التي وصلها كبار التجار ، ومما أدركوه من مال وجاه ، وما حققوه من ثروات طائلة أتاحت لهم العيش في رخاء ورفاهية ، إلا أنهم ظلوا من ناحية وضعهم الاجتماعي أقرب إلى العامة منهم إلى الطبقة الممتازة في الدولة (الخاصة).

2- الصُّنَاع والحرفيون :

شهدت مصر في العصر الفاطمي ازدهارا كبيرا في مجال الصناعة⁽²⁾. ومن غير شك أن التطور الكبير في تجارة مصر الداخلية والخارجية وافتتاح أسواق جديدة لها ، بالإضافة إلى الرفاهية العالية للبلاط الفاطمي قد أدت إلى ازدهار مختلف فروع الصناعة . كذلك دعت الحياة الاجتماعية المترفة التي وصفها الرحالة الذين زاروا مصر في هذه الفترة إلى تقدم الصناعة من حيث الكم والكيف وألقت أعباء جديدة على الإنتاج الصناعي المحلي ، فقد زاد حجم الصناعات القديمة القائمة في مصر، وأوجدت لها فروع جديدة وظهر معها صناعات لم تكن معروفة من قبل ، واستُخدمت أساليب جديدة ، كما تحسنت الطرق القديمة وقُلِّدَت الطرق المستعملة في مراكز أخرى بنجاح⁽³⁾.

(1) ساويروس بن المُقَفَّع ، أسقف الأثيونين : تاريخ البطارقة "وبهامشه تاريخ مصر من بدايات القرن الأول الميلادي حتى نهاية القرن العشرين" ، إعداد وتحقيق عبد العزيز جمال الدين، مكتبة مدبولي (القاهرة ، 2006م) الجزء الثالث ، المجلد الأول ، ص533،427 .

(2) راشد البرأوي : مرجع سابق ، ص 120. كذلك علي إبراهيم حسن : العصور الوسطى ، ص 483.

(3) أيمن فؤاد سيد : مرجع سابق ، ص 296.

ومن أهم الصناعات التي اشتهرت بها مصر الفاطمية : صناعة النسيج ، وصناعة الورق والتجليد ، والزجاج والخزف والبُّور ، والصناعات الخشبية والمعدنية والعاج والفسيفساء ، وكذلك الأدوات الجلدية ، بالإضافة إلى صناعات المواد الغذائية من السكر والعسل والزيتون وغيرها⁽¹⁾.

وإزاء الازدهار الكبير الذي شهدته البلاد في الصناعة ، ازداد عدد الصُّناع والحرفيين فيها ، فإلى جانب الحرفيين المحليين عملت الحكومة الفاطمية على استقطاب الكثير من الحرفيين الأجانب ، وذلك بإغرائهم بالمرتبات الكبيرة والمعاملة الحسنة وتوفير الأمن والأمان لهم⁽²⁾. فكان أن وُجِدَ في مصر الفاطمية حرفيون رومانيون وآخرون من تَفليس^(*) ، بالإضافة إلى القادمين من صور وبيت المقدس ودمشق والمهدية⁽³⁾.

وجرت العادة في العصر الفاطمي أن تُقام لأرباب الحرف والصناعات تجمعات كبيرة ، وأسواق متخصصة يقصدها الناس على اختلاف طبقاتهم لشراء حاجاتهم ، وقد ذكر ناصر خسرو أنه شاهد في مدينة الفسطاط رباطاً ضخماً يجلس في الدور الأول منه الخياطون وفي الأعلى الرفّاءون بالإيجار ، وأنه سمع أن في مدينة الفسطاط وحدها حوالي مائتي رباط مثل هذا الرباط أو أكبر منه⁽⁴⁾.

(1) راشد البراوي : مرجع سابق ، ص 126-184.

(2) المرجع نفسه ، ص 121 ، 124.

(*) تَفليس : بالفتح أو الكسر : مدينة بأرمينية الأولى ، وبعضهم يقول : بأرّان . افتتحها المسلمون أيام عثمان بن عفّان (رضي الله عنه) = ياقوت الحموي : مصدر سابق ، 2 / 36.

(3) سيمينوفا ، ل. أ : تاريخ مصر الفاطمية (أبحاث ودراسات)، ترجمة وتحقيق حسن بيومي ، المجلس الأعلى للثقافة (بدون مكان ، 2001م) ص 128.

(4) ناصر خسرو : مصدر سابق ، ص 122.

وكان لكل حرفة من الحرف أو صنعة من الصنائع عريفٌ يتولَّى أمرهم⁽¹⁾، وكان انتخاب هذا العريف أو اختياره يتم بموافقة المحتسب ممثلاً الحكومة المسؤول عن الإشراف على الأسواق لمراجعة الأسعار والمكاييل والأوزان ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر⁽²⁾. وقد ذكر الشيزري (م: سنة 589هـ/1193م) في كتابه عن الحسبة بأنه ليس في وسع المحتسب الإحاطة بكل أفعال أهل الأسواق ، فجاز له أن يجعل لأهل كل صنعة عريفاً يكون من صالح أهلها، خبيراً بصناعتهم بصيراً بغشوشهم وتدليساتهم ، مشهوراً بالثقة والأمانة ، ليكون مشرفاً على أحوالهم ويُطالِعُهُ بأخبارهم⁽³⁾. فكان العريف هو الواسطة بين أرباب الحرف والصناعات وبين الحكومة ، فهو الذي ينقل أوامر الحكومة وتعليماتها ، وفي الوقت نفسه يحافظ على أفراد طائفته ، وكان كثيراً ما يتدخل لفض المنازعات البسيطة التي كانت تنشأ بين أفراد الحرفة الواحدة⁽⁴⁾.

وقد لاقى الصُّناع والحرفيون التشجيع من قبل الخلفاء الفاطميين ، فكان الخليفة المعز على سبيل المثال يجمع مهرة الصناع ويلحقهم بخدمة البلاط ومصانع الحكومة ويفرد لهم مساكن خاصة ، كما كان يطلب إلى عماله على الأقاليم أن يرسلوا إليه من يتوسَّمون فيه الصِّلاح لأعمال الصناعة⁽⁵⁾. وكان الصُّناع يعملون برضاهم فلا يُجبرُّ أحدٌ على شيء ، وذلك بخلاف البلدان الأخرى في ذلك الوقت

(1) المقرئزي : إغاثة الأُمَّة ، ص18.

(2) أيمن فؤاد سيد : مرجع سابق ، ص 315 . كذلك سيمينوفا : مرجع سابق ، ص 134.

(3) الشيزري ، عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله : كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، تحقيق السيد الباز العريبي ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (القاهرة ، 1946م) ص12.

(4) راشد البرأوي : مرجع سابق ، ص 193 ، 194.

(5) المقرئزي : الخطط ، 2/240 . كذلك زكي محمد حسن : مرجع سابق ، ص 79.

" حيث يفرض الديوان والسلطان السخرة على الصناع"⁽¹⁾. وكان من يُتقن عمله من الصناع ويُبدع فيه ينال تكريماً من الخلفاء ، كما فعل الخليفة المستنصر عندما عمل له صانع عمامة جميلة فأمر له بخمسمائة دينار⁽²⁾.

3- الزُّرَّاع والفلاحون :

الزُّرَّاع والفلاحون هم غالبية سكان مصر ؛ لأنّ الزراعة هي الاعتماد الأول للسكان في حياتهم ، فهي " أقدم الصنائع لِمَا أَنَّهَا مُحصَّلةٌ للقوت المُكَمَّلِ لحياة الإنسان"⁽³⁾. ونتيجة طبيعية لاهتمام الحكومة بالزراعة أن تتسع دائرة الاهتمام وتشمل الفلاحين الذين هم القائمون بهذا النشاط . فكان الفاطميون يعاملون الفلاحين معاملة تمتاز بالتسامح واللين والرعاية بوجه عام ، فلم يتركوا تقدير الضرائب للمتقبلين والمقطّعين ، بل حددوا فئاتها وكانوا يراجعونها من وقت لآخر⁽⁴⁾. كما حرصوا منذ امتداد نفوذهم إلى مصر إلى عدم انتزاع الأراضي من أيدي أصحابها ، فقد جاء في عهد الأمان الذي أعطاه جوهر للمصريين : " ولكم أمان الله التام العام ، الدائم المتّصل ، الشامل الكامل ، المتجدد المديد على مرور الليالي والأيام وتكرر الأعوام ، في أنفسكم وأهلكم ونعمكم وأموالكم ورباعكم وضياعكم وقليلكم وكثيركم ، لا يعترض عليكم مُتعرض ، ولا يتعقب عليكم مُتَعَقِب"⁽⁵⁾.

(1) ناصر خسرو : مصدر سابق ، ص 94 ، 95 .

(2) المصدر نفسه ، ص 92 .

(3) ابن خلدون : المقدمة ، ص 450 .

(4) راشد البرأوي : مرجع سابق ، ص 105 . كذلك محمد زيود : مرجع سابق ، ص 120 .

(5) ابن حَمَّاد ، أبو عبد الله محمد بن علي : أخبار ملوك بني عُبيد وسيرتهم ، تحقيق ودراسة التهامي نقرة وعبد الحليم عويس ، دار الصحوة (القاهرة ، 1401هـ) ص 87 .

فكان أن احترم الفاطميون مبدأ الملكية الخاصة ، ولم ينتزعوا الأراضي من أيدي أربابها ، أما الأراضي التي تمتلكها الدولة والتي ورثها الفاطميون عن الإخشيديين ، فأخذوا في توزيع أجزاء منها على بعض أعوانهم والمختصين بهم - ولاسيما المغاربة - إمّا على هيئة التمليك المطلق ، وإمّا الانتفاع بإيرادها ، وذلك حتى يستمدوا ولاءهم ويحتفظوا بإخلاصهم⁽¹⁾.

وكان معظم الفلاحين في العصر الفاطمي لا يُقيمون في المدينتين الكبيرتين القاهرة والفسطاط ، حيث إنّ طبيعة عملهم حدّدت مواطن سكّانهم ، لذلك كانوا يُقيمون في أطراف المدن وفي الكفور والقرى بجوار عملهم في الحقول ، لأنّ الزراعة هي المهنة التي تربط الإنسان بالأرض⁽²⁾. فكانوا بعيدين عن ضوضاء المدينتين وما يحدث فيهما .

وكانت حياة الفلاح اليومية تسير على وتيرة واحدة بين حقله ومترله ، وكان يعمل طول وقته بدون ملل ولا كدر ، حريصاً على إنتاجه وكثرتة مراعيّاً متطلبات أسرته ومعيشتها ، فيعمل طوال اليوم من الصباح إلى المساء ، حتى ارتبط بالأرض التي يزرعها⁽³⁾.

ولكي يعيش في استقرار ويستغل أرضه بما يعود عليه بالمنفعة كان لزاماً على الدولة أن تُهيئ له السلام والأمن والطمأنينة ، وقد عملت السلطات الفاطمية جاهدة على توفير ذلك للفلاحين⁽⁴⁾. ولكن كانت تستجدُّ بعض الظروف أحياناً

(1) راشد البرأوي : مرجع سابق ، ص 52 .

(2) إدريس ، محمد محمود : تاريخ الحضارة الإسلامية في مصر (العصر الفاطمي) ، مكتبة نهضة الشرق (القاهرة ، 1986م) ص 269 .

(3) محمد محمود إدريس ، مرجع سابق ، ص 278 .

(4) المرجع نفسه ، ص 271 .

تُؤثر سلباً على سير هذه السياسة ، مثلما حدث عندما أمر الخليفة الحاكم بمنع أكل بعض أنواع المزروعات وبيعها ، وتشدّد في ذلك وبالغ في تأديب من خالف أوامره، كما أنه أرسل رجاله إلى أماكن زراعتها ، فقاموا بقطع كثيرٍ من أشجارها ورموها في الأرض وداسوها بالبقر⁽¹⁾.

كذلك الفتن التي كانت تحدث بين طوائف الجند تُؤثر على حياة الفلاح وسير عمله . فقد كانت تخرج أحياناً من نطاق المدينة وتصل إلى الريف والقُرى ، مثلما حدث في الفتنة التي دارت بين السودان والأتراك في عصر المستنصر ، والتي نتج عنها فرار خمسة عشر ألفاً من السودان ونزولهم في الصَّعيد⁽²⁾. فكانوا وبالاً على الفلاحين ؛ حيث شلّوا حركتهم وحالوا دون زراعتهم لأراضيهم⁽³⁾.

ففي مثل هذه الخطوب كان الفلاح يلزم بيته ويترك عمله في الحقل ، مما يُؤثر على معيشته وحياته الخاصة ، وكذلك إنتاجه ، ويؤدي في النهاية إلى المجاعات والأوبئة التي تفتك به وبمأشيتته⁽⁴⁾. ويتمادى الضرر إلى أن يصل المدينة ، فكانت هذه الفتن والمنازعات سبباً من أسباب بعض المجاعات التي حدثت في تاريخ مصر الفاطمية⁽⁵⁾.

ثالثاً : الفقراء والمساكين :

على الرغم من العُنَى والبذخ الذي اشتهرت به الدولة الفاطمية ، ومن ازدهار الاقتصاد المصري خلال فترة حكمها ، إلا أن البلاد لم تخلُ من وجود فئة

(1) ابن خلكان : مصدر سابق ، 5 / 293. كذلك الدوّاداري : دُرر التيجان ، ورقة 265.

(2) يُنظر الفصل الأول من الكتاب ، ص 52-53 .

(3) محمد محمود إدريس : مرجع سابق ، ص 272.

(4) المرجع نفسه ، ص 271 - 272.

(5) المقرئزي : إغائة الأمة ، ص 24 . كذلك أحمد السيد الصاوي : مرجع سابق ، ص 36 ، 51.

الفقراء فيها . وكانت هذه الفئة غير ثابتة في عددها، وفي مستوى فقر أفرادها ، حيث كان ذلك متوقفاً على أحوال الدولة الاقتصادية وازدهارها . فعلى سبيل المثال في عصر الخليفة المستنصر يُفهم من رواية ناصر خسرو أنه لا يكاد يوجد فقير واحد في البلاد ، لِسَعَةِ أحوال الدولة ورحائها⁽¹⁾، الذي يصل بالطبع إلى مختلف فئات الناس - ومن بينهم الفقراء - فتنحسن أحوالهم وتيسر أمورهم لدرجة أنهم يُحاولون أن يحاكوا الطبقة الخاصة في معيشتهم⁽²⁾. ولكن لم تكد تمضي بضعة سنين حتى أصابت البلاد "الشدة العظمى"، وأصبح معظم أهلها في عداد الفقراء سواء من العامة أم الخاصة بما فيهم الخليفة المستنصر نفسه⁽³⁾.

فالحياة في مصر والاستقرار الاقتصادي فيها زمن الفاطميين لم يظل على وتيرة واحدة . وكان هذا حال مصر الإسلامية منذ عصر الولاة الأمويين فيها ، فكانت تتألم من وقت لآخر المجاعات ، التي تأتي غالباً من انخفاض نهر النيل ، فتتعدم المياه اللازمة للزراعة ، وتصاب الأراضي بالجفاف ، ويتعذر وجود الأبقار ، الأمر الذي يؤدي إلى ارتفاع الأسعار ، ومما يزيد الأمر استفحالياً سوء تدبير الحكام وغفلتهم عن معالجة مثل هذه الشدائد⁽⁴⁾.

وقد شهدت مصر في العصر الفاطمي العديد من المجاعات التي كان لها أثرها السيئ على الناس ولاسيما العامة الذين كانوا لا يدخرون الأوقات تحسباً لأيّ

(1) ناصر خسرو : مصدر سابق ، ص 121.

(2) نجوى كيرة : مرجع سابق ، ص 140.

(3) المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، 296/2-298 . كذلك المقرئزي : إغاثة الأمة ، ص 24-27.

(4) المقرئزي : إغاثة الأمة ، ص 3-4 ، 11 . كذلك عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين ، ص

أزمة تحدث ، وكانوا يعيشون يوماً بيوماً يتقوّنون من الأسواق⁽¹⁾. لذلك كانوا " إذا نزلت بهم السنون وأخذتهم المجاعات يُسرِعُ إليهم الهلاك أكثر من غيرهم"⁽²⁾، ويُصبح معظمهم في عداد الفقراء الذين لا يجدون قوت يومهم .

وأترك الحديث عن هذه المجاعات ، وازدياد عدد الفقراء في أوقاتها ، لأنّ نقل بالحديث عن أوضاع الفقراء في العصر الفاطمي . والحقيقة أن الفاطميين أظهروا تعاطفاً واضحاً مع الفقراء منذ قدومهم إلى مصر ، حيث كان من سمات العقيدة الفاطمية أن يهتم الوالي بفقراء دولته ومساكينها، وأن يتعهدهم بالنظر والرعاية ، وأن يُخصص لهم قسماً من مال الله⁽³⁾. وقد عمل الخلفاء الفاطميون على ذلك ، فكانوا دائمي الإشفاق على الفقراء من رعيّتهم مُتألّمين لحلمهم ، وقد ورد عن المعز لدين الله قوله : " والله لقد ساءني من رأيتَه يَمُرُّ بي من أهل الفقر والمسكنة ، وإن كانوا قليلاً في كثير، لأنهم رعيّتنا ومَن نُحبُّ أن يكونوا أغنياء تظهر نعمة الله عليهم بنا"⁽⁴⁾. كما ورد عن الخليفة العزيز قوله: " والله إني أحبُّ أن أرى النعمَ عند الناس ظاهرة ، وأرى عليهم الذهب والفضة والجوهر ، ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار وأن يكون كُلُّ من عندي"⁽⁵⁾.

فكان الخلفاء الفاطميون يتحّينون الفرص للعطف على الفقراء وإظهار كرمهم عليهم . فاستنوا بعض الرسوم والعادات في مناسبات الدولة وأعيادها الدينية المختلفة، كانوا يصدقونهم فيها بالهبات والعطايا . فعلى سبيل المثال : كان

(1) المقرئزي : الخطط ، 1 / 149.

(2) ابن خلدون : المقدمة ، ص 99.

(3) القاضي النعمان : دعائم الإسلام ، 1 / 374 - 375.

(4) القاضي النعمان : المجالس والمسائرات ، ص 559.

(5) المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، 1 / 245 . كذلك ابن تغري بردي : مصدر سابق ، 4 / 129.

شهر رمضان من المواسم التي ينتظرها الفقراء والمساكين لِمَا كان يَعْمَهُمْ فيه من ضروب الخير والبر ؛ حيث كان الخلفاء يعملون طوال أيام هذا الشهر موائد من الأطعمة للفقراء والمحتاجين - وهو ما يُعرف اليوم بموائد الرَّحْمَن - فكان يُخْرِجُ من مطبخ القصر لهذا الغرض كل يوم ألفاً ومائتي قدر من مختلف الأطعمة الفاخرة⁽¹⁾. وكان من رسوم هذا الشهر أن يخرج الخلفاء بأنفسهم يخطبون بالناس ثلاث جمع ، في حين يستريحون في جمعة يسمونها "جمعة الراحة"⁽²⁾. فكانت العادة في خروجهم لهذه الجمع أن تُوزَّع الصدقات على الناس طوال الطريق من حين ركوبهم من القصر ذهاباً إلى الجامع وحتَّى عودتهم منه ، وكانت هذه سُنَّة جميع الخلفاء من المعز لدين الله إلى العاضد لدين الله⁽³⁾.

كذلك الاحتفال بعيدَي الفطر والأضحى ، والاحتفال برأس السنة المحجرية ، والمولد النبوي الشريف ، وليالي الوقود الأربع (ليلة أول رجب وليلة نصفه ، وليلة أول شعبان وليلة نصفه) ، فكل هذه الأعياد كانت مواسم تُعْمُ فيها وجوه الخير على الفقراء والمساكين⁽⁴⁾.

وبالإضافة إلى هذه المواسم الرسمية كان هناك المناسبات الأسرية للخلفاء ، سواء أكانت سعيدة أم حزينة ، فكان عندما يولد للخليفة مولود⁽⁵⁾ ، أو عندما

(1) ابن عبد الظاهر : الروضة البهية ، ص 58.

(2) المصدر نفسه ، ص 36 .

(3) ابن تغري بردي : مصدر سابق ، 4 / 107، 109.

(4) المقرئزي : الخطط ، 2 / 226 ، 259 ، 293 ، 348.

(5) ابن مُيسر: مصدر سابق ، ص 109.

يُصيبه المرض أو أيّ أحد من أفراد أسرته⁽¹⁾، وكذلك عندما يُتوفى لديه أحد⁽²⁾، فإن كل هذه المناسبات كانت أيام خيرٍ على الفقراء .

ويُعدُّ عصر الخليفة الحاكم العصر الذهبي للفقراء في الدولة الفاطمية ؛ حيث تحصّلوا فيه من الهبات والصدقات ما لم يتحصّلوا عليه في أيّ عصر من عصور الخلفاء الفاطميين الآخرين . فكان يُكثر من الصدقات عليهم من غير أيّة مناسبة لدرجة أن " أقام الرواتب لمن يأوي المساجد من الفقراء والقراء والغرباء وأبناء السبيل وأجرى لهم الأرزاق"⁽³⁾ .

كذلك تحصّل الفقراء على عطف الوزراء وكبار رجال الدولة ، فكان يعقوب بن كلس مثلاً يُقيم في شهر رمضان - هو الآخر - الموائد ليُطعم الفقراء والمساكين وأهل الستر والتعفف⁽⁴⁾ . وكان للخليفة الأمر بأحكام الله غلامان من أخصّ غلماناه وأقربهم إليه وأشرفهم عند منزلة ، يُدعى أحدهم برغش ويُلقب بالعاذل ، والآخر هزار الملك جوامرد ويُعرف بالأفضل ، كانا كثيري العطاء حتّى قال فيهما المقرئزي : " وكان الناس في أيامهما لا يوجد فيهم من يشكو الفقر لا بمصر ولا بالقاهرة"⁽⁵⁾ .

(1) ابن ميسر: مصدر سابق ، ص 170 . كذلك المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، 1 / 272 .

(2) ابن ميسر : مصدر سابق ، ص 172 . كذلك المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، 1 / 289 .

(3) ابن تغري بَردي : مصدر سابق ، 4 / 224 .

(4) المقرئزي : الخطط ، 2 / 379 .

(5) المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، 3 / 123 .

كما كان للوزير الصالح طلائع بن رزّيك^(*) دوره في التخفيف عن الفقراء ، وذلك في الجذب الذي حلّ في أيام الخليفة الفائز، حيث تصدّق بأموال كثيرة ، كما تصدّق معه في هذه الأزمة سيف الدين حسين^(*)، وغيره من الأمراء وكبار رجال القصر ما نفّس عن الناس كربتهم حتّى فرّج الله عليهم وعمّ الرخاء⁽¹⁾. وهكذا كان الفقراء في العصر الفاطمي لا يُتركون لنوائب الدهر وتقلباته المختلفة، فكانوا يتحصلون من حينٍ إلى آخر على الهبات والصدقات والأقوات اللازمة لمعيشتهم . وإنّه وإن كان يُعاب على الدولة الفاطمية ويُؤخذ عليها وجود فئة الفقراء فيها- وذلك على الرغم من غناها ورخائها ، ومن الحياة الباذخة التي كان يعيشها خلفاؤها ووزراؤها وكبار رجالها- إلاّ أنّه يُحسب لها اهتمامها بهم ، وعطفها عليهم، وتَحْيِين الفرص والمناسبات لإغداقهم بالهبات والعطايا والصدقات ، وإدخال الفرح والسرور إليهم كلّما أمكن ذلك.

رابعاً : الرّقيق (العبيد) :

على الرغم من أنّ الإسلام قد وضع قيوداً على نظام الرّق، وأوجد تشريعاً يضمن حق المواطنة لمن يُسلم من هذه الفئة⁽²⁾، إلاّ أنّ الرّق وُجِدَ في المجتمع الفاطمي في مصر ، كما وُجِدَ في أيّ مجتمع آخر في ذلك الوقت . وقد شكّل

(*) أبو الغارات طلائع بن رزّيك ، الملك الصالح ، كان والياً بمصر بني حصب من أعمال صعيد مصر ، وفي سنة 549هـ / 1154م تولّى الوزارة للفائز ، ثم للعاقد من بعده . تُوفي في سنة 556هـ / 1160م ودُفن بالقاهرة = ابن خلكان : مصدر سابق ، 2 / 526 ، 528 ، 529 .

(*) الأمير سيف الدين حسين ، هو ابن أخي الوزير الصالح طلائع بن رزّيك = ابن تغري بردي : مصدر سابق ، 302/5 .

(1) المقرئ : إغاثة الأمة ، ص 28-29 .

(2) التّليسي ، بشير رمضان وجمال هاشم الدّويب : تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، دار المدار الإسلامي (بيروت ، 2002م) ص 227 .

الرقيق فئة كبيرة من فئات السكان في مصر في العصر الفاطمي لها حجمها الواضح في الطبقة العامة ؛ حيث كثر في هذا العصر كثرةً بالغة وامتألت به قصور الخلفاء ودور الوزراء والأمراء والقادة ، وكذلك الأغنياء والعامة .

وقد غَالَى الخلفاء الفاطميون في امتلاك الرقيق ولاسيما الجواري ، فكان للخليفة الظاهر أكثر من ألفين وستمئة جارياً⁽¹⁾، وكان بقصر الحاكم عند تولّيه الخلافة حوالي عشرة آلاف من الرقيق ما بين جوارٍ وخدم ، فلمّا تولّى الوساطة له ابن عمّار باع وأعتق الكثير منهم ، ووهب العديد من الجواري لمن أحبّ من رجاله ، وكل ذلك طلباً للتوفير⁽²⁾. وكذلك كان للخليفة العاضد عدداً كبيراً من الجواري، فلمّا استولى صلاح الدين على قصره سنة 567هـ / 1171م ، أخرج من كان به ، فَوَجَدَ فيه اثنا عشر ألف نسمة ليس فيهم فحل إلاّ الخليفة وأهله وأولاده⁽³⁾.

ولم يقتصر امتلاك الجواري على الخلفاء الفاطميين ، بل كان لحريمهم نصيبٌ في ذلك أيضاً ؛ فقد كان لست الملك أربعة آلاف جارياً ما بين بيضٍ وسودٍ ومولّدات ، منهنّ ألف وخمسمائة أبكار والباقي ثيبات⁽⁴⁾. وَوُجِدَ للسيدة ست مصر ابنة الخليفة الحاكم ثمان آلاف جارياً كُنَّ من ضمن تركتها التي أُحْصِيَتْ بعد وفاتها سنة 455هـ / 1063م⁽⁵⁾.

(1) السيوطي : مصدر سابق ، 2 / 285 - 286.

(2) ابن القلانسي : مصدر سابق ، ص 44 - 45 . كذلك المقرئبي : المقفى الكبير ، 3 / 439 .

(3) المقرئبي : الخطط ، 2 / 107.

(4) ابن إياس : مصدر سابق ، 1 / 45.

(5) ابن الزبير : مصدر سابق ، ص 240.

كذلك امتلأت قصور الوزراء ورجال الدولة بهم ؛ فكان ليعقوب بن كلس من الرقيق أربعة آلاف غلام وثمانمائة حَظِيَّة ، وذلك عدا جواري الخدمة⁽¹⁾. كما وُجِدَ للوزير الأفضل بن بدر الجمالي بعد وفاته ثمانمائة جارية ، كان منهن خمسٌ وستون حَظِيَّة ، وكان لكل واحدة حجرة وخزانة مملوءة بالكساوي والآلات من الديباج والذهب والفضة ، ومن كل صنف ونوع⁽²⁾.

كما تشبَّه الكثير من العامة بالطبقة الخاصة في امتلاكهم للرقيق ، فقد ذكر المسيحي في تاريخه أن أحد أغنياء العامة ويُدعى العَدَنِي المسلماني تُوفِّي سنة 415هـ / 1024م ، وخلف وراءه إلى جانب الأموال والأمتعة العديد من العبيد الروم ، والكثير من الجواري وصل عددهن إلى سبعين وصيفة⁽³⁾. وكان في أغلب الأحوال في كل منزل من منازل ذوي الأحوال المادية المتوسطة خادمة أو خادمتان لمساعدة الزوجة في أعمالها اليومية . وأحياناً كان الفقراء أنفسهم يملكون جارية أو عبداً يقاسمهم الفقر والشقاء⁽⁴⁾. وكان رقيق العامة من الناس يقع ضمن المتاع الذي يرثه الخليفة إن لم يكن لصاحبه وارث⁽⁵⁾. وكانت الجواري الموروثات يُخيَّرُن في أغلب الأحيان بين العتق أو الزواج⁽⁶⁾.

(1) الدَّوَاداري : الدُّرَّة المضيَّة ، ص 226.

(2) النويري : مصدر سابق ، 28 / 283.

(3) المسيحي : مصدر سابق ، 1 / 109.

(4) نُجوى كيرة : مرجع سابق ، ص 257.

(5) المسيحي : مصدر سابق ، 1 / 110.

(6) ناصر خسرو : مصدر سابق ، ص 129 - 130.

ومصادر الرقيق في مصر في العصر الفاطمي متعددة ، فإلى جانب الرقيق المجلوب عن طريق التجارة⁽¹⁾، كان هناك الكثير يُجلبون كهدايا ، ولاسيما الرقيق الموجود داخل القصر الفاطمي . فقد تحصّل الخلفاء الفاطميون على الكثير من الهدايا من أمراء الدول الأخرى وملوكها ، وكذلك من عمّالهم على الأقاليم ، وكانت هذه الهدايا لا تخلو معظمها من العبيد والجواري ، وكانت تلك عادةً متبعة في ذلك العصر⁽²⁾ .

كما كان الأسرى الذين يُؤتى بهم إلى مصر في أعقاب الحروب بين الفاطميين وغيرهم مصدراً مهماً من مصادر الرقيق ، فكان الخليفة يأخذ بعضهم إلى قصره وبالتحديد النساء والأطفال ، فيدخل الجوّاري ضمن حريمه ويلحق الصبيان بحرسه بعد أن يربيهم في أماكن خاصة ويقال لهم " الترابي " . وكان يُهدي بعضهم إلى أقاربه ووزيره ورجال دولته، أمّا من يُستتراب به من الأسرى أو كان من الشيوخ الذين لا يُنتفع بهم فإنّه كان يمضي فيهم حكم السيف⁽³⁾ .

(1) ناصر خسرو : مصدر سابق ، ص 69 . كذلك آدم متز : مرجع سابق ، 1 / 296 - 297 .

(2) ابن الزبير : مصدر سابق ، ص 69 ، 73 - 74 ، 76 ، 81 . كذلك المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، 2 / 134 ، 177 .

(3) المقرئزي : الخطط ، 3 / 16 . كذلك عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط5 (القاهرة، 2004م) ص83 .

المبحث الثالث : أهل الذمة

هم اليهود والنصارى، وإن كان معظمهم في مصر من النصارى ويسمّون بالقبُط^(*)، واليهود فيهم قليل⁽¹⁾. وأهل الذمة كانوا يُكوّنون أقلية ضخمة لها وزنها في المجتمع المصري في العصر الفاطمي. وعلى الرغم من أنهم يدخلون في نطاق طبقتي الخاصة والعامة - إذ كان منهم الوزراء والوسطاء وكبار رجال الدواوين والكتاب والأطباء والتجار الأثرياء والصناع المهرة والفلاحون - إلا أنّني رأيت أن أُخصّص مبحثاً خاصاً للحديث عنهم ، لما كان لهم من أهمية في الدولة وتأثير واضح على نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فيها .

وقد عامل الفاطميون أهل الذمة معاملة تنطوي على العطف والرعاية وتتجلّى فيها المحاباة⁽²⁾، وانتهجوا معهم سياسة اتّسمت بالتسامح الديني ، الأمر الذي مكّنهم من الاندماج الحقيقي في الحياة العامة في الدولة . وقد بدت سياسة التسامح واضحة منذ وصول الخليفة المعز إلى مصر، وذلك عندما طلب منه أفرهام السُرياني البطرك الثاني والستون (364-368هـ / 974-978م) أن يُمكنه من بناء كنيسة أبي مرّقورة بالفسطاط ، وكذلك كنيسة المُعلّقة بقصر الشّمع. فكتب له المعز سجلاً يُمكنه من ذلك ، كما أعطاه من بيت المال ما ينفقه على هذه العمارة

(*) القِبُط : أو الأقباط مفرداً قِبْطِي ، وهي في الأصل تعني مصرياً ولا تعني نصرانياً ؛ فلفظة قِبْطِي مشتقة من الكلمات المصرية القديمة (المهروغلفية) hi ka ptah ، التي تعني معبد أو متل الإله قَتّاح ، ثم تطورت (هي كابتاح) إلى (ايجبتوس) ، التي تطورت في العربية إلى (قِبْط) = جمال عبد الهادي : المرجع السابق ، ص 12 - 13 .

(1) المقدسي : مصدر سابق ، ص 202 .

(2) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص 624 .

، يبد أن الناس تصدوا للأقباط ومنعواهم من المباشرة في عملية البناء ، فجاء المعز بنفسه وأشرف على بناء أساس الكنيستين ، كما أنه أمر بصيانة جميع الكنائس المخربة وبنائها دون أن يعترضه أحدٌ في ذلك⁽¹⁾.

ويُعدُّ عصر العزيز بالله تحولاً مهماً في تاريخ مصر الإسلامية ، وذلك لأن الخليفة دعا لأول مرة لمبدأ المساواة الكاملة بين عنصرى الأمة ، فعمل على إلغاء الفوارق الاجتماعية بين المسلمين والذميين⁽²⁾. وكان للعزيز زوجة نصرانية - أمُّ ابنته ست الملك - وكان لها تأثير عليه ، فاتسم عصره بالتسامح مع النصارى وزاد بلاطه في إكرامهم. وكان لزوجته أخوان رفعهما العزيز لأرقى مناصب الكنيسة ، فعين أريستس بطريكاً على بيت المقدس وعين أرسانيوس مطراناً على القاهرة والفسطاط ، وكان لهم محل لطيف لديه وتقدم في مملكته⁽³⁾.

وكان من أثر سياسة التسامح التي اتبعها العزيز نحو الذميين أن ازداد نفوذهم في أيامه ، وأصبح بدواوين الدولة كثير من كتابهم ، ولاسيما بعد أن عهد العزيز إلى عيسى بن نسطورس النصراني بتولي الدواوين سنة 384هـ/ 994م ، واستتاب على الشام يهودياً يُدعى منشأ بن إبراهيم القزَّار . فاعتزَّ بهم النصارى واليهود واستطالوا وأذوا المسلمين ، الذين استأثروا لذلك فكلفوا امرأة بدس رقعة للعزيز وهو في موكبه مكتوب فيها : " يا أمير المؤمنين بالَّذي أعزَّ النصارى بابن نسطورس

(1) ساويروس بن المقفع : مصدر سابق ، الجزء الثالث ، المجلد الأول ، ص450-454 .

(2) تاجر ، جاك : أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام 1922م ، كراسات التاريخ المصري (القاهرة ، 1951م) ص122.

(3) الأنطاكي : مصدر سابق ، ص203 . كذلك محمد عبد الله عَنان : الخليفة العزيز بالله وزوجته النصرانية وأصهاره البطارقة ، مجلة الرسالة ، العدد 184 للسنة الخامسة (القاهرة ، 1937م) ص51.

وأعزَّ اليهود بِمِنشأ بن إبراهيم وأذلَّ المسلمين بك إلا ما نظرت في أمري وكشفت ظلامي⁽¹⁾.

فَتَبَّينَ للخليفة حقيقة تحكُّم الأقلية الذمَّية بمعظم السلطات ، فأمر بالقبض على عيسى ابن نسطورس وزملائه من الكتاب وأخذ منه ثلاثمائة ألف دينار . كما قبض على مَنشأ - وغيره من الموظفين اليهود- وأخذ منه شيئاً كثيراً ، وفي المقابل أعاد الكُتَّاب المسلمين إلى أعمالهم بالدواوين⁽²⁾ . ولكن العزيز لم يلبث أن عفا عن ابن نسطورس بتأثير من ابنته ست الملك، فأعادته إلى ما كان عليه بعد أن اشترط عليه أن يُولِّي المسلمين في الأعمال والدواوين⁽³⁾ . ومهما يكن من الأمر فإن عصر العزيز في مجمله اتسم بالتسامح مع المسيحيين ، فبلغ من عطفه عليهم أن احتفل بأعيادهم ومواسمهم الدينية مشاركة لهم في شعورهم⁽⁴⁾ .

أما عصر الخليفة الحاكم فكان عصراً شاذاً عن سياسة التسامح التي انتهجها الفاطميون ، فقد لاقى فيه أهل الذمة من صنوف الاضطهاد والقمع ما لم يلاقوه من قبل ؛ حيث اشتد الحاكم في معاملتهم وأخذت أوامره ومراسيمه تصدر تبعاً لفرض القيود الدينية والاجتماعية عليهم. وكان ابتداء ذلك سنة 395هـ / 1004م ، عندما قُريء سجل بالجوامع يلزم فيه النصراني واليهود بلبس الغيار^(*)

(1) النويري : مصدر سابق ، 167 / 28 .

(2) ابن الأثير : مصدر سابق ، 477 / 7 . كذلك المقرئبي : اتعاظ الحنفا ، 1 / 297 .

(3) الروذراوري ، أبو شجاع محمد بن الحسين بن عبد الله بن إبراهيم : ذيل كتاب تجارب الأمم ، تحقيق هـ ف آمدروز ، شركة التمدين الصناعية (القاهرة، 1916م) ص 187 .

(4) محمد جمال الدين سرور : مرجع سابق ، ص 86 .

(*) الغيار : هو علامة أهل الذمة ، وقيل علامة اليهود خاصة ، وهو كالزُّنَّار للمجوسي ونحوه يشدُّه على وسطه = الزَّبيدي : مصدر سابق ، تحقيق حسين نصَّار ، وزارة الإعلام (الكويت ، 1974م) 13 / 289 .

وشد الزُّنَّار حول أوساطهم ولبس العمائم السود⁽¹⁾، وذلك تمييزاً لهم عن المسلمين . وفي ليلة عيد الشَّعَّانين^(*) من سنة 398هـ / 1007م ، مُنِع النصارى من تزيين كنائسهم على جري عادتهم وقبض على جماعة منهم بسبب ذلك . وفي رجب من السنة نفسها صدر سجل بمصادرة الأملاك المحبَّسة على الكنائس وضمَّها إلى الديوان السلطاني ، وكتب إلى سائر الأعمال بذلك ، كما أُحرقَت صلبان كثيرة على أبواب الجوامع وفي دار الشرطة⁽²⁾.

وفي سنة 399هـ / 1008م ، أمر الحاكم بهدم بعض كنائس القاهرة ونهب ما فيها ، منها كنيسة اليعاقبة بحارة الروم . وفي السنة التي تليها صدر مرسوم بهدم دير القُصير بالمَقَطَّم وهو أعظم أديار الملكة بمصر، وأُخرج من كان به من الرهبان ونهب جميع ما فيه⁽³⁾. كما صدر مرسوم جديد بالتشديد على اليهود والنصارى في لبس الغيار وتقلد الزُّنَّار وعوقب المخالفون بالضرب . وأُلغيت الأعياد النصرانية كعيد الصليب والغطاس وعيد الشهيد ، وأُبطلت رسومها واحتفالاتها في جميع أنحاء الخلافة ، وكان النصارى يحتفلون بها في بدخ طائل ويتخذونها فرصة لإقامة المظاهرات الدينية العظيمة ، فأبطل كل ذلك⁽⁴⁾.

وفي سنة 403هـ / 1012م ، صدر مرسوم ضد النصارى بأن يلبسوا العمائم والطيالس السود ، وأن يُعلَّق النصارى في أعناقهم صلباناً ظاهرة من

(1) الأنطاكي : مصدر سابق ، ص 256 . كذلك المقريري : اتعاظ الحنفا ، 2 / 53 .

(*) عيد الشعانين : يُعرف أيضاً بعيد الزيتون ، ومعناه التسييح ، ويكون في سابع أحد من صومهم = المقريري : الخطط ، 1 / 733 .

(2) الأنطاكي : مصدر سابق ، ص 275 - 276 . المقريري : اتعاظ الحنفا ، 2 / 71 .

(3) الأنطاكي : مصدر سابق ، ص 282 - 283 . كذلك المقريري : اتعاظ الحنفا ، 2 / 79 .

(4) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ، ص 138 .

الخشب طول الواحد منها ذراع في ذراع ووزنه خمسة أرتال وأن يكون فوق الثياب مكشوفاً . وأن يُعلّق اليهود في أعناقهم قرامي من الخشب زنتها خمسة أرتال أيضاً ، وأن تختم هذه الصلبان والقرامي بخاتم من الرصاص يحمل اسم الخليفة . وحُرِّم على الفريقين معاً ركوب الخيل وأن يكون ركوبهم الحمير والبغال بسرج من الخشب وسيور سود من غير أي حلية ، وألاً يستخدموا مسلماً أو يقتنوا عبداً مسلماً أو جارية مسلمة ، وحُظِر على المكارية المسلمين بالفسطاط والقاهرة أن يحملوا على دوابهم ذمياً كما حُظِر على الملاحين أن يحملوهم في سفنهم ، وأُذِن للناس في البحث عن المخالفين وتتبع آثارهم ، ورُسِمَ بأن يحمل النصارى الصلبان واليهود الأجراس عند دخولهم الحمام تمييزاً لهم عن المسلمين ، ثم أُفردت لهم بعد ذلك حمامات خاصة ، وعُلِّقت الصلبان على حمامات النصارى وقرامي الخشب على حمامات اليهود ، وطُبقت هذه الأوامر والقوانين بمنتهى القسوة والصرامة⁽¹⁾.

كما أمر الحاكم بعزل سائر الكتاب وأصحاب الوظائف في الدواوين وأعمال القصر من الذميين وتعيين بدلهم مسلمين . فاشتد الأمر على اليهود والنصارى وطُوردوا واضطهدوا وأُهينوا في كل مكان ، وساد بينهم الروع والرهبنة وأسلم كثير منهم اجتناباً لهذا الاضطهاد وتظاهر بعضهم الآخر بالإسلام ، وتوارى معظمهم من الطرقات وكثر بينهم الفزع والأرجاف وهاجر آخرون سراً إلى بلاد الروم، وعمد كثير من النصارى إلى نزع الغيار والتشبه بالمسلمين اتقاء الرقابة والمطاردة⁽²⁾.

(1) المقريري : اتعاظ الحنفا ، 2 / 93-94 . كذلك المقريري : الخطط ، 3 / 772 - 774 . محمد عبد الله

عنان : الحاكم بأمر الله ، ص 139 - 140 .

(2) الأنطاكي : مصدر سابق ، ص 295 - 297 . كذلك محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ، ص 140 .

هكذا عانى النصارى واليهود من هذه الشدائد والحن لعدة سنوات كانت أشد ما عانوا في ظل الدولة الإسلامية بمصر . بيّد أنّ الحاكم لم يلبث أن عدّل من سياسته تجاههم ؛ ففي سنة 411هـ / 1020م ، أصدر عدّة مراسيم جديدة بإلغاء القوانين والفروض المرهقة عليهم ، وإطلاق حرية الشعائر لهم ، ورد ما أخذ من أحباس الكنائس والأديار ، والسماح للنصارى بتحديد ما هُدمَ من الكنائس والبيع والأديار ، ورد ما أخذ منها من الذخائر والتحف والأخشاب والعمد ، وأُذن لمن دخلوا في الإسلام كرهاً عنهم أن يرتدّوا إلى دينهم الأصلي⁽¹⁾، فارتدّ كثيرٌ منهم حتى قيل ارتدّ في يوم واحد ستة آلاف إلى دينهم⁽²⁾.

وانتهت محتتهم بأن أصدر الحاكم سجلاً يؤمنهم فيه جاء من ضمنه : "... فأنتم جميعاً آمنون بأمان الله عزّ وجلّ ، وأمان نبيّه محمد خاتم النبيّين وسيّد المرسلين (ﷺ) وعلى آله الطاهرين ، وأمان أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ، سلام الله عليه ، وأمان الأئمة من آباء أمير المؤمنين ، سلام الله عليهم ، هذا على نفوسكم ودمائكم وأولادكم وأموالكم وأحوالكم وأملاككم ، وما تحويه أيديكم ، أماناً صريحاً ثابتاً ، وعقداً صحيحاً باقياً ، فثقوا به ، واسكنوا إليه ..." ⁽³⁾.

وكان الخليفة الظاهر على النقيض من أبيه الحاكم في سياسته نحو أهل الذمة، فلم يكذب يتولّى الخلافة حتّى عمل على اكتساب عطفهم ، بأن أصدر سجلاً أكّد فيه أنّهم أحرار في عقائدهم وشعائهم ، وأنه لا إكراه في الدين وأن من أثر منهم الدخول في الإسلام اختياراً من قلبه وهدايةً من ربه فليدخل فيه مقبولاً مبروراً ،

(1) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ، ص 142 .

(2) القرمانى : مصدر سابق ، 2 / 239 .

(3) الأنطاكي : مصدر سابق ، ص 359 .

ومن أثر البقاء في دينه من غير ارتداد كان عليه ذمته وحياطته⁽¹⁾. فاستعاد أهل الذمة بذلك شيئاً من الثقة والطمأنينة التي فقدوها في عصر الحاكم⁽²⁾، وعاود النصارى منهم الاحتفال بأعيادهم وإقامة الملاهي بمناسبةاتها⁽³⁾.

وفي عصر المستنصر تقلد أهل الذمة أرقى المناصب وأعلاها، وشغلوا معظم المناصب المالية في الدولة، كما تقلدوا الوزارة وتمتعوا بقسطٍ وافر من التسامح الديني، كما تجلّى في بناء عدد من الكنائس وإعمار بعضها الآخر⁽⁴⁾.

وظلّ أهل الذمة ينعمون بالتعاطف والمعاملة الطيبة من قبل الخلفاء الفاطميين الذين تولّوا بعد المستنصر، الأمر الذي شجّعهم على شغل أرقى الوظائف الحكومية والتسلط على الكثير من شؤون الدولة ودقائقها. ولعلّ تسامح الفاطميين هذا كان راجعاً إلى أنّ أساس دعوتهم كان توحيد العالم الإسلامي تحت سلطانهم من غير مراعاة لعصبية دينية أو جنسية، فكانوا يخاطبون كل قوم بما يُقرّبهم إلى الدعوة، وكان من ذلك تسامحهم مع اليهود والنصارى واستخدامهم وإطلاق الحرية لهم، إلاّ إذا أحسّوا ثورة من الشعب المصري لهذا التسامح، فعند ذلك يتراجعون؛ لأنّ أغراضهم السياسية والاجتماعية كانت أقوى من أغراضهم الدينية⁽⁵⁾.

وفي ظل التسامح الديني هذا تتمتع كبار رجال الدولة من أهل الذمة بمكانة اجتماعية ممتازة، إذ امتلكوا الثروات الطائلة والقصور الفخمة، ونشأت بين الكثير

(1) الأنطاكي: مصدر سابق، ص 366 - 367. كذلك محمد جمال الدين سرور: مرجع سابق، ص 89.

(2) جاك تاجر: مرجع سابق، ص 136.

(3) المقريري: اتعاض الخنفا، 2 / 137. كذلك ابن إياس: مصدر سابق، 1 / 46.

(4) علي إبراهيم حسن: مصر في العصور الوسطى، ص 521.

(5) أحمد أمين: ظهر الإسلام، 1 / 189.

منهم وقصور الخلافة علاقات طيبة وصلات وثيقة فمنحهم الخلفاء الألقاب وخلعوا عليهم الهدايا . أما أهل الذمة من العامة فكان لهم دور كبير في إنعاش الحياة الاقتصادية ؛ فقد أسهموا بنصيب وافر في النشاط الزراعي ، إذ كانوا يمتلكون الأراضي الزراعية والضياع الواسعة . كما شاركوا في النهضة الصناعية الكبرى التي شهدتها البلاد ، فالأقباط هم عماد الصناعة المصرية وعلى أيديهم ازدهر النشاط الصناعي، وقد ظهر أثر الفن القبطي في كثير من الصناعات والفنون التي برعوا فيها بدرجة تدعو إلى الإعجاب والتقدير . أمّا في مجال التجارة الداخلية فقد قاموا بدور له أهميته ، كما أسهموا بدور نشيط في مجال التجارة الخارجية التي انتعشت كثيراً في العصر الفاطمي⁽¹⁾ .

أما الصبغة الاجتماعية البارزة التي كانت لأهل الذمة في المجتمع المصري في العصر الفاطمي ، فقد تمثلت في احتفالاتهم وأعيادهم الدينية التي أضفى الفاطميون على بعضها الصفة الرسمية ، فأصبحت الدولة نفسها تُحَيِّي هذه الأعياد وتحتفل بها، وجعلت لها رسوماً خاصة تُوزَّعُ فيها الكساوي (الملابس) والأطعمة والحلويات ، ودنانير الذهب على رجال الدولة⁽²⁾ . فأصبحت هذه الأعياد أياماً مشهودة يعمُّ فيها الفرح والحُبُور ، وينتظرها أهل الذمة كما ينتظرها المسلمون الذين تركوا لأهل الذمة حرية شعائرهم الدينية واشتركوا في الجانب الاجتماعي المُسَلِّي فيها⁽³⁾ .

(1) محمود ، سلام شافعي : أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة ، 1995م) ص 8 - 9 .

(2) جاك تاجر : مرجع سابق ، ص 146 - 150 .

(3) آدم متز : مرجع سابق ، ص 282 / 2 .

ومجمل القول أنّ العصر الفاطمي شهد ازدهاراً لدور أهل الذمة في المجتمع ،
بحيث يمكن أن يعتبر العصر الفاطمي بحق العصر الذهبي لهم في مصر ، وذلك إذا
استُنِيَتْ سنوات الاضطهاد التي تعرضوا لها في خلافة الحاكم بأمر الله⁽¹⁾ .



(1) أيمن فؤاد سيّد : مرجع سابق ، ص90 . كذلك سلام شافعي محمود : مرجع سابق ، ص11.

الفصل الثالث

**المرأة ودورها في المجتمع
المصري في العصر الفاطمي**

المبحث الأول : المرأة الفاطمية

المبحث الثاني : المرأة المصرية (العامية)

المبحث الأول : المرأة الفاطمية

يُقصد بالمرأة الفاطمية ، المرأة التي كانت تُقيم داخل قصور الخلافة ، من زوجات الخليفة وأخواته وبناته وعمّاته وحظاياها ، وهذه الفئة من النساء تتميز عن بقية النساء في المجتمع بالتمتع بالحياة المترفة الناعمة بما يتوفر لها في قصور الخلافة ، هذا إلى جانب ما يُتاح لها من المشاركة في سياسة الدولة والتدخل في شؤون الحكم لقربها من الخلفاء .

ومن النساء الفاطميات اللاتي أحرزن مكانة مهمة في المجتمع المصري زوجات الخليفة وحظاياها . وقد كان تعدد الزوجات سائداً بالنسبة لمعظم الخلفاء الفاطميين ، وذلك على الرغم من أنّ الخليفة المعز اكتفى بزوجة واحدة ، وكان يحث رعاياه على ذلك⁽¹⁾. كما كان التسرّي واتخاذ الجوّاري منتشراً بينهم ، فكانت قصورهم مُكتظةً بالجوّاري كما سبق ذكره ، الأمر الذي جعل معظم أمهاتهم من أمهات الأولاد⁽²⁾.

وكان يُطلق على زوجة الخليفة أو حظيّته اسم "جهة"⁽³⁾. وكان هناك من يُطلق عليها "الجهة العالية" ، ويبدو أنّها أرفع مكانةً وأقرب للخليفة من الزوجة

(1) المقريري : اتعاظ الحنفا ، 1 / 96 .

(2) أحمد ، نريمان عبد الكريم : المرأة في مصر في العصر الفاطمي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة ، 1993م) ص 36 .

(3) ابن السّاعي ، تاج الدين أبو طالب علي بن أنجب : نساء الخلفاء المُسمّى جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء ، حقّقه وعلق عليه مصطفى جوّاد ، دار المعارف (القاهرة، بدون تاريخ) ص 43 .

"الجهة"⁽¹⁾. والظاهر أن النساء المقربيات لدى بعض الخلفاء الفاطميين كثيرات ، حيث ورد عن المقرئزي ذكره للفظ "الجهات العالية"⁽²⁾، مما يدلّ على تعددهن . ومهما يكن الأمر فإنه كان لكل جهة من جهات الخليفة موظف خاص لخدمتها يُطلق عليه لقب "أستاذ". وكانت الإشارة لزوجة معينة تكون مقترنة باسم الأستاذ الذي يقوم بخدمتها مثل: جهة مكنون وجهة مرشد وجهة عنبر... الخ⁽³⁾. وإلى جانب الأستاذ كان هناك موظفون أقلّ رتبة ، تُوكّلهم الجهة للإشراف على بعض أعمالها، يُطلق على الواحد منهم اسم "وكيل"⁽⁴⁾. هذا بالإضافة إلى عدد من الخاديات أو الجوارى ، وهن المعروفات باسم "المستخدمات"⁽⁵⁾. ولم تقتصر هذه الامتيازات على جهات الخليفة فقط ، فقد كان لست الملك ابنة العزيز بالله طائفةٌ لخدمتها تسير معها أينما ذهبت تُعرف بـ"القصرية"⁽⁶⁾. وبصفة عامة كانت نساء القصر جميعاً تشملهن رعاية خاصة ؛ حيث كان هناك من يُشرف على شؤونهن ، ومن يقوم بهذا العمل يعرف بزمام القصر ، الذي كان يُشرف على القصر ولاسيما نساته ، ويُساعده في ذلك أربعة نُواب . وكان من اختصاصاته أنه يُبلغ عمّن تموت من النساء ، ويُشرف على غسلها وتكفينها حتى تُدفن في تربة الزعفران المخصصة لدفن الخلفاء وذويهم⁽⁷⁾. كما كان للنساء

(1) ابن المأمون : مصدر سابق ، ص 49 - 50 .

(2) المقرئزي : الخطط ، 2 / 169 .

(3) ابن المأمون : مصدر سابق ، ص 50 .

(4) المقرئزي : الخطط ، 3 / 656 . كذلك نريمان عبد الكريم أحمد : مرجع سابق ، ص 38 .

(5) ابن المأمون : مصدر سابق ، ص 51 .

(6) ابن ميسر : مصدر سابق ، ص 173 . كذلك المقرئزي : الخطط ، 2 / 271 .

(7) ابن المأمون : مصدر سابق ، ص 44 . كذلك نريمان عبد الكريم أحمد : مرجع سابق ، ص 44 ، 45 .

الفاطميات أطباء مخصوصون لمعالجتهم ، يُطلق عليهم "أطباء الخاص للجهات وحواشي القصر"⁽¹⁾. وكان يُصرف لهم من خزانة الشراب الأدوية اللازمة لصحتهم تحت إشراف هؤلاء الأطباء⁽²⁾.

أمَّا عن أحوالهم المعيشية فكُنَّ في رغدٍ من الحياة ، فقد كان يُصرف لهم مقررات مالية ثابتة ومعلومة⁽³⁾، إلى جانب ما كان يتحصَّلن عليه في أعياد الدولة ومواسمها المختلفة ، منها على سبيل المثال موسم أول العام الهجري⁽⁴⁾.

كما كان يُصرف لهم بعض المقررات العينية التي كانت تخرج من بعض خزائن القصر ؛ مثل خزانة التوابل اللاتي يتحصَّلن منها على الزعفران والعنبر والكافور والمسك وماء الورد⁽⁵⁾، ويتحصَّلن على الأشربة من خزانة الشراب⁽⁶⁾، وكذلك على الغلَّة والدقيق من الأهرام السلطانية⁽⁷⁾. بالإضافة إلى ما يُوزَّع عليهن من الحلل والكساوي في مواسم الدولة ؛ ككسوة الشتاء والصيف ، وكسوة عيدي الفطر والأضحى⁽⁸⁾، وكسوة عيد فتح الخليج⁽⁹⁾، وغير ذلك مما لا يتَّسع المجال لذكره .

(1) المقرزي : الخطط ، 2 / 188 .

(2) القلقشندي : مصدر سابق ، 3 / 496 .

(3) ابن المأمون : مصدر سابق ، ص 90 .

(4) المقرزي : الخطط ، 2 / 246 .

(5) ابن المأمون : مصدر سابق ، ص 91 . كذلك المقرزي : الخطط ، 2 / 189 .

(6) ناصر خسرو : مصدر سابق ، ص 122 .

(7) المقرزي : الخطط ، 2 / 288 .

(8) المصدر نفسه ، 2 / 166 ، 168 .

(9) ابن المأمون : مصدر سابق ، ص 74 .

وقد كانت النساء الفاطميات يمتلكن ثروات كبيرة ، موزعة فيما بين أموال وملابس وأقمشة وحلي ومجوهرات وتحف نادرة ، وغير ذلك من الأشياء الثمينة والطرائف . ومن أمثلة هذه الثروات ما تركته سيدة الملك أخت الخليفة المعز ، التي توفيت في خلافة أخيها ، حيث وجد لها من الذهب ثلاثمائة صندوق ، ومن الفصوص والياقوت الملونة واللؤلؤ الشيء الكثير ، بالإضافة إلى ثلاثين شقة⁽¹⁾ .

كما وجد للسيدة راشدة أو رشيدة ابنة المعز حين توفيت سنة 442هـ / 1050م ، ما قيمته مليون وسبعمائة ألف دينار . وكان في جملة ما وجد في خزائن كسوتها ثلاثون ألف ثوب خز مقطوع (حرير) ، واثنان عشر ألفاً من الثياب المصمته ألواناً (أي من لون واحد دون زخرفة) ، ومائة قطرميز (قلة من زجاج) مملوءة بالكافور . أمّا أختها عبدة التي ماتت بعدها بثلاثة أيام عن عمر يناهز التسعين ، فقد تركت وراءها ما لا يُحصى كثرة . ومما يدل على عظم ثروتها أن صناديقها وخزائن حليها استعمل للختم عليها أربعون رطلاً^(*) من الشمع ، وبلغت البطائق التي دونت فيها أمتعتها ثلاثين رزمة من الورق . ومن عينة ما تركته ألف وثلاثمائة

(1) ابن إياس : مصدر سابق ، 1 / 37 . والشقة في الأصل هي نصف الثوب ، ثم سُمي الثوب كما هو شقة ، والجمع شقاق وشقق = الزبيدي : مصدر سابق ، تحقيق مصطفى حجازي ، وزارة الإعلام (الكويت ، 1989م) 5 / 515 .

(*) الرطل : معيار يُوزن به وهو مكيال أيضاً ، يختلف باختلاف البلاد ، وهو في مصر يساوي (28.449 جراماً) = محمد ، علي جمعة : المكاييل والموازين الشرعية ، القدس للإعلان والنشر والتسويق ، ط2 (القاهرة ، 2001م) ص 29 ، 30 . أي أن أربعين رطلاً تساوي حوالي ثمانية عشر كيلو جرام (2) . (1971) .

مينا فضة وزن كل منها عشرة آلاف درهم^(*)، وأربعمائة سيف مُحلّى بالذهب ، وثلاثون ألف شُقَّة صقلية ، ومن الجواهر والزمرد الكثير وغير ذلك⁽¹⁾.

وكذلك ست مصر ابنة الخليفة الحاكم عندما تُوفيت سنة 455هـ/ 1063م ، خلّفت الكثير من الجواهر النفيسة ؛ من جملتها قطعة ياقوت وزنها عشرة مثاقيل^(**)، ووجد عندها أكثر من ثمانين زيراً مملوءة بالمسك المسحوق ، إلى جانب الآلاف من الجواري . وكان لديها إقطاعٌ يدرّ عليها في كل سنة خمسين ألف دينار⁽²⁾. أمّا أم الخليفة المستنصر ، فكان عندها خزائن في القصر تشبه خزائن الخلفاء ، وفي زمن الفتنة التي عملها الأتراك سنة 46 هـ/ 1068م ، أُخرج من هذه الخزائن أربعة آلاف سرج ، تتراوح أسعار الواحد منها فيما بين ألف دينار إلى سبعة آلاف دينار فُرقت جميعها عليهم⁽³⁾.

وإلى جانب الحياة الرغدة المترفة التي عاشتها النساء الفاطميات داخل القصور ، وإلى الثروات الكبيرة اللاتي امتلكنها ، فقد تميزن عن بقية نساء مصر بانخادهن ألقاباً رنانة تدل على مكانتهن المتميزة في المجتمع . ومن هذه الألقاب

(*) الدرهم عند الجمهور يساوي (2.975 جرام تقريباً) = علي جمعة محمد : مرجع سابق ، ص 19 . إذاً المينا الواحدة تساوي $2.975 \times 10000 = 29750$ جرام (أي قرابة الثلاثين كيلو جرام) .

(1) ابن الزبير : مصدر سابق ، ص 241 - 242 . كذلك ابن تغري بردي : مصدر سابق ، ص 4 / 195 - 196 .

(**) المثاقيل : جمع مثقال ، وهو وحدة للوزن تساوي عشرين قيراطاً = الزبيدي : مصدر سابق ، تحقيق محمود محمد الطناحي ، وزارة الإعلام (الكويت ، 1993م) 157 / 28 . والقيراط يساوي عند الجمهور (0,1771 جرام تقريباً) = علي جمعة محمد : مرجع سابق ، ص 23 . إذاً عشرة مثاقيل تساوي (35.42 جرام تقريباً) .

(2) ابن الزبير : مصدر سابق ، ص 240 . كذلك ابن تغري بردي : مصدر سابق ، ص 4 / 195 .

(3) المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، 2 / 289 .

"السيدة"، وهو لقب عام كان يطلق على النساء الفاطميات ككل ، من زوجات الخليفة وأخواته وبناته وعمّاته ، وكذلك بنات الأعمام⁽¹⁾. وأحياناً كان يقترن هذا اللقب عندما يُطلق على زوجة الخليفة بالانتساب إلى اسم الخليفة الزوج مثل "السيدة المعزّية"⁽²⁾، و"السيدة العزيزية"⁽³⁾.

ومن الألقاب أيضاً "الجليلة" ، وكانت تُلقَّب به بعض زوجات الخلفاء ومنهن زوجة الخليفة الظاهر (أم المستنصر)⁽⁴⁾. كما كان لبعض الفاطميات أكثر من لقب ، فأُم المستنصر إلى جانب لقب الجليلة كانت تُلقَّب أيضاً بـ "السيدة الملكة"⁽⁵⁾. وكذلك أم الخليفة المستعلي بالله (487 - 495هـ / 1094 - 1101م) كانت تُلقَّب بـ "الملكة والكريمة والرحيمة"⁽⁶⁾. أما أكثرهن ألقاباً فهي ابنة الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله ، وألقابها : "السيدة والطاهرة والشريفة والملكة الكريمة والرحيمة"⁽⁷⁾.

وقد وصلت المكانة الرفيعة لبعض النساء الفاطميات أن اتخذن خاتماً أو علامةً - مثل الخلفاء - يوقعن بها على الأوراق الرسمية والمكاتبات الخاصة بهن ، لإعطائها الصفة الرسمية . وكانت هذه العلامة تأتي في مكاتباتهن بعد البسملة (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) وتقع إلى جانبها . ومن هذه العلامات علامة ابنة الخليفة الظاهر

(1) نريمان عبد الكرم أحمد : مرجع سابق ، ص 48 .

(2) المقريري : الخطط ، 3 / 325 .

(3) المسيحي : مصدر سابق ، 1 / 111 . كذلك ابن ميسر : مصدر سابق ، ص 172 .

(4) هبة الله الشيرازي : مصدر سابق ، ص 84 .

(5) السجلات المستنصرية : مصدر سابق ، سجل (51) ، ص 169 .

(6) المصدر نفسه ، سجل (35) ، ص 109 .

(7) المصدر نفسه ، سجل (52) ، ص 171 .

وأخت الخليفة المستنصر ، وهي : " الحمد لله وليّ كلّ نعمة"⁽¹⁾. وكذلك علامة أم الخليفة المستعلي ، وهي : " الحمد لله على نِعْمِهِ"⁽²⁾.

1- دور المرأة الفاطمية في المجتمع المصري :

على الرغم من العزلة التي كانت تعيشها المرأة الفاطمية داخل قصور الخلافة ، إلا أنها تركت بصمة واضحة داخل المجتمع المصري ، وذلك بما شيّدته فيه من مبانٍ ومنشآت عمرانية ، تميزت بأنها في الغالب منشآت دينية ، كالمساجد والأربطة والمصليات ، وذلك إلى جانب القصور وأحواض المياه وغيرها .

وتعتبر السيدة تغريد زوجة الخليفة المعز في مقدمة النساء اللاتي تركن آثاراً تحمل أسماءهن في المجتمع المصري . وكان أول بناء شيّدته المسجد الجامع بالقرافة^(*)، وذلك في رمضان من سنة 366هـ/ 976م ، على يد المحتسب الحسن بن عبد العزيز الفارسي . وهو شبيه في تفصيله بالجامع الأزهر ، وكان به بستان لطيف وصهريج في غربيه⁽³⁾.

كما شيّدت السيدة تغريد في العام نفسه ، وعلى يد المحتسب نفسه قصر القرافة ، وهو بناء متين على أحسن ما يكون ، بنت بجانبه حماماً وبئراً للماء ،

(1) السجلات المستنصرية : مصدر سابق ، سجل (28) ، ص96 ، سجل (52) ، ص171 .

(2) المصدر نفسه ، سجل (35) ، ص109 .

(*) القرافة : حطّة بالفسطاط من مصر ، سُميت على بني قرافة (بطن من بطون المعافر) نزلوها فعرفت بهم. وهي من أماكن نُزّه أهل القاهرة والفسطاط ومُتفرّجاتهم أيام المواسم . وفي جزء منها يدفن أهالي المدينتين موتاهم = ياقوت الحموي : مصدر سابق ، 317/4 .

(3) المقريري : الخطط ، 3/ 325 . كذلك محمد ، سعاد ماهر : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية (القاهرة ، 1971م) 1/ 295 .

وغرست حواليه بستاناً عرف بالتاج ، به حوض لسقي الدواب . وقد ظلّ هذا القصر أحد مُنتزهات الخلفاء الفاطميين إلى آخر دولتهم⁽¹⁾. هذا بالإضافة إلى منازل العز ، وهي منظرية^(*) عمّرتها على النيل مباشرةً ، وكانت معدة لترهتها ، وكان يجوارها حمام ، وقد اتخذها الخلفاء من بعدها مكاناً للترفيه عن أنفسهم وكانت من أحسن مُنتزهاتهم⁽²⁾.

كذلك كانت زوجة الخليفة الأمر - التي تُدعى علم الأمرية أو جهة مكنون - مثل السيدة تغريد في ميلها إلى تشييد المنشآت العديدة ، ومنها مسجد الأندلس الذي يقع في شرقي القرافة الصغرى ، بنته سنة 526 هـ / 1131 م ، على يد الشيخ أبي تراب الصواف ، الذي كان يُباشر أعمالها كوكيل عنها⁽³⁾. كما شيّدت إلى جانب هذا المسجد رباطاً مخصصاً لإقامة العجائز والأرامل العابدات ، حيث كانت مُحبة للخير ولها صدقات كثيرة ، وكانت دائماً ما تُرسل الأموال إلى الفقراء والمحتاجين⁽⁴⁾. ومن منشآتها أيضاً مُصلّى المعافر ، وعُرف أيضاً بالأندلس ، وكان قد جُدد في أيام الدولة الإخشيدية ، بيد أنّ السيدة علم أعادت بناءه من جديد سنة 526 هـ / 1131 م ، على ما يبدو مع المسجد والرباط⁽⁵⁾.

(1) المقريري : الخطط ، 2 / 338 ، 3 / 672 .

(*) المنظرية : جمعها مناظر، وهي أبنية يجلس فيها الخلفاء الفاطميون لمشاهدة بعض الاحتفالات والأعياد ، وكان بعضها مخصصاً لجلوسهم عند توديع الحملات الحربية والأسطول . ولرفاهية بناء هذه المناظر ، ولجمال الحقول والبساتين المحيطة بها ، اتخذها الفاطميون أماكن لترهتهم . للمزيد يُنظر المقريري : الخطط ، 2 / 290 .

(2) المصدر نفسه ، 2 / 334 .

(3) المصدر نفسه ، 3 / 652 . كذلك نريمان عبد الكريم أحمد : مرجع سابق ، ص 62 .

(4) المقريري : الخطط ، 3 / 652 ، 673 .

(5) المصدر نفسه ، 3 / 673 . كذلك نريمان عبد الكريم أحمد : مرجع سابق ، ص 66 .

كما وُجِدَ في العصر الفاطمي مسجد جهة ريجان بالقرافة الكبرى ، عملت على تجديده إحدى زوجات الخليفة الحافظ ، على يد أستاذها ريجان وذلك سنة 542هـ / 1147م . وكذلك مسجد جهة بيان، شيّدته إحدى زوجات الحافظ أيضاً - المعروفة بالجهة الحافظية أو بجهة بيان الحسامي - على يد أبي الفضل الصعيدي المعروف بابن الموفق⁽¹⁾. ومسجد النَّارُجُ^(*)، الذي أقامته زوجة الخليفة الأمر - التي تعرف بجهة الدار الجديدة - في سنة 522هـ / 1128م ، وأخرجت له أموالاً كثيرة ، وكان يقع خارج القاهرة مُطْلَافاً على بركة الحَبَشِ^(**). وقيل سُمِّيَ بمسجد النَّارُجُ ؛ لأنَّ نَارُجُهُ لا ينقطع أبداً⁽²⁾.

هذا بالإضافة إلى الكثير من أحواض المياه التي شيدها المرأة الفاطمية ليستمتع منها عامة الناس . ومن هذه الأحواض على سبيل المثال ، حوض القرافة التي بنته عمّة الخليفة الحاكم (ابنة الخليفة المعز) في شعبان سنة 366هـ / 976م . كذلك الحوض الذي في داخل قصر أبي المعلوم ، الذي بنته السيدة أم العزيز على يد المحتسب الفارسي ، مع عمارة البئر والميضأة . وأخيراً الحوض الذي بجوار قصر القرافة ، الذي أمرت ببنائه أم الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله - واسمها السيدة

(1) المقرئزي : الخطط ، 3 / 675 .

(*) النَّارُجُ : شجرة مثمرة من الفصيلة السدابية دائمة الخضرة ، أوراقها عطرية الرائحة ، وأزهارها تستخدم في صناعة ماء الورد وفي زيت طيار يستعمل في العطور . أمّا ثمارها فليبيّة الشكل ، عصارتها حمضية ، وقشورها تستعمل دواءً أو في عمل المربيات = المعجم الوسيط لِمَجْمَعِ اللغة العربية بمصر ، مكتبة الشروق الدولية ، ط4 (القاهرة، 2004م) ص 912 - 913 .

(**) بركة الحَبَشِ : كانت تعرف ببركة المَعَاوِرِ وبركة جِمَيْرِ ، وهي أرض في وَهْدَةِ من الأرض ، واسعة طولها حوالي ميل (1609 متر) ، تطلّ على نيل مصر خلف القرافة ، وهي من أجمل منتزهات مصر ، حوالها بساتين تُعرف بالحَبَشِ والبركة منسوبة إليها = ياقوت الحموي : مصدر سابق ، 1 / 401 .

(2) المقرئزي : الخطط ، 3 / 651 .

رصد - على يد وكيلها الشريف المحدث أبي إبراهيم أحمد بن القاسم بن الميمون ابن حمزة الحسيني العبدلي شيخ القراء⁽¹⁾.

2- دور المرأة الفاطمية في سياسة البلاد وشؤون الحكم :

قامت المرأة الفاطمية بدور كبير في سياسة البلاد الداخلية ، ومن أشهر النساء الفاطميات اللاتي برزن في هذا المجال ستّ الملك أخت الخليفة الحاكم ، التي عرفت بالعقل والحزم وحسن التدبير. وكان أبوها العزيز يحبها ويستشيرها في الكثير من الأمور ويستمع إلى رأيها ونصحها. ولما تُوفي العزيز استمرت ست الملك على نفوذها في القصر ، وقامت بدور كبير في تدبير الشؤون وتوجيهها في بداية عصر الحاكم ، فكانت تمُدّه بحسن رأيها وتديرها في كثير من الأمور وتسهر على سلامته وسلامة مُلكه⁽²⁾. ولكن العلاقة بينهما لم تلبث أن ساءت ؛ إذ إن الكثير من المؤرخين يؤكدون أنّ ستّ الملك هي التي دَبّرت مؤامرة قتل الحاكم سنة 411 هـ / 1020م ، وذلك بسبب خروجه عن ناموس الشريعة وناموس آبائه ، ولأفعاله القبيحة وأوامره المتناقضة التي رأت أنها ستؤدي في نهايتها إلى زوال دولتهم ، وكذلك خوفاً على نفسها منه حيث إنه تغيّر عليها واتهمها بالفاحشة وأنها تُدخل الرجال عليها⁽³⁾.

وقد ساق هؤلاء المؤرخون رواية تُوضّح كيفية تنفيذ ستّ الملك لهذه المؤامرة ، مفادها أنها راسلت أحد كبار رجال الدولة، وهو سيف الدولة بن دوّاس - أحد

(1) المقريري : الخطط ، 3 / 687 .

(2) محمد عبد الله عيّان : الحاكم بأمر الله ، ص 212 - 213 .

(3) الذهبي : تاريخ الإسلام ، 28 / 238 - 240 . كذلك ابن كثير : مصدر سابق ، 15 / 584 - 585 .

ابن تغري بردي : مصدر سابق ، 4 / 187 - 189 .

شيوخ كُتامة وكان علي خِلافٍ مع الحاكم - واتفقت معه علي قتل أخيها ، وذلك بعد أن وعده بأنه سيكون مُدبّر الدولة الأول وصاحب الكلمة العليا فيها . كما أعطته أموالاً وخلعاً وأقطعته إقطاعات كثيرة ، واتفقت معه أن يتم ذلك على يد عبيد يثق بهما ، قدّمت إليهما - أيضاً - بعض الهبات والإقطاعات . وتفيد الرواية أن ستّ الملك رسمت الخطة للعبيد في كيفية قتله ؛ وذلك بتحسين الفرصة المناسبة عند خروجه ليلاً كعادته إلى جبل المُقَطَّم ، فيكون عندئذٍ بمفرده . فاستطاع العبدان تنفيذ المهمة ، وجلبا جثة الحاكم إلى ستّ الملك ، التي دفنتها في مجلسها وقامت بمكافأة العبيد وابن دوّاس على ذلك⁽¹⁾.

وبعد نجاح المؤامرة يتجلّى قمة الدور السياسي الذي قامت به ستّ الملك في تسيير دفّة الحكم . فكان أول عمل قامت به أن أرسلت للوزير خطير الملك^(*) وأخبرته بما وقع واستحلفته على الكتمان والطاعة ، وأمرته باستدعاء وليّ العهد عبد الرحيم بن إلياس^(**) من الشام . فَكَتَبَ إليه خطير الملك على لسان الحاكم بالعودة . ولما عاد أمرت ستّ الملك أحد القوّاد بأن يقبض عليه ويقتله بتّيس بعيداً

(1) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرنؤوط وإبراهيم الزبيق ، مؤسسة الرسالة ، ط11 (بيروت ، 1996م) 15 / 181 - 182 . كذلك ابن كثير : مصدر سابق ، 15 / 584 - 585 . ابن تغري بردي : مصدر سابق ، 4 / 188 - 191 .

(*) هو رئيس الرؤساء خطير الملك أبو الحسين عمّار بن محمد . كان يتولّى ديوان الإنشاء ، وديوان المشاركة والأتراك ، فهو الواسطة بين الحضرة وبين هذه الطوائف . وفي جمادى الآخرة من سنة 411هـ / 1020م ، اختاره الحاكم للتوقيع عنه ، وكانت علامته "الحمد لله ربّ العالمين" = ابن الصيرفي : مصدر سابق ، ص65 .

(**) هو ابن عم الخليفة الحاكم ، أبو القاسم عبد الرحيم بن إلياس بن أبي علي بن المهدي بالله . كان الحاكم قد بايعه بولاية العهد في صفر 404هـ / 1013م ، حارماً منها ابنه الظاهر . فأمر الناس بالسلام عليه وأثبت اسمه معه في البنود والسكّة والطراز = المقريري : اتعاظ الحنفا ، 2 / 100 - 101 .

عن الحاضرة . وفي أثناء ذلك كانت تُهدِّيء النفوس وتُطمئنُ القواد القلقين على غياب الحاكم بأن أذاعت بينهم أن أحاها سيغيب سبعة أيام وأنه يمدُّها بأوامره ، وفي الوقت نفسه كانت تُوزَّع الأموال وتستحلف الجند لنصرتها⁽¹⁾.

وبمساعدة ابن دوَّاس وخطير الملك استطاعت ستّ الملك أخذ البيعة لابن الحاكم المُسمّى الظاهر لإعزاز دين الله . فأعلن خليفةً مكان أبيه في العاشر من ذي الحجة سنة 411 هـ / 1020م ، بعد أن استوثقت من طاعة كُتامة وباقي الطوائف والزعماء لها . وبعد أن تمّ لست الملك ما تريده ، عملت على التخلص من ابن دوَّاس وخطير الملك والعبيدين اللذين قتلا الحاكم ، ونفّذت حكم الموت على كل من اطّلع على سرّها ، فقامت لها الهيبة في قلوب الناس⁽²⁾.

ولم ينته دور ستّ الملك بذلك، فعلى الرغم من استطاعتها تنصيب الظاهر خليفةً وكان شاباً فتياً ، إلاّ أنّها هي التي كانت تُدير شؤون الدولة ، وإن كانت باسمه ، فكان يجلس في قصرها⁽³⁾، واستمرت على ذلك إلى أن وافاها الأجل في جمادى الآخر سنة 415 هـ / 1024م ، فساست البلاد أحسن سياسة ، وكانت مدّة حكمها خمس سنين وثمانية أشهر " أعادت فيها للملك غضارته واستردت بهجته ، وملاّت الخزائن بأصناف الأموال ، وقلّدت الأكفّاء جلائل الأعمال واصطنعت الرجال "⁽⁴⁾.

(1) المقريري : تعاض الحنفا ، 2 / 116 - 117 .

(2) ابن تغري بردي : مصدر سابق ، 4 / 192 . كذلك محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ، ص 117 .

(3) الدوّاداري : دُرر التيجان ، ورقة 282 . وكانت ستّ الملك تقيم في القصر المعروف بالقصر الغربي ، الذي بناه والدها العزيز وخصّصه لسكانها . وكان هذا القصر يقع تجاه القصر الكبير الشرقي ، وتحديدًا

في غربيه = المقريري : الخطط ، 2 / 270 - 271 .

(4) المقريري : تعاض الحنفا ، 2 / 174 .

وثاني النساء الفاطميات اللاتي لعبن دوراً سياسياً كبيراً في البلاد ، زوجة الخليفة الظاهر - السودانية الأصل - ، التي تمتعت بنفوذ كبير في عصر ابنها المستنصر . فقد كانت قوية الشخصية نافذة الكلمة حافظة للعهد غير ناقضة له⁽¹⁾ . وكان لها ديوانٌ خاص لإدارة شؤونها الشخصية وأملاكها . إلا أن هذا الديوان سرعان ما تحوّل إلى مقر للحكم لها من دون الخليفة⁽²⁾ . فتدخلت في شؤون الدولة تدخلاً سافراً واستولت على الأمور فيها ، فأصبحت الوزارة العوبة في يدها تُولي من تشاء وتعزل من تشاء ، ولم يسلم القضاء من سلطتها، فسارت به على منوال سياستها تجاه الوزارة⁽³⁾ . وآخر أدوارها في سياسة البلاد الداخلية تدخلها في الفتنة التي قامت بين السودان والأتراك ، فكانت سبباً من أسباب ازديادها وتفاقمها ، الأمر الذي نتج عنه اضطراب أحوال الخلافة وكادت هذه الفتنة أن تُطيح بملك الفاطميين عن مصر نهائيّاً⁽⁴⁾ .

كما شهد العصر الفاطمي الثاني - ولاسيما في أواخره - ظهور بعض الشخصيات النسائية الفاطمية ، شاركت في الأحوال السياسية للدولة وإن كان بشكل محدود . حيث جاء دورهن مُختلفاً عن الدور الذي قامت به كل من ست الملك وأم المستنصر ، اللتين عاصرتا زمن السلطة في يد الخلفاء ، فجاء دورهن قوياً وشاركن فعلياً في سياسة البلاد . أما نساء العصر الثاني فقد حكمت ظروف ضعف الخلافة واستبداد الوزراء عليها أن يقمن بدور آخر ، وهو الاقتصار على إحاكة المؤامرات وتديرها للتخلص من الوزير القائم والمستبد ، وذلك عن طريق

(1) المقريري : تعاض الحنفا ، 2 / 207 .

(2) عبد المنعم ماجد : الإمام المستنصر بالله الفاطمي ، مكتبة الأجلو المصرية (القاهرة ، 1961م) ص 23 .

(3) نريمان عبد الكريم أحمد : مرجع سابق ، ص 213 - 217 .

(4) يُنظر الفصل الأول من هذا الكتاب ، ص 50-59 .

الاستنجد بآخر قوي لتخليص البلاد من ظلمه ، ثم إذا ما بدأ استبداد ذلك الوزير الجديد ، سرعان ما ينقلب عليه الأمر وتُحاك ضدّه المؤامرات للتخلص منه وقتله أيضاً . وهُنَّ في ذلك كُنَّ يُحاولن الحفاظ على الخلافة الفاطمية - التي قد أوشكت على الانهيار - ولكن بقدر ما أتاحت لهن الظروف⁽¹⁾.

ومن أشهر أدوارهن في ذلك الفتنة التي حدثت ، والتي نتج عنها مقتل الخليفة الظافر بأمر الله (544-549هـ / 1149 - 1154م) بتدبير من الوزير عباس الصنهاجي^(*) ، وبتنفيذ من ابنه نصر في سنة 549 هـ / 1154م . حيث استبدّ عباس بشؤون الدولة ، وأنهم إخوة الظافر بقتل أخيهم ونفد فيهم حكم الموت . ثم قام بتنصيب ولد الظافر الملقب بالفائز بنصر الله في مكان أبيه ، وكان له من العمر خمس سنين لا يعي من الأمر شيئاً ، فأصبح حكم البلاد في يد عباس يفعل ما يشاء . ولكن ذلك لم يُرضِ أخت الظافر - عمّة الفائز الكبرى - ونساء القصر ، فبعثت إلى فارس المسلمين أبي الغارات طلائع بن رزيك - وكان إذ ذاك لا يزال والياً على بعض المناطق في الصعيد - بالكتب وفي طيها شعور النساء تستصرخ به على عباس . ولما أدرك عباس كره أهل مصر له وأن مصيره سيكون الهلاك إن بقي في القاهرة ، قام بالهروب هو وولده ومن معهم من الرجال إلى الشام⁽²⁾.

(1) نريمان عبد الكريم أحمد : مرجع سابق ، ص 225 ، 230 .

(*) أبو الفضل عباس بن أبي الفتوح يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي . أصله من المغرب ، وفد على مصر وهو صبي مع أمّه بالأرة ، فتزوجها العادل علي بن السلار (544 - 548هـ / 1149 - 1153م) وزير الظافر . وكان العادل يحنو عليه ويعزه ، فألحقه في دولته ورقاه ، ولكنّ عباساً لم يلبث أن دبر مؤامرة قتله بما وتولّى الوزارة من بعده = ابن خلكان : مصدر سابق ، 3 / 417 - 418 .

(2) ابن مُنقذ : مصدر سابق ، ص 43 - 46 . كذلك المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، 3 / 208 - 209 ، 213 . 217 -

ولكن أخت الظافر لم تتركه لحاله ؛ إذ راسلت الفرنج الذين بعسقلان تطلب منهم الخروج عليه وإن ظفروا به يرسلوه إلى القاهرة ، وفي مقابل ذلك تنعم عليهم بالأموال الكثيرة . فوقع عباس ومن معه في حصار الفرنج ، فقتل في أثناء المصادمة في حين أسير ابنه نصر وأُرسل إلى القاهرة في قفصٍ من حديد . فقامت أخت الظافر بقطع يده ، وضرب ضرباً شديداً وقُرِض جسمه بالمقاريض ، ثم صلب على باب زويلة حياً إلى أن مات . وبقي مصلوباً إلى يوم عاشوراء من سنة 551هـ / 1156م ، حيث أنزل وأُحرقت عظامه⁽¹⁾.

ولم ينته دور أخت الظافر على ذلك ، إذ إن طلائع بن رزّيك لما تولّى الوزارة خلفَ عباس ، سار على سيرته واتسع نفوذه حتى ضيق على أهل القصر . فعملت أخت الظافر على التخلص منه وفرّقت في سبيل ذلك من الأموال خمسين ألف دينار ، بيد أن ابن رزّيك علم بحيلتها ، فأوقع بها وقتلها وقام بنقل كفالة الخليفة الصغير إلى عمته الصغرى ، وهي أخت الظافر الصغرى وتُدعى ستّ القصور⁽²⁾.

واستمر ابن رزّيك في الوزارة وتولّى على يديه الخليفة العاضد الذي كان صغيراً ، لذلك ظلّ مُتَحَكِّماً في الدولة . وحتى يُورث الملك لبيه أجبر الخليفة العاضد - بعد عدّة سنوات - على تزوّج ابنته ، لكي تُرزق منه بولد فيجتمع لبي رزّيك الخلافة مع الملك⁽³⁾. فأثار ذلك استياء نساء القصر ولاسيما ستّ القصور ، فدبّرت مؤامرة مع بعض كبار الأمراء لقتله ، تتلخص في أن يتربّصوا له في إحدى

(1) ابن تغري بردي : مصدر سابق ، 5 / 297 - 298 .

(2) المقرئبي : اتعاظ الحنفا ، 3 / 239 .

(3) المصدر نفسه ، 3 / 246 .

دهاليز القصر ويطعنوه بالسكاكين حتى يموت . فَنُقِذَتْ الخِطَّةُ وأُصِيبَ ابنُ رُزَيْكٍ بجروح قاتلة أودت بحياته في ليلة السابع عشر من رمضان سنة 556 هـ/ 1160م. ولكنه قبل وفاته بقليل كان قد أمر بالقبض على ست القصور ، كما أمر بخنقها ، فَخُنِقَتْ بين يديه حتى ماتت، وذلك دون أن يُحرَّك الخليفة العاضد ساكناً⁽¹⁾.

وهكذا يتجلى بوضوح الدور الكبير الذي قامت به المرأة الفاطمية في المجتمع المصري ، ولاسيما في مجال السياسة لدرجة أنها تُضحى بحياتها من أجل الحفاظ على مُلك أجدادها .

المبحث الثاني : المرأة المصرية (العامية)

كان للمرأة المصرية في العصر الفاطمي وضعٌ خاص داخل مجتمعها ، وكانت محط اهتمام الجميع ، حتى إن عقود الزواج في ذلك الوقت كانت تحمل الوصايا للزوج بحسن معاشرته وأن يحسن صحبتها⁽²⁾. فكان الرجال المصريون في الغالب يحترمون زوجاتهم مُرتبطين بهن ارتباطاً وثيقاً حتى إن بعضهم كان يُصيبه الحزن الشديد والوجد عند فقدته لزوجته⁽³⁾. ومما يدل على المكانة

(1) النويري : مصدر سابق ، 28 / 324 .

(2) أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية ، نشر نصوصها ونقلها إلى اللغة الإنجليزية وعلق عليها أدولف جروهمان وترجم التعليقات إلى اللغة العربية حسن إبراهيم حسن ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ط2 (القاهرة ، 1994م) وثيقة رقم (44) و (45)، ص 97 - 103 .

(3) المسبّحي : مصدر سابق، 1 / 102 .

الخاصة التي كانت للمرأة المصرية داخل أسرتها ، الأسماء التي سُميت بها في ذلك العصر مثل : ستّ الناس ، وستّ الزمان ، وستّ الكل ، وستّ الملاح⁽¹⁾ .
كما تمتعت المرأة المصرية بالكثير من الحرية في العصر الفاطمي ، فلم تُكَبَّلها القيود الاجتماعية والطبقية التي كانت تُكَبِّل المرأة الفاطمية ، لذلك جاء نشاطها في المجتمع واضحاً وجلياً وكذلك مستمراً ؛ لكونها جزءاً لا يتجزأ من تركيبة السكان ، ولأنها قريبة جداً من الحياة اليومية المعاشة في ذلك العصر ، بخلاف المرأة الفاطمية التي كانت حبيسة قصور الخلافة .

وإزاء هذه الحرية شاركت المرأة الرجل في الكثير من نواحي الحياة . فكان هناك الكثير من النساء قد ساعدن رجالهن الفقراء في توفير لقمة العيش ، إلى جانب النساء المطلقات والأرامل اللاتي لا يملكن شيئاً ولا يستطعن المكوث في المنازل لانتظار الإحسان . فحتّمت ظروفهن مزاوله بعض الأنشطة لتوفير مُتطلباتهن الحياتية ، وهذه الأنشطة في غالبها تناسب طبيعة النساء الأنتوية⁽²⁾ . حيث عملت المرأة في الحمامات العامة النسائية بلانة⁽³⁾ ، وماشطة لتزيين النساء ، وناطورة تحمي الثياب والأحذية لهذه الحمامات⁽³⁾ ، وقابلة وغاسلة للموتى من النساء⁽⁴⁾ .

(1) نجوى كيرة : مرجع سابق ، ص 298 .

(2) نريمان عبد الكريم أحمد : مرجع سابق ، ص 76 .

(*) بلانة : أي دلاّكة ، وهي المرأة التي تُدلك الجسم . والكلمة لازالت معروفة في عامية مصر = الزبيدي : مصدر سابق ، تحقيق علي هلال ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (الكويت ، 2001م) / 34 / 273 .

(3) نجوى كيرة : مرجع سابق ، ص 301 .

(4) ابن سعيد : مصدر سابق ، ص 64 .

ومن أعمالهن "النِّياحة" ، وهن اللواتي يُنظَّم المراثي في المآتم والصياح على الجنائز، ومن أشهرهن في العصر الفاطمي نائحة تُسمَّى (خُسْرُوَان) ، كانت قد برعت في هذه المهنة وصارت تُنشيء في نُواحِهَا الروائع. ومن ذلك بيتين رثت بهما الوزير العادل بن السَّلَّار عند مقتله سنة 548هـ/ 1153م، وقد أُعجب بهما أدباء العصر وهما :

يا قَتِيلَ الغفلة يا شهيد الدَّار
يا شَبِيهَ ذِي الثُّورِيِّ ن صَاحِبَ المُخْتَارِ⁽¹⁾.

كما احترفت بعض النساء مهنة الغناء للتكسب ، وإن كنَّ مُنعن من ذلك في عصر الحاكم بأمر الله⁽²⁾. ومن أشهر المغنيات اللاتي ذاع صيتهن في العصر الفاطمي "نسب الطُّبَّالة"، وهي امرأة مرتجلة كان لديها فرقة موسيقية خاصة بها ، وكانت تضرب بالطبل وتُنشد ولاسيَّما في المواسم والأعياد والمواكب⁽³⁾. ومن أشهر أناشيدها تلك التي أنشدتها تحت القصر الخلافي ، والتي جاء فيها :

يا بَنِي العَبَّاسِ صُدُّوا قد وَلِيَ الأمرَ مَعَدُّ^(*)
مُلُوكِكُمْ كانَ مُعَاراً والعَوَارِي تُسْتَرَدُّ⁽⁴⁾.

(1) ابن الطُّوَيْرِ ، أبو محمد المُرتَضَى عبدالسلام بن الحسن القَيْسِرَاني : نُزْهَةُ المُقَلَّتَيْنِ في أخبار الدولتين ، أعاد بِنَاءَهُ وَحَقَّقَهُ وَقَدَّمَ لَهُ أيمن فؤاد سَيِّد ، فرائس شتاينر (شتوتغارت ، 1992م) ص 65.

(2) المقريري : تعاط الحنفا ، 95 / 2 .

(3) المقريري : الخطط ، 656 / 3 .

(*) مَعَدُّ : هو اسم الخليفة الفاطمي المستنصر بالله ، وكنيته أبو تميم .

(4) القلقشندي : مصدر سابق ، 360 / 3 . كذلك ابن تغري بردي : مصدر سابق ، 428 / 5 .

وذلك بمناسبة استيلاء البساسيري^(*) على بغداد وإقامته الدعوة الفاطمية فيها سنة 450هـ / 1058م ، فأعجبت أنشودتها الخليفة المستنصر فخيرها مكافأة ، فطلبت أرضاً بالقرب من المَقَس ، فأقطعها إياها فَعُرِفَت هذه الأرض من يومها بـ "أرض الطبَّالة"⁽¹⁾.

كما كان للمرأة المصرية بعض النشاط التجاري ، ولكن في نطاق محدود ، فكان هناك من النساء يقمن بصناعة الغزل والكُسوات وبيعها⁽²⁾ . وأخرى مارسن مهنة "الدلالة" ، فكنَّ يمرن على النساء في البيوت لعرض بضاعتهم . ويبدو أن هذه المهنة كانت تدرُّ دخلاً جيداً ؛ حيث عُرفت في العصر الفاطمي دلالة مشهورة تُسمَّى بـ "الوحشة" كانت لديها ثروة كبيرة⁽³⁾ . وبعض النساء كنَّ يملكن رأساً للمال لا بأس به قمن بتشغيله ، فيذكر ناصر خسرو أن امرأة من العامة كانت تملك خمسة آلاف قدير من النحاس - من التي تُستخدم في نقل المياه - مُخصَّصة للأجار ، وكانت تؤجِّر الواحد منها بدرهم في الشهر ، وعلى المستأجر أن يردها سليمة⁽⁴⁾.

(*) هو أبو الحارث أرسلان بن عبد الله البساسيري ، مُقدم الأتراك في بغداد . قام بثورة على الخليفة العباسي القائم بأمر الله (422 - 467هـ / 1030 - 1074م) ، استطاع فيها طرده من بغداد والدعاء للخليفة المستنصر الفاطمي على منابرها . واستمر مسيطراً على بغداد لسنة كاملة حتى قَدِمَ طُغْرُكُوكُ السلجوقي (385 - 455هـ / 995 - 1063م) الذي استطاع هزيمته وقتله وأعاد القائم إلى بغداد سنة 451هـ / 1059م = ابن خلكان : مصدر سابق ، 1 / 192 .

(1) ابن عبد الظاهر : الروضة البهية ، ص 120 - 121 . كذلك المقرئبي : الخطط ، 2 / 657 .

(2) ابن سعيد : مصدر سابق ، ص 64 .

(3) نجوى كيرة : مرجع سابق ، ص 303 . كذلك نريمان عبد الكريم أحمد : مرجع سابق ، ص 80 .

(4) ناصر خسرو : مصدر سابق ، ص 119 .

ولم يقتصر دور المرأة العامية على المشاركة في الحياة الاقتصادية ، بل شاركت في الحياة العلمية والدينية أيضاً . ويتضح ذلك من أسماء بعض النساء اللاتي اشتهرن بذلك ، منهن على سبيل المثال امرأة تُدعى بالحجازية وتعرف بأم الخير، كانت واعظة زمانها على غاية من الكرم وحسن الأخلاق والشيم ، وكانت ذائعة الصيت لها مجلس للوعظ بجامع عمرو بن العاص بالفسطاط ، تُواظب على حضوره الكثير من النساء⁽¹⁾.

وكذلك السيدة سُنَيْتَه ، وقيل آمنة بنت القاضي أبي عبد الله الحسين المحامليّ وأم القاضي أبي الحسين محمد بن أحمد بن القاسم المحاملي ، وكنيتها "أمة الواحد". وهي سيدة فاضلة من أعلم نساء عصرها وأحفظهن لفقهِ الشافعي، تقرأ القراءات والفرائض والنحو وغير ذلك من العلوم ، مع الزهد والعبادة والصدقات ، تُوفيت زمن العزيز بالله سنة 377هـ / 987م⁽²⁾.

بالإضافة إلى فاطمة ابنة الحسن بن علي الأقرع ، التي تلقت العلم عن الكثير من علماء عصرها ، وسمع منها وروي عنها الكثير من الرجال . كانت واسعة الإطلاع من أحسن الناس خطأً ، فهي التي أُهلت لكتابة كتاب الهدنة إلى ملك الروم من ديوان العزيز . وتُوفيت في محرم سنة 480هـ / 1087م⁽³⁾.

وقد كان لنساء العامة دورٌ بارزٌ في معالجة بعض الأزمات الداخلية التي تحدث بالبلاد . فكان عند حدوث الجفاف وتوقف النيل عن الزيادة ، تخرج النساء مع الرجال والصبيان للاستسقاء والدعاء والابتهاال⁽⁴⁾. كما كان الرجال يعتمدون

(1) المقريري : الخطط ، 3 / 663 ، 673 .

(2) ابن تغري بردي : مصدر سابق ، 4 / 155 - 156 .

(3) عمر رضا كحّالة : مرجع سابق ، 4 / 41 - 42 .

(4) المقريري : اتعاظ الحنفا ، 2 / 74 .

عليهن في توصيل شكواهم ومُنْعَصات حياتهم إلى الخلفاء ؛ حيث كانت تظلماتهن ورقاعهن توقف الخلفاء من مواكبهم⁽¹⁾. لذلك كان صوتهن مسموعاً عند الحكومة أكثر من الرجال.

ومن أهم الأدوار المؤثرة التي قامت بها المرأة العامية لمعالجة المشاكل الداخلية ولانتقاد سياسة الدولة ، كانت في زمن الشدة العظمى . فقد ذكر المقرئ أن امرأة من أرباب البيوتات كانت تسكن بالقاهرة ، يبدو أن الجوع ألمها في هذه الشدة مثلما ألم غيرها . فأخذت عقداً لها قيمته ألف دينار ، خرجت تطوف به أسواق القاهرة والفسطاط تعرضه للبيع لتتقوت بثمنه . فما رضي أحد أن يشتريه منها ، إلى أن رحمها الله وحنَّ عليها أحد الناس من الفسطاط ، فأخذها منها وباعها به كيساً صغيراً من الدقيق . فأخذته المرأة وقامت باستئجار بعض الرجال لكي يحموها من النَّهَابة في الطريق حتَّى تصل إلى بيتها ، وفي مقابل ذلك تعطيهم بَعْضَ ما في الكيس . ولما وصلت المرأة إلى باب زويلة تسلمت الكيس من الحماة له ، ولم تكد تخطو عدّة خطوات حتى هاجمها الناس الجياع وانتهبوا الكيس وما فيه ، فأخذت هي أيضاً مع الناس من الدقيق ملء يديها ورجعت إلى دارها . ويبدو أن ما حدث قد آلم السيدة ، فأحست في نفسها قوة في أن تفعل شيئاً من أجل بلدها وشعبها . فقامت وعجنت حفنة الدقيق التي لديها قرصة صغيرة وخبزتها ، فلما استوت أخذتها وخرجت حتَّى وصلت إلى أحد أبواب قصر الخليفة . وهناك وقفت على مكان مرتفع ، ورفعت القرصة بأعلى يدها حتى يراها الناس ، ونادت

(1) يُنظر الفصل الأول من هذا الكتاب ، ص 66 . كذلك الفصل الثاني ، ص 153. ابن إياس : مصدر سابق ، 36 / 1 .

بأعلى صوتها : "يا أهل القاهرة ادعوا لمولانا المستنصر الذي أسعد الله الناس بأيامه وأعاد عليهم بركات حُسن نظره حتّى تقوّمت عليّ هذه القرصة بألف دينار"⁽¹⁾. فلما اتّصل ذلك بالخليفة غضب وتحرك فيه شيءٌ من المسؤولية ، فاستدعى والي القاهرة وتهدّده وتوعده وأقسم له بأنه إن لم يظهر الخبز في الأسواق وترخص الأسعار ، فمصيره مصادرة أمواله وضرب عنقه . فخرج الوالي من مجلس الخليفة ، وهداه عقله إلى خطة يمكنه عن طريقها إجبار التجار على إخراج الغلال إلى الأسواق ، ومن ثمّ إنقاذ نفسه من وعيد الخليفة . فأمر بإخراج جماعة من المجرمين من السجن ، المحكوم عليهم بالقتل وألبسهم ملابس التجار الأثرياء . ثم قام بجمع تجار الغلّة والخبّازين والطحّانين وعقد لهم مجلساً . وأمر بإحضار واحد من هؤلاء المجرمين ، فدخل في هيئة عظيمة كأنه أحد التجار ، ففاجأه الوالي بقوله : "ويلك! ما كفاك أنك خُنت السلطان واستوليت على مال الديوان إلى أن أخربت الأعمال ومحقت الغلال ، فأدّى ذلك إلى اختلال الدولة وهلاك الرعية". وقبل أن يُفريق الرجل من ذهوله ويفتح فمه أمر الوالي السيّاف بضرب عنقه فضربت في الحال أمام القوم⁽²⁾.

ثم أمر الوالي بإحضار آخر منهم وقال له : "كيف جرّست على مخالفة الأمر لما نُهي عن احتكار الغلّة ، وتماديت على ارتكاب ما نُهيته عنه إلى أن تشبّه بك سواك فهلك الناس" . وأمر بضرب عنق ، فضربت في الحال . واستدعى آخر وعند ذلك قام إليه الحاضرون من التجار والطحّانين والخبّازين ، مُتوسلين ومُتعهدين على أنفسهم بإخراج الغلّة ، وتشغيل الطواحين وتعمير الأسواق بالخبز،

(1) المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، ص 299/2 . كذلك المقرئزي : إغاثة الأمة ، ص 25-26 .

(2) المقرئزي : إغاثة الأمة ، ص 26 .

وترخيص الأسعار على الناس وأن يبيعوا الخبز الرطل بدرهم . ولكن الوالي لم يُوافق فعرضوا عليه رطلين فأجابهم على مضمض بعد الكثير من التوسل والضراعة . ووفى القوم بالشرط وعمرت الأسواق بالقمح والدقيق والخبز ، وسكنت الفتن وغمر الشعب الفرح والسرور⁽¹⁾ .

وهكذا استطاعت هذه المرأة بطريقة انتقادها الجادة ، التي تشوبها التهكم والسخرية من أن تجعل الخليفة المستنصر يُعيد النظر في تلك الأزمة ، ويحاول أن يجد لها حلاً بأقصى سرعة ممكنة . وإن كان من المعروف أن هذه الأزمة ازدادت وتفاقت حتى شملت الخليفة نفسه .

وكان إلى جانب أدوار المرأة التحريضية هذه ، أدوار أخرى قتالية مثل الرجال ، حيث كانت كثيراً ما تشارك في الدفاع عن البلاد في الكثير من الفتن والثورات . مثلما حدث عندما قام العبيد السودان بمهاجمة الفسطاط لنهب بيوت الناس وحوانيتهم ، وذلك في زمن الجفاف الذي أصاب البلاد سنة 415هـ / 1024م . فقد خرج إليهم عامة الرجال لمجاعتهم بالسلاح ، وكانت النساء تساندهم من أعلى المنازل بإلقاء الحجارة والطوب والجِرار عليهم⁽²⁾ . وكذلك الحال نفسه في الفتنة التي حدثت على أثر مقتل الخليفة الظافر ؛ حيث إن جند مصر وأهلها كانوا قد بغضوا الوزير عبّاساً لما فعله بالخليفة وإخوته . لذلك انضموا إلى قوات طلائع بن رُزَيْك ، فقاموا بمحاصرة عبّاس ومن معه داخل أسوار القاهرة ، فكانت خيالتهم تقاتل جندهُ في الشوارع والأزقة ، ورجلهم يرمونهم بالنشاب

(1) المقرئبي : إغائة الأمة ، ص 26 - 27 .

(2) المسيحي : مصدر سابق ، 1 / 87 .

من الأسطح ، في حين كانت نساؤهم وصبيانهم يرمونهم بالحجارة من الطاقات⁽¹⁾.

كما كان الخلفاء الفاطميون ، وكذلك الحكومة تستعين بنساء العامة لخدمة أغراضهم ، وللحفاظ على أمن البلاد وأمانها . فكان للخليفة الحاكم الكثير من النساء المُخْبِرَات مُندسات كعيون له على الناس . لذلك لم يكن يخفى عليه خبر رجل ولا امرأة من حواشيه ورعيته⁽²⁾ . وقد كان لهذه النسوة المخبرات دورٌ كبير في إخفاق المؤامرة التي دبرها الحسن بن الصَّبَّاح^(*) ، والباطنية لاغتيال الخليفة الأمر ووزيره المأمون البطائحي سنة 518هـ/1124م . حيث إن ابن الصَّبَّاح كان قد أرسل أموالاً إلى أنصارٍ لهم بمصر لتنفيذ هذه العملية . فلما علم بذلك الوزير المأمون اتخذ عدّة تدابير لصدّهم ، منها أنه " انتدب نساء من أهل الخبرة والمعرفة للدخول إلى جميع المساكن والاطلاع على أحوال ساكنيها الباطنية ، ومطالعته بجميع ما يُشاهدُ فيها ، فكانت أحوال كافة الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين أجناسهم ، من ساكني مصر والقاهرة تُعرض عليه ولا يكاد يخفى عنه منها شيء "

(1) ابن منقذ : مصدر سابق ، ص45 .

(2) ابن ظافر : مصدر سابق ، 201 / 1 .

(*) هو الحسن بن الصَّبَّاح بن علي الإسماعيلي ، داهية شجاع ، يماني الأصل من حمير . ولد في مرو سنة 428هـ/1036م . اتصل بالخليفة المستنصر في مصر ، ثم قام بالدعوة له في العديد من المناطق في خراسان وكاشغر وبلاد ما وراء النهر . وهو قائد حركة الحنثاشيين (فرقة من الإسماعيلية) ، وكان مقره في قلعة ألموت ، وهو صاحب الدعوة التزارية التي تدعو إلى صحة خلافة نزار بن المستنصر دون أخيه المستعلي بالله . تُوفي في قلعة ألموت سنة 518هـ/1124م = خير الدين الزركلي : مرجع سابق ، 2 /

أَلْبَتَّه . فامتنع لذلك الباطنية مما كانوا قد عزموا عليه من الفتك بالآمر والمأمون لكفهم عن دخول البلد " (1).

وهكذا يتجلى الدور الكبير الذي قامت به المرأة العامية في المجتمع المصري في العصر الفاطمي . ومما ساعدها على ذلك الحرية الكبيرة التي تحسّلت عليها . وإن كانت هذه الحرية قد أظهرت دور المرأة الإيجابي في المجتمع ، فإنها أيضاً كانت سبباً في إظهار دورها السلبي فيه ؛ حيث إن الكثير من النساء أسأن استغلال الحرية المتاحة لهن ، فخرجن عن جادة الصواب وأظهرن التهتك والخلاعة في المجتمع ، ولاسيما في عصر الخليفة الحاكم ، وتحديدأ بعد أوامره بتعليق المصاييح على جميع الحوانيت وأبواب الدور وفي الشوارع والأزقة . فصارت القاهرة والفسطاط بذلك في حركة دائمة وكثر خروج النساء في الليل حتى غلبن على الرجال ، وازدحمت بمن الشوارع والأزقة ، فهبت نيران الجون والغواية عالية وجرفت الكثير من الناس . ولما تزايد الأمر وشنع أصدر الحاكم أوامره بأن لا تخرج امرأة من منزلها من العشاء وإذا ما ظهرت بعد العشاء نُكِّلَ بها (2).

ولم تتوقف أوامر الحاكم ضد النساء ، بل توالى تباعاً للحد من حريتهن ، ويبدو أنه هدف من ورائها إلى إصلاح الأخلاق وتطهير النفوس من الرذائل (3) . وإن كان قد تشدّد في ذلك وذهب عن المألوف فيه ؛ حيث صدرت مراسيمه تُفيد

(1) المقريري : اتعاظ الحنفا ، 3 / 108 .

(2) المقريري : الخطط ، 2 / 615 - 616 .

(3) محمد جمال الدين سرور : مرجع سابق ، ص 92 . كذلك أيمن فؤاد سيد : مرجع سابق ، ص 103 ، 104 . تامر ، عارف : الحاكم بأمر الله خليفة وإمام ومصلح ، دار الآفاق الجديدة (بيروت ، 1982م) ص 83 . نصر ، سوسن محمد : صُور حضارية من التاريخ الإسلامي ، القاهرة الحديثة للطباعة (القاهرة ، 1982م) ص 55 .

بمنعهن من التَّبَرُّج ، وألاً يكشفن عن وجوههن في الطرقات ، أو يجتمعن في المآتم ، أو يَسِرْنَ خلف الجنائز ، أو يزرن المقابر ، أو يقمن بالغناء والنشيد ، أو يجتمعن مع الرجال في أماكن الفُرْجَة ، أو يخرجن من بيوتهن في الليالي مهما كانت الأسباب⁽¹⁾.

وكانت النسوة يمثلن لهذه القيود الجزئية ويقبلنها على مضض ، في انتظار إلغائها أو التخفيف منها ، بيد أن الأمور بالعكس كانت تتجه إلى التشدد في معاملتهن والقضاء التام على حريتهن ومحو أثرهن من الحياة العامة . ففي شعبان من سنة 404 هـ / 1013م ، ذهب الحاكم في معاملة النساء إلى ذروة القسوة والشدة ، فأصدر مرسومه بمنعهن تماماً من مغادرة دورهن والخروج إلى الطرقات بالليل والنهار سواء أكانت المرأة شابة أم عجوزاً . فاحتُست النساء في البيوت ، ولم تُرَ امرأة في طريق ، ولم يُستثنَ من ذلك سوى النساء المتظلمات للشرع أو الخارجات إلى الحج أو المسافرات اللاتي تضطرهن ظروف القاهرة إلى السفر ، وكذلك الإماء اللاتي يرسم البيع في أسواق الرقيق ، والقابلات وغاسلات الموتى والأرامل اللاتي يبعن الغزل ، بشرط أن يكون خروجهن لمزاولة شؤونهن برقع خاصة تُرفع إلى القصر وتصدر بها تصاريح يقوم بتنفيذها متولّي الشرطة⁽²⁾.

ونتيجة لهذه القرارات اختفت النساء من المجتمع المصري ، فأغلقت حماماتهن، ومنع الحاكم الأساكفة من عمل الخفاف لهن ، فتعطلت الحوانيت التي تبيع الأغراض النسائية . وقد حاولت الكثير من النساء التظلم من هذه القرارات ،

(1) المقريري : اتعاظ الحنفا ، 53 / 2 ، 91 ، 95 ، 120 .

(2) الأنطاكي : مصدر سابق ، ص 307 . كذلك ابن سعيد : مصدر سابق ، ص 64 . محمد عبد الله عَنان : الحاكم بأمر الله ، ص 134 .

وذهبن إلى القصر داعيات مُتظلمات فلم يفرزن بطائل ، وعُوقب كثيرٌ منهن ممن خالفن هذه الأوامر بالضرب والحبس ، وعوقب بعضهن بالموت . وفي سنة 405 هـ / 1014م تكررت هذه الأوامر القاسية ، وتُشدّد في تنفيذها ، ولم يقتصر منعهنّ على الخروج إلى الطرقات ، بل نُصّ أيضاً على منعهنّ من التطلع من النوافذ والطبقان شباهن وعجائزهن . فاشتد الأمر على النساء ، وقيل للحاكم إنّ فيهن من لا تجد من يقوم بشأنها فتموت جوعاً. فأمر الباعة أن يحملوا السلع والأطعمة وكل ما يباع في الأسواق إلى الدروب ويبيعونه للنساء في منازلهن ، وأن يحمل الباعة أداةً كالمغرفة لها ساعد طويل يُمدُّ إلى المرأة وهي من وراء الباب وفيه ما تشتريه فتتناوله وتضع مكانه الثمن ، ولا يسمح مطلقاً أن تبدو من وراء الباب⁽¹⁾ . واستمرت الأحوال بالنساء - محجوراً عليهن - على هذه الحال زهاء سبع سنين ونيف ، ولم ينلن حريتهن إلا بعد مقتل الحاكم وتولّي ستّ الملك الأمر من بعده - باسم الخليفة الظاهر - ف" أطلقت للنساء الخروج من منازلهن ، والتصرف في أمورهن "⁽²⁾، وذلك بعد أن عانن من هذه المحنة القاسية ، وسُليّن الحرية على هذا النحو الشامل .



(1) المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، 2 / 103 ، 104 ، 119 ، 120 . كذلك محمد عبد الله عَنان : الحاكم بأمر

الله ، ص 134 .

(2) المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، 2 / 136 .

الفصل الرابع

مظاهر الحياة الاجتماعية في مصر في العصر الفاطمي

المبحث الأول : أحوال المعيشة

المبحث الثاني : وسائل الأهو والتسلية

المبحث الثالث : أهم المظاهر السلبية

المبحث الأول : أحوال المعيشة

أولاً : الأغذية :

حَبَا اللهُ مِصرَ بطبيعة ومناخ متميزين، جَعَلَهَا غنية بالرياحين والخضروات والفواكه، التي ساعدت سكانها - بشكل مباشر - على معرفة الكثير من أنواع الأطعمة التي كانت تُصنع منها وإعدادها . وقد سجَّل الرَّحَّالُ⁽¹⁾، والمؤرخون إعجابهم ودهشتهم من توافر الكثير من أنواع المحاصيل الزراعية ذات المواسم المختلفة في مصر في وقت واحد، التي من الصعب أن تتوافر بهذا التنوع والوفرة في مكانٍ آخر غيرها ؛ فـ " يجتمع بمصر ما يتفرق في الأزمنة في غيرها، فيجتمع فيها ثمار الشتاء مع ثمار الصيف"⁽²⁾.

وكما ساهمت الطبيعة في تنوع الأطعمة وكثرتها في مصر ، فقد ساهم الثراء والنعيم الذي تلوَّن به العصر الفاطمي في البذخ والتفنن في إعدادها ، ولاسيما أن الطعام كان صورة من صور حياة الترف التي كان يعيشها الكثير من أفراد الطبقة الخاصة في ذلك الوقت . فكان أن أصبح صُنع الطعام وإعداده فنّاً متقدماً أيام الفاطميين ، حتى إنه اشتهرت طبَّاخات من بين مستخدمات القصر الفاطمي كُنَّ أشبه بالأستاذات في هذا المجال⁽³⁾، ومضرب مَثَلٍ في العصور التالية لهن⁽⁴⁾، لدرجة

(1) ناصر خسرو : مصدر سابق ، ص 118 - 119 .

(2) ابن زولاق ، الحسن بن إبراهيم بن الحسين بن سليمان : فضائل مصر وأخبارها وخواصها ، تحقيق علي محمد عمر ، مكتبة الأسرة (بدون مكان ، 1999م) ص 101 .

(3) عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة ، ص 137 - 138 .

(4) ابن سعيد : مصدر سابق ، ص 29 .

أنّ من أراد من أمراء الدول المعاصرة للفاطميين وملوكها ، أن يبلغ طهاته مستوىً رفيعاً في إجادة فن الطبخ ، كان يُرسلهم إلى مصر ليتعلموا صنّع الأطعمة فيها⁽¹⁾ . وكانت المآدب والأسمطة مظهراً من مظاهر الحياة في المجتمع المصري في العصر الفاطمي ، حيث عنيّ الفاطميون بتنظيمها عنايةً خاصة ، وبالغوا في إعدادها سواء أكان ذلك في المساجد أم في قصور الخلافة أم في دور الوزراء⁽²⁾ . فكانت مضرّباً للأمثال في التاريخ ، ومن أشهر الأسمطة التي كان يُقيمها الفاطميون تلك التي تُمدُّ في أول العام المحجري ، وفي مولد النبي (ﷺ) ، وفي أيام رمضان ، وفي عيدي الفطر والأضحى وغيرها ، ويكفي للوقوف على فخامة هذه الأسمطة ، وما كانت تحتويه من كميات ضخمة من ألوان الأطعمة أن نشير إلى أنّ السّمّاط الواحد كان يبلغ طوله ثلاثمائة ذراع⁽³⁾ ، وعرضه سبعة أذرع فيه ما لذّ وطاب⁽³⁾ . كذلك العامة في العصر الفاطمي حاولوا التشبه بالخاصة في إعداد موائدهم ، وذلك كلّما سمحت لهم ظروف المعيشة بذلك ، ولاسيما عند فترات الانتعاش الاقتصادي التي يصل فيها الرخاء إلى معظم أفراد المجتمع . هذا إلى جانب ما عُرف

(1) ابن العديم ، أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله بن عبد العزيز بن أبي جرادة : الوصلة إلى الحبيب في وصف الطيّبات والطيب ، تحقيق سليمى محجوب ودرية الخطيب ، جامعة حلب (حلب، 1988م) 335/1 (الجزء الأول من الكتاب بحث من إعداد المحققة سليمى محجوب عن الأطعمة عند الدول الإسلامية بما فيها الدولة الفاطمية) .

(2) محمد جمال الدين سرور : مرجع سابق ، ص 167 .

(*) الذراع وحدة لقياس الطول يختلف مقدارها من مذهب إلى آخر ، وهو عند الشافعية - على مذهب أهل مصر - تساوي : (61.834 سم) = محمد علي جمعة : المرجع السابق ، ص 54 . أي إن السّمّاط الفاطمي يبلغ حجمه حوالي 185½ م طويلاً ، 4¼ م عرضاً .

(3) ابن تغري بردي : مصدر سابق ، 4 / 101 . كذلك حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص 641 .

عن أهل مصر من انهماكهم في اللذات واتباع الشهوات و"الإعراض عن النظر في العواقب فلا تجدهم يدّخرون عندهم زاداً كما هي عادة غيرهم من سكان البلدان"⁽¹⁾.

وعند الحديث عن الأغذية يجب البدء بالخبز بصفته الطعام الأساسي للشعب المصري في العصر الفاطمي ، الذي يجب توفره يومياً ، وإن حدث أن نقصَ أو تردّت صناعته ، فإن ذلك يكون مجالاً لضيق الناس ومُثاراً لشكواهم عند الخليفة⁽²⁾، الأمر الذي قد يتسبب للخبّازين المسؤولين عن هذا القصور بالعقاب بالضرب والتشهير أيضاً⁽³⁾.

والخبز الطازج في العصر الفاطمي متعدد الأنواع ، أوّلُه خبز السميد وهو أجود أنواع الخبز وأغلاه ثمناً⁽⁴⁾، ويليه خبز الحواري المعمول من الدقيق الأبيض المنخول⁽⁵⁾، وهناك خبز الخشكار الأسمر غير النقي⁽⁶⁾، كذلك عرف الفاطميون خبز الشعير ، الذي يعد تناوله من أنواع العيش النكد وهو خبز الفقراء ، لذلك كان الفاطميون يقدمونه على سِمَاط الخليفة يوم عاشوراء (سِمَاط الحزن) مع بعض الأطعمة البسيطة ، مُتعمدين ذلك باعتباره يوم حزن لا يجوز فيه الترفه ولو بالأكل⁽⁷⁾. أمّا أسمطة الخليفة الأخرى التي تُقام في باقي الأعياد، فكان يُقدّم فيها

(1) المقرئزي : الخطط ، 1 / 149 .

(2) المقرئزي : اتعاط الحنفا ، 74/2 .

(3) المصدر نفسه ، 71/2 .

(4) المصدر نفسه ، 151/2-166 .

(5) المصدر نفسه ، 151/2 . كذلك الزاوي ، الطاهر أحمد : مختار القاموس (مُرتّب على طريقة مختار الصحاح والمصباح المنير) ، الدار العربية للكتاب (بدون مكان ، 1983م) ص 160 .

(6) المقرئزي : اتعاط الحنفا ، 151/2 . كذلك المعجم الوسيط : مصدر سابق ، ص 236 .

(7) المقرئزي : الخطط ، 213/2 ، 213 .

خبز مصنوع من أجود أنواع الدقيق النقي ، يُدهن وجهه عند خبزه بالماء فيكون له بريقٌ ومنظرٌ جميل⁽¹⁾.

وإلى جانب هذه الأنواع من الخبز الطازج ، كان أهل مصر يعملون الخبز اليابس المجفف (المنشور في الشمس)، الذي يمكن تخزينه لعامٍ كامل دون أن يتعفن ، وأغلب اعتمادهم عليه كان في أشهر فيضان النيل ، حيث تكون البلاد في أثناءها مغمورة بالمياه وحركة الحياة فيها معطّلة⁽²⁾.

ومن الجدير بالذكر أن أهل القرى المصرية ، ولاسيما قرى الصعيد لا يزالون إلى يومنا هذا ، يعتمدون على هذا النوع من الخبز في حياتهم اليومية ، ويبدو أنه أصبح جزءاً لا يتجزأ من طبيعة عيشهم التي ورثوها من أجدادهم الأوائل زمن الفاطميين أو من قبلهم. وهم يعملونه حالياً من طحين الذرة المزوجة ببعض القمح وقليل من الحلبة ، ويطهونه على الطريقة اليدوية القديمة بفرن الطوب ، وعندما يستوي يجففونه - بعرضه على الهواء- ليصبح جاهزاً للتخزين ، وعند الاستخدام اليومي يُبلل بالماء ليرطب ويسهل أكله .

1- أشهر وجبات الأطعمة في العصر الفاطمي :

كان الفول من أهم الأطعمة وللعامّة خاصة⁽³⁾، وكان يؤكل أخضر⁽⁴⁾، كما كان يؤكل مسلوقاً يُضاف إليه الملح والبهارات⁽⁵⁾، وفي بعض الأحيان يُطبخ

(1) المقرئبي : الخطط ، 114/2 . كذلك المقرئبي : مسوّد الخطط ، ص79.

(2) المقدسي : مصدر سابق ، ص 205 . كذلك ناصر خسرو : مصدر سابق ، ص98 .

(3) نجوى كيرة : مرجع سابق ، ص342.

(4) المقرئبي : الخطط ، 1 / 291.

(5) الشيزري : مصدر سابق ، ص 116.

بالسمن واللبن ويُسمَّى "البيسار"⁽¹⁾. ولشدة إقبال الناس على أكله كان الباعة المتجولون يطوفون به مستويًا في القدور على عرباتهم ، مُنادين عليه في الأسواق والشوارع والأرقة⁽²⁾.

وإلى جانب الفول كان هناك الجبن الذي يُعدُّ من الأطعمة اليومية لكثير من الأسر المصرية⁽³⁾، وكان يُباع في مكان مُخصص يُعرف بسوق الجبن أو دار الجبن⁽⁴⁾، وله عدّة أنواع ، منها الجبن الخيبي الذي يُعمل من ألبان البقر الخيسية^(*)، وهي أبقار مخصصة للحلب فقط ولا تعرف الحرث⁽⁵⁾. كذلك جبن الحالوم الذي كان يُباع في قلال⁽⁶⁾، فهو طريٌّ معمول من لبن الأغنام المنخوض المُعَلَّظ بعد طبخة ، وقيل من لبن الإبل خاصة⁽⁷⁾. وهناك نوع آخر من الجبن ورد ذكره في بردية ترجع إلى القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي ، حيث نجد المشتري يطلب

(1) الشيزري : مصدر سابق ، ص 23 ، هامش (2) .

(2) الغزولي ، علاء الدين علي بن عبد الله البهائي : مطالع البدور في منازل السرور ، مكتبة الثقافة الدينية (القاهرة ، 2006م) 332/2 . كذلك نجوى كيرة : مرجع سابق ، ص 342.

(3) أوراق البردي : مصدر سابق ، حَقَّق النصوص ونقل التعليقات إلى اللغة العربية وعَقَّب عليها عبد العزيز الدالي ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ط2 (القاهرة ، 1994م) 173/6 - 175 ، 177 - 178 ، 190 - 196 (يلاحظ في هذه الصفحات أن حسابات الأسر المصرية كان من ضمنها الجبن) .

(4) المقريري : الخطط ، 1 / 299.

(*) الخيسية : نسبةً إلى بلدة خيس ، من كور الحوف الغربي بمصر، وإليها يُنسب هذا النوع من الأبقار = ياقوت الحموي : مصدر سابق ، 411/2 - 412 .

(5) ابن زولاق : مصدر سابق ، ص 101. كذلك المسيحي : مصدر سابق ، 97/1 .

(6) أوراق البردي : مصدر سابق ، 3 / وثيقة (205) ، ص 212.

(7) الزبيدي : مصدر سابق ، تحقيق عبد العليم الطحاوي ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (الكويت ، 2000م) 531/31 ،

"سته أرطال جبن منها رطلين جزائري"⁽¹⁾، ومن المحتمل أن المقصود بالجبن الجزائري هو الجبن الذي تنتجه مدينة تَنيس ، التي كانت تقع على جزيرة قبالة الساحل⁽²⁾.

وبالإضافة إلى هذه الأنواع من الأجبان ذات الصناعة المحليّة ، كانت هناك أنواعٌ أخرى تُحلب من الشام ، ويبيعهها الجبّانون في حوانيتهم التي تقع بالقرب من باب زويلة⁽³⁾. ومن أشهر تجار الجبن الذين ورد ذكرهم في العصر الفاطمي ، ابن طالب الجبّان ، وهو شيخ قد غلب على دار الجبن ، وكان سمساراً لما يردُّ من الأجبان ، تُوفي سنة 415هـ/1024م⁽⁴⁾.

ومن الأطعمة التي أُقبل عليها عامة الناس الملوخية ، وهي غنية عن التعريف ولا يزال أهل مصر إلى وقتنا الحاضر يعدونها من الوجبات الأساسية في حياتهم . وكذلك طبخ الجرجير وهو من البقوليات ، والمتوكلية وهي نوع من الحساء يُنسب إلى الخليفة العباسي المتوكل على الله (232-247 هـ / 847-861م). وكان الخليفة الحاكم قد منع الناس في سنة 395هـ/1004م من أكل هذه الأنواع من الأطعمة ؛ وذلك لأن الملوخية كانت مُحبّبة لمعاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنه) (41-60 هـ / 661-679م) . وبقلة الجرجير كانت منسوبة إلى عائشة (رضي الله

(1) أوراق البردي : مصدر سابق ، 5 / وثيقة (247) ، ص 152.

(2) عبد المنعم عبد الحميد سلطان : مرجع سابق ، ص 35.

(3) المقريري : الخطط ، 2 / 593-594.

(4) المسيحي : مصدر سابق ، 1 / 111.

عنها) ، والمتوكّلية إلى الخليفة المتوكل الذي اشتهر بكراهيته للعلويين⁽¹⁾. إلا أن الخليفة الظاهر لم يلبث أن ترخّص للناس بأكلها سنة 418 هـ/1027م⁽²⁾. كذلك من الأطعمة التي منعها الحاكم ، وإن كان لم يُعرف السبب لمنعها النقانق⁽³⁾، وهي تُعمل من أمعاء الحيوانات المذبوحة ، وتُحشى باللحم المدقوق ، يُضاف إليها البصل والتوابل ، وكانت تُباع في الأسواق مقلية⁽⁴⁾. كما عرف أهل مصر أكل الكُسْكُسي ، وهو من الوجبات التي أدخلها المغاربة معهم إلى مصر⁽⁵⁾. وكذلك السّويق ، ويُعمل من الحبوب بعد تجميعها جيداً وطحنها⁽⁶⁾، وكان يُقدّم في المآتم مع السكر⁽⁷⁾، كما كان السويق الناعم بالمكسرات من الأطعمة التي تُقدّم على مائدة الخليفة في سحور رمضان⁽⁸⁾.

وهناك الكثير من الأطعمة التي تدخل اللحوم في إعدادها، منها الهريسة وهي من أطعمة الشتاء⁽⁹⁾، وتعمل باللحم المهروس مع الحنطة (القمح) أو الأرز⁽¹⁰⁾، أو

(1) المقرزي : اعطاء الحنفا ، 53/2 . كذلك النويري : مصدر سابق ، 178 /28.

(2) المقرزي : اعطاء الحنفا ، 129/2.

(3) ابن عبد الظاهر : الروضة البهية ، ص 71.

(4) الشيزري : مصدر سابق ، ص 38.

(5) فاتن محمد البنداري : مرجع سابق ، ص 154.

(6) نجوى كيرة : مرجع سابق ، ص 344.

(7) المقرزي : الخطط ، 382/2.

(8) ابن المأمون : مصدر سابق ، ص 83 . كذلك المقرزي : مسوّد الخطط ، ص 217.

(9) ابن زولاق : مصدر سابق ، ص 104. كذلك ابن ظهيرة ، (لعلّه) أبو إسحق إبراهيم بن علي بن محمد : الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة ، تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس ، دار الكتب والوثائق القومية (القاهرة ، 1969م) ص 104.

(10) الكاتب البغدادي ، محمد بن الحسن بن محمد بن الكريم : كتاب الطبخ ، تصحيح أحمد النعيمي ، القيروان للنشر والتوزيع (بغداد ، 2006م) ص 85.

المكسرات المدقوقة⁽¹⁾. وكانت تُباع في دكاكين خاصة ، ويشرف على إعدادها المحتسب بشروط معلومة ، وبعد أن تُنضج يُختم المحتسب على القدور التي وُضعتُ فيها، حتى لا تُغيّر مواصفاتها من صانعيها⁽²⁾. وكانت الهريسة المعمولة من لحم الدجاج والضأن والبقر من الأطعمة التي تُوزَّعُ على أرباب الوظائف ورجال الدولة بمناسبة الاحتفال بعيد التَّورُوز (النيروز)⁽³⁾.

كذلك الطِّبَاهِجَة كانت من الأطعمة التي استُخِدم اللحم في إعدادها ، وهي تتألف من شرائح اللحم والإلية مع بهاراتٍ مختلفة ، وتُرشُّ بالليم والخل وماء الورد⁽⁴⁾، وهي من عدّة أنواع منها الطِّبَاهِجَة المعروفة بالمولّفة ، والطِّبَاهِجَة العطرية المعمولة بماء التوت وماء العنب⁽⁵⁾، والطِّبَاهِجَة المشقّقة التي كانت تُقدّم على سِمَاط الخليفة في عيد الفطر المبارك⁽⁶⁾.

ولا ننسى البَرْمَاوَرْد أو البَرْمَاوَرْد ، وهو من الوجبات التي تُقدم على سِمَاط عيد الفطر أيضاً⁽⁷⁾، واشتهرت بإعداده دار الفطرة⁽⁸⁾، ويُصنع من لحوم الحملان

(1) عبد اللطيف البغدادي ، موقّق الدين أبو محمد بن يوسف بن محمد : الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، أشرف على إعداده وقَدّم له عبد الرحيم عبد الله الشيخ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط2 (القاهرة ، 1998م) ص 119.

(2) الشيزري : مصدر سابق ، ص 36 . كذلك المقريري : الخطط ، 286/2.

(3) ابن المأمون : مصدر سابق ، ص 65.

(4) الكاتب البغدادي : مصدر سابق ، ص 41-42.

(5) أبو المطهّر الأزدي ، محمد بن أحمد : حكاية أبي القاسم البغدادي ، كرل وتنتل (هيد لبرج ، 1902م) ص 41 (أعدت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد) .

(6) المقريري : الخطط ، 2 / 114 . كذلك ابن تغري بَردي : مصدر سابق ، 4 / 101

(7) ابن تغري بَردي : مصدر سابق ، 4 / 100.

(8) المقريري : مسوّد الخطط ، ص 173.

(الخرفان) والجداء ، أو من صدور الدجاج ، مع أنواع مخصوصة من البقوليات ، وصفار البيض ، ويُؤكل مع الخل⁽¹⁾ .

كما كان الأهالي يطبخون أنواع الخضار بجانب اللحوم ، وتُسمى الطبخة باسم نوع الخضار أو البقول المستخدم فيها ، مثل الكرنب واللفتية والجزرية والقنبطية⁽²⁾ ، والبامية⁽³⁾ ، والقلقاس⁽⁴⁾ . وكانوا يستخدمون في إعداد طبيخهم التوابل المختلفة ، إلى جانب زيت الزيتون - وهو رخيص في العصر الفاطمي - وزيت الشيرج (السَّمْسَم) وإن كان قليل الوجود⁽⁵⁾ . وكانوا يُقدّمون مع هذه الأطعمة على موادهم السلطات المختلفة ، وأنواع المُخلّلات⁽⁶⁾ ، التي تُعد من الباذنجان والخيار والبصل والثوم والزيتون وغيرها⁽⁷⁾ ، بالإضافة إلى الخل الذي يُجلب من الصعيد⁽⁸⁾ .

- (1) الرّازي ، أبو بكر محمد بن زكريّا : كتاب منافع الأغذية ودفع مضارها "وبهامشه كتاب دفع المضار الكلية عن الأبدان الإنسائية لأبي علي الحسين بن عبد الله الشهير بابن سينا " ، المطبعة الخيرية (القاهرة ، 1305هـ) ص 34 .
- (2) نجوى كيرة : مرجع سابق ، ص 346 . والقنبطية من القنبط ، وبلغه أهل مصر القرنبيط ، وهو أغلظ أنواع الكرنب = الزبيدي : مصدر سابق ، تحقيق عبد الكريم العزباوي ، وزارة الإعلام (الكويت ، 1983م) 56/20 .
- (3) عبد اللطيف البغدادي : مصدر سابق ، ص 60 .
- (4) المقدسي : مصدر سابق ، ص 204 . والقلقاس : شيء على قدر الفجل المدور ، عليه قشرة وفيه حدة = المقدسي : مصدر سابق ، ص 204 .
- (5) ناصر خسرو : مصدر سابق ، ص 120 .
- (6) المقرئزي : الخطط ، 2/ 213 (حيث كانت السلطات والمخلّلات من ضمن الأطعمة التي يتضمنها سماط الحزن في يوم عاشوراء) .
- (7) الرّازي : مصدر سابق ، ص 32 .
- (8) المقدسي : مصدر سابق ، ص 203 .

وأختم كلامي في هذا الخصوص بأطعمة يتناولها المصريون كنوع من التسلية ، منها الترمس الذي كان غالباً ما يُنقَع ، ثم يُسَلَقُ مراراً حتَّى تذهب مرارته ويُملَح بعد ذلك أو يُحَلَّى⁽¹⁾. كذلك الحمص المسلوق من الأطعمة المحبَّبة إلى الناس ، وكان يُباع في قدور يتجول بها البائعون في الشوارع والأسواق ، إلى جانب ما كان يُباع منه في الحوانيت⁽²⁾. كما كان هناك قصب السكر ، وإن كان لا يُصنَّف من الأطعمة ، إلا أن الناس استخدموه للتسلية ، فهو "رخيص في الثمن ، لا يكاد ينقطع عن ديار مصر إلا خمسة أشهر في السنة ، وهو لذيذ لا يُملُّ من مصِّه"⁽³⁾.

2- اللحوم بأنواعها :

اللحوم بمختلف أنواعها كانت لها أهمية خاصة على مائدة الفئات المختلفة من الشعب المصري في العصر الفاطمي ؛ فقد كانت من المشتريات اليومية لكثير من الأسر المصرية في ذلك الوقت⁽⁴⁾، حيث إنَّها دخلت في إعداد الكثير من الأطعمة وتجهيزها كما أسلفت الذكر.

وكان القصر الفاطمي كثير الاستهلاك للحوم ، ولاسيَّما في أيام الأعياد والاحتفالات ، التي كانت تُمدُّ فيها أسمطة مُعمَّرة بأنواع عديدة منه . ففي سِمَاط عيد الفطر وكذلك الأضحى يُوضع عليه واحد وعشرون طبقاً كبيراً ، يحتوي كل طبق على واحد وعشرين خروفاً مشوياً ، مع ثلاثمائة وخمسين طائراً مُحَمَّراً من

(1) المقدسي : مصدر سابق ، ص 204.

(2) المقرئبي : الخطط ، 914/1. كذلك نجوى كيرة : مرجع سابق ، ص 343 .

(3) ابن ظهيرة : مصدر سابق ، ص 134.

(4) أوراق البردي : مصدر سابق ، 171-168/6 ، 190-196 .

مختلف الطيور⁽¹⁾، هذا إلى جانب ما كان يُفَرَّقُ - حسب ما تقتضيه رسوم بعض هذه الأعياد - من الخراف المشوية على كبار رجال الدولة من الأمراء والقادة وأرباب الوظائف من أصحاب الدواوين وغيرهم⁽²⁾.

لذلك كان المنفق في مطابخ القصر من اللحوم أعداداً كبيرة جداً ، حتى قيل إنه يُستهلك فيها أيام الخليفة الأمر من لحوم الضأن خاصة ما يُناهز خمسة آلاف رأس في كل شهر ، عدا ما يُذبح من غير ذلك⁽³⁾. وقد يتعجب القاريء لهذا الكلام ويعده نوعاً من المبالغة في الحديث ، ولكن هذا ليس بغريب عن الدولة الفاطمية، التي بلغت الأعياد والمواسم فيها إلى حوالي الثلاثين⁽⁴⁾، وما كانت تتطلبه كل منها في احتفالاتها من استهلاكٍ في اللحوم سواء في الأسمطة أم الرسوم المقررة أم الصدقات أم غير ذلك . هذا إلى جانب ما يتطلبه إطعام سكان هذا القصر ، ومريديه من العمال والموظفين والضيوف وطلاب العلم وغير هؤلاء مما يبلغ عددهم بالآلاف⁽⁵⁾.

ومن لحوم الحيوانات التي عُرف أكلها في العصر الفاطمي لحوم الأغنام والجديان والإبل والأبقار والجاموس⁽⁶⁾. وعلى الرغم من وفرة هذه الأنواع بمصر

(1) القلقشندي : مصدر سابق ، 528/3 . كذلك المقرئبي : مسوِّدة الخطط ، ص79 . ابن تغري بَردي :

مصدر سابق ، 4 / 101 .

(2) المقرئبي : الخطط ، 2 / 347-348 .

(3) ابن ظافر : مصدر سابق ، 237/1 . كذلك المقرئبي : اتعاظ الحنفا ، 131/3 .

(4) المقرئبي : الخطط ، 2 / 347 .

(5) المصدر نفسه ، 2 / 107 . كذلك ناصر خسرو : مصدر سابق ، ص 104 - 105 .

(6) المقرئبي : اتعاظ الحنفا ، 271/1 ، 70/3 .

ومن غنى الثروة الحيوانية بها - التي أشاد بها الكُتّاب والمؤرخون في كتبهم⁽¹⁾ - إلا أن الاستهلاك الكبير والمتواصل لها في العصر الفاطمي، جعلها لا تكفي مُتطلبات أهلها اليومية ، مما جعلهم في حلٍّ من أن يلجأوا إلى جلبها من البلدان المجاورة ، بما في ذلك برقة التي اشتهرت بالرخاء وتعدد المزارع التي تكثر عليها السائمة ؛ لذلك كانت أكثر ذبائح مصر منها⁽²⁾.

كما شغف أهل مصر بأكل لحوم الرؤوس ، وأقبلوا على ذلك بما فيهم أفراد الخاصة ، وقد كان من رسوم الاحتفال برأس السنة الهجرية توزيع الرؤوس المشوية على رجال الدولة وأرباب الوظائف ، فيعم ذلك الجميع حتى يصل إلى عامة الناس⁽³⁾. لذلك كان القصر الفاطمي كثير الطلب لها من محال بيعها ، التي عُرِفَت في العصر الفاطمي بدكاكين الرّؤاسين ، وفي زمن الخليفة الظاهر ، وتحديدًا سنة 414 هـ/1023م " وُكِّلَ بدكاكين الرّؤاسين في جميع الأسواق ، وأخذ ما فيها من الرؤوس ، وكان قد طُلِبَ خمسمائة رأس وألف رطل رقائقاً"⁽⁴⁾. وكانت هذه الرؤوس مع الأكارع تُباع نياًة أو ناضجة (مسلوقة)، وفي بعض الأحيان مشوية⁽⁵⁾،

(1) ابن زولاق : مصدر سابق ، ص 98-101. كذلك القلقشندي : مصدر سابق ، 313/3 - 314. ابن

ظهيرة : مصدر سابق ، ص 132 ، 134 ، 135.

(2) البكري : مصدر سابق ، ص 5 .

(3) المقرئزي : الخطط ، 2 / 347 - 348.

(4) المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، 2 / 133.

(5) ابن الأخوة ، محمد بن محمد بن أحمد القرشي : معالم القرية في أحكام الحسبة " جاء ضمن كتاب في

التراث الاقتصادي الإسلامي مع كتابي نهاية الرتبة لابن بسّام والحسبة في الإسلام لابن تيمية" ، دار

الحدّثة (بيروت ، 1990م) . كذلك نجوى كيرة : مرجع سابق ، ص 346 .

وكان من وظائف المحتسب مراقبة إجابة تنظيفها وتنقية ما عليها من شعر وصوف قبل بيعها⁽¹⁾.

كذلك كانت الخنازير من الحيوانات التي تُربى في بعض مناطق مصر⁽²⁾، وذلك من غير شك لإقبال أهل الذمة على أكل لحومها. وفي عصر الخليفة الحاكم وفي أثناء اضطهاده لهم أمر بقتل ما وُجدَ منها في مصر، وكان فيها أعداداً كبيرة ولاسيما في البُشمُور⁽³⁾.

كما كان للطيور مكانها من ضمن أصناف اللحوم التي أُقبل عليها المصريون، ومن أشهرها طيور الدواجن في البيوت؛ كالدجاج والفراريج (أفرخ الدجاج)، والحمام وفراخها والإوز، وغير ذلك من الطيور البرية⁽⁴⁾. ولكي يُوفر أهل مصر حاجتهم من تلك الطيور دون أن يقعوا في متاعب جلبها (استيرادها) من الخارج، عملوا على إنشاء معامل صناعية لتفقيس بيضها، والدجاج منها خاصة، وهو ما يُعرف حالياً بالحضانات، وكانت هذه المعامل منتشرة بكثرة في مصر، وتُسمى بمعامل الفروج، وهي ضخمة الحجم يشغل الواحد منها مساحة عشرة بيوت، وقد يصل إلى عشرين بيتاً، يحتوي كل بيت منها حوالي ألفي بيضة⁽⁵⁾، ويخرج

(1) الشيزري: مصدر سابق، ص 32.

(2) المقدسي: مصدر سابق، ص 206.

(3) ساويروس بن المقفع: مصدر السابق، الجزء الثالث، المجلد الأول، ص 618. والبُشمُور: كورة بمصر قرب دمياط، فيها قُرى وريف وغياض، اشتهرت بنوع من الكباش لا يوجد مثله في أيّ موضع آخر من الدنيا كما ذكر ياقوت الحموي = ياقوت الحموي: معجم البلدان، 428/1 - 429.

(4) القلقشندي: مصدر سابق، 314/3. كذلك المقرئزي: اتعاظ الحنفا، 271/1. ابن تغري بردي: مصدر سابق، 101/4.

(5) عبد اللطيف البغدادي: مصدر سابق، ص 80.

من تلك المعامل الفراريج ، وهي معظم دجاج مصر ، ولا يتم عمل هذا بغير مصر⁽¹⁾.

أما عن الأسماك فكانت من أكثر اللحوم أكلًا واستهلاكًا بين الناس ولاسيما العامة⁽²⁾؛ وذلك على ما يبدو لرخص ثمنها وتوفرها على مدار السنة ؛ لأن من مزايا مصر أنها تُطلّ على البحر المتوسط (الكبير)، وكذلك البحر الأحمر (القلزم) ، ويشق منها النيل⁽³⁾، لذلك يجتمع لديها أسماك البحر وأسماك النيل⁽⁴⁾.

وهي كثيرة الأنواع ، وقد صدق عبد اللطيف البغدادي (م: سنة 629هـ/1231م) في قوله : " لا يفى القول بنعتها لكثرة أصنافها ، واختلاف أشكالها وألوانها "⁽⁵⁾. لذلك سأكتفي بذكر ما اشتهر بأكله منها في العصر الفاطمي ، وأولها سمك البوري⁽⁶⁾، نسبةً إلى قرية بور إحدى قرى تيّس وكان يُصطاد بالقرب منها⁽⁷⁾، وسمك الأبرميس ، الذي كان يُملح ويحمل إلى مختلف الأقطار⁽⁸⁾، وهناك أسماك البلطي واللبيس^(*)، وكانت لا تُصطاد إلا من البحار ،

(1) المقرئزي : الخطط ، 2 / 87.

(2) المقدسي : مصدر سابق ، ص 202.

(3) أبو خليل ، شوقي : أطلس التاريخ العربي الإسلامي ، دار الفكر ، ط5 (دمشق ، 2005م) ص 55 ، 56.

(4) عبد اللطيف البغدادي : مصدر سابق ، ص 88.

(5) المصدر نفسه والصفحة .

(6) ابن المأمون : مصدر سابق ، ص 104.

(7) المقرئزي : الخطط ، 1 / 310.

(8) ابن زولاق : مصدر سابق ، ص 99.

(*) سُمِّيَ باللبيس لأنه يشبه سمك البوري ، الذي بالبحر المالح فالتبس به = ابن ظافر: مصدر سابق ، 1/186.

حيث المياه مالحة ، ولكن لم تلبث أن ظهرت ولأول مرة في عصر العزيز بالله في مياه النيل الحلوة ، فأقبل الناس على اصطيادها وأكلها طرية وكانت قبل ذلك تُجَلَّبُ لهم من الفيوم مجففة ومملحة⁽¹⁾.

كما أقبل العامة على أكل الصَّحْنَاة⁽²⁾، وهي أسماك على قدر الإصبع فما دونه تُصطاد من النيل وقت الفيضان وانصراف المياه، وتُسمَّى بـ"الملوحة والصَّير" إذا كُبست بالملح وتُشترت ، أمّا إذا تُركت طرية عُرفت بـ"ابسارية"، وتؤكل مشوية أو مقلية⁽³⁾.

وإلى جانب الأسماك كان هنا الدُّلَيْس ، وهو من منتوجات البحر ، وقد عرّفه المقدسي بأنه : "حيوان بين زلفتين صغيرتين يفلقان ويُحسَى مثل المخاط"⁽⁴⁾. في حين قال عنه عبداللطيف البغدادي إته : "صدف مُستدير إلى الطول أكبر من الظفر ينشق عن رطوبة مُحاطية بيضاء ذات نكتة سوداء يعافها الناظر ، وفيه ملوحة عذبة"⁽⁵⁾. والدُّلَيْس هو الذي يعرفه أهل مصر حالياً بـ"أمّ الخُلُول" ، ويؤكل نيئاً طازجاً بدون طهي ، وقد شغف العامة بأكله في العصر الفاطمي شغفاً كبيراً ، إلى أن صدرت أوامر الخليفة الحاكم بمنع بيعه أو أكله هو والأسماك التي لا قِشْرَ لها ، وتشدّدت الحكومة في تنفيذ هذه الأوامر ، فكانت تعاقب من يخالفها

(1) ابن ظافر : مصدر سابق ، 186/1. كذلك المقرئزي : الخطط ، 195 / 1.

(2) عبد اللطيف البغدادي : مصدر سابق ، ص 122. كذلك ابن سعيد : مصدر سابق ، ص 28 .

(3) المقرئزي : الخطط ، 1/ 309-310. كذلك نجوى كيرة : مرجع سابق ، ص 347 ، هامش (9) .

(4) المقدسي : مصدر سابق ، ص 205.

(5) عبد اللطيف البغدادي : مصدر سابق ، ص 88.

بالضرب والتشهير⁽¹⁾. ويبدو أن تحريم الحاكم لها لم يكن من فراغ بل كان لأسباب صحية لها قيمتها في ذلك الوقت⁽²⁾.

وكما أقبل العامة على أكل الأسماك ، فإن الخاصة كذلك أقبلوا عليها ؛ فكان من رسوم احتفال الدولة بعيدي الميلاد والغطاس^(*)، توزيع سمك البوري وغيره من الأسماك ، مع باقي الأطعمة على رجال الدولة وأرباب الوظائف ، وذلك بتقرير معلوم على ما ذكره ابن المأمون (م: سنة 588هـ/1192م) في تاريخه⁽³⁾.

3- الفاكهة :

تمتعت مصر - كما أسلفت الذكر - بوفرة الإنتاج الزراعي وتنوعه ، فكانت عامرة بمختلف أنواع الفاكهة المعروفة . ومع النهضة الزراعية التي شهدتها البلاد في العصر الفاطمي ، ومع شغف الفاطميين بالأطعمة ، واهتمامهم بجلب النادر منها ، كل ذلك زاد من وفرة الإنتاج المحلي للفاكهة ، ودخول أنواع جديدة عليها من الخارج .

وكان من محاسن مصر أن فاكهتها لا يدوم أي نوع منها على طول السنة فيمَلُّ من أكله ، بل يأتي كل نوع في وقت دون آخر ، فتتشوق الأنفس لطلبه وتكون لقدمه بهجة ، وذلك على الرغم من أنه قد يجتمع فيها في الحين الواحد من الفاكهة والرياحين ما لا يحتاج معه في زمنه إلى غيره⁽⁴⁾.

(1) المقريري : اتعاط الحنفا ، 53 /2 ، 77 ، 81 .

(2) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ، ص 172 . كذلك عارف تامر : مرجع سابق ، ص 82.

(*) من أعياد النصارى ، للمزيد عنها يُنظر المبحث الثالث من الفصل الخامس من هذا الكتاب .

(3) ابن المأمون : مصدر سابق ، ص 104 . كذلك المقريري : الخطط ، 359 /2 ، 361 .

(4) القلقشندي : مصدر سابق ، 313/3 .

ومن الفاكهة التي أُقبل عليها المصريون في العصر الفاطمي ، الموز والتفاح ، والرمان والكمثرى (الإجاص) ، والبطيخ والعنب ، وقصب السكر والتَّارنج والتُّرُنْج^(*) ، والليمون المراكبي⁽¹⁾ ، والعنَّاب⁽²⁾ ، والفقوس والبلح والتمر الهندي⁽³⁾ ، بالإضافة إلى القراصية أو القراصيا⁽⁴⁾ .

وقد حرص الفاطميون على توفير بعض أنواع هذه الفاكهة غير المتوفرة في مصر ، أو أن إنتاجها كان قليلاً ، وذلك بجلبها من البلدان المجاورة ، فمثلاً كانوا يجلبون التفاح والكمثرى من الشام تُوزَّع على أسواق الفسطاط والقاهرة⁽⁵⁾ . وكان للوزير اليازوري ضيعة في قرية يازور بفلسطين يُجلبُ منها التفاح ليُباع في أسواق مصر⁽⁶⁾ ، أمَّا التفاح المتعلق بالخلفاء الفاطميين فكان يُجلب لهم مخصوصاً من لبنان⁽⁷⁾ .

كذلك القراصيا كانت لا توجد بمصر في حين وُجِدَت في بلاد الشام ، وبلاد الروم وغيرها⁽⁸⁾ . لذلك كان أهل مصر دائماً ما يشتهدون أكلها ، فكانت

(*) التُّرُنْج : أو الأثْرُج ، شجر يعلو ، ناعم الأغصان والورق والثمر ، ثمرة كالليمون الكبار وهو ذهبي اللون

، زكي الرائحة ، حامض الماء = المعجم الوسيط : مرجع سابق ، ص 4 .

(1) ناصر خسرو : مصدر سابق ، ص 118-119 .

(2) المقرئزي: اتعاط الحنفا ، 78/2 .

(3) ابن مَمَّاتِي ، أسعد بن مهذب بن أبي مليح : قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوريال عطية ، مكتبة مدبولي (القاهرة ، 1991م) ص 82 .

(4) المقرئزي : الخطط ، 380/2 . والقراصيا : شجر مثمر من الفصيلة الوردية ، يُطلق في مصر على البرقوق الحفف ، ويُعرف في الشام بالخرخ الحفف = المعجم الوسيط : مرجع سابق ، ص 726 .

(5) المقرئزي : الخطط ، 577/2 .

(6) المقرئزي : المقفى الكبير ، 368/3 .

(7) المسيحي : مصدر سابق ، 82-83 / 1 .

(8) عبد اللطيف البغدادي : مصدر سابق ، ص 79 .

تُجلب لهم من الشام . ويُحكى مرة أن الخليفة العزيز بالله انتهى أكل القراصيا وكانت غير متوفرة في مصر ، فأراد السفر إلى دمشق لهذا الغرض، فلما عَلِمَ بذلك وزيره ابن كِلْس أراد أن يُجتنبه مشاق السفر ، فأرسل إلى نائبه في دمشق وطلب منه أن يجمع حمام البريد الخاص بمصر، وأن يُرسله إليه على أن يُثبّت على كل واحدة منها كاغدة فيها حبة من القراصيا . فلم تمضِ ثلاثة أيام أو أربعة حتّى وصل الحمام ، فأخرج ابن كلس القراصيا من الكواغد ووضعها في طبقٍ من ذهب وغطّاها وبعث بها إلى العزيز بالله مع خادم⁽¹⁾.

وهذه القصة على الرغم من المبالغة ، إلاّ أنّها تدل على مراحل الترف والرفاهية التي وصل إليها الفاطميون ، لدرجة أن يُفكّر أحد خلفائهم في السفر إلى الشام من أجل لذة أكل الفاكهة الطازجة فيها ، وتأكيداً لحياة الرفاهية ، تلك الطريقة التي اتّبعتها وزيره - والتي هي أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع- في تحقيق رغبته بأسرع وقت وبأقل المجهود .

أما عن فاكهة النَّارنجِ والتُّرنج فكانت تُجلب من الهند ، وظلت طوال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي ، من الفاكهة المستوردة ولكن لم تلبث أن انتشرت زراعتها في مصر ، وإن كانت قد عُدِمَتْ منها الروائح الطيّبة واللون الحسن الذي كانت عليه في بلاد الهند ؛ وذلك لعدم ملاءمة مناخ مصر لمناخها الطبيعي⁽²⁾. وقد كان الفاطميون كثيرون الاستهلاك لها ؛ حيث كانت من ضمن

(1) القلقشندي : مصدر سابق ، تحقيق محمد عبد الرسول إبراهيم ، المطبعة الأميرية الكبرى (القاهرة ،

1919م) 391/14 . كذلك المقرئبي : الخطط ، 381-380/2 .

(2) آدم متز : مرجع سابق ، 306/2 ، 307 .

الرسوم المقرّر توزيعها على موظفي الدولة من أرباب السيوف والأقلام في عيد الغطّاس⁽¹⁾.

وإلى جانب هذه الفاكهة الطازجة، كانت تُجلبُ إلى مصر فاكهة أُخرى يابسة "كالتين والزبيب والخوخ والعنّاب والجوز"⁽²⁾، ففي سنة 401 هـ/ 1010م ، وصل إلى مصر من طرابلس الشام سفن تحمل فاكهة يابسة ورطبة ، وغير ذلك من المأكولات ، إلا أن الخليفة الحاكم أمر أن تُغرّق جميعها في النيل في الموضع المعروف بالمقسُ ، وذلك في أيام تشدّده ومنعه للناس من عيش حياة الترف واللهو ، ومن التمتع بأنواع الطعام والشراب⁽³⁾.

4- الحلوى والحلويات :

شغلت الحلوى جزءاً كبيراً من موائد الفاطميين وأطعمتهم ، لذلك أولوها اهتماماً كبيراً ، ولاسيما في أعياد الدولة ومناسباتها ، مثل عيدي الفطر والأضحى ، وفي شهر رمضان وغيرها من المواسم والأعياد⁽⁴⁾.

وكانت حلوى الأعياد تُعدُّ بدار الفطرة^(*)، بكميات ضخمة ثم تُنقل في موكب يُشْتَقُّ به البلد في احتفالات كبيرة إلى القصر الفاطمي⁽⁵⁾، لتوضع على

(1) ابن المأمون : مصدر سابق ، ص63 . كذلك المقرئزي : الخطط ، 2 / 361 .

(2) الدمشقي : مصدر سابق ، ورقه 18 وجه .

(3) الأنطاكي : مصدر سابق ، ص 290 .

(4) ابن العديم : مصدر سابق ، 1 / 342 .

(*) دار الفطرة : تقع قبالة باب الديلم - من القصر الفاطمي الكبير - الذي يُدخل منه إلى المشهد الحسيني . بناها العزيز بالله ، وقرّر فيها ما يُعمل مما يُجعل للناس في الأعياد والمناسبات المختلفة . وكان فيها ما يلزم ذلك من السكر والعسل والرياحين والمكسرات... الخ . ويُندب للعمل بما مائة صانع من الحلوانيين ومائة فرّاش = المقرئزي : الخطط ، 2 / 200 - 201 .

(5) المسيحي : مصدر سابق ، 1 / 65 .

سِمَاط الخليفة ، فيأكل منها الحاضرون ويعودون بالشيء الكثير من أصنافها إلى بيوتهم ، كما تُوزَّع منها كميات وفيرة على أهالي القاهرة والفسطاط⁽¹⁾. أما رجال الدولة فـ" لا يبقى أمير ولا مقدّم إلّا ويأتيه طبق لنفسه ، ولكل واحدٍ من أولاده ونسائه طبقٌ فيه أنواع الحلوى العجيبة الفاخرة"⁽²⁾.

وقد تَفَنَّن الفاطميون في إعدادها وتجميلها، فكانت حلوى السكر تُصنع على هيئة أشكال مُجسَّمة ، منها ما هو على شكل قصور ضخمة يصل وزن الواحد منها إلى سبعة عشر قنطاراً⁽³⁾، وأخرى على شكل تماثيل مختلفة من الغزلان والسباع والفيلة والزراريق ، مُلبَّسة بالعنبر والصندل⁽⁴⁾، وكذلك على شكل الأشجار المختلفة من التفاح والتُّرُج وغيرها⁽⁵⁾.

وكما كانت الحلوى تمثل جزءاً مهماً من موائد الفاطميين ، كانت كذلك بالنسبة لعامة المصريين⁽⁶⁾، لذلك عرفت مصر أنواعاً كثيرة منها⁽⁷⁾، وقد شغف بها الناس شغفاً كبيراً ، ولاسيّما تلك المعمولة بقصب السكر في الصعيد ، التي تُجلب إلى الفسطاط وغيرها لتباع فيها⁽⁸⁾. وكانت هناك حوانيت خاصة لبيعها مع أنواع الحلويات الأخرى ، يُشترط فيها العديد من الشروط من ضمنها النظافة

(1) المقرئبي : الخطط ، 113/2 ، 115.

(2) المقرئبي : اتعاط الحنفا ، 343/3.

(3) المقرئبي : الخطط ، 114/2. كذلك ابن تغري بردي : مصدر سابق ، 4 / 101.

(4) القلقشندي : مصدر سابق ، 3 / 518.

(5) ناصر خسرو : مصدر سابق ، ص 123. كذلك القلقشندي : مصدر سابق ، 3 / 518.

(6) نجوى كيرة : مرجع سابق ، ص 348.

(7) عبد اللطيف البغدادي : مصدر سابق ، ص 119.

(8) ابن رضوان الطبيب المصري ، علي : كتاب دفع مضار الأبدان بأرض مصر ، مخطوط تحت رقم عام (164 156) وتصنيف (355 طب عربي) بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ، ورقة 15.

وسلامة المكابيل التي تُوزَنُ بها . وإن حصل أن أخلَّ الحوائي بإحدى هذه الشروط تعرَّض للمحاسبة والعقاب والتشهير من المحتسب⁽¹⁾.

وكان سوق الحلوائيين مكاناً لتجمع العامة بأطفالهم وقت المناسبات والأعياد ، وفيه تُعرض مختلف أنواع حلوى السكر ، التي صُنعت على هيئة الحيوانات وغيرها ، وتُعرض على واجهة حوانيته بربطها بالحبال ، ولذلك تُسمَّى حلوى العلاليق ، وكان منها ما يَزِنُ عشرة أرطال إلى ربع رطل تُشتري للأطفال ، فلا يبقى غنيٌّ ولا فقيرٌ إلا ابتاع منها لأهله وأولاده⁽²⁾.

وإلى جانب الحلوى ذكرت المصادر العديد من أسماء الحلويات التي أُقبل المصريون على أكلها في العصر الفاطمي، ومن أشهرها "النيدة"، التي أُقبل عليها العامة⁽³⁾، وطريقة إعدادها أن يُطبخ القمح حتَّى يخرج نشاء في الماء ، وبعد تصفية الماء من بقايا القمح يُطبخ حتَّى يغلظ ، ثم يُدرّ عليه الدقيق ، وعندما يتماسك يُرفع عن النار ، وتصبح عندئذٍ جاهزة للبيع في الأسواق . وهذا النوع يُسمَّى نيدة "البوش" ، وقد يُطبخ الماء - المُخترَّب نشاء القمح - وحده من غير دقيق ، وتُسمَّى هذه النيدة "المعقودة" ، وهي أفضل من الأولى وأغلى ثمناً⁽⁴⁾.

ومن الحلويات التي اشتهرت أيضاً الزلابية ، وهي من الأصناف التي كانت تُوزَّعها الدولة على أرباب الوظائف بمناسبة الاحتفال بعيد الميلاد⁽⁵⁾، وتصنع من

(1) المسيحي : مصدر سابق ، ص 78/ 1.

(2) المقريري : الخطط ، ص 593/2.

(3) المقدسي : مصدر سابق ، ص 203 ، 206 . كذلك ابن زولاق : مصدر سابق ، ص 100.

(4) عبد اللطيف البغدادي : مصدر سابق ، ص 118.

(5) ابن المأمون : مصدر سابق ، ص 104.

الدقيق بعد عجنه وتخميره ، ثم تُقلَى بزيت الشيرج ، وتُؤكل بالعسل والسكر⁽¹⁾.
وقد اشتهر أمرها حتى انتشرت صناعتها في العراق ، وأصبحت تُقدّم على موائدها
وعرفت هناك بـ "الزلايبة القاهريّة"⁽²⁾.

وهناك القطائف ، وكانت تقدم مع غيرها من الأطعمة على مائدة الخليفة
الفاطمي في سحور رمضان⁽³⁾. وكان أهل مصر كثيراً ما يُقبلون عليها ويتهاذونّها
في هذا الشهر الكريم ، وفي ذلك يقول الشاعر المصري عبد الرحمن بن هبة الله بن
حسن بن رفاعة ، الذي كان مُعاصراً للفاطميين :

وإني الصيامُ فوافتنا قطائفُهُ كما تَسَنَّمَتِ الكُتبانُ من كُتَبِ⁽⁴⁾.

وكذلك قوله :

أهلاً بشهرٍ غدا فيه لنا خَلْفٌ أَكَلُ القطائفِ عن شربِ ابنة العنب⁽⁵⁾.
وأيضاً في هذا المعنى أبياتٌ كتبها بعض المصريين إلى مُقدّم الشعراء أيام
الأفضل بن بدر الجمالي جاء منها :

جاءت مناسبة أخلاقٍ مُهديها قطائفٌ كلُّ طرفٍ مُودَعٌ فيها
نَزَّهتُ ناظرتي في حسنها وفمي في طيبها وجناني في معانيها⁽⁶⁾.

(1) فاتن محمد البنداري : مرجع سابق ، ص 159 . كذلك نجوى كيرة : مرجع سابق ، ص 349.

(2) أبو المُطَهَّر : مصدر سابق ، ص 41.

(3) ابن المأمون : مصدر سابق ، ص 82 . كذلك المقرئزي : الخطط ، 352/2 .

(4) العماد الأصفهاني ، محمد بن محمد بن حامد بن عبد الله بن هبة الله : خريدة القصر وجريدة العصر " قسم شعراء مصر " ، تحقيق أحمد أمين وشوقي ضيف وإحسان عباس ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية (القاهرة ، 2005م) 63/1 . كذلك ابن سعيد : مصدر سابق ، ص 266 .

(5) العماد الأصفهاني : مصدر سابق ، 62/1.

(6) المصدر نفسه ، 52-51/2.

وإلى جانب القطائف أقبل المصريون في شهر رمضان على أكل الكنافة⁽¹⁾، وهي من اكتشافات العصر الفاطمي ، فكان لا يذكر اسم الفاطميين في العصور التي تليهم إلاً ويتذكر الناس القطائف والكنافة في شهر رمضان⁽²⁾. وكانت على عدّة أنواع منها المملوحة والإخميمة ، وغيرها كثير⁽³⁾.

كما اشتهرت دار الفطرة بصنع أنواع عديدة من الحلويات - من التي تُوزَّع في الأعياد- منها " الخشكناج " ، الذي يُعمل من أجود أنواع الدقيق الأبيض (السميد)، فيُعجن ويُيسط مثل الرقاق ، ويُضاف إليه قلوب اللوز مع السكر وماء الورد والكافور ، ويكون الرقاق أحياناً على شكل حلقة مُجوّفة يملأ وسطها باللوز أو الفستق⁽⁴⁾. وهناك "البسندود" ، ويصنع من عجينة الخشكناج ، فيعمل أقراصاً ويخبز في الفرن ، ولما تستوي الأقراص توضع كل اثنين على بعض بينهما حلوى بها لوز أو فستق⁽⁵⁾. بالإضافة إلى "الفانيد" أو "كعب الغزال" ، ويُصنع من النَّشَا⁽⁶⁾، ومن الدقيق والعسل⁽⁷⁾. وأخيراً "الكعك" ، وهو معروفٌ إلى يومنا هذا ، ويعمل على عدّة أنواع منها المش واليابس وغير ذلك⁽⁸⁾.

(1) نجوى كبيرة : مرجع سابق ، ص151.

(2) جمال بدوي : مرجع سابق ، ص 7 .

(3) ابن العديم : مصدر سابق ، 628-626/2 .

(4) الشيزري : مصدر سابق ، ص 41 ، هامش (8) . كذلك نجوى كبيرة : مرجع سابق ، ص350 .

(5) ابن العديم : مصدر سابق ، 656/2 .

(6) الزبيدي : مصدر سابق ، تحقيق عبد العزيز مطر ، وزارة الإرشاد والأنباء ، ط2 (الكويت ، 1994م) ، 509/8 .

(7) نجوى كبيرة : مرجع سابق ، ص350 .

(8) ابن العديم : مصدر سابق ، 658-657/2 .

ثانياً : الأشربة :

عند الحديث عن الأشربة يجب البدء بالماء بصفته الشراب الوحيد الأساسي لحياة الإنسان . وأهل مصر في العصر الفاطمي كان معظمهم يشربون من مياه النيل ، في حين كان بعضهم يشرب من مياه الآبار ، ولاسيما أهل القاهرة ، فإلى جانب شربهم لمياه النيل - وفي أيام دخوله إلى الخليج خاصة- إلا أن أكثر شرب أهلها كان من مياه الآبار ، أمّا المياه المخزونة ومياه الأمطار فقلّ من يشربها⁽¹⁾ .

وإلى جانب الماء أقبل أهل مصر - سواء من العامة أم الخاصة- على شرب اللبن ، ومما ساعدهم على ذلك كثرة إنتاج الأبقار المصرية له ، وقد شغف به الفاطميون شغفاً كبيراً ، فكان دائماً ما يُقدّم للخليفة الفاطمي في سحور رمضان أنواعٌ منه ، رطب ومخض⁽²⁾ . كما كان من رسوم الاحتفال برأس السنة الهجرية توزيع جفان اللبن ، مع غيره من الأطعمة على أرباب الوظائف ، وأقارب الخليفة في القصر ، فيعم ذلك الجميع إلى أن يصل إلى أهل الفسطاط والقاهرة⁽³⁾ . كذلك هناك عصائر الفواكه المختلفة ، وكان لا يخلو منها سِمَاط الخليفة على سحوره في رمضان أيضاً⁽⁴⁾ .

(1) ابن رضوان : مصدر سابق ، ورقه 14 ، 35 - 36 .

(2) ابن المأمون : مصدر سابق ، ص83 .

(3) المقرئزي : الخطط ، 347/2 - 348 .

(4) ابن المأمون : مصدر سابق ، ص83 . كذلك حسن إبراهيم حسن: شهر رمضان في تاريخ الإسلام ، مجلة لواء الإسلام ، العدد الأول للسنة الثانية (القاهرة ، 1948م) ص 48 .

ومن الأشربة التي اشتهرت بها مصر شراب العسل ، وأكثر ما يُعمل بها ،
ويُصدَّرُ إلى مختلف الأقاليم⁽¹⁾ ، ويُصنع من العسل والماء الخاثر الكدر في زمن مدود
النيل⁽²⁾ .

أمَّا عن الخمر فقد انتشر شربها بين الناس بشكل كبير ، الأمر الذي جعل
صناعتها من الصناعات الرائجة في العصر الفاطمي⁽³⁾ . وقَلَّ من يعتصرها إلاَّ
ويُلقي معها عسلاً ، ومن أجود أنواعها في العصر الفاطمي "الشمسي" ، الذي
يُعمل من أجود أنواع الزبيب المستورد ، وكان لا يُصنع إلاَّ في المناخ الحار لكي
ينضج ، والعسل الذي فيه كان يحفظ قُوَّته ولا يدعه يتغير بسرعة⁽⁴⁾ .

أما العامة فقد أقبلوا على خمورٍ أقلَّ جودةً وأرخص ثمنًا ، منها الفُقَّاع⁽⁵⁾ ،
الذي يُصنع من الشعير ، ويُسمَّى بذلك لما يرتفع في قمته من الزَّبَد⁽⁶⁾ ، وهناك
المزَّر⁽⁷⁾ ، ويُصنع من الحبوب ولاسيما القمح والذرة⁽⁸⁾ ، بالإضافة إلى الأنبذة
المصنوعة من الكروم والعنب⁽⁹⁾ والتمور⁽¹⁰⁾ .

- (1) ابن حوقل : مصدر سابق ، 161/1 . كذلك ابن زولاق : مصدر سابق ، ص 99 . ابن ظهيرة : مصدر سابق ، ص 133 .
- (2) ابن الفقيه ، أبو بكر أحمد بن محمد الحمذاني : مختصر كتاب البلدان ، مطبع بريل (ليدن ، 1302) ص 66 . كذلك الرازي : مصدر سابق ، ص 17 .
- (3) سيمينوفا : مرجع سابق ، ص 127 . كذلك محمد محمود إدريس : مرجع سابق ، ص 219 .
- (4) ابن رضوان : مصدر سابق ، ورقة 14 .
- (5) المقرئزي : اتعاط الحنفا ، 77/2 .
- (6) ابن منظور : مصدر سابق ، 256/8 .
- (7) المقرئزي : الخطط ، 357/2 .
- (8) ابن منظور : مصدر سابق ، 172/5 .
- (9) محمد محمود إدريس : مرجع سابق ، ص 219 .
- (10) ابن رضوان : مصدر سابق ، ورقة 15 .

وكانت مياه الشرب ، وجميع العصائر ، والخمور بأنواعها تُبرَّدُ في أيام الصيف ، التي تتصف بالقيظ وسخونة الهواء ، ولما كان الثلج غير متوفراً في مصر ، فقد دأب أمراؤها وخلفاؤها على جلبه من الشام ، وهي عادة مُتَّبَعَةٌ منذ أيام الدولة الإخشيدية⁽¹⁾ ، وقد جعلوا لذلك هُجْنًا (إيلاً) تحمله في البرِّ وسفنًا في البحر حتَّى يصل مصر⁽²⁾ .

وفي عصر الخليفة المستنصر كان يُحمل في كل يوم إلى دار الشراب التي بالقصر أربعة عشر حملاً من الثلج ، يُصرف منها للوزراء والأمراء والخواص كافة ، ولمن يطلبه من مرضى المدينة⁽³⁾ .

ثالثاً : الألبسة :

اهتمَّ الفاطميون اهتماماً كبيراً بالملابس ، حيث أنشأ خليفتهم الأول المعز لدين الله داراً في القاهرة سمَّها "دار الكسوة" ، كانت تُفَصَّلُ فيها جميع الثياب الخاصة بالخليفة والوزراء والأمراء والقادة وسائر موظفي الدولة على اختلاف مراتبهم . ومن هذه الدار كانت تخرج في كل سنة كسوة للشتاء وأخرى للصيف ، تُوزَّعُ على كل هؤلاء بما فيهم نساؤهم وأولادهم ما قيمته ستمائة ألف دينار وتيِّف⁽⁴⁾ . كما كانت تخرج منها الخلع التي يخلعها الخلفاء على رجال دولتهم في المناسبات المختلفة ، ولاسيما عيد الفطر الذي يُسمَّى عندهم "عيداً للحل" ؛ لأن الحلل فيه كانت تعم الجميع ، وفي غيره للأعيان خاصة⁽⁵⁾ .

(1) الغزولي : مصدر سابق ، 385/2 .

(2) القلقشندي : مصدر سابق ، 395/14 .

(3) ناصر خسرو : مصدر سابق ، ص 123 .

(4) المقريري : اتعاظ الحنفا ، 343/3 . كذلك المقريري : الخطط ، 165/2 - 166 .

(5) المقريري : اتعاظ الحنفا ، 82/3 - 83 .

1- ملابس الخليفة :

كان الخليفة الفاطمي مثلاً للتأنق والأبهة في ملابسه ، فكان لكل مناسبة أو موسم يخرج إليه يتطلب منه لبس ثياب جديدة فاخرة تختلف عن سابقتها ، وفي بعض المواقف كان يُغيّر هذه الثياب أكثر من مرة ، فمثلاً كان في ركوبه لصلاة العيدين (الفطر والأضحى) يلبس ثياباً خاصة بالصلاة وأخرى للسَّمَاط⁽¹⁾، وفي يوم فتح الخليج يلبس ثياباً للذهاب وأخرى في الإتياب⁽²⁾، وفي شهر رمضان كان لكل جمعة يخرج للصلاة فيها ملابس تختلف عن الجمعة الأخرى⁽³⁾.

وهذا التأنق والتنوع في الملابس تطلّب من الخلفاء أن يمتلكوا كميات كبيرة من الحلل ، فقد كان للخليفة المستنصر ثمانمائة بدلة بجميع آلاتها كاملة أُخرجت في زمن الفتنة التي أثارها الأتراك⁽⁴⁾، ووُجِدَ للخليفة العاضد بعد وفاته مائة صندوق من الكساوى الفاخرة من مُوشَى ومُرَصَّع وغير ذلك⁽⁵⁾.

وكانت للخليفة الفاطمي - إلى جانب دار الكسوة - مصانع خاصة لنسج وملابسه في مدينتي تَنيس ودمياط ، لا يُباع ولا يُعطى منها لأحد⁽⁶⁾. وكانت هذه الملابس تُفصّل من أجود أنواع الأقمشة في ذلك الوقت ، والبدلة الواحدة تتكون في بعض الأحيان من إحدى عشرة قطعة^{*}، يبلغ ثمنها أكثر من عشرة آلاف

(1) المقرئزي : الخطط ، 114/2.

(2) القلقشندي : مصدر سابق ، 521/3.

(3) ابن المأمون : مصدر سابق ، ص 81 . كذلك المقرئزي : الخطط ، 233/3 - 234.

(4) المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، 290/2.

(5) المقرئزي : الخطط ، 174/2.

(6) ناصر خسرو : مصدر سابق ، ص 92.

*) أورد المقرئزي وصفاً مُفصّلاً لتلك البدل ، للاطلاع يُنظر المقرئزي : الخطط ، 166/2 - 167.

دينار، في حين يبلغ سعر العمامة التي على رأسه - في بعض الأحيان - أربعة آلاف دينار⁽¹⁾. وكانوا يلبسون في أرجلهم أحذية من الجلد ذات رقبة قصيرة⁽²⁾، وكان الخليفة العزيز بالله أول من لبس منهم الخفين والمنطقة⁽³⁾.

والألوان المفضلة للخلفاء في ملابسهم الأبيض والأحمر والأخضر، وغلب اللون الأبيض في حُللهم على ما عداه من الألوان⁽⁴⁾. واستكمالاً للأهجة كانوا لا يخرجون في مواكبهم إلا والمظلة فوق رؤوسهم يحملها أحد الأستاذين، وكان من شروطها أن تُشابه لون الثياب التي يلبسها الخليفة في الموكب⁽⁵⁾.

ولم يشذ عن الخلفاء الفاطميين في أناقتهم إلا الخليفة الحاكم، حيث كان كثير التنقل من حال إلى حال، فكان في ابتداء أمره - مثل آبائه - يلبس الثياب الفاخرة المذهبة، والعمائم المنظومة بالجواهر النفيسة، ولكنه لم يلبث أن ترك ذلك كله بالتدريج، وانتقل إلى اللباس المعلم غير المذهب، ثم إلى اللباس الساذج، وانتهى به الأمر أن أظهر الزهد كليةً واقتصر في لباسه على جُبب الصوف⁽⁶⁾، وكانت مختلفة الألوان؛ من أسود وأحمر وأصفر وأخضر وأبيض وأشبه ذلك، ولربما جمع السبعة ألوان في زي واحد⁽⁷⁾.

(1) ناصر خسرو: مصدر سابق، ص 92.

(2) عابدين، عليّة: موسوعة تطور أزياء العالم عبر العصور، دار الفكر العربي (القاهرة، 2001م) ص 89.

(3) المقريري: الخطط، 241/3.

(4) المسيحي: مصدر سابق، 11/1، 18، 62، 64، 81. كذلك المقريري: اتعاظ الحنفا، 175/2.

(5) القلقشندي: مصدر سابق، 473/3. كذلك آدم متز: مرجع سابق، 257/1.

(6) النويري: مصدر سابق، 196/28.

(7) ابن ظافر: مصدر سابق، 201/1.

وكان للخلفاء الفاطميين في القصر خزانة خاصة لحفظ ملابسهم ، تُدعى خزانة الكسوة الباطنة^(*)، تتولّى أمرها امرأة تُعرف "بزين الخزان" ، تساعدنا ثلاثون جارية ، وكان الخليفة لا يُغيّر ثيابه إلاّ عندها ، ولا يلبس إلاّ من هذه الخزانة⁽¹⁾.

2- ملابس الوزير :

كان الزيّ الرسمي لوزير التنفيذ - في العصر الفاطمي الأول- يُسمّى "دُرّاعة" ، وهو ثوب قصير مشقوق من أمام إلى قريب القلب، مُحلّى بعري وأزرار قد تكون من ذهب مشبك أو من لؤلؤ ، وكان يضع على رأسه عمامة ذات لفّات عديدة (طبقيات) يتزل طرفها ليدور حول الحنك⁽²⁾.

ولكن منذ تولّى بدر الجمالي للوزارة ، أصبح زيّ وزير التفويض يتفق وسلطاته الجديدة ؛ فكان يُخلع عليه- بالإضافة إلى زيّ وزير التنفيذ- الطيّلسان المُقوّر^(**)، وهو من زيّ قاضي القضاة، كما أصبحت طريقة لف العمامة تتفق - أيضاً - مع منصبه الجديد ، فَسُمِحَ له بترك ذوابة عمامته مرخاة على ظهره، إشارة إلى أنّه كبير أرباب السيوف ، وجُعِلَ له أيضاً العقد الجواهر عَوْضاً عن الطوق الذي كان يلبسه الوزراء من قبل⁽³⁾.

(*) للكسوة خزانتان : الباطنة وهي خاصة بالخليفة ، والظاهرة وهي التي تحتوى على مختلف أنواع الملابس الرجالية والنسائية ، التي تُجلب من دور الطراز في تينيس ودمياط والإسكندرية ، وكان الخلفاء ينعمون بها على أقاربهم ووزرائهم ورجال دولتهم = المقريري : الخطط ، 173/2 - 174.

(1) المصدر نفسه ، 174/2.

(2) القلقشندي : مصدر سابق ، 490/3.

(**) الطيّلسان : ثوب يُحيط بالبدن خالٍ من التفصيل والخياطة ، كان يختص بلبسه في العالم الإسلامي في العصور الوسطى الفقهاء والعلماء والقضاة = المقريري : اتعاظ الحنفا ، 132 / 1 ، هامش (1) .

(3) المقريري : الخطط ، 233/2 . كذلك عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ، 90/1 .

وكان للوزير إلى جانب ملبسه الرسمية ، الكثير من الحُلل التي تُهدى إليه من الخليفة ليلبسها في مواكب الاحتفالات والأعياد ، منها كسوة عيد فتح الخليج^(*) ، وغرّة شهر رمضان ، وكسوة عيدي الفطر والأضحى⁽¹⁾ ، وغيرها من الأعياد . هذا إلى جانب شغفهم باقتناء الملابس والمنسوجات بصفة عامة ، التي تُعدّ نوعاً من أنواع الثروة في ذلك الوقت ومقياساً لحجمها⁽²⁾ ، لذلك كان الوزراء الفاطميون يمتلكون مخازن مُعبّأة بالملابس والمنسوجات ، فعلي سبيل المثال وُجِدَ عند بَرَجَوَان بعد مقتله ألف سروال بعلبكي ، مع ألف قميص حرير إسكندري ، وألف منديل حرير يُلبس على الرأس⁽³⁾ ، في حين وُجِدَ عند الأفضل بن بدر الجمالي بعد وفاته تسعمائة ثوب ديباج وخمسمائة صندوق من دقّ دمياط وتيّس لكسوته⁽⁴⁾ ، كذلك الوزير المأمون بن البطائحي، ترك بعد القبض عليه سنة 519م / 1125م ، مائتي صندوق مملوءة كسوة بدنه⁽⁵⁾ ، وغير هؤلاء الكثير مما لا يتسع المجال لذكر مُقتنياهم من الملابس .

وكان الوزراء يحافظون على نظافة ملابسهم ورونقها - لما تقتضيه دواعي الأبهة- فكانوا يعملون لها مشدّات خاصة ، لحمايتها من الانطواء والإهمال ، وللوزير الأفضل تمثال من العنبر في حجم جسده ، فكان إذا عاد إلى منزله يترع

(*) للاطلاع على وصف هذه الكسوة يُنظر المقريري : الخطط ، 304/2 .

(1) المصدر نفسه ، 177/2 .

(2) سيمينوفا : مرجع سابق ، ص120 .

(3) ابن إياس : مصدر سابق ، 40/1 .

(4) ابن مُيسّر : مصدر سابق ، ص 80 .

(5) المقريري : اتعاظ الحنفا ، 110/3 .

ملابسه ويُلبسُهَا للتمثال، فيأمن بذلك عليها من الإهمال ، ويحافظ على أناقتها ، بالإضافة إلى تعطيها بالعنبر⁽¹⁾.

3- ملابس رجال الدولة وأرباب الوظائف :

كانت ملابس الأمراء والقواد تُنسج من الأقمشة المزركشة (الديقي) ، وكان كبار الأمراء يتميزون عن غيرهم بلبس قلادة من قماشٍ مُذهَّب ، توضع حول العنق يُطلق عليها "طوق" ، وبسببها عُرف مجموعهم بـ "الأمراء المطوقون" ، أما بقية الأمراء فلم يكن لهم الحق في لبس هذا الطوق . وكان الأمراء بصفة عامة يلبسون على رؤوسهم عمام من القماش المطرز بالذهب ، والمرصع بقطع صغيرة من المعدن المذهَّب أو المفضَّض ، وإن كان كبارهم يتميزون عليهم بترك أحد طرفي العمامة مرخاة على الظهر ، وهو ما يعرف بالذؤابة⁽²⁾.

في حين كان كبار موظفي الدواوين يلبسون على رؤوسهم عمام كبيرة ضخمة ، يُطلق عليهم لذلك "أصحاب العمام"⁽³⁾، وكانت بدلُهم تتكون من خمس قطع مُذهَّبة⁽⁴⁾، يبلغ ثمنها حوالي خمسمائة دينار . أما صغار الموظفين فكانت ملابسهم أقلَّ كلفةً ، حيث كانت تتكون من قطعتين فقط ، قميص وسروال ، وتُصنع غالباً من الكتان والصوف والحرير⁽⁵⁾.

وكانت ملابس رجال الدولة وأرباب الوظائف جميعها يُنسج عليها اسم الخليفة الفاطمي - شارة من شارات الخلافة - بلحمة من الذهب أو الفضة أو

(1) ابن ظافر : مصدر سابق ، 239/1 . كذلك النويري : مصدر سابق ، 281/28 .

(2) عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ، مكتبة الانجلو المصرية ، ط3 (القاهرة ، 1978م) 58/2 .

(3) المرجع نفسه ، 101/1 - 102 .

(4) المقريري : الخطط ، 170/2 .

(5) سمي عبد الله سليمان : مرجع سابق ، ص 38 .

الخطوط المتعددة الألوان ، تمجيداً له وإشارة بذكره ، ودليلاً على أنها صُنعت في عصره ، ووثيقة لمن خُلعت عليه تدلّ بنوعها على درجته ووظيفته . وفي بعض الأحيان كان الخليفة يأذن بكتابة اسم وزيره في الطراز ، تكريماً له أو خشيةً منه وتسليماً بحقيقة واقعة وهي استيلاء الوزير على السلطان الفعلي في البلاد⁽¹⁾.

4- ملابس العامة :

كان العلماء والفقهاء ورجال الدين يرتدون الطيّاليس مع العمام⁽²⁾ . ولم تكن ملابس كبار التجار تختلف عنهم كثيراً ، حيث كانت " ثياباً واسعة وعمائم مُدوّرة وطياليس سابلة "⁽³⁾ . أما الحرفيون والصُّنَّاع فكانوا يضعون القلانس على رؤوسهم ، وهي مصنوعة من حريرٍ أو كتّان ، وأحياناً يرتدون العمام المجدولة ، في حين يلبسون على أجسادهم السراويل والقمصان ذات الأكمام الواسعة حتى لا تُضايقهم في أثناء تأدية عملهم⁽⁴⁾ .

كذلك ارتدى الفلاحون السراويل والقمصان في أثناء العمل ، أمّا غير ذلك فكانوا يرتدون الكساء والعمامة على الرأس والخف في الرجل ، كما ارتدوا الجلابيب أيضاً ، أمّا الأغنياء منهم فكانوا يرتدون الجُبّة وهي مظهر من مظاهر التمييز⁽⁵⁾ .

(1) زكي محمد حسن : مرجع سابق ، ص 117 ، 118 .

(2) المقريري : اتعاط الحنفا ، 1/132.

(3) المقريري : إغائة الأمة ، ص 26.

(4) نجوى كيرة : مرجع سابق ، ص 363 .

(5) محمد محمود إدريس : مرجع سابق ، ص 286.

وبصفة عامة كان رجال مصر يلبسون في أرجلهم النَّعال ، التي كانت تُصنع في بعض الأحيان من جلد البقر الشبيه بجلد النمر، والمستورد من الحبشة⁽¹⁾.

5- ملابس النساء :

أورد المقرئزي وصفاً دقيقاً لملابس إحدى نساء الخليفة الفاطمي "الجهة العالية" ، وهي تشتمل على حُلَّة مُذهَّبةٍ عدَّتْها خمس عشرة قطعة ، تتكون من ثوب واسع مُذهَّبٍ ورداءين قصيرين من حرير ، وقميص "ذُرَّاعة" له ذيل ، وثوب قصير من قماش مزركش بالحرير ، وربما يُلبَسُ على القميص "وسطاني" و"شقة" من قماش مزركش ، بالإضافة إلى رداء فضفاض "ملاية" ، وأكمام من ثلاثة أنواع ، هذا إلى جانب أغطية الرأس - التي تُسمَّى "سداسي ومعجر" - ويصل عددها إلى ثلاث قطع ، تُعطي الرأس وتصل إلى الكعبين⁽²⁾.

في حين كانت ملابس بقية نساء الخليفة - من درجة أو مكانةٍ أقل (جهة) - لا تختلف كثيراً عن سابقتها ؛ فهي حُلَّة مُذهَّبةٍ وإن كان عدد قطعها أربع عشرة قطعة⁽³⁾.

أمَّا نساء العامة فَكُنَّ يرتدين القمصان والسراويل الطويلة ، بالإضافة إلى الثوب فوق القميص ويكون قصيراً أو طويلاً ، وأكمامه واسعة وفضفاضة . أما أغطية الرأس فكانت على عدَّة أنواع ؛ منها العمامة وهي تشبه عمامة الرجل ، وهناك الطرحة التي تنسدل على الصدر ، بالإضافة إلى العصبة التي تلفها المرأة حول الطرحة وتشدها على رأسها ، ويتدلَّى جزء منها على جانب الرأس⁽⁴⁾.

(1) ناصر خسرو : مصدر سابق ، ص 118.

(2) المقرئزي : الخطط ، 168/2 . كذلك عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ، 56/2-57.

(3) المقرئزي : الخطط ، 168/2.

(4) عليّة عابدين : مرجع سابق ، ص 89.

وكانت المرأة عند خروجها من بيتها تلتف بملاءة ، وهي عبارة عن غطاء يتكون من قطعتين من القماش ، وأحياناً تلبس الإزار وهو رداءً واسع⁽¹⁾ ، كما لبست النقاب لتغطية وجهها ، ولاسيما في أيام الحاكم بأمر الله ، عندما صدرت أوامره بأن لا تكشف النساء وجوههن في الطرقات وتشدد في ذلك⁽²⁾ .

أما فيما يخص الأرجل فكان يرتدين الخفاف عند خروجهن من المنازل ، إلى أن صدرت أوامر الحاكم بالحجر عليهن ، ومنع الأساكفة من عمل الخفاف المتخذة لهن⁽³⁾ .

رابعاً : المساكن :

1- مساكن الخلفاء الفاطميين :

كان للخلفاء الفاطميين بالقاهرة العديد من القصور ، منها القصر الكبير الشرقي الذي أنشأه جوهر الصقلي ، والقصر الغربي الذي بناه الخليفة العزيز ، والقصر اليافعي ، وقصر الذهب ، وقصر الأفيال ، وقصر الظفر ، وقصر الشجرة ، وقصر الشوك ، وقصر الزمرد ، وقصر النسيم ، وقصر الحريم ، وقصر البحر . وكانت كل هذه القصور تقع داخل سور القصر الكبير الشرقي ، ويقال لها القصور الزاهرة ويُسمى مجموعها القصر⁽⁴⁾ .

ولم تكن هذه القصور في مجموعها وليدة سنة واحدة أو من عمل خليفة واحد، بل ازداد عددها واتسعت مبانيها على مرّ السنين وبتوالي الخلفاء الفاطميين ، فقد بدأ جوهر بناء القصر الكبير في الليلة نفسها التي وُضِعَ فيها أساس مدينة

(1) نريمان عبد الكريم أحمد : مرجع سابق ، ص 155 ، 156 .

(2) النويري : مصدر سابق ، 178/28 .

(3) ابن سعيد : مصدر سابق ، ص 53 . كذلك النويري : مصدر سابق ، 192/28 .

(4) المقرئزي : الخطط ، 105/2 - 106 .

القاهرة (18 شعبان 358هـ/968م) ، واستمر في العمل فيه أربع سنوات حتى قبيل وصول الخليفة المعز سنة 362هـ/972م⁽¹⁾. ثم وَسَّع الخلفاء بعد ذلك والوزراء في هذا القصر ، وَعَدَّلُوا فيه حتىَّ إنه لَمَّا أُطْلِقَ على مجموعته اسم القصور الزاهرة ، كان يشمل بضعة مساكن منفصلة وعِدَّة غُرَف بُنِيَتْ في أوقات مختلفة⁽²⁾، قيل إن عددها حوالي أربعة آلاف غرفة⁽³⁾.

وكان القصر الفاطمي بمبانيه المتعددة يقع تقريباً في وسط القاهرة ، وهو طُلُقٌ من جميع الجهات ، فكل ما حوله فضاء ولا يتّصل به أيّ بناء . وكان يبدو من خارج المدينة كأنه جبل لكثرة ما فيه من الأبنية المرتفعة ، في حين أنه كان لا يُرى من داخلها لارتفاع أسواره ، وكان يجرسه في كل ليلة ألف رجل ، خمسمائة من الفرسان ومثلهم من المشاة ، يدورون حوله من وقت صلاة المغرب إلى الصباح ، وهم ينفحون الأبواق ويدقّون الطبول⁽⁴⁾.

وكان له تسعة أبواب ، أكبرها وأجملها باب الذهب ، ثم باب البحر ، وباب الريح ، وباب الزمرد ، وباب العيد ، وباب قصر الشوك ، وباب الديلم ، وباب تربة الزعفران ، وباب الزهومة⁽⁵⁾. وأنشئ فيه عدد من السرايب المحكّمة الصنعة⁽⁶⁾، لتسهيل انتقال الخلفاء من مكان إلى آخر دون أن يراهم أحد⁽⁷⁾. وكان

(1) سعاد محمد ماهر : القاهرة القديمة وأحيائها ، دار القلم (القاهرة ، 1962م) ص 22.

(2) لينبول ، ستانلي : سيرة القاهرة ، ترجمة حسن إبراهيم حسن وعلي إبراهيم حسن وادوارد حليم ، مكتبة النهضة المصرية ، ط2 (القاهرة ، بدون تاريخ) ص 126.

(3) سعاد محمد ماهر : القاهرة القديمة ، ص 30.

(4) ناصر خسرو : مصدر سابق ، ص 104.

(5) القلقشندي : مصدر سابق ، 3 / 350 . كذلك المقرئزي : مُسَوِّدَةُ الخطط ، ص 120 - 125.

(6) ناصر خسرو : مصدر سابق ، ص 105. كذلك المقرئزي : الخطط ، 2 / 112 .

(7) المقرئزي : الخطط ، 2 / 91 .

في كل بقعة من بقاعة فسقية (حوض) مملوءة بالماء خيفة حدوث حريق في الليل⁽¹⁾. وكانت تُعمُّه من جميع نواحيه بساتين لا نظير لها ، نُصِّبَتْ عليها الكثير من السواقي لِرِيِّهَا⁽²⁾.

ولم ينسَ الفاطميون مذهبهم في تصميم القصر ، فجعلوا جزءاً منه مُخصَّصاً للدعوة، وهو المكان المُسمَّى بـ" المُحوَّل " ، وهو يشبه ما نُسمِّيه اليوم بقاعة المحاضرات العامة ، حيث كان مجمعاً للخاصة ، وشيوخ الدولة ، وخدم القصر ، والطارئين على مصر ، وعامة الناس ، وفيه يُنظَّم العلماء والدعاة مجالس يُلقون فيها علوم آل البيت ، وهي المجالس التي عُرفت بمجالس الدعوة أو مجالس الحكمة التأويلية⁽³⁾.

ولحب الفاطميين للترف وحياة الرفاهية والبذخ ، ولشغفهم بالإكثار من كل شيءٍ نفيس ، فقد أنشأوا في قصرهم الكثير من الخزائن التي أُعدَّت لحفظ ما توجهه رسوم الملك وأُبهاء الخلافة ، وما تستدعيه لوازم البلاط من الأمتعة والفرش والثياب والزينة ، وما تحتاجه عساكرهم البرية والبحرية من السلاح والخيام والبنود والذخائر⁽⁴⁾. ومن هذا الخزائن : خزانة الكتب ، وخزانة البنود ، والكسوات ، والشراب ، والتوابل ، والسلاح ، والسروج ، والخيم ، والفرش والأمتعة ، وخزائن الجواهر والطيب ، وغيرها . وكان في كل خزانة من الخزائن عاملٌ بأجر يُخدمها ويُنظفها طوال السنة ، وبكل منها دِكَّةٌ عليها طرَّاحة مُعدَّة لجلوس الخليفة ، الذي

(1) المقريري : الخطط ، 112/2.

(2) ناصر خسرو : مصدر سابق ، ص106.

(3) محمد كامل حسين : في أدب مصر الفاطمية ، دار الفكر العربي (القاهرة ، 1950م) ص 26 - 27 .

(4) عطية مصطفى مشرفة : مرجع سابق ، ص 104.

كان يطوف عليهن من حينٍ إلى آخر⁽¹⁾. أمّا عن مقدار ما تحتويه هذه الخزائن ، فلا يمكن حصره ، ويكفي في ذلك قول ابن عبد الظاهر (م:سنة 692 هـ/ 1292م) : "وثحف القصر وذخائره كانت أعظم من أن تُحصيها أقلامٌ وتحملها دفاتر"⁽²⁾.

كما احتوى القصر على دواوين الحكومة ، التي إن كانت قد نُقلت في بعض الأوقات إلى منازل بعض الوزراء إلاّ أنّها كانت تُردُّ في النهاية إلى القصر⁽³⁾، ومن هذه الدواوين كانت تُدار جميع شؤون البلاد .

أمّا عن أحوال القصر من الداخل فكان على أمدع ما يكون ؛ حيث كان به حيطانٌ عليها طاقات عديدة من الكِلْس والجبس يُجَدِّدُ تبييضها كل سنة⁽⁴⁾. وكان به مُسطّحات مظلّلة بالأشجار والرياحين ، ودورٌ واسعة ، وقباب وأروقة حُلّيت جدرانها وسقوفها بالفسيفساء المذهّبة والرسوم الملّونة⁽⁵⁾. وكان فيه فناءٌ في وسطه نافورة يجري الماء الصافي منها في أنابيب من الذهب والفضة إلى أحواض وقنوات مرصوفة بالرخام ، وأرضيّة القصر أيضاً كانت مرصوفة بأنواع من الرخام مُتعدّد الألوان ، فيها تذهيب خارقٌ للعادة بنضارته وبهائه ، مُعطّاة بالبسط

(1) المقريري : الخطط ، 2 / 163.

(2) ابن عبد الظاهر : الروضة البهية ، ص 36 .

(3) المقريري : الخطط ، 2 / 137.

(4) ابن سعيد : مصدر سابق ، ص 24.

(5) عطية مصطفى مشرفة : مرجع سابق ، ص 97 .

والسجاجيد القيّمة النادرة المثال ، وسقوفه من ألواح تُزيّنُها الزخارف الذهبية الجميلة⁽¹⁾ ، وعلى نوافذه وأبوابه ستور من الحرير أو الديباج منسوجةً بالذهب⁽²⁾ .
وازدانت قاعاته وغرفه بالمناضد الثمينة والزهريات الخزفية ، والتربيعات المُرصّعة المذهّبة ، والفرش الفاخر والمتاع الثمين إلى غير ذلك من آيات الروعة والجمال ، التي جعلت من القصور الزاهرة مضرِباً للمثل في فخامة بنائها واتساعها وفي حسن بهائها ورونقها⁽³⁾ .

وأخيراً فإن القصر الفاطمي كان بمثابة مدينة صغيرة جميلة ذات زخارف فنيّة ، وفي الوقت نفسه متينة ومُحصّنة ، تحتوي على الكثير من القصور والأبنية والقاعات والخزائن والأفنية الداخلية والحدائق والطرقات المسقوفة والممرات السفلية ، فلا غرو أن بلغت مساحة هذا القصر حوالي سبعين فداناً^(*) من إجمالي مساحة القاهرة التي قُدّرت في أيام القائد جوهر بثلاثمائة وأربعين فداناً⁽⁴⁾ .

(1) زكي محمد حسن : مرجع سابق ، ص 74 (وهو جزء من ترجمة المؤلف لما نقله جستاف شلمبرجيه (Gustave shelumberger) إلى الفرنسية عن بعض ما كتبه غليوم رئيس أساقفه صور، لوصف زيارة رسولا الملك عمّوري (أمريك) للبلاط الفاطمي لغرض عقد محالفة مع الخليفة العاضد سنة 562هـ/1166م) .

(2) علي إبراهيم حسن : عظمة الفاطميين ، مجلة الكتاب ، ص 228.

(3) عطية مصطفى مشرفة : مرجع سابق ، ص 97.

(*) الفدان : مقدار من الأرض تختلف مساحته باختلافه البلاد العربية ، وهو في مصر يساوي (4200 متر مربع) = المعجم الوسيط : مرجع سابق ، ص 677 . أي إنّ حجم القصر الفاطمي يساوي $294 \times 4200 = 294000$ م² (294 كم²).

(4) علي مبارك : مرجع سابق ، 81/1 . كذلك سعد محمد ماهر : القاهرة القديمة ، ص 20.

ولقد ظلَّ القصر الكبير متراً للخلفاء الفاطميين من المعز لدين الله إلى آخر خلفائهم العاضد لدين الله⁽¹⁾، ولما استولى صلاح الدين عليه أخرج من كان فيه ، فكانوا " اثني عشر ألف نسمة ليس فيهم فحلُّ إلا الخليفة وأهله و أولاده"⁽²⁾. في حين يُقالُ كان به في أيام الخليفة المستنصر حوالي ثلاثون ألف آدمي⁽³⁾. وليس هذا بغريب ؛ إذ كان يُعجُّ دائماً - إلى جانب الخليفة وأهله وأقاربه وجواريه وعبده وخدمه - بالأمرء والعمال وموظفي الدواوين ، وطلبة العلم والزائرين وغيرهم الكثير .

2- مساكن الوزراء :

تَشَبَّه الوزراء الفاطميون بالخلفاء في عيشة الترف والأبهة ، فكانوا - بدورهم- يسكنون في قصور فخمة في غاية الأناقة والبذخ ، فالوزير يعقوب بن كلِّس كان يتزل في قصرٍ عظيم بالقاهرة ، يحتوي على الكثير من الأجنحة والقاعات والمجالس ، وكان فيه دواوين الدولة التي نقلها إليه فأصبح مركزاً للحكم ومصدراً للسلطات ، منها ديوانٌ للعزیز يختص على ما يبدو بشؤون الخليفة الخاصة، وديوانٌ للجيش ، وآخرٌ للأموال ، وللخراج وللسجلات والإنشاء ، وللمستغلات ، وجعل على هذه الدواوين رؤساء تحت تصرفهم العديد من الكتَّبة . كما جعل في قصره الخزائن المختلفة ، للكسوة والمال والدفاتر والأشربة ، وجعل على كلِّ منها ناظراً واتخذ فيه مجلساً خاصاً (مجلس الحكم) يُصَرِّف منه شؤون الدولة ، وينظر من خلاله على رقاع المرافعين والمتظلمين، ويخاطب الخصوم بنفسه

(1) القلقشندي : مصدر سابق ، 351/3 . كذلك المقرئزي : الخطط ، 106/2 .

(2) المقرئزي : الخطط ، 107/2 .

(3) ناصر خسرو : مصدر سابق ، ص 104 - 105 .

، كما رُتّب فيه الحُجّاب لكل فريق نوبة ، وجعل لهم زياً خاصاً من الديباج وقلدهم السيوف⁽¹⁾.

وكان القصر مليئاً دائماً بالكتاب والأطباء والعلماء والأدباء والشعراء والفقهاء والمتكلمين وأرباب الصنائع، فجعل ابن كلس لكل طائفة منهم مكاناً مُنفرداً خاصاً بها⁽²⁾. وأقام به مطابخ لنفسه ولجلسائه ، وأخرى لغلّمانه وحاشيته وأتباعه ، واتخذ فيه مسجداً للصلاة أتبعه بميضأة للطهور بثمانية بيوت تختص بمن يدخله من الغرباء⁽³⁾.

فلا شك في أنه كان عظيم الاتساع بما يحتويه من أماكن سُكنى الوزير وسكنى خاصته ، وأماكن إقامة غلمانه البالغ عددهم أربعة آلاف شخص ، غير الحُجّاب والكتّاب والحاشية والضيوف ، إلى جانب أماكن الدواوين وغيرها⁽⁴⁾. وكان ابن كلّس قد عمل على تحصينه ، فأحاطه بالدروب ووَزَّع عليه الحراس المدججين بالسلّاح والعدّة⁽⁵⁾.

وقد عُرف قصر ابن كلّس هذا بدار الوزارة⁽⁶⁾، واستمر بعد وفاته مكاناً لسكن الوزراء الذين خلفوه ، وظلّ الحال على ذلك إلى أن قدّم أمير الجيوش بدر الجمالي واستأثر بالحكم ، فانتقل إلى دارٍ أخرى أنشأها بجماعة برّجوان ، قيل لها

(1) المقريري : الخطط ، 378/2 . كذلك محمد حمدي المناوي : مرجع سابق ، ص 94-95 .

(2) المقريري : الخطط ، 379/2 .

(3) ابن خلّكان : مصدر سابق ، 29/7 .

(4) محمد حمدي المناوي : مرجع سابق ، ص 95 .

(5) ابن خلّكان : مصدر سابق ، 30/7 .

(6) المصدر نفسه ، 33/7 .

"دار المظفر"^(*)، وتحولت دار الوزارة القديمة إلى دار طراز يُنسج فيها الحرير ، وأصبحت تُعرف بدار الديباج⁽¹⁾.

ولما خلف الأفضل والده في الوزارة عمّر دار الوزارة -الجديدة - الكبرى ، التي كانت تُعرف قديماً بـ"دار القباب" وأحاطها بسورٍ من الحجارة ، وكانت مثل سابقتها كبيرة الحجم ، فقد اشتملت على بستانٍ كبير ، وعلى الكثير من القاعات والمسكن وغيرها من لوازم القصور ، وكان فيها مائة وعشرون مُقسماً للماء ، الذي يجري في بركها ومطابخها ونحو ذلك⁽²⁾.

ولم يكتفِ الأفضل بهذه الدار ، بل عمل على إنشاء دار أخرى في سنة 500هـ/1106م ، عُرفت بـ(دار الملك) على شاطئ النيل بالفسطاط⁽³⁾. ولما أتمّ عمارتها بعد عامٍ واحدٍ نقل إليها الدواوين من القصر الفاطمي، وتحوّل إليها من دار القباب التي بالقاهرة ، وأصبحت مكاناً لسكّناه⁽⁴⁾. وقد أكثر الشعراء من مدحه فيها، كان منها قصيدة لأبي الفضل بن أميّه المغربي، جاء من ضمنها :

دارٌ هيّ الفلكُ الأعلى ، وأنتَ بها شمسُ الضُّحى ، وبنوكُ الأنجمُ الزَّهر⁽⁵⁾
وكانت دار الملك مثلاً للأبهة والفخامة والجمال ، حيث جعل فيها الأفضل أماكن خاصة تُقام فيها الأسمطة في الأعياد ، واتخذ في أحد أبنائها مجلساً يجلس فيه

(*) نسبةً إلى جعفر بن بدر الجمالي ، أبي محمد المظفر ، أخي الوزير الأفضل ، المتوفى سنة 515 هـ /1121م = ابن عبد الظاهر : الروضة البهية ، ص 64.

(1) المقريري : الخطط ، 229/2 ، 287 ، 288.

(2) المصدر نفسه ، 229/2 ، 232 . كذلك جمال الدين الشّيبان : دراسات في التاريخ الإسلامي ، دار الثقافة (بيروت ، 1981م) ص 51.

(3) النويري : مصدر سابق ، 28 / 274.

(4) المقريري : الخطط ، 2/332.

(5) النويري : مصدر سابق ، 82/275.

للعطاء كانت تعقد فيه الجلسات ، ويُعطي فيه ديناراً لكل من يأتيه مُستجدياً⁽¹⁾. كما كان فيها العديد من الخزائن الممتلئة بالملابس والأقمشة والستور والفرش وغيرها⁽²⁾. أمّا مظاهر الترف في بنائها فقد تجلّى في مجلس الشراب ، الذي كان فيه ثمانية تماثيل لثمانٍ جوارٍ متقابلات ، منهن أربع بيض من كافور ، وأربع سود من عنبر ، مرتديات أفخر الثياب ومتزيّيات بأثمن الحلي ، وكان الأفضل إذا دخل من باب هذا المجلس نكّسن رؤوسهن إجلالاً ، فإذا ما أخذ مكانه في صدر المجلس استوين قائمات⁽³⁾، ويبدو أن حركاتهن تلك كانت عن طريق وسائل علمية هندسية مرتبطة بمكان دخوله إلى المجلس⁽⁴⁾. وأخيراً فإن دار الملك كان يُحيط بها من الخارج بستانٌ كبير يُعدُّ من أجمل المنتزهات في ذلك الوقت⁽⁵⁾.

ولما تُوفّي الأفضل أصبحت دار الملك - لجمال موقعها وفخامة بنائها ولحسن بهائها - أحد مُنتزهات الخلفاء الفاطميين⁽⁶⁾، في حين ظلّت دار الوزارة الكبرى بالقاهرة مقراً للوزراء الفاطميين الذين تلو الأفضل ، واستمرت على ذلك إلى آخر الدولة الفاطمية⁽⁷⁾. وإن كان الكثير من هؤلاء الوزراء - لتوفر أسباب الرفاهية والترف - لا يكتفون بدار الوزارة وحدها ، وكانوا كثيراً ما يتخذون بيوتاً أخرى خاصّةً يُعمّرونها على أبعى ما تكون في الشكل والتصميم والزخارف .

(1) المقريري : الخطط ، 332/2.

(2) ابن ميسر : مصدر سابق ، ص 82.

(3) المصدر نفسه ، ص 82 . كذلك النويري : مصدر سابق ، 283/28.

(4) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص 627.

(5) المقريري : الخطط ، 332/2.

(6) المصدر نفسه و الجزء والصفحة.

(7) المصدر نفسه ، 229/2.

فعلى سبيل المثال كان للوزير المأمون داره الخاصة التي عُرفت بالدار المأمونية⁽¹⁾، وكان للعباس بن باديس الصنهاجي دارٌ في حارة الأمراء بالقرب من باب الزهومة أحد أبواب القصر الكبير⁽²⁾، كذلك الوزير الصالح طلائع ابن رُزَيْك اتخذ له داراً يكفي لوصف بمائها وجمال صنعتها القصيدة التي قالها فيها الشاعر عمارة اليميني (م: سنة 569 هـ/1173م) مؤضِحاً عبرها إبداع نقوشها، وتعدّد ألوان رُحَامِهَا ، وأُبَّهة فرشها ، وروعة ستورها ، وجمال زخارفها المصوّرة التي أضحت لِدِقَّتِهَا كأنها حقيقة⁽³⁾.

3- مساكن رجال الدولة وكبار الموظفين :

كانت مساكن رجال الدولة الفاطمية وكبار الموظفين في مدينة القاهرة ، وكانت في غاية الجمال والأناقة ، والمتانة والمناعة ، فكانت مثل الحصون في قوة أبنيتها وارتفاعها ، فمعظمها يتألف من خمس طبقاتٍ أو ست مُحاطة بالأسوار ، وكانت تنفصل عن بعضها بعضاً " فلا تنمو أشجار بيتٍ على سور بيتٍ آخر ، ويستطيع كل مالك أن يعمل ما ينبغي لبيته في كل وقت من هدمٍ أو إصلاحٍ دون أن يضايق جاره"⁽⁴⁾، أو يزعجه .

وكانت هذه البيوت من النظافة والبهاء بحيث تجعلك تقول إنها بُنيت من الجواهر الثمينة لا من الجصّ والآجر والحجارة كما ذكر ناصر خسرو . وزيادةً في

(1) المقريري : الخطط ، 283/2.

(2) محمد حمدي المناوي : مرجع سابق ، ص 97 هامش (2) .

(3) عمارة اليميني ، أبو محمد عمارة بن أبي الحسن الحكّميّ : كتاب التُّكَّتِ العصريّة في أخبار الوزارة المصريّة، تحقيق هرتويغ درنبرغ ، مطبع مَرَسُو (شالون ، 1897م) ص 102- 103 (أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المُتَنَّى ببغداد).

(4) ناصر خسرو : مصدر سابق ، ص 106- 107.

التأنيق والرفاهية زرع أهلها فوق أسطحها الورود والأشجار ، فصارت كأنها مُنتزهات لهم ، وهذا عدا البساتين والحدائق التي كانت تُعمّ المدينة وتنتشر بينها⁽¹⁾ ، الأمر الذي جعل من مدينة القاهرة - في أوّل أمرها - مدينة حدائق⁽²⁾ .

أمّا عن الأزقة والشوارع بينها فكانت في منتهى النظافة والبهاء⁽³⁾ ، ولاسيّما في أيام الحاكم بأمر الله ، الذي صدرت أوامره بتعليق المصاييح ليلاً على جميع الحوانيت وأبواب البيوت والمحال المختلفة وفي جميع طُرقات القاهرة ، كما أمر بكنس الشوارع والأزقة وأمام البيوت ، وفي كل مكان، فكانت المدينة تبدو في هذه الفترات بالليل كأنها شعلة مُضيئة ، وتبدو في الوقت نفسه في ثوبٍ مشرق من النظافة والأناقة⁽⁴⁾ .

وكان التفصيل الداخلي للبيوت القاهرية في العصر الفاطمي غير بعيد عن البيوت العربية القديمة ؛ إذ يتوسطها الصحن (وسط البيت) ، الذي تحفّه من جميع جوانبه الإيوانات (أمكنة الجلوس) والقاعات والغرف ، وكان الفاطميون قد استعاضوا عن الصّحن المفتوح بصحن مُغلق أدمجوه في العمارة الداخلية للدار ، وجعلوا سقفه مرتفعاً كثيراً عن مستوى أسقف الإيوانات وباقي المتزل ، حتّى لا يشعر ساكنيه بالضيق من غلقه ، كما جعلوا أرضيته أوطى من مستوى أرضيات باقي المتزل بدرجة واحدة ، وهذه عادة كانت مُتبعة منذ أن كان الصحن مفتوحاً ؛ لغرض منع تسرب مياه الأمطار إلى أماكن الجلوس التي تُعطى بالسجاجيد ، وكذلك لتحديد المكان الذي يخلع المرء فيه نعليه عندما ينتقل من مكان المرور إلى

(1) ناصر خسرو : مصدر سابق ، ص 106-107 .

(2) آدم متز : مرجع سابق ، 274/2 .

(3) ابن رضوان : مصدر سابق ، ورقة 35 .

(4) المقرئبي : اتعاظ الحنفا ، 39/2 ، 48 ، 56 . كذلك محمد عبد الله عيّان : مرجع سابق ، ص 124 .

الجلوس ، أو من الخارج إلى الداخل. وفي وسط الصحن كانت توجد فسقية الماء التي لا غنى عن وجودها في البيوت في ذلك الوقت⁽¹⁾.

ولم يختلف رجال الدولة وأرباب الوظائف عن الخلفاء الفاطميين ووزرائهم ، في العناية ببيوتهم من الداخل والتأنق والبذخ في تجهيزها ، فكانت جدرانها مغطاة بألواح القاشاني المطلي أو بالمِلاط^(*) الكلسي الرُخامي المزِين بالزخارف الزاهية والنقوش العربية ، وكانت أرضها مفروشة بالفسيفساء أو البُسط الموشَّاة ، أمّا عن أثاثها فكان يُصنع من الخشب الثمين المرصَّع بالصدف أو العاج ، في حين كانت مُتكاآها ذات رِيَاشٍ مُزِينٍ في لُحْمَتِه بصور الحيوانات ، وكانت نمارقها (الوسائد الصغيرة) مكسوة بالنسائج الأرجوانية الرائعة⁽²⁾.

ولحياة البذخ والرفاهية التي كان يعيشها رجال الدولة ، فقد كان لأكثرهم إلى جانب هذه البيوت- التي يمتلكونها في القاهرة- بيوتاً أخرى في الفسطاط⁽³⁾ ، يبدو أنهم كانوا يستخدمونها للترفيه عن أنفسهم في أيام العطلات والإجازات ، ولاسيما أن الفسطاط اشتهرت بجمال منظر نيلها ، وبطيب هوائها ، وبنضارة طبيعتها، وبخضرة بساينها ومنتزهاتها على مرّ الأيام⁽⁴⁾.

(1) فتحي ، حسن : القاعة العربية في المنازل القاهرية تطورها وبعض الاستعمالات الجديدة لمبانيء تصميمها "مقالة وردت ضمن أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة مارس - أبريل 1969م" ، مطبعة دار الكتب (القاهرة ، 1970م) 387/1-391 .

(*) المِلاط : الطين الذي يُطلى به الحائط = الطاهر أحمد الزاوي : مرجع سابق ، ص 852.

(2) لويون ، غوستاف : حضارة العرب ، ترجمة عادل زُعَيْتِر ، دار إحياء الكتب العربية ، ط3 (القاهرة، 1956م) ص221.

(3) ابن سعيد : مصدر سابق ، ص 210 .

(4) ابن حوقل : مصدر سابق ، 146/1 .

4- مساكن العامة :

كان العامة في العصر الفاطمي - كما أسلفت الذكر - يُقيمون في مدينة الفسطاط ، وكانت بيوتهم متلاحمة متلاحقة مع بعضها بعضاً ، على نحو ما نراه الآن في الأحياء الوطنية (الشعبية) التي تَرْتَدُّ تاريخاً إلى زمن قدم⁽¹⁾. وذلك على العكس من قصور الوزراء ورجال الدولة وبيوتهم - في القاهرة - التي كانت تُباعَد ما بينها مساحات واسعة من حدائق وبساتين .

وكانت شوارع الفسطاط وأزقتها أقلّ نظافةً وبهاءً من شوارع القاهرة وأزقتها⁽²⁾، لأن من عادة أهلها أنهم يُلقون فيها كل ما يموت في دورهم من السنانير (القطط) والكلاب ونحو ذلك من الحيوانات الأليفة وغيرها من الأوساخ ، الأمر الذي يؤدي إلى تراكمها وتعفّنها مع مرور الأيام . كما كانت ضيقة ومُلتوية⁽³⁾، وهذه سمة معظم المدن الإسلامية في ذلك الوقت ، التي لم يُراعَ في تخطيطها تلك السعة التي تتطلبها - الآن - ضرورات صحية ، ولم يُراعَ فيها ذلك التعامد من التقاطع ، الذي تمتاز به شوارع الدنيا اليوم في تصميم المدن الحديثة⁽⁴⁾.

وقد اشتهرت منازل الفسطاط بارتفاعها ، أي بتعدد طوابقها لدرجة أن المدينة كانت تبدو كجبلٍ حين يُنظر إليها من بعيد ، فالبيوت فيها تتكون من خمسة طوابق ومن ستة ومن سبعة⁽⁵⁾، ومن ثمانية⁽⁶⁾، وقد تصل - في بعض

(1) حسن ، محمد عبد الغني : ملاح من المجتمع العربي ، دار المعارف (القاهرة ، 1951م) ص 76-77 .

(2) المقريري : الخطط ، 63/2 .

(3) ابن رضوان : مصدر سابق ، ورقة 33 .

(4) محمد عبد الغني حسن : مرجع سابق ، ص 77 .

(5) ابن حوقل : مصدر سابق ، 146/1 .

(6) الأصبخري : مصدر سابق ، ص 39 .

الأحيان- إلى أربعة عشر طابقاً⁽¹⁾، مزدحمة بالسكان . وكان لارتفاع البيوت هذا أثره في أن كان هناك الكثير من الأسواق والشوارع التي لا يصل إليها ضوء الشمس ، فكانت تُضاء بالفناديل دائماً وعلى مدار اليوم لإنارتها⁽²⁾. كما سبب الارتفاع مشكلة كبيرة للسكان في كيفية إيصال أشيائهم ولوازمهم اليومية إلى دورهم ، ولاسيما الماء ، فكان أن وُجدَ حَمَّالون اختصُّوا بذلك يحملون الماء في الروايا كل طابقٍ بنصف دانق⁽³⁾. وقد ذكر ناصر خسرو طريقة ظريفة استخدمها أحد العامة في الفسطاط لإيصال الماء إلى حديقة له كانت على سطح دار من سبعة طوابق ، حيث أصدع إلى هذا السطح عجلًا صغيراً قام بتربيته إلى أن كَبُرَ وأصبح ثوراً، ونصَّب على السطح ساقية ، فكان الثور يُديرها ويرفع الماء إلى الحديقة من البئر وهكذا⁽⁴⁾.

وكانت بيوت الفسطاط مبنية بالحجر والآجر ، في حين أنها مُقسَّمة من الداخل بالطوب الأحمر المكسو بالملاط ، وكان تفصيلها بسيطاً جداً ، كل طابق على حدى يتكوّن من فناء مستطيل الشكل تُحيط به الغرف ، وفي وسطه فسقية الماء، وفي إحدى جوانبه أحواضٌ تُزرعُ فيها الأزهار والرياحين . وكان لهذه البيوت نوافذ⁽⁵⁾، وكذلك طاقات تطلُّ على الشارع، وفي عصر الخليفة الحاكم ،

(1) ناصر خسرو : مصدر سابق ، ص 116.

(2) المصدر نفسه ، ص 117.

(3) المقدسي : مصدر سابق ، ص 207. والدَّانِقُ : لفظٌ مُعَرَّبٌ مأخوذ عن اليونانية ، ومقداره سدس درهم وهو عند الحنفية يساوي 3.125 ÷ 6 = 0.521 جراماً . وعند الجمهور يساوي 2.975 ÷ 6 = 0.496 جراماً = علي جمعة محمد : مرجع سابق ، ص 24 .

(4) ناصر خسرو : مصدر سابق ، ص 116.

(5) محرز ، جمال : منازل الفسطاط كما تكشف عنها حفائر الفسطاط "مقالة وردت ضمن أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة مارس - أبريل 1969م" ، مطبعة دار الكتب (القاهرة ، 1970م) 328/1 - 329 .

وفي أثناء قراراته الصارمة ضدّ النساء أُغلقت جميع هذه الطاقات لمنعهن من النظر إلى الشارع⁽¹⁾. وكانت أكثر الطوابق السفلية (الأرضية) لهذه البيوت غير مسكونة⁽²⁾. ويبدو أنّها كانت مُخصّصة للخدمات الصحية لها من أحواض للمياه وقنوات لصرف الفضلات الإنسانية إلى غير ذلك .

وإلى جانب البيوت المرتفعة - من عدّة طوابق - كانت هناك بيوتٌ أخرى منخفضة، يُستدلّ على ذلك من حديثٍ للمقريري عن أيام الشدة العظمى ، وما حدث فيها للناس بقوله : "وكان بمصر - أي الفسطاط - طوائف من أهل الفساد ، قد سكنوا بيوتاً قصيرة السقوف قريبة ممّن يسعى في الطرقات ، فأعدوا سلباً وخطّاطيف ؛ فإذا مرّ بهم أحد شالوه في أقرب وقت ، ثم ضربوه بالأخشاب وشرّحوا لحمه وأكلوه"⁽³⁾.

وقد أثبت وجود هذا النوع من البيوت - ذات الطابق الواحد - في الفسطاط أعمال التنقيب التي جرت في موقع المدينة - سابقاً - والتي قام بها كلٌّ من : علي بهجت وألبير جبريل سنة 1912م ، واستمرت إلى سنة 1920م ، قامت بالكشف عن جزء من هذه المدينة ، ظهر بها عدد من المنازل احتفظت بتخطيطها إلى الآن ، وكانت جميعها مُشيّدة بالآجر ، حسنة البناء مُزوّدة بالمرافق الصحية والمياه الجارية ، وكانت على تشابه كبير في التخطيط ، مع ما قد يوجد من فوارق بسيطة فيما بينها⁽⁴⁾.

(1) ابن سعيد : مصدر سابق ، ص 64.

(2) الأبطحري : مصدر سابق ، ص 39 . كذلك ابن حوقل : مصدر سابق ، 146/1. جمال محرز : مرجع سابق ، 328/1 ، 330 .

(3) المقريري : اتعاط الحنفا ، 297/2 .

(4) جمال محرز : مرجع سابق ، 326/1 - 327 .

ويبدو أن امتلاك البيوت في العصر الفاطمي لم يكن مُتاحاً لكل أُسر العامة، فقد ذكر ناصر خسرو : أنه سمع من تاجر ثقة أنه يوجد بالفسطاط بيوت كثيرة فيها حجرات للإيجار مساحتها ثلاثون ذراعاً في ثلاثين وتَسَعُ ثلاثمائة وخمسين شخصاً⁽¹⁾. كما أورد في مكانٍ آخر أنه سمع أن للخليفة الفاطمي ثمانية آلاف بيتٍ في القاهرة والفسطاط ، تُؤَجَّرُ للناس برغبتهم ويُحَصَّلُ أجرُها كل شهر فلا يُجَبَّرُ أحدٌ على شيء⁽²⁾.

هذا عن سُكَّان مدينة الفسطاط ، أما الفلاحون الذين يقطنون في الأطراف وكذلك القُرى ، فكانت أغلب مساكنهم من طابقٍ واحد ، مُشَيَّدة بالطوب ومسقوفة بالخشب . وكانت أبواها في أغلب الأحيان من أشجار النخيل والجُمَّيز^(*) ممَّا هو مزروع بالقرية. ويبدو أنَّها كانت رحبة واسعة ؛ لأنهم كانوا يستغلونها في وضع مواشيتهم ، وكذلك بذورهم ومحصولاتهم التي كانوا يختزنون منها ما يكفيهم حتى دخول العلة الجديدة اللازمة لغذائهم وغذاء مواشيتهم⁽³⁾. وكان هؤلاء الفلاحون إذا نقص النيل وحلَّ الجفاف في قُراهم يرتحل الكثيرون منهم عن بيوتهم ويذهبون إلى الفسطاط ، وذلك طلباً للرزق أو ما شابه ذلك⁽⁴⁾.

(1) ناصر خسرو : مصدر سابق ، ص 117.

(2) المصدر نفسه ، ص 104.

(*) الجُمَّيزُ : شجرة شبيهة بشجرة التين، وورقها شبيهة بورق التوت، تُثمر ثلاث مرات أو أربع في السنة ، ولا يخرج ثمرها من فروع الأغصان كما تخرجه شجرة التين بل من سوقها ، وثمرها شبيهة بالتين البرِّي ، وهو حلو المذاق = ابن البيطار ، ضياء الدين عبد الله بن أحمد : الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ، مكتبة المُتَنَّى (بغداد ، بدون تاريخ) 166/2.

(3) محمد محمود إدريس : مرجع سابق ، ص 279 .

(4) الكندي : فضائل مصر ، تحقيق إبراهيم أحمد العدوي و علي محمد عمر ، دار الفكر (بيروت ، 1971م) ص 51 . كذلك المقرئزي : الخطط ، 694/1 .

المبحث الثاني : وسائل اللهو والتسلية

1- الذهاب إلى المنتزهات :

شغف الخلفاء الفاطميون بالذهاب إلى المنتزهات للترويح عن أنفسهم ، وقضاء جزء من أوقاتهم في الاستراحة واللهو ، وكانوا عادةً ما يخرجون كل يوم سبت وثلاثاء إلى أماكن بعينها مُعدّة لهذا الغرض⁽¹⁾ . وكانت المناظر من أماكن نزهتهم ، وهي كثيرة مُتوزّعة فيما بين القاهرة والفسطاط وجزيرة الروضة والقرافة ، ومن أهمها في القاهرة منظرّة الأزهر ، ومنظرّة اللؤلؤة ، والدكّة ، والخمس وجوه ، وباب الفتوح ، وبالفسطاط منظرّة الصناعة ومنازل العز ، ودار الملك ، وبالروضة منظرّة الهودج ، وبالقرافة منظرّة بركة الحبش ، والأندلس ، وهناك أيضاً قبة الهواء والسكرّة ، وغيرها كثير⁽²⁾ .

وإلى جانب المناظر كان هناك قصر الورد الذي يقع بناحية الخاقانية ، وهي قرية من قرى قليوب من أملاك الفاطميين ، بها جنان كثيرة وعدّة دُويرات يُزرع فيها الورد . وكان الخليفة الفاطمي يذهب إليها للترفيه ، فيصنّع له فيها قصرٌ عظيم من الورد ، ويخدم بضيافةٍ عظيمة ، وكانت من أعظم مُنتزهات الخلفاء الفاطميين⁽³⁾ .

هذا بالإضافة إلى الكثير من البساتين التي يخرجون إليها ، منها على سبيل المثال : البساتين الجيوشية ، وهي عبارة عن بستانين كبيرين يمتد أحدهما من باب

(1) المقريري : الخطط ، 361/2 .

(2) المصدر نفسه ، 290/2 .

(3) المصدر نفسه ، 344/2 .

الفتوح إلى المطرية ، والآخر من باب القنطرة إلى الخندق . وقد نال هذا البستان اهتمام الأفضل بن بدر الجمالي ، فأحاطه بسور كبير ، وحفر به بركة كبيرة ، وبنى في وسطه منظره ، وزرع فيه الكثير من الأشجار ، وعمّر فيه أبراجاً وضع فيها الطيور المغردة ، وسرّح فيه الطواويس . وقد بلغت ضخامة هذا البستان وحضرته أن بيع من ثماره وزهوره في سنة 524هـ/1129م ، نيفٌ وثلاثون ألف دينار ، وبلغ عدد الأشجار التي كانت تحيط بسوره سبع عشرة ألفاً ومائتي شجرة . وقد ظلّ موضع نزهة الخلفاء والوزراء الفاطميين واهتمامهم إلى أيام الحافظ لدين الله ، حيث أهمل⁽¹⁾ .

كما أقبل العامة - أيضاً- على الترفيه والتسلية بالذهاب إلى المنتزهات ، ولاسيما في أيام فيضان النيل ، حيث تكون أرض مصر خلالها على أجمل ما يكون ، بما في ذلك منتزهاتها المشهورة ودياراتها المطروقة ، كالجزيرة والجيزة وبركة الحبش وما جرى مجراها من المواضع التي يطرقها أهل الخلاعة والقصف ، ويتناوبها ذوو الآداب والظرف⁽²⁾ .

2- مجالس الغناء والطرب :

كثّر الاهتمام بالغناء والموسيقى في العصر الفاطمي بمصر ، فأقبل وجوه القوم في مجالسهم الخاصة ومآذهم على سماع المغنين والمغنيات⁽³⁾ ، فكان برّجوان - على سبيل المثال - كثير الطرب شغوفاً به ، يجمع المغنين من الرجال والنساء بداره فيكون معهم كأحدهم ، فينفقُ ليله وجزءاً كبيراً من ثماره في هذه المجالس ، لدرجة

(1) ابن عبد الظاهر : الروضة البهية ، ص 139-140 . كذلك حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص 636 .

(2) أبو الصلت الأندلسي : مصدر سابق ، ص 20 .

(3) محمد جمال الدين سرور : مرجع سابق ، ص 172 .

أن شغلته عن وظائف رتبته ، فَقَصَّرَ فيها⁽¹⁾. وكذلك الوزير اليازوري أقام في قصره مكاناً لتعليم الجوّاري الغناء والموسيقى ، وأسند هذه المهمة إلى أكبر المُلحِّنين في ذلك الوقت ، وهو أبو الحسن بن الطَّحَّان ، الذي برع في حرفته بحيث أصبح أعظم مُلحِّن الدولة الفاطمية في عصر الخليفة المستنصر⁽²⁾.

كما أقبل بعض الخلفاء الفاطميين على هذه المجالس ، فكان الخليفة العزيز يملك الكثير من المغنيات في قصره ، وكان يقضي أوقات فراغه يستمع إلى الموسيقى ويشاهد الرقص ، وعندما تنتهي مجالسه يغدق على المغنين والمغنيات الهدايا القيمة من المال والجواهر⁽³⁾. كذلك الخليفة الظاهر كان شغوفاً باللَّهو مُحبّاً للغناء ، فتأتق الناس في أيامه وأتخذوا المغنيات والراقصات ، وبلغوا من ذلك مبلغاً عظيماً⁽⁴⁾. ولم يختلف الخليفة المستنصر عنهم ، فكان كثير الخروج إلى القصور التي بعين شمس ومعه الجوّاري والقيان المغنيات، فيقيم مجالس الطرب التي ترتفع فيها أصوات الغناء⁽⁵⁾.

وكان إلى جانب الجوّاري المغنيات المحلِّيات ، جوارٍ أُخريات يُجلبن من خارج مصر للغناء فيها ، فيُحكى أنه اشترت من بغداد جارية رائعة الحسن عذبة الصوت للأمير تميم بن المعز لدين الله (337-375هـ / 948-985م) ، فَعَنَّتْ له وجلسائه إلى أن أطربته ، ولم يزل غناؤها يزيد طرباً حتى قال لها : تَمَنِّي ما شئت فَلَكَ مُنَاكِ ، فقالت : أَمَتِّي عافية الأمير وبقائه ، فأعاد عليها ، فتمنَّت أن تُعَنِّي ما

(1) المقرئبي : الخطط ، 374/2 . كذلك المقرئبي : اتعاظ الحنفا ، 62/2 .

(2) ابن سعيد : مصدر سابق ، ص 315-316 .

(3) ابن الرُّبَيْر : مصدر سابق ، ص 14 .

(4) المقرئبي : الخطط ، 41/2 .

(5) ابن ظافر : مصدر سابق ، 223/1 . كذلك النويري : مصدر سابق ، 241/28 .

غَنَّتُهُ ببغداد ، فلم يجد الأمير بُدًّا من الوفاء لها - وهو كارَةٌ لذلك - فأرسلها إلى بغداد ، ولَمَّا قاربتُها أفلتت من الذين أرسلت معهم ، فلَمَّا عَلِمَ بذلك الأمير تميم اغتَمَّ وظلَّ طويلاً ذاكراً لها واجماً عليها⁽¹⁾.

ولم يقلَّ العامة عن الخاصة حُبًّا للغناء والطرب ، فكان الكثيرون منهم يتردّدون على الدور المُخصَّصة لإعداد مجالسها ، ومن أشهرها في عصر الخليفة الظاهر دار المُخَنَّث البغدادي (م: سنة 415هـ / 1024م) ، الذي كان يتقن العزف بالمزمار ويبدع فيه ، وكان عنده الكثير من الجوّاري المغنيات⁽²⁾.

كما كان العامة ينتهزون فرصة المواسم والأعياد للتمتع بالغناء والرقص ، ولاسيّما أعياد النصارى ؛ كالغِطَّاس والميلاد والشَّعَّانين وغيرها ، فكانوا خلالها يخرجون إلى بركة الحبش ، وإلى شاطئ النيل ومعهم القيان والجوّاري ، فينصبون الخيام والقباب ، ويتمتّعون بإقامة الحفلات الغنائية⁽³⁾. ولَمَّا كَثُرَتْ هذه المجالس في عصر الخليفة الحاكم ، وتجلّى الانحلال الاجتماعي فيها ، صدرت أوامره تَبَاعاً بمنع تجمعاتها التي تُعقد بالجزيرة والجزيرة والقرافة ، وأن يُمنعُ الغناء ظاهراً أو التشهير بشيءٍ منه ، كما نُهي عن بيع المغنيات وعن تجمّع الناس بالصحراء⁽⁴⁾، وأمر بكسر سائر الملاهي وآلات الموسيقى وحرقيها ، فأُحرقت ، ووصلت به محاربتة لهذه المجالس أن أمر بنفي سائر المغنين وطردهم من البلاد ، بيد أنهم اجتمعوا وطلبوا

(1) ابن الجوزي ، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية (حيدر آباد الدكن ، 1357هـ) 94/5-95 .

(2) المسيحي : مصدر سابق ، 104/1 .

(3) ابن الأثير : مصدر سابق ، 297/1 .

(4) المسيحي : مصدر سابق ، 14/1-15 . كذلك اتعاط الحنفا ، 87/2 . عبدالوهاب ، حسن : مكافحة المنكرات في تاريخ مصر ، مجلة لواء الإسلام ، العدد الخامس للسنة الأولى (القاهرة ، 1947م) ص 70 .

عفوه، فتركهم بعد أن تعهدوا له أن لا يعودوا إلى مهنتهم ، وأن لا يتعرضوا إلى شيءٍ منها⁽¹⁾.

3- الصيد والقنص :

كان الصيد والقنص من وسائل لهُو الخلفاء وكبار رجال الدولة وتسليتهم ، فمن المعروف أن خروج الأمراء والخلفاء المسلمين للصيد كان مظهرًا من مظاهر الملك وأبتهته⁽²⁾. ومن الخلفاء الفاطميين الذين اشتهروا بحب الصيد وممارسته الخليفة العزيز بالله⁽³⁾، فكان كثيراً ما يُنظَّم رحلاته التي يستخدم فيها الخيل والجراح من الطير، وكان قد اشتهر بصيد السباع ، ففي سنة 383هـ / 993م خرج للجيزة لصيد سبع فعاد وهو بين يديه على بغل⁽⁴⁾، وفي رحلاتٍ أخرى كان يرجع بالأبقار والغزلان والطيور وغيرها من وحوش البرية⁽⁵⁾. ولمهارته في الصيد وشغفه به اخترع طُرُقًا جديدة فيه لم تكن معروفة من قبل لا في المغرب ولا في المشرق⁽⁶⁾، فَحُقَّ له بذلك أن يُسمَّى بـ" الخليفة الصيِّاد"⁽⁷⁾.

(1) الأنطاكي : مصدر سابق ، ص 289، 293 .

(2) عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة ، ص 146 .

(3) القُضاعي : مصدر سابق ، ص 570 . كذلك ابن تغري بردي : مصدر سابق ، 117/4 .

(4) المقريري : اتعاظ الحنفا ، 277/1، 292 .

(5) بازيار العزيز بالله الفاطمي ، أبو عبد الله الحسن بن الحسين (ظنًا) : البَيْرَزَة ، نظر فيه وعلّق عليه محمد

كرد علي ، دار صادر ، ط2 (بيروت، 1995م) ص 101 ، 111-112 ، 149 .

(6) المصدر نفسه ، ص 111 .

(7) المصدر نفسه ، ص 7 (من مقدمة المحقق) .

كذلك من الخلفاء الفاطميين الذين أقبلوا على الصيد ودأبوا على تنظيم رحلاته ، الخليفة الحاكم بأمر الله ، والظاهر⁽¹⁾ ، والحافظ⁽²⁾ ، والأمر بأحكام الله ، الذي كان إذا خرج للصيد نَزَلَ في دَيْرٍ نَهْيًا بالقرب من الجيزة ، حيث أنشأ فيه منظره عالية ، وكان يُعطي لرهبانه - الذين يُضَيِّفونه - في كل ركبةٍ للصيد ألف درهم. كما كان يزاول الصيد- أيضاً - في دَيْرِ الْقُصَيْرِ الذي يطل على النيل ، فكانت له منظره هناك تجاور كنيسة ماري سابا يحضر إليها أوقات صيد الوحوش⁽³⁾.

ولم تقتصر ممارسة الصيد على الخاصة، بل كان هناك كثيرٌ من العامة يزاولونه وإن اختلفت أغراضهم عن الخاصة . فإن كان الصيد يُمارس من الخلفاء والوزراء والأمراء لغرض التسلية واللهو ، ولغرض الرياضة والحركة ، فإنه يُمثّل للكثير من العامة مهنة تُزاول للعيش والتكسُّب . فقد ذكر صاحب كتاب البيزرة - الذي كان مُعاصراً للخليفة العزيز بالله - أنه : " لا يَكادُ يُحبُّ الصيد ويؤثره إلا رجلاً متبايناً في الحال... إما ملك ذو ثروة ، أو زاهدٌ ذو قناعة [فالمملوك يبتغون من الصيد] حُب الغلبة والظفر وموقع ذلك من نفوسهم ، أو للطرب واللذة والابتهاج [وأماً] الفقير الزاهد لِظَلْفِ نفسه عن دنيّ المكاسب ، ورغبتها عن مصرع المطالب ، وحقنه ماء وجهه عن غضاضة المهن وتقاضي أجره العمل ؛ فمن

(1) المقريري : اتعاط الحنفا ، 2 / 31 ، 165 .

(2) ابن مُنقذ : مصدر سابق ، ص 203-204 .

(3) عَوَّاد ، كوركيس : ذيل كتاب الدِّيَّارات "جاء ملحق لكتاب الدِّيَّارات للشابشتي" ، مكتبة المثنى ، ط2

(بغداد ، 1966م) ص 401 ، 408 .

هذه الطبقة من يقتات من صيده ما يكفيه، ويتصدّق بما يفضل عنه... ومنهم من يبيع ما فضل عن قوته ويعود ثمنه في سائر مصلحته"⁽¹⁾.

ومما يدلّ على انتشار الصيد في العصر الفاطمي بمصر ، ما وُجِدَ من صُورٍ ونقوشٍ مُسجَّلة على الكثير من القطع الخشبية - ترجع إلى هذا العصر - وهي موجودة في دار الآثار العربية، ومتحف فكتوريا ، وألبرت، ولندن ، حيث تُصوّر هذه الرسوم الطقوس الخاصة بالصيد ، ففي إحدى الألواح منظر أمير يصيد بالباز^(*)، وآخر يصيد أسداً وهو يمتطي فرسه ، وفي بعض المناظر مجموعة تستخدم الطيور الجارحة في صيد الأسود والغزلان والبط⁽²⁾.

4- خيال الظل والتمثيليّات الهزلية :

خيال الظلّ أو ظل الخيال أو طيف الخيال ؛ نوعٌ من التسلية عُرفت في مصر كان يستمتع بها الكبار والصغار ، منشؤها غير واضح وربما يكون أصلها هندياً ، وإن كان أوّل من نشرها الفاطميون ، ومن بعدهم انتشرت انتشاراً كبيراً ولاسيّما على يد المماليك والعثمانيين ، حيث بلغت أوجّها في القاهرة ، وكان أساسها التمثيليّات أو تقليد الناس⁽³⁾.

فهي شبيهة بما يُسمّى في العصر الحديث بـ (قره كوز) أو (كركوز) ، وطريقتها أن يُصوّر بعض الأشخاص والحيوانات على تماثيل من الجلد أو الورق المقوّى ، وتُنصب ستارة تُلعبُ من ورائها هذه التماثيل ، وفي الوقت نفسه يسرد

(1) بازيار العزيز : مصدر سابق ، ص 19 .

(*) الباز أو البازي : جنسٌ من الصقور الصغيرة أو المتوسطة الحجم ، تميل أجنحتها إلى القصر ، وتميل أرجلها وأذناها إلى الطول ، ومن أنواعه : الباشق والبيدق = المعجم الوسيط : مصدر سابق ، ص 55 .

(2) زكي محمد حسن : مرجع سابق ، ص 213 - 214.

(3) عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة ، ص 150.

أو يَقصُّ مُلْعِبَهَا على المتفرجين أقاصيص وخرافات ويُقلِّد حركات بعض الناس من خاصة وسوقة⁽¹⁾. وكان العرض عادةً يَتَمُّ بالمساء ، فيجلس الجمهور أمام الستارة وقد أُطفئت الأنوار ، وعندما يبدأ اللعب تُضاء الأنوار الداخلية خلف الشخصوص والستارة⁽²⁾.

وكان يوجد في القصر الفاطمي مكان يُسمَّى "مجلس اللعبة" يجلس فيه الخليفة⁽³⁾، يبدو أنه كان مخصَّصاً لهذه التسلية . وفي أواخر الدولة الفاطمية دعا صلاح الدين - عندما كان لا يزال وزيراً للخليفة العاضد - القاضي الفاضل^(*) للفرجة معه على خيال الظل داخل القصر ، ولما انتهى العرض سأله صلاح الدين عن رأيه فيه ، فقال : "موعظة عظيمة ، رأيت دولا تمضي ما كأنها كانت ودولاً تأتي"⁽⁴⁾. وقوله هذا إن دلَّ على شيءٍ فإنما يدلُّ على أن مسرحيات خيال الظل لم تكن مقتصرة في عروضها على الموضوعات الهزلية والمواقف الفكاهية لتسلية الحضور فحسب ، بل كانت تُقدِّم موضوعاتٍ فيها عبرة وموعظة ، حتَّى إنها حازت إعجاب أديب عصره القاضي الفاضل⁽⁵⁾.

(1) طلس ، محمد أسعد : الحياة الاجتماعية في القرنين الثالث والرابع مجاليها ومباهجها ومفاسدها وما ألف في ذلك من آثار ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، الجزء الثاني (بغداد ، 1951م) المجلد الثاني ، ص 283 .

(2) عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة ، ص150.

(3) المقرئزي : الخطط ، 283/2 .

(*) أبو علي عبد الرحيم بن علي بن الحسن اللخمي ، المعروف بالقاضي الفاضل ، وُلِدَ في عسقلان سنة 529 هـ / 1134م ، انتقل إلى الإسكندرية ومنها إلى القاهرة ، كان موظفاً في ديوان الإنشاء ، ولما تولَّى السلطان صلاح الدين أمر مصر ترقَّى عنده إلى أن تولَّى الوزارة = ابن خلكان : مصدر سابق ، 158/3 ، 161-162 .

(4) الغزولي : مصدر سابق ، 94/1 .

(5) نجوى كبيرة : مرجع سابق ، ص 331 .

ومن المرجح أن خيال الظل ظلّ حبيساً فترة في القصور الفاطمية لمتعة الخلفاء والوزراء وخواصهم وتسليتهم ، ثم خرج بعد ذلك إلى عامة الناس ليساهم في الترويج للدعوة الفاطمية الشيعية⁽¹⁾.

وبالإضافة إلى خيال الظل انتشرت السّماعات بين الناس في العصر الفاطمي⁽²⁾، وهي تُشبه ما يُعرف بالتمثيل الهزلي ، حيث يُحاكي (يُقلد) أصحابها حركات بعض الناس ويُمثلونهم في أصواتهم ويظهرون في مظاهر مضحكة إيناساً للناس⁽³⁾. وكانت أكثر ما تُقام في الأعياد والمناسبات ، ففيها يطوفُ أصحابها بالأسواق والشوارع ، فيزدحم عليهم العامة للتفرج والضحك⁽⁴⁾.

5- الشطرنج والتّرد :

أقبل أهالي مصر في العصر الفاطمي بشكلٍ كبيرٍ على الألعاب الذهنية للتسلية ، ومن أشهرها الشطرنج، وهي لعبة معروفة من أصلٍ هندي⁽⁵⁾، أخذها العرب عن الفرس ، وتعتمد على إعمال الفكر ورياضة الذهن ، فهي بعيدة كل البعد عن الحظ، فيعتمد مُمارسُها على محض تفكيره وحسن تدبيره⁽⁶⁾.

(1) نجوى كبيرة : مرجع سابق ، ص 331 .

(2) المسيحي : مصدر سابق ، 42/1 . كذلك المقرئزي : اتعاط الحنفا ، 146/2 .

(3) الشّابُشتي ، أبو الحسن علي بن محمد : الدِّيَّارات ، تحقيق كوركيس عوّاد ، مكتبة المثنى ، ط2 (بغداد ، 1966م) ص39 ، هامش (37) .

(4) المسيحي : مصدر سابق ، 42/1 . كذلك المقرئزي : اتعاط الحنفا ، 146/2 .

(5) المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي: مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق سعيد محمد اللّحّام ، دار الفكر (بيروت ، 2005م) ، 92/1 .

(6) فائق ، حسن توفيق : الشطرنج ، مجلة الكتاب ، العدد الخامس للسنة الثالثة (القاهرة ، 1948م) المجلد الثامن ، ص34 - 35 .

وقد انتشرت هذه اللعبة بين الخاصة والعامة على السواء ، فأحبها الخلفاء والوزراء والمترفون ، في حين أدمن عليها العامة ، ثمّ كان سبباً في محاربة الخليفة الحاكم لها ؛ فصدرت أوامره بعقاب من يمارسها وبحرق رقاعها أينما وُجِدَتْ ، وتشدّد في ذلك سنة 402 هـ / 1011م، فَجُمِعَتْ من أماكن مُتعدّدة وأُحرقت⁽¹⁾، وفي السنة التي تليها قُبِضَ على جماعة يلعبونها فَعُوِقُوا بالضرب والسجن⁽²⁾.

وإلى جانب الشطرنج عُرفت لعبة النرد ، وهي من أصل هندي أيضاً ، اخترعت قبل اختراع الشطرنج ، وتُلعب على رقعة بها اثنا عشر متراً بثلاثين حجراً وفَصِيْن⁽³⁾. وكانت تدور على الصدفة والحظ، فكانت دائماً ما تُثير طبع لاعبيها نظراً لتحكم الفَصِيْن في تحديد اللعبة ، فاعتبرت بذلك ذات نتيجة سلبية في شحذ الذهن ، وكأثما جُعِلَتْ مثلاً للمكاسب التي لا تنال بالكياسة والحيل⁽⁴⁾.

وكعادة الفاطميين في صبغ كل شيء بصبغتهم المترفة وإظهاره بمظاهر الفخامة والأبهة ، فقد كانت قطع الشطرنج والنرد التي يلعبون بها مصنوعة من الجواهر والأحجار الكريمة ، ومن الذهب والفضة والعاج والأبنوس ، على رقاع من الحرير المذهّب وغيره⁽⁵⁾. في حين كانت تُصنع لعامة الناس من الخشب المُطعم أحياناً بالأبنوس أو العاج أو الصدف ، بزخارف هندسية محفورة⁽⁶⁾.

(1) المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، 90/2 . كذلك المقرئزي : الخطط ، 387/3 .

(2) المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، 94/2 . كذلك المقرئزي : الخطط ، 248/3 .

(3) المسعودي : مصدر سابق ، 91/1 ، 92 .

(4) سعد ، فهمي : العامّة في بغداد في القرنين الثالث والرابع للهجرة (دراسة في التاريخ الاجتماعي) ، دار المنتخب العربي (بيروت ، 1993م) ص 391-392 .

(5) المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، 289/2 .

(6) زكي محمد حسن : مرجع سابق ، ص 225 . كذلك نجوى كيرة : مرجع سابق ، ص 327 .

6- الألعاب الرياضيّة (البدنية) والبهلوانية :

من أشهر الألعاب الرياضية التي أقبل عليها الخلفاء الفاطميون وكبار رجال الدولة ، لعبة الكرة والصولجان ، وهي فارسية الأصل عرفها العرب في جاهليتهم ، واعتنى بها الأمراء بعض الشيء في أيام بني أمية ، وازدادت عنايتهم بها أيام بني العباس ، ولاسيما في عصر الخليفة هارون الرشيد (170 - 193هـ / 786 - 808م) ومن خَلَفَهُ⁽¹⁾.

وقد لاقت هذه اللعبة إقبالا كبيرا في مصر منذ أيام أحمد بن طولون ، الذي بنى لها ميدانا مخصصا للعبها⁽²⁾. أما في العصر الفاطمي فأول من لعبها من الخلفاء العزيز بالله⁽³⁾.

كما اشتهر بعض الوزراء بشغفهم بها ومنهم أبو علي أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي^(*)، الذي كان كثير الخروج إلى الميدان الذي بالبستان الكبير بظاهر القاهرة للعبها⁽⁴⁾، وكذلك الوزير ضرغام^(**) عُرِفَ بإجادته لها وإقباله عليها⁽¹⁾.

(1) محمد أسعد طلس : مرجع سابق ، مجلة اجمع العلمي العراقي ، ص 378 .

(2) عبد الوهاب ، حسن : الفروسية في العصر الإسلامي بمصر ، مجلة لواء الإسلام ، العدد الرابع للسنة الأولى (القاهرة ، 1947م) ص 97 .

(3) المقرئزي : الخطط ، 341/3 .

(*) هو الأكمل بن الأفضل بن بدر الجمالي ، تولّى الوزارة للخليفة الحافظ لدين الله ، وكان قد حجر عليه ومنعه من الظهور فحبسه في خزانة لا يدخل إليها أحد إلا بأمره ، توفّي سنة 526هـ / 1131م ، بطعنة من مملوك إفرنجي للحافظ ، أُطْلِقَ على أثرها الخليفة من سجنه = الصّفدي : مصدر سابق ، 255/6-256 .

(4) ابن ميسر : مصدر سابق ، ص 115 . كذلك المقرئزي : اتعاظ الخنفا ، 143/3 .

(**) ضرغام بن عامر بن سوار ، الملك المنصور ، تولّى الوزارة للخليفة العاضد بعد طرده للوزير شاور (558-564هـ / 1162-1168م) ، ولكن شاور استنجد بنور الدين زنكي ، فسير معه جيشاً بقيادة =

وطريقة اللعب بها أن ينقسم اللاعبون إلى فرقتين ، ويكون في يد كل لاعب صولجان - وهو عصا متوسطة الطول بطرفها جزء عريض مع استدارة محشوة بمياة شبكة (أقرب إلى مضرب التنس)- ويأخذون في اللعب وهم على ظهور الخيل بكرة صغيرة من الجلد على أرضٍ مستوية ، فيتسابق الفرسان إلى التقافها وتسديدها ، وقد حدّدوا نقطة معلومة من أوصل الكرة إليها فهو الفائز⁽²⁾. وهي أشبه بلعبة البولو (polo) المعروفة حالياً⁽³⁾.

ومن شدّة شغف العرب بها كُتِبَ عنها عدد من المؤرخين في كتبهم ، ومن بينهم ابن قُتَيْبَةَ الدِّينَوْرِي (م: سنة 276هـ / 889م) ، مُحدِّداً طريقة لعبها والمهارات اللازمة لها بالإضافة إلى أخلاقياتها⁽⁴⁾.

وفي عصر الخليفة الحاكم انتشرت لعبتا المصارعة والملاكمة ، وكانت تعقد لهما مباريات في الأسواق يشاهدها الناس ، وكان الخليفة الحاكم يحضرها بنفسه . وقد حدثت فتنة كبيرة في إحدى المباريات كانت بين رجلٍ من الفسطاط وآخر من القاهرة ، وكان لكل منهما جماعةٌ تُشجّعه ، ولشدة اندماج الفرقتين في التشجيع ، ونتيجة للتعصب تطور الأمر إلى قتالٍ شديدٍ بينهما قُتِلَ فيه الكثير وانتهى بهزيمة جماعة الفسطاط⁽⁵⁾.

=أسد الدين شيركوه ، وانتهى الأمر بمقتل ضرغام سنة 559هـ / 1163 = الصفدي : مصدر سابق ، 211/16 .

(1) المقرئبي : تعاط الحنفا ، 271/3 .

(2) حسن عبد الوهاب : مرجع سابق ، مجلة لواء الإسلام ، ص 97 .

(3) عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة ، ص 148 .

(4) ابن قُتَيْبَةَ الدِّينَوْرِي ، أبو محمد عبد الله بن مسلم : كتاب عيون الأخبار ، تحقيق محمد الإسكندراني ، دار الكتاب العربي (بيروت ، 1994م) 169/1 .

(5) الأنطاكي : مصدر سابق ، ص 251 .

كما كانت تُنظَّمُ في العصر الفاطمي مسابقات للقفز في الماء من أماكن مرتفعة ويجلس الخليفة لمشاهدتها ، فقد ذكر المقرئزي : أن الحاكم رسم "جماعة من الأحداث أن يتقافزوا من موضع عالٍ في القصر ورسم لكل منهم بصيلة ، فحضر جماعة وتقاظروا فمات منهم نحو ثلاثين إنساناً من أجل سقوطهم خارجاً عن الماء على صخرٍ هناك ، ووُضِعَ لمن قفز ماله" (1).

ومن الألعاب التي انتشرت الألعابُ البهلوانية ، وقد شغف أهل مصر - سواء من الخاصة أم العامة - بالفرجة عليها . وكان هناك قومٌ يمارسون هذه الألعاب يُقال لهم "النحتبارية" ، يقومون بأعمالٍ مدهشة على الحبال ، فكان الواحد منهم يلبس زيَّ الفارس وفي يده رمح وبكتفه درقة ، فينحدر على بكرة وفي رجليه آخر ممسكها ، وهو يتقلَّب في الهواء بطناً وظهراً حتى يصل إلى الأرض ، وكانت هذه الفرقة تُقدِّم عروضها في المناسبات والأعياد ولاسيما عيد فتح الخليج (2).

كذلك كانت هناك طائفة من أهل برقة اشتهرت بتقديم هذه العروض البهلوانية . فكان إذا ركب الخليفة في عيدي الفطر والأضحى مَدُّوا حبلين مسطوحين من أعلى باب النصر إلى الأرض ، حبالاً عن يمين الباب وحبالاً عن شماله ، فإذا ما عاد الخليفة من المصلَّى نزل على الحبلين طائفة من هؤلاء على أشكال خيلٍ من خشبٍ مدهون ، وفي أيديهم رايات وخلف كل واحدٍ منهم رديف ، وتحت رجليه آخر مُعلَّق بيديه ورجليه ، ويقومون بأعمالٍ تُذهل العقول . كما كان جماعةٌ منهم يركبون في موكب العيدين على خيول ويقومون بألعابٍ بهلوانية ،

(1) المقرئزي : اتعاط الحنفا ، 55/2 .

(2) المقرئزي : الخطط ، 317/2 .

فكان الواحد منهم يركض على حصانه وهو يتقلّب عليه ، فيخرج من تحت إبطه ويدور ثم يمتطيه من الجهة الأخرى بسرعة دون أن يسقط ، ومنهم من يقف على ظهر الحصان ويركض به وهو واقفٌ مُثيرٌ بذلك إعجاب الناس وانبهارهم⁽¹⁾ .
 أمّا عن رياضة سباق الخيل، فلم ترد نصوص واضحة من المؤرخين تُؤكّد انتشارها في العصر الفاطمي ، وإن كنت لا أستبعد ذلك ، ولاسيّما أنّها انتشرت قبلهم في العصرين الطولوني والإخشيدي⁽²⁾ .

في حين نال استعراض الخيل عناية الفاطميين ، ولاسيّما قبل سيرها في المواكب ، حيث كان للخليفة يومٌ خاصٌ يُسمّى "يوم عرض الخيل" ، يجلس فيه على مرتبة عالية في الشباك بالمبنى المعروف باسم (السُدليّ)^(*) ، مع الوزير في حين يكون باقي رجال الدولة خارج المبنى . وكان هذا الاستعراض يتمّ حسب رسوم معلومة ، من ضمنها قراءة القرآن قبل الاستعراض ، وكذلك من بعده⁽³⁾ .

7- اللهو والتسلية بالطيور والحيوانات والزواحف :

انتشرت هواية تربية الطيور ولاسيّما النادر منها ، وقد شغف الخلفاء الفاطميون بهذه الهواية ، فكانت تُجلب لهم الطيور من مختلف الأقطار ، وذلك عدا

(1) المقريري : الخطط ، 269/2-270 .

(2) ابن سعيد : المُعربُ في حُلَى المُعرب " الجزء الأول من القسم الخاص بمصر " ، تحقيق زكي محمد حسن وشوقي ضيف وسيّدة كاشف ، جامعة فؤاد الأول (القاهرة ، 1953م) ، 166/1 .

(*) بناءً مغلق من ثلاث جهات ، ومفتوح من الجهة الرابعة التي قد يوضع فيها حاجزٌ من حديد = حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص 672 ، هامش (3) .

(3) القلقشندي : مصدر سابق ، 504/3-505 . كذلك المقريري : الخطط ، 249/2-250 .

ما كانوا يتحصّلون عليه كهدايا من أمراء الدول الأخرى وملوكها⁽¹⁾. فكان يوجد بالقصر الفاطمي فناء تُرْفرف فيه " أنواعٌ لا حدَّ لها من الطيور الجميلة ، ذات الألوان المُفرطة في الندرة ، مجلوبة من شتّى أنحاء الشرق . ولم يكن أحد يرى هذه الطيور دون أن تُصيبه الحيرة والدهشة إعجاباً بها ، ودون أن يقول إنّ الطبيعة كانت ترحم وتلعب حين كوّنت هذه المخلوقات الجميلة . ومن هذه الطيور ما كان يلزم النافورة ، ومنها ما كان يظل بعيداً عنها ، كل بحسب طبيعته ، وكان لكل منها من الغذاء ما يوافقها"⁽²⁾. وكان عند الخليفة الظاهر في قصر الروض ، ببغاءً بيضاء تقرأ المعوذتين وتستدعي كثيراً من الأستاذين بأسمائهم ونُعوتهم⁽³⁾. كذلك الخليفة العزيز كان لديه طائرٌ أُهديَ إليه من الصعيد يُسمّى العنقاء ، له غيب ولحية ، وفيه شبه من عدّة طيور ولم يُر مثله قبل ذلك⁽⁴⁾.

وكان من أنواع التسلية بالطيور إجراء المسابقات لها ، ومن الذين شغفوا بذلك الوزير يعقوب بن كِلّس ، فكان عنده حمامٌ مُخصّص لذلك ، فاتفق مرة أنه سابق به طيور الخليفة العزيز ، فسَبَقَ حمامهُ طيور الخليفة ، فعَظَمَ ذلك على العزيز ، ووجدها أعداء ابن كِلّس فرصة للطعن فيه ، فكتبوا إلى العزيز بأن الوزير يختار الجيد من كل شيء لنفسه ، في حين يختار للخليفة الأدنى حتّى الحمام . فبلغ قولهم لابن كِلّس فكتب إلى العزيز :

قُلْ لأمير المؤمنين الذي له العُلا والكوكب الثاقب
طائرُك السابق ولكنّه جاء وفي خدمته حاجب

(1) المسيحي : مصدر سابق ، 12/1 ، 22 . كذلك ابن الزبير : مصدر سابق ، ص 76 .

(2) زكي محمد حسن : مرجع سابق ، ص 74-75 (جزء من وصف غليوم للقصر الفاطمي) .

(3) المقريري : اتعاط الحنفا ، 210/3 .

(4) ابن ظافر : مصدر سابق ، 187/1 .

فأعجب العزيز ذلك وأعرض عمّا وَشَى به⁽¹⁾.

وكما شغف الخلفاء باقتناء الطيور ، شغفوا كذلك باقتناء الحيوانات النادرة ، ويُقال إنه اجتمع عند الخليفة العزيز من غرائب الحيوان ما لم يجتمع عند غيره⁽²⁾؛ حيث جُلِبَ إلى مصر من الحيوانات في أيامه ما لم يرَ الناس مثله من قبل ، منها : الذبلة ، وهي تشبه السلحفاة وفمها يشبه منقار الببغاء . والداع ، وهو أعظم من بقرة الوحش له سنام على حاركه وقرنان طويلان أحدهما قائم والآخر مُسَطَّح . كذلك السَّمع ، وهو أكبر خلقاً من الضبع يشبه الدُّب . بالإضافة إلى الكركدن ، وهو في صورة الجاموس بقرنٍ واحد بين عينيه ، ولكنه مات قبل أن يصلَ إلى مصر بأيام يسيرة، فسُلِّخَ جلده وحُشِّيَ تبناً ، وكان الأول من نوعه لَمْ يُرَ مثله من قبل⁽³⁾.

وكان الخلفاء يحتفظون بهذه الحيوانات في حديقة داخل القصر ، رأى فيها رسولاً الملك عمُّوري " أنواعاً من الحيوانات ذوات الأربع ، غريبة بحيث يُتَّهم المرء بالكذب إذا وصفها أو تحدث عنها ، وبحيث لا يستطيع أي مُصوِّر أن يتخيل أو أن يحلم بمثل هذه الكائنات العجيبة . فإنَّ الغرب لم يرَ قط مثل هذه الحيوانات ، ولم يكن يعرفها إلا بما كان يسمع من الأقوال"⁽⁴⁾.

(1) الغزولي : مصدر سابق ، 579/2 . كذلك المقرئزي : الخطط ، 381/2 .

(2) أحمد أمين : ظُهر الإسلام ، 33/2 .

(3) ابن ظافر: مصدر سابق ، 187/1 - 188 .

(4) زكي محمد حسن : مرجع سابق ، ص 75 .

كذلك وُجِدَ من أفراد الطبقة الخاصة من كان يهوى اقتناء الزواحف وجمعها ، فكان الوزير جعفر بن الفرات^(*)، شديد الولع بالنظر إلى الحيات والأفاعي والعقارب وأم أربعة وأربعين ، وغيرها من الزواحف. لذلك أعدّ بداره قاعة خاصة بها الكثير من سلال الزواحف ، يقوم على خدمتها فرائش - حاوٍ من الحواة - ومعه مستخدمون لتنظيف القاعة ونقل السلال من مكانٍ إلى آخر⁽¹⁾.

ولم تكن متعة النظر إلى الزواحف مقتصرة على الخاصة فقط ، بل العامة أيضاً شغفوا بذلك ، حيث كانت ألعاب الحواة من الألعاب المفضلة لديهم ، وكان الحاوي من الشخصيات المحببة عندهم . وقد اشتهر من الحواة في العصر الفاطمي "أبو كريت الحاوي" ، الذي كان يجمع الكثير من الثعابين المختلفة الأنواع والأشكال ، ويقوم بتدريبها ويؤدّي بها عروضاً رائعة ولاسيما في الاحتفالات والمواسم⁽²⁾.

(*) أبو الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات ، البغدادي الأصل ، وُلِدَ سنة 308 هـ / 920م ، تولّى الوزارة لابنّي محمد بن طعج الإخشيد ، وكذلك لكافور ، ولما دخل الفاطميون مصر بقي على مكانته الرفيعة في الدولة ، تُوفّي سنة 392هـ / 1001م = المقريري : المقفى الكبير ، 41 / 3 ، 43 ، 45 - 46 .

(1) المقريري : الخطط ، 329/3 .

(2) المصدر نفسه ، 328/3 . كذلك نجوى كيرة : مرجع سابق ، 327 - 328 .

المبحث الثالث : أهم المظاهر السلبية (الأمراض الاجتماعية)

وُجِدَتْ في المجتمع المصري في العصر الفاطمي بعض العادات الذميمة والأمراض الاجتماعية التي تُهدِّد كيان أيِّ مجتمع وتنشر الفوضى والفساد بين جوانبه ، ومن أهم هذه الأمراض :

1- الوبع بالنجوم (التنجيم) :

مما لا شكَّ فيه أنَّ العصر الفاطمي هو عصر التنجيم في مصر ، حيث انتشرت ممارسته في هذا العصر بين الناس بشكلٍ كبير ، والذي ساعد على ذلك اقتناع الخلفاء الفاطميين به منذ قدومهم إلى مصر، فالعز لدين الله كان مُغرماً بالنجوم ويعمل بأقوال المنجِّمين⁽¹⁾. ومما ساعد على ذلك أيضاً وجود عُنصرَي المغاربة والسودان في ذلك الوقت ، وهم الذين كانوا من أكثر الناس اشتغالاً بالتنجيم ، فكان لهم تأثيرٌ كبير في إضافة هذا المعتقد إلى الموروثات المصرية⁽²⁾.

وقد كتب عن انتشار التنجيم في مصر في العصر الفاطمي كثير من المؤرخين ، كما لاحظته بعض الرِّحالة الوافدين عليها ، فدَوَّنوه في مؤلفاتهم ، وكان من بينهم العالم أبو الصلت الأندلسي ، حيث يقول في ذلك : " المصريون أكثر الناس استعمالاً لأحكام النجوم ، وتصديقاً لها وتعويلاً عليها وشغفاً بها وسكوناً إليها ، حتَّى إنه قد بلغ من زيادة أمرهم في ذلك إلى أن لا يتحرَّك واحدٌ منهم حركة من الحركات الجزئية التي لا تُحصر فنونها ، ولا تُحصَل أجزاءها وأنهاؤها ، ولا تُضبط جهاتها ولا تُقَيَّد غاياتها ولا تُعدُّ ضروبها ، إلاَّ في طَوَالِعَ يختارونها ونُصَب

(1) ابن الأثير : مصدر سابق ، 360/7 . كذلك ابن تغري بردي : مصدر سابق ، 43/4 .

(2) نجوى كيرة : مرجع سابق ، ص 285، 286 .

يعتمدها"⁽¹⁾. وتكملة لهذا الكلام أورد أبو الصلت قصصاً ظريفة وحكايات عجيبة، أفرط أصحابها في استعمال أحكام النجوم والعناية بها ، مما يدعو إلى العجب والمجال هنا لا يتسع لذكرها⁽²⁾.

ومن المنجمين الذين ذاع صيتهم في العصر الفاطمي ، ابن يونس المنجم ، الذي كانت له تصرفات غريبة - شأنه شأن باقي المنجمين - لإضفاء الرهبة على قلوب العامة ؛ فكان يصعد إلى جبل المقطم ليرى كوكب الزهرة، ثم يقوم بتزع ثوبه وعمامته ويلبس ثوباً نسائياً أحمر اللون مع مقنعة حمراء يتفنع بها ، ويخرج عوداً يضرب عليه ويطلق البخور . وكانت له هيئة غريبة في ملابسه ؛ فكان يضع على رأسه طرطوراً طويلاً ويجعل رداءه فوق العمامة ، وكان طويلاً يُضحكُ الناس من منظره بملابسه الرثة⁽³⁾.

وإزاء الإقبال الكبير من الأهالي على التنجيم أصبح لهذه الظاهرة أثرها السيئ في المجتمع المصري، حيث أصبح المنجمون من ذوي المكانة الرفيعة في المجتمع ، وذلك على الرغم من خساسة قدرهم ووضاعة مهنتهم⁽⁴⁾. كما أصبح بعضهم في عداد الأثرياء ، الأمر الذي كان سبباً في انبهار العامة بهم ، وتماقتهم عليهم وانشغالهم بالحديث عنهم إلى حد كبير⁽⁵⁾، ولما تزايد منهم ذلك تدخل الخليفة الحاكم - على الرغم من أنه كان يتعاطى التنجيم هو الآخر - لمحاربة هذه الظاهرة ، فصدرت أوامره بمنع التنجيم، ونفي سائر المنجمين وأصحاب الأحكام

(1) أبو الصلت الأندلسي : مصدر سابق ، ص 39.

(2) للاطلاع يُنظر المصدر نفسه ، ص 39-40.

(3) ابن خلكان : مصدر سابق ، 430/3.

(4) أبو الصلت الأندلسي : مصدر سابق ، ص 39.

(5) ابن سعيد : النجوم الزاهرة ، ص 69 .

خارج البلاد ، فتجمّعوا بأسرهم وحضروا إليه طالبين عفوّه، فاستتابهم واستحلفهم بألاً يتعرّضوا لأحكام النجوم ولا يباشروها ولا ينظروا فيها ، ومن كان منهم له رزقٌ أجراه عليه ولم يمنعه إيّاه⁽¹⁾.

2- شرب الخمر:

قد أسلفت الذكر - فيما سبق - عند حديثي عن الأشربة أن الخمر كانت من الأشربة التي انتشر شربها بشكلٍ كبير بين الناس في العصر الفاطمي . والحقيقة أن الخمر كانت منتشرة بين المصريين ومدمنيها من قبل مجيء الفاطميين إليهم⁽²⁾، حيث على الرغم من إسلامهم كان الكثيرون منهم يشربونها مثل النصارى ، وهي التي تعوّدوا عليها منذ زمن الفراعنة⁽³⁾.

وقد لاحظ إقبال المصريين على شرب الخمر المؤرخ والجغرافي أبو عبد الله المقدسي، وقد عبّر عن ذلك بقوله : " ولا أشرب للخمر من أهل بعلبك ومصر"⁽⁴⁾. كما أثار دهشته أن مشايخ المصريين - أي كبار السن - لا يتورّعون من شربها حتى ترى الشيخ منهم سكران⁽⁵⁾. لذلك كانت صناعة الخمر من أقدم

(1) الأنطاكي : مصدر سابق ، ص 304 . كذلك ابن خلكان : مصدر سابق ، 294/5 .

(2) كاشف ، سيّدة إسماعيل : مصر في عصر الإخشيديين ، مطبعة جامعة فؤاد الأول (القاهرة، 1950م) ص 256 .

(3) عبد المنعم ماجد : الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه ، مكتبة الأنجلو المصرية (القاهرة ، 1959م) ص 92 .

(4) المقدسي : مصدر سابق ، ص 34 .

(5) المصدر نفسه ، ص 200 .

الصناعات في مصر⁽¹⁾ وأروجها، وكانت أماكن شربها منتشرة وتباع في الأسواق علانية، فكانت مجالاً مفتوحاً لاستقطاب الناس⁽²⁾.

وقد حاول الخلفاء الفاطميون الأوائل القضاء عليها ، ولاسيما أن العقيدة الفاطمية كانت توافق الدين الإسلامي في تحريمها⁽³⁾. فكان الخليفة المعز رافضاً لها مستعجلاً من الذين يشربونها كيف يرضون بذلك مُذهبين نعمة العقل التي وهبها الله لهم⁽⁴⁾، في حين أن الخليفة العزيز تشدّد في منعها ، حيث أمر بإزالة الأنبذة والخمور وكسر أوعيتها وهدم مواضعها ، فَكُسِرَ لِرَجُلٍ واحدٍ خمسين ألف جرة وردت من الصعيد⁽⁵⁾.

أما الخليفة الحاكم فقد كانت أوامره في هذا الخصوص كثيرةً ومتعدّدة ، مُحاولاً القضاء نهائياً على هذا الإدمان ، فصدرت سجالاته بحظر الخمور وجميع أنواع المسكرات وإراققتها وكسر أوانيتها أينما وُجِدَتْ، وتشدّد على الخمارين في ذلك وبدّد كل ما وُجِدَ في دورهم وحوانيتهم منها . كما حرّم بيع الزبيب وأمر بمصادرتة ، فألقيت منه في النيل مقادير كبيرة، وأحرقت مقادير أخرى كانت في مخازن التجار ، ومنع أيضاً بيع العنب، فَطُرِحَ الكثير منه في الطرقات ، وأمر بدوسه ، وتتبع من يبيعه وشدّد في ذلك حتى اختفت آثاره . ثم ختم بعد ذلك على

(1) عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة ، ص 139.

(2) عبد المنعم عبد الحميد سلطان : مرجع سابق ، ص 104.

(3) القاضي النعمان : دعائم الإسلام ، 2/129.

(4) القاضي النعمان : المجالس والمسائرات ، ص 330 .

(5) ابن ميسر : مصدر سابق ، ص 169. كذلك المقرئ : اتعاظ الحنفا ، 1/271 .

العسل ، وصُوْدِرَتْ منه الآلاف من الجرار ، وأغرقت في النيل مخافة أن تُستخدم في صناعة الخمر⁽¹⁾.

وهكذا خُصَّت الخمر ومصادرها بأقصى أنواع المطاردات وأعنفها طوال عصر الحاكم ، فنجحت أوامره في الحد منها ومنع تداولها ، حتى إنَّ النصارى صاروا في أعيادهم ومناسباتهم يشربون عوضاً عنها ماء قد نُقِعَ فيه زبيب أو عود الكرم⁽²⁾. ولكنها لم تلبث أن ظهرت من جديد وبكثرة بعد وفاة الحاكم ، ولاسيما بعد أن شربها الخليفة الظاهر جهاراً وترخَّص فيها للناس⁽³⁾. كذلك الخليفة المستنصر سار على سيرة أبيه الظاهر ، فكان من عادته كلَّ سنة أن يخرج مع النساء والحشم إلى جُبِّ عُميرة - موضع للترهة - بهيأة أنه خارج إلى الحج على سبيل الاستهزاء والمجانة ، ومعه الخمر في الروايا بدلاً من الماء ، يسقيه للناس كما يُسقى الماء في طريق مكة شرفها الله⁽⁴⁾.

و لم يختلف الخلفاء الذين تلو المستنصر في ترخيصهم للخمر - وإن كان من عادة الدولة أن تأمر بإغلاق قاعات الخمَّارين طوال أشهر رجب وشعبان ورمضان من كل عامٍ تزيهاً لها⁽⁵⁾ - لذلك ظلَّت من الأوبئة التي لم يُقَضَّ عليها زمن الفاطميين ، واستمرت تنخر في كيان المجتمع المصري .

(1) الدَّوَاداري : دُرر التيجان ، ورقة 264 ، 265 ، 274 . كذلك المقرئبي : اتعاظ الحنفا ، 83/2 ، 89 ،

91 ، 93 . محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ، ص 130.

(2) الأنطاكي : مصدر سابق ، 289 - 290.

(3) المقرئبي : اتعاظ الحنفا ، 129/2.

(4) ابن مُيسر : مصدر سابق ، ص 24 . كذلك النويري : مصدر سابق ، 224/28 - 225 . ابن تغري بردي

: مصدر سابق ، 17/5 - 18.

(5) عبد المنعم عبد الحميد سلطان : مرجع سابق ، ص 104.

3- انتشار الفاحشة والفجور :

كان البغاء من أشد الأمراض الاجتماعية وأخطرها على المجتمع المصري في العصر الفاطمي ، حيث كان منتشرًا بكثرة وكانت له دورٌ وأماكن خاصة به ، ومما زاد الأمر سوءاً أن الكثير من النساء في مصر كنَّ لا يتورَّعن عن الفجور جهارةً⁽¹⁾.

وقد حاول الخلفاء الفاطميون التصدي لهذا المرض والقضاء عليه ، ولاسيما بعد أن أصبح ظاهراً على السطح ، ففي زمن الخليفة العزيز صدرت أوامره سنة 381 هـ / 991 م بإزالة المنكرات وهدم مواضعها⁽²⁾. بيد أن هذا المرض لم ينقص وظلَّ في زيادة مُطَرِّدة أيام الحاكم بأمر الله ، حيث ظهرت النساء بكثرة في المجتمع وغلب خروجهن على الرجال ، فهبَّت نيران المجون والغواية والفجور عالية ، وجرفت إليها الكثير من الناس ، وأصبحت القاهرة المُعزِّية بأنوارها الساطعة ومناظرها الخلابية وملاهيها العابثة ، وكأها من مدن الفجور التي وُصِفَتْ في التواريخ تسير بخطى حثيثة نحو مهاوي الانحلال⁽³⁾.

ولكن الحاكم لم يسكت عن هذا الانحلال، وضرب بيدٍ من حديد على مصادره ، فصدرت قوانينه الاجتماعية التي تُزيل مواضع الفاحشة والمجون وتقضي على أهل الفساد ، فهُوجِمَت أماكن البغاء بشدة وأزيلت دورهم وأوكارهم وطُهرت منها أحياء المدينة ، وكانوا ينبثون في معظم جنباتها⁽⁴⁾. ولم يكتفِ الحاكم بذلك، بل تتبع النساء العابثات وعاقبهن ، ووصلت عقوبتهن في الكثير من الأحيان

(1) المقدسي : مصدر سابق ، ص 200 .

(2) المقريري : اتعاط الحنفا ، 271/1 .

(3) عارف تامر : مرجع سابق ، ص 80 .

(4) الأنطاكي : مصدر سابق ، ص 254 . كذلك محمد عبد الله عِنان: الحاكم بأمر الله ، ص 131 .

إلى القتل ، كما استخدم بعض النساء والعجائز للتجسس على هذه الطائفة من أجل القضاء عليها في مواقعها السرية⁽¹⁾.

كذلك استمرت محاربة البغاء في أيام الخليفة الظاهر - وذلك على الرغم من حبه للهو وسماحه للناس بشرب الخمر - فكان للمحتسب دوره الكبير في الحد منه⁽²⁾. ولكن البغاء ظلّ موجوداً في المجتمع المصري طوال العصر الفاطمي ، واستمر على ذلك وازداد في العصر الأيوبي (567-648 هـ / 1171-1250م) ، إلى أن اعترفت به الدولة زمن المماليك (648-923 هـ / 1250-1517م) ، وأصبح عملاً رسمياً تُفرضُ عليه مكوس مُقرّرة (ضرائب)⁽³⁾.

أمّا عن الشذوذ الجنسي (اللواط) فيبدو أنه كان منتشراً في العصر الفاطمي ، لاسيّما أنه كان موجوداً قبلهم زمن الإخشيديين⁽⁴⁾. والواقع أنه شاع وانتشر في الكثير من البلاد الإسلامية في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي⁽⁵⁾. ومما يُؤكّد على وجوده في مصر في العصر الفاطمي ، أن المسبّحي في تاريخه عند سرده لوفيات شهر شوال من سنة 415 هـ/1024م، ذكر مقتل المُخنّث البغدادي ، الذي " كان يُحبُّ المُردان ويُنفقُ عليهم الدنانير الكثيرة ، وقيل إن قاتله كان ولداً للقاضي ابن منهال كان يهواه..."⁽⁶⁾.

(1) ابن كثير : مصدر سابق ، 555/15.

(2) المسيحي : مصدر سابق ، 68/1.

(3) سعيد عبد الفتّاح عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، دار النهضة العربية (القاهرة) ، 1992م) ص 248 ، 249 .

(4) سيّدة إسماعيل كاشف : مرجع سابق ، ص 257 .

(5) آدم متز : مرجع سابق ، 166/2 - 167 .

(6) المسيحي : مصدر سابق ، 104/1 .

4- لعب القمار :

انتشر لعب القمار بالمجتمع المصري في العصر الفاطمي ، كما كان منتشرًا قبلهم أيام الإخشيديين⁽¹⁾. وكان أكثر ما يُلعبُ بِفَصِّي النرد ، وقد شغف به الناس كثيراً على الرغم من تحريم القرآن له ، وكانت له دورٌ خاصةً بها شيوخ يُسمّون بـ "المُطَمِّعين" ، لهم رواتب من هذه الدور ليحلبوا الناس إليها وَيُطَمِّعُوهم في اللعب⁽²⁾. ومن أشهر دور القمار التي ورد ذكرها في العصر الفاطمي دار ابن مرزبان المُقامِر⁽³⁾.



(1) سيده إسماعيل كاشف : مرجع سابق ، ص257.

(2) آدم متز : مرجع سابق ، 260/2-261.

(3) المسيحي : مصدر سابق ، 104/1.

الفصل الخامس

الاحتفالات والمناسبات والأعياد الدينية في مصر خلال العصر الفاطمي

**المبحث الأول : الاحتفالات والمناسبات والأعياد
الإسلامية العامة**

المبحث الثاني : المناسبات والأعياد الشيعية الخاصة

المبحث الثالث : احتفالات أهل الذمة وأعيادهم

المبحث الرابع : الاحتفالات والأعياد القومية

المبحث الخامس : الاحتفالات والمناسبات الأسرية

تميّزت مصر الفاطمية بكثرة الأعياد والاحتفالات والمواسم الباذخة ، التي اهتم بها الخلفاء الفاطميون وبالغوا في إحيائها ، فكانت سمة من السمات البارزة للمجتمع المصري في ذلك الوقت . حيث كانت تجري حسب رسوم مخصوصة - يشارك فيها الخليفة والوزير ورجال الدولة - ليس لها مثيلٌ في التقاليد العربية أو الإسلامية من قبل. ويُعتقد أن بعض هذه الرسوم مُستقاة عن بعض الحضارات الأجنبية، القديمة منها كالدولة الفارسية ، والمعاصرة - للفاطميين - كالدولة البيزنطية . وإن كان من المؤكد أن الدولة الفاطمية - لو ثبت فعلاً أنها استقتها - قد أضافت إليها الكثير لتتماشى مع أوضاعها المادية الثرية ، وكذلك عقائدها المذهبية. فقد عرف الفاطميون كيف يثرون أعيادهم بأقصى مظاهر الروعة والفخامة والأبهة، مما جعلها تمتاز بطابع جديد غير مألوف من قبل⁽¹⁾.

وهم في ذلك كانوا يهدفون إلى غايتين اثنتين ؛ الأولى : أن يبيّث هيبتهم الدينية بما يسبغونه من الخطورة والخشوع على بعض المظاهر والرسوم فيها . والثانية : أن يغمروا الشعب المصري - من خلالها - بسيلٍ من الحفلات والمآدب والمواكب الباهرة ، وأن يأسروه بمظاهر جودهم الوافر ، وأن ينثروا عليه ما استطاعوا من آيات البهجة والمرح والحُجُور . كل ذلك لكي يكسبوا ولائه وعرفانه وتأيينه ، ولاسيما أنهم كانوا يشعرون دائماً أنهم لم يكسبوا كل ولائه وتقديره⁽²⁾ .
ومن أشهر الأعياد والمواسم التي احتُفِلَ بها في العصر الفاطمي :

(1) عبد المنعم ماجد : أصل حفلات الفاطميين في مصر (358-567هـ / 969-1171م) ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدرّيد ، العدد الثاني للسنة السادسة (مدرّيد ، 1954م) المجلد الثاني ، ص 254-256 .

(2) محمد عبد الله عنان : رسوم الفطر والأضحى في عهد الدولة الفاطمية ، مجلة الرسالة ، العدد 140 للسنة الرابعة (القاهرة ، 1936م) المجلد الأول ، ص 364-365 .

المبحث الأول :

الاحتفالات والمناسبات والأعياد الإسلامية العامة

1- الاحتفال برأس السنة الهجرية وأول العام :

اهتمّ الفاطميون اهتماماً كبيراً ببليلة أول محرم من كل عام (رأس السنة الهجرية)، لأنها أولى ليالي السنة وابتداء أوقاتها⁽¹⁾. فكانوا يُحيونها باحتفالٍ ليليٍّ كبير يستمر إلى اليوم التالي (أول العام الهجري)⁽²⁾. وكان من رسوم الاحتفال بهذه الليلة أن تُمدّ الأسمطة، وأن يُعمل بمطبخ القصر الكثير من الخراف والرؤوس المقمومة، التي تُفرّق على جميع أرباب الوظائف، مع جفان اللبن والخبز وأنواع الحلوى، فيعم ذلك الجميع حتى يصل منه إلى عامة الناس بالفسطاط والقاهرة⁽³⁾. وتجلّى أبهة الاحتفال بهذه المناسبة في ركوب الخليفة في موكبٍ عظيمٍ للاستعراض، يُعرف بـ "ركوب أول العام"⁽⁴⁾. يُستعد له من الأيام العشرة الأخيرة من شهر ذي الحجة، وذلك بإعداد الأسلحة والنفائس والخيول المشاركة. فكانت تُخرج من خزائن السلاح أنواع مختلفة منه مُحلّاة بالذهب والفضة مما يحمله طوائف الجند في الموكب، مع صبيان الركاب المحيطين بالخليفة.

(1) المقريري: الخطط، 347/2.

(2) أيمن فؤاد سيّد: مرجع سابق، ص 370-371.

(3) المقريري: الخطط، 246/2، 247-248.

(4) القلقشندي: مصدر سابق، 503/3.

ويُخرَج من خزانه التحمل الألوية والبُنود والقُصْب^(*) والعمَّاريات^(**)، بالإضافة إلى الطُّبول الضخمة التي تحملها البغال . ومن الإصطبلات يُخرج مائة فرس مُسوَّمة برسم ركوب الخليفة وكبار رجال الحاشية ، عليها سروج مُحلَّاة بالذهب والفضة والجواهر ، وفي أعناقها أطواق من الذهب وقلائد من العنبر ، إلى جانب ما يخرج من الخيول والبغال العادية لركوب أرباب الوظائف والخدم في هذا الموكب⁽¹⁾.

وبعد إتمام الاستعدادات ، وفي صبيحة يوم الاحتفال يجتمع كبار رجال الدولة من أرباب السيوف والأقلام وغيرهم في ميدان بين القصرين . ويحضر الوزير - دون استدعاء - مُبَكِّراً إلى القصر استعداداً لخروج الموكب ، وتكون طوائف الجند قد احتشدت في الميدان وهي في أسمى ما تكون في الشكل والتنظيم . وبمجرد ظهور الخليفة من باب القصر يُعزف بيقٍ خاص، ثم تتبعه بقية الأبواق في الموكب ، ويبدأ الاستعداد للسير⁽²⁾.

ويكون لباس الخليفة في هذه المناسبة الثياب البيضاء ، وعلى رأسه عمامة كبيرة تُعرف بشدَّة الوقار ، وتعلو جبهته جوهرة عظيمة القيمة تُعرف بالتيمة ،

(*) القُصْب : رماح مُلبَّسة بأنابيب الفضة المنقوشة بالذهب ، وفي أعلاها رمامين منقوشة مُفضَّضة أو مُذهَّبة ، وأهلة مُحوَّقة وفيها جلاجل لها حس إذا تحركت = المقريري : الخطط ، 247/2 .

(**) العمَّاريات : هي أشبه بالموادج التي يحملها الخدم أو الجمال أو حتَّى البغال لنقل الأشخاص . وهي في هذا الاحتفال تخرج بعدد شخصيات كبار الدولة المشاركة في الموكب = عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ، 78/2 - 79 .

(1) القلقشندي : مصدر سابق ، 3/ 503-504 . كذلك المقريري : الخطط ، 247/2 - 249 .

(2) القلقشندي : مصدر سابق ، 3/ 505 - 506 .

وعلى رأسه المِظْلَّة ، وهي تشبه في لونها ملابسه ، ويحرص حاملها ألا يزول ظلُّها عن الخليفة⁽¹⁾.

ويبدأ الموكب في المسير يتقدّمه الأمراء وطائفة من العسكر والأساتذة المحنّكون ، ثم الخليفة يُحيط به صبيان الركاب مُتقلّدين سيوفهم يزيد عددهم على ألف رجل . ويسير خلف دابة الخليفة فريقٌ من صبيان الركاب لحفظ أعقابه . ثم يأتي الوزير في هيبة ، وفي ركابه قومٌ من أقوياء الجنود يبلغ عددهم خمسمائة رجل ، وخلفه الطُّبول والصُّنوج والصفافير تدوي بصوتٍ عالٍ ، ومن بعدهم طوائف الجند المختلفة من الراجلة والفرسان ما يبلغ عددهم بالآلاف⁽²⁾.

ويسير الموكب برفق في طريقه المحدد مسبقاً ، حيث كانت الحكومة تُعلن للناس بمساره قبل خروجه حتى يتيسّر للشعب رؤية عظمة الدولة وفخامتها⁽³⁾. وكان يتقدمه والي القاهرة لإفساح ما قد يعترض طريقه ، ويعمل على ذلك على طول الموكب من أوله إلى آخره ، حيث كان الناس يحتشدون على جانبيه للمشاهدة يشملهم الانبهار ويعمّمهم الفرح والسرور⁽⁴⁾.

وإذا ما انتهى الموكب من دورته عاد أدراجه إلى ميدان بين القصرين ، فيقوم الوزير وكبار رجال الدولة عندئذٍ بالترجل وإيصال الخليفة - ركباً - إلى قصره . وبعدها يركب الوزير عائداً إلى داره وبين يديه الأمراء والقادة ، فيسيرون في خدمته إلى أن يصلها فيودّعوه ثم ينصرفوا إلى بيوتهم، فيجدون الخليفة قد أرسل إليهم الغرّة ؛ وهي دنانير رباعية ودرهم مُدوّرة ، يكون الخليفة قد أمر بضرها في

(1) ابن تغري بردي : مصدر سابق ، 88/4 - 89 .

(2) المقرئزي : الخطط ، 254/2 - 255 . كذلك ابن تغري بردي : مصدر سابق ، 93/4 - 94 .

(3) عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ، 91/2 .

(4) ابن الطُّوَيّر : مصدر سابق ، ص 164 . كذلك المقرئزي : الخطط ، 254/2 .

العشر الأيام الأخيرة من ذي الحجة ، برسم تفرقتها في هذا اليوم (أول العام الهجري) على الوزير والأمراء وأرباب المراتب والوظائف من حملة السيوف والأقلام بقدرٍ مخصوص لكل منهم، فيقبلونها على سبيل التبرُّك من الخليفة⁽¹⁾. وبعد الانتهاء من الاحتفال كان يُكتب إلى سائر البلاد والأعمال بالبشائر بركوب أول العام والاحتفال به⁽²⁾.

ومن الجدير بالذكر أن حكومة مصر لازالت إلى يومنا الحاضر تعدُّ هذا اليوم من مواسمها وأعيادها الرسمية ، لذلك جعلته عطلة رسمية تُعطل فيها جميع الأعمال والمصالح الحكومية ، وهو من غير شك أحد موروثات العصر الفاطمي ، وإن فُقدت منه - حالياً- البهجة والسرور التي كانت تشمل الناس في الأعياد الأخرى .

2- الاحتفال بالمولد النبوي الشريف :

كان الاحتفال بذكرى مولد النبي (ﷺ) - في اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول من كل عامٍ هجري - بدعة في نظر المتمسكين بالعادات الإسلامية ؛ لأنه لم يرد في الكتاب والسنة ولم يُحتفل به في صدر الإسلام . إلا أن أهل الصَّلاح والورع من المسلمين رأوا فيما بعد بلا بأس من الاحتفال بمولده (ﷺ) ، تكريماً له وإحياءً لذكراه العطرة ومحافظَةً على تراثه المجيد⁽³⁾. لذلك بدأ الاحتفال به بالانتشار في العالم الإسلامي منذ حوالي سنة 300 هـ/912م⁽⁴⁾، في حين أن هناك من يرى

(1) القلقشندي : مصدر سابق ، 508/3-509 . كذلك المقرئزي : الخطط ، 255/2 . ابن تغري بردي : مصدر سابق ، 95/4 .

(2) القلقشندي : مصدر سابق ، 509/3 .

(3) حسن إبراهيم حسن : المولد النبوي في تاريخ الإسلام ، مجلة لواء الإسلام ، العدد السابع للسنة الثانية (القاهرة ، 1949م) ص 48 .

(4) آدم متز : مرجع سابق ، 298/2 .

أن أوّل من أقام هذا الاحتفال هم الفاطميون في مصر في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي⁽¹⁾.

وقد جعل الفاطميون منه احتفالاً ذا صبغة رسمية ؛ إذ كانت تُقيم الدولة بتشجيع من الخليفة الفاطمي نفسه ، كما حرصوا على أن يكون الاحتفال به يتفق وما له من أهمية دينية . فكان إذا حلّ موعده يُخرج من الخزينة مبلغ كبير لأجل الصدقات ، وتُخرج من دار الفطرة أربعون صينية فطرة ، ومن الخزائن سكر ولوز وعسل وزيت برسم خُدام المشاهد الشريفة ، التي بها - حسب قولهم - بعض أعضاء آل البيت ، ويُوزّع من الحلوى مئات الأبطال ومن الخبز الشيء الكثير⁽²⁾.

فإذا كان اليوم الثاني عشر من ربيع الأول تقدم بأن يُعمل في دار الفطرة عشرون قنطاراً من السكر حلوى يابسة على أشكالٍ طريفة ، تُعبأ في ثلاثمائة صينية من النحاس ، كي تُوزّع على كبار الموظفين كقاضي القضاة وداعي الدعاة ، بالإضافة إلى قراء الحضرة والخطباء وموظفي المساجد ورؤساء المشاهد ، وغيرهم ممن جرت الرسوم بتوزيع هذه المنح عليهم⁽³⁾.

أما الاحتفال الرسمي فكان يبدأ بعد صلاة الظهر من اليوم نفسه ، حيث يخرج قاضي القضاة في موكب الاحتفال بصحبته الشهود ، وكذلك المكلفون بحمل صواني الحلوى ، فيتّجه الجميع إلى الجامع الأزهر وهناك يجلسون حتى تُقرأ خاتمة القرآن الكريم ، ثم يعود الموكب إلى القصر وقد احتشد الناس على جانبي الطريق لمشاهدته ، وكذلك حول منظره القصر للتطلّع إلى الخليفة ، في حين يحاول

(1) البنا ، محمد : ندوة لواء الإسلام " أصل الاحتفال بالمولد النبوي وتاريخه " ، مجلة لواء الإسلام ، العدد السابع للسنة السابعة (القاهرة ، 1953م) ص 436 .

(2) المقريري : الخطط ، 2/ 216 .

(3) ابن الطوير : مصدر سابق ، ص 217 .

صاحب الباب بمساعدة والي القاهرة منع الزحام وإخلاء الطريق أمام موكب قاضي القضاة ، وتكون المسالك المؤدية إلى القصر قد نُظِّفَتْ ورُشِّتْ بالماء وُغُطِّتْ بالرمال الأصفر استعداداً لمسيره . وعندما يصل إلى القصر يقوم صاحب الباب باستدعاء قاضي القضاة ومن معه ، فيترجل الجميع عند اقترابهم من المنطرة وينتظرون تحتها وهم متشوقون لرؤية الخليفة . وبعد حوالي ساعة تُفتح إحدى طاقات المنطرة ويظهر منها وجه الخليفة وعلى رأسه المنديل الخلافي ، ومن حوله عدد من الأستاذين المحنكين وغيرهم من الخواص ، ومن طاقة أخرى يطل رأس أحد الأستاذين ويشير بيده إلى الجمهور قائلاً : " أمير المؤمنين يرد عليكم السلام " (1).

بعدها يستفتح قراء الحضرة القراءة ويكونون وقوفاً ووجوههم للحاضرين وظهورهم لحائط المنطرة . ويتقدم خطيب الجامع الأنور^(*) فيخطب خطبة لا تختلف عن الخطب المألوفة في بدايتها إلى أن يصل إلى ذكر النبي (ﷺ) ، فيذكر للحاضرين بأن هذا يوم مولده إلى ما من الله به على ملة الإسلام من رسالته ، ويختتم كلامه بالدعاء للخليفة . ثم يتلوه خطيب جامع الأزهر وخطيب جامع الأقرم^(**) - والقراء لا يزالون يقرؤون - فإذا ما انتهت خطب الخطباء أخرج

(1) ابن الطوَّير : مصدر سابق ، ص 218-219 . كذلك المقرئ : الخطط ، 217/2.

(*) الجامع الأنور : كان يقع في بداية أمره خارج أسوار القاهرة قبل امتدادها . أسسه الخليفة العزيز بالله ، فخطب فيه وصلى بالناس الجمعة . ثم أكمل بناءه الخليفة الحاكم . وكان يُعرف أولاً بجامع الخطبة ، كما عُرف بجامع الحاكم = المقرئ : الخطط ، 222/3 .

(**) الجامع الأقرم : بناه الخليفة الأمر بأحكام الله سنة 519 هـ / 1125م ، على يد وزيره المأمون بن البطائحي = ابن عبدالظاهر : الروضة البهية ، ص 73 .

الأستاذ رأسه من جديد من الطاقة وأشار بيده إلى القاضي وجماعته بسلام الخليفة عليهم كما تقدم ، فتغلق الطاقتان وينتهي الاحتفال وينفض الناس عائدتين⁽¹⁾ . وإلى جانب الاحتفال الرسمي هذا ، كان الشعب يحتفل في كل مكان بإقامة المآدب الخاصة في ليلة المولد وفي مساء يوم المولد ، وتسطع القاهرة في الليل بالأنوار الباهرة ، وتغص الساحات والدروب بالجماهير المحتشدة ، وتكثر النفقة والترهة ، وتقام أنواع الملاهي والمطاعم العامة، وتسير السفن في النيل والخليج مُحَمَّلة بالمتزَّهين ، ويكثر البرّ بالفقراء والمساكين⁽²⁾ .

3- الاحتفال بليالي الوقود الأربع :

وهي ليلة أول رجب وليله نصفه ، وليله أول شعبان وليله نصفه⁽³⁾ . ويبدو أنها سُمِّيت بذلك لكثرة ما يُوقَدُ (يُشْتَعَلُ) فيها من الشموع والقناديل والمصابيح ، وذلك في المساجد والجوامع والمشاهد والأضرحة . وهي من أشهر المناسبات والمواسم التي اختصَّت بها الدولة الفاطمية⁽⁴⁾ ؛ إذ لم يرد عن العبَّاسيين أو غيرهم أنهم احتفلوا بها ، باعتبارها بدعة من البدع ، فلم يُؤثر عن الرسول (ﷺ) أنه كان يَحْتَفِلُ بها⁽⁵⁾ .

ولم تُبيِّن المصادر والمراجع - التي اطلعت عليها - أسباب احتفال الفاطميين بها ، وإن كنت أَرَجِّح أن احتفالهم بها كان توطئة أو مقدمة للاحتفال الأكبر وهو

(1) ابن الطُّوَيِّر : مصدر سابق ، ص 219 . كذلك المقرئزي : الخطط ، 218/2 .

(2) محمد عبد الله عِنَان : إحياء المولد النبوي الكريم بعض رسومه ومناظره في مصر الإسلامية ، مجلة الرسالة ، العدد 51 للسنة الثانية (القاهرة ، 1934م) ص 1048 .

(3) ابن الطُّوَيِّر : مصدر سابق ، ص 220 . كذلك القلقشندي : مصدر سابق ، 3 / 501 .

(4) القلقشندي : مصدر سابق ، 3 / 501 .

(5) حسن إبراهيم حسن : شهر رمضان في تاريخ الإسلام ، مجلة لواء الإسلام ، ص 49 .

شهر رمضان المُعظَّم ؛ حيث كان الفاطميون يصومون هذه الأيام كما يصومون رمضان⁽¹⁾، ويحيون لياليها بالأدعية والتراويل كما يُحيون ليالي رمضان . وفيها كان يُقام احتفالٌ رسميٌّ شبيهٌ إلى حدِّ كبير باحتفال المولد النبوي الشريف . حيث كان الخليفة يجلس في منظره عالية أُقيمت عند باب الزُمرّد من أبواب القصر ، وبين يديه شمّع ساطع يُرى وجهه على ضوءه . في حين يركب القاضي من داره بعد صلاة المغرب ، وقد أُنير بين يديه الشمع المحمول إليه من خزانة الخليفة ، ومقداره ستون شمعة كبيرة - وزن كل منها سدس قنطار - من كل جانب ثلاثون ، وبين الصفين مُؤذنو الجوامع يذكرون الله ويدعون للخليفة والوزير بترتيب مُقرّر محفوظ . ويحجب القاضي ثلاثة من نُواب الباب وعشرة من حُجّاب الخليفة وغيرهم . وفي ركابه القراء يقرؤون القرآن ، والشهود وراءه على ترتيب جلوسهم بمجلس الحكم الأقدم فالأقدم ، وحول كل منهم ثلاث شمعات أو شمعتان أو شمعة واحدة⁽²⁾ .

ويسير الموكب على هذا النحو وقد اجتمع حوله من الناس ما لا يُحصى عددهم من الرجال والنساء والأطفال⁽³⁾، إلى أن يصل المنظره التي بها الخليفة فيجلسون في رحبةٍ تحتها مُنتظرين رؤيته . عند ذلك تتم رسوم الاحتفال على منوال الاحتفال بالمولد النبوي الشريف تماماً ؛ من طلّة الخليفة من الطاقة وسلام الأستاذ -باسم الخليفة- على الموكب ، وقراءة قراء الحضرة ، وخطابة خُطباء الجوامع الثلاثة (الأنور والأزهر والأقمر) ، وأخيراً سلام الأستاذ إيذاناً بانتهاء الحفل

(1) إسماعيل ، عبّاس حلمي : القاهرة المُعزّية ، مجلة الأزهر ، العدد الأول للسنة الحادية والأربعون (القاهرة ، 1969م) ص 57 .

(2) القلقشندي : مصدر سابق ، 3 / 501 .

(3) ابن الطوّير : مصدر سابق ، ص 221 . كذلك المقريري : الخطط ، 2 / 294 .

، وإن كانت فحوى الخطب الملقاة تدور حول فضيلة الأشهر التي بها الليالي وتُختتم كالعادة بالدعاء للخليفة⁽¹⁾.

وبعد انفضاض الناس عن المنظرة ، يركب القاضي والشهود ومن معهم إلى دار الوزير ، الذي يكون جالساً في مجلسه ، فيُسلّموا عليه ويخطب الخطباء الثلاثة عنده بخطبٍ أخفّ مقاماً من خطب الخليفة ويدعون له ثم ينصرفون . في حين يذهب القاضي والشهود بصحبته إلى الفسطاط ، ويكون والي القاهرة في خدمته ، فيمر بجامع ابن طولون^(*) ويُصَلِّي فيه، وعند خروجه منه يجد والي الفسطاط في انتظاره لخدمته . فيكمل القاضي مسيره بالمرور على المشاهد فيتبرك بها، ثم يمضي إلى الجامع العتيق فيُصَلِّي به ركعتين ، ويوقد له التتور الفضة الذي به ، وهو تتورٌ عظيم جميل المنظر فيه نحو ألف وخمسمائة برّاقة ، وبأسفله نحو مائة قنديل . ثم يخرج من الجامع فإن كان مُقيماً بالفسطاط استقرّ بها ، وإن كان بالقاهرة انتظره والي القاهرة - في مكانه عند جامع ابن طولون - حتى يعود من الفسطاط ، فيستلمه من واليها ويسير في خدمته إلى أن يُوصِّله داره⁽²⁾.

وكان من مراسم الاحتفال بهذه الليالي أن يُصرف للجوامع ما يُستخدم للوقود فيها ، من الشمع والزيت وغيره ، بالإضافة إلى العطور والبخور كُلٌّ حسب مرتبته⁽³⁾. وكعادة الفاطميين في مثل هذه المناسبات كانت تُمدُّ أسمطة الطعام

(1) القلقشندي : مصدر سابق ، 501/3-502 .

(*) جامع ابن طولون : يقع داخل حدود القاهرة . بناه أحمد بن طولون سنة 259 هـ / 872م ، وأنفق عليه مائة وعشرين ألف دينار = ابن عبد الظاهر : الروضة البهية ، ص 67 .

(2) ابن الطُّويَر : مصدر سابق ، ص 221 . كذلك القلقشندي : مصدر سابق ، 502/3 . المقرئزي : الخطط ، 294/2 .

(3) ابن المأمون : مصدر سابق ، ص 63-64 .

ليجلس عليها الخليفة والوزير وكبار رجال الدولة⁽¹⁾، كما تُمد في أروقة المساجد والجوامع ، مُعبأة بمختلف أنواع الكعك والخشكناج والحلوى ، ويترك للعمامة والفقراء أخذ ما شاؤوا منها ، وتعم الصدقات الفقراء والمساكين والمتعبدين⁽²⁾.

فكانت هذه الليالي الأربع من أهبج الليالي وأحسنها ، يحضر الناس لمشاهدتها من كل أوب (ناحية) ، فيصل إليهم فيها أنواع من البر⁽³⁾، وكان الكثيرون منهم يحتشدون في الجامع الأزهر ، الذي يبدو في هذه الليالي كأنه شعلة من النور من كثرة ما أُوقد على سطحه وحول صحنه وحوافه من الشموع والتنانير والقناديل والمصاييح . وكان يُعقد في صحنه مجلسٌ حافلٌ بالفقهاء والعلماء والشهود والقراء والمنشدين برئاسة قاضي القضاة ، يرتلون فيه بالتلاوة والإنشاد إلى منتصف الليل . وكان الخليفة يبعث إليهم بسلال الأطعمة والحلوى ، وكذلك البخور . وكانت تُضاء جميع المساجد الأخرى فتبدو العاصمة الفاطمية القاهرة في هذه الليالي على أبداع ما يكون من الجمال والبهاء والإنارة⁽⁴⁾.

4- الاحتفال بشهر رمضان الكريم :

عَينَت الدولة الفاطمية بشهر رمضان عنايةً كبيرة ، واحتفت به احتفاءً لم يسبق له مثيلٌ من قبلٌ ولم يتكرر من بعدُ . فخصَّته بحفلاتٍ عظيمةٍ طوال أيامه ، فكانوا يحيون كل ليلة من لياليه لا تفوقهم إحداها بدون إحياء ، وكانوا يأتون من ضروب البرِّ والخير الشيء الكثير ، مما كان يعم الرعية كلها لا فرق بين غنيٍّ أم فقير .

(1) ابن المأمون : مصدر سابق ، ص 3 .

(2) المصدر نفسه ، ص 64 .

(3) علي مبارك : مرجع سابق ، ص 12 .

(4) المقرئزي : الخطط ، 290/2 - 291 .

وكان يُستعدُّ لاحتفالات رمضان منذ الثلاثة أيام الأخيرة من شهر شعبان . فكان يُعَهَّدُ إلى قضاة مصر خلالها بالطَّواف بالمساجد والمشاهد التي بالقاهرة والفسطاط والقرافة ، لتفقد ما أُجْرِيَ فيها من نظافة وإصلاح وفرش وتعليق قناديل وغيرها من دواعي الاستعدادات⁽¹⁾ . فإذا ما انقضى شعبان احتُفِلَ في أول يوم من رمضان بركوب الخليفة ، والأمر فيه من العرض واللباس والآلات والركوب والموكب ، وترتيبه والطرق المسلوكة خلال سيره على ما تقدم في ركوب أول العام من غير فرق . وكان هذا الركوب يقوم عند الفاطميين مقام الاحتفال برؤية الهلال عند أهل السنة⁽²⁾ .

وفي أول يوم من رمضان كان الخليفة يُهدي إلى جميع الأمراء وغيرهم من أرباب الوظائف ، وأولادهم ونسائهم، أطباقاً مملوءة بالحلوى في وسط كل منها صرة من ذهب ، فيعم ذلك سائر أهل الدولة ويُقال لها غرّة رمضان⁽³⁾ . وكانت المآدب والأسمطة مظهرًا من مظاهر الاحتفال بهذا الشهر المبارك ، حيث كان كرم الخلفاء والوزراء والأمراء وكبار رجال الدولة يتجلى فيه ، فكانت دورهم لا تخلو في كل ليلة من لياليه من إقامة المآدب الخاصة والعامة ، حتّى قيل إن ما يُنفقونه في هذا الشهر كان يفوق ما يُنفقونه في سائر شهور السنة⁽⁴⁾ .

وفي القصر الفاطمي كان يُقام "سَمَاط رمضان" بقاعة الذهب حيث يجتمع مجلس الملك ، وكان يُمدُّ من اليوم الرابع من هذا الشهر إلى آخره ، ويُخصَّص له

(1) المقريري : الخطط ، 350/2 .

(2) ابن الطَّوَّير : مصدر سابق ، ص 171 . كذلك القلقشندي : مصدر سابق ، 509/3 .

(3) المقريري : الخطط ، 351/2 .

(4) حسن إبراهيم حسن : شهر رمضان ، مجلة لواء الإسلام ، ص 47-48 .

ما مقداره ثلاثة آلاف دينار تُنفق في سبعة وعشرين يوماً⁽¹⁾. في حين وصل المنفق عليه في سنة 516هـ / 1122م ستة عشر ألفاً وأربعمائة وستة وثلاثون ديناراً⁽²⁾. وكان يُدعى إليه قاضي القضاة في ليالي الجمعة ، كما يُدعى إليه الأمراء وغيرهم من كبار الدولة ، كُلُّ بدوره حتى لا يُحرَم أحدٌ من الإفطار مع أهله وأولاده . ولا يحضر الخليفة هذا السَّمَاط ؛ إذ كان الوزير يُمَثِّلُهُ فيه ، فإن غاب الوزير ناب عنه ابنه أو أخوه ، فإن لم يحضر أحدٌ منهم كان صاحب الباب عوضاً عنهم . وكان هذا السَّمَاط من أعظم الأسمطة وأحسنها ، يُمدُّ من صدر القاعة إلى مقدار ثلثيها ، مُعبأً بأنصاف المأكولات والأطعمة الفاخرة ، التي من وفرتها حتى إن الجالسين عليه كانوا يحملون معهم ما يكفي لسحورهم ويتهادونهُ إلى أن يصل إلى الكثير من العامة⁽³⁾.

وبعد أن تنتهي حفلات الإفطار كان الخليفة الفاطمي يجلس في شرفة كبيرة إلى وقت السحور ، لسماع القراء وهم يتلون القرآن ويرتلونه بأصوات جميلة . ثم يحضر المؤذنون للتكبير والتغني بفضائل رمضان مُختتمين ذلك بالدعاء للخليفة . وبعدهم يأتي الوُعَاظ للقيام بنصيبتهم في ذكر فضائل الشهر ومدح الخليفة . ثم تُنصب حلقات الذكر ويظل الجميع على ذلك حتى مُنتصف الليل ، عندها يأمر الخليفة بأن تُوزَّع عليهم الهدايا والحلوى والقطائف ، فيأكلون ويحملون منها لأولادهم ، وعند السحور تُمدُّ للخليفة مائدة في مكان إفطاره ، ويحضر الجلساء ،

(1) ابن الطُّوَيِّر : مصدر سابق ، ص 211-212 . كذلك المقرئبي : الخطط ، 112/2 - 113 .

(2) المقرئبي : اتعاظ الحنفا ، 83/3 .

(3) ابن الطُّوَيِّر : مصدر سابق ، ص 211-212 . كذلك القلقشندي : مصدر سابق ، 527/3 . المقرئبي :

الخطط ، 112/2 ، 113 .

فيأمر الخليفة بأن يُوزَّع عليهم مما قُدِّمَ إليه من طعام على سبيل البركة لأولادهم وأهلهم ، ثم يأذن لهم بالانصراف⁽¹⁾.

وفي ليلة التاسع والعشرين من رمضان كانوا يحتفلون بليلة الختم ، التي لا يزال المسلمون في العالم الإسلامي يحتفلون بها إلى يومنا هذا . فكان الخليفة يدعو إخوته وعمومته والمُقرَّبين إليه لتناول الإفطار على مائدته، ويحضر الوزير كذلك . وفي هذا اليوم يصدر أمر الخليفة بمضاعفة ما هو مُقرَّر - للقارئ والمؤذنين في كل ليلة - برسم السحور بحكم أنها ليلة ختم الشهر . وبعد الإفطار يحضر القارئون والمؤذنون ويجلسون تحت الروشن المُعد لجلوس الخليفة ، ويبدوون بقراءة القرآن بأكمله تلاوةً وترتيلًا . وبعد ختمه يتبارى الخطباء في الدعاء للخليفة والإشادة بمناقبة ، ومن بعدهم المؤذنون الذين يُكَبِّرون ويُهلِّلون ، ثم يأخذون في إلقاء الأناشيد الصوفية إلى أن ينثر عليهم الخليفة الدراهم والدنانير ويأمر بخلع الخلع عليهم، كما يُقدِّم إليهم جفان القطائف والبسندود والحلواء فيأخذون منها إلى بيوتهم كعادتهم⁽²⁾.

وكما تمتع الخاصة بكرم الدولة الفاطمية في شهر رمضان ، كذلك العامة على اختلاف فئاتهم - ولاسيما الفقراء منهم - تمتعوا به فكان يخرج من مطبخ القصر الكبير خلاله حوالي ألف ومائتا قدر من مختلف أصناف الأطعمة لِتُفَرَّقَ عليهم⁽³⁾. وكان ينالهم من الهبات والصدقات فيه مما لا يُحصى كثرة⁽⁴⁾، لذلك

(1) ابن المأمون : مصدر سابق ، ص 82 . كذلك عبد الوهاب ، حسن : رمضان ، مجلة لواء الإسلام ، العدد الأول للسنة الأولى (القاهرة ، 1947م) ص 40 .

(2) ابن المأمون : مصدر سابق ، ص 83 . كذلك المقرئزي : الخطط ، 353/2 .

(3) المقرئزي : الخطط ، 598/2 .

(4) ابن عبد الظاهر : الروضة البهية ، ص 38 . كذلك المقرئزي : اتعاط الحنفا ، 83/3 .

كانوا ينتظرون حلوله لما فيه من وجوه الخير والبر ، وللتمتع والابتهاج باحتفالاته ولياليه ، حيث كانت المساجد تمتليء بالعُباد والزُّهاد ، وحركة الأسواق تنشط ليلاً ، وتنتشر صناعة الحلوى كالقطفائف والكنافة وغيرها⁽¹⁾.

وكان من أشهر مظاهر احتفال المصريين بشهر رمضان الفوانيس التي كانت تُضاء بالشموع ويحملها الناس في طريقهم للصلاة بالجامع ، وكان هناك فوانيس السحور التي تُوضع على مآذن الجوامع لِتُعَلِّمَ الناس وتُنَبِّهُهُم بامتداد فترة السحور إلى حين إطفائها ، فعند ذلك إيذاناً ببدء الصوم والإمساك عن الطعام⁽²⁾. هذا بالإضافة إلى الفوانيس التي يحملها الأطفال وهم يطوفون الحواري فرحين مُردِّدين كلمات الأغنية المشهورة " وَحَوِي يَا وَحَوِي"⁽³⁾.

5- الاحتفال بعيد الفطر المبارك :

كان للفاطميين في موسم عيد الفطر العديد من وجوه الخير ؛ كركوب الخليفة لصلاة العيد ، وتفرقة الفطرة ، وتوزيع الكُسوة، وعمل السِّمِاط⁽⁴⁾. وبلغ اهتمامهم بصلاة العيد أن أفردوا لها باباً خاصاً من القصر الكبير الشرقي ، يُسمَّى "باب العيد" يخرج منه الخليفة إلى المُصَلَّى^(*) للصلاة بالناس⁽⁵⁾.

(1) نجوى كيرة : مرجع سابق ، ص 317 .

(2) الكتبي : مصدر سابق ، 28/3-31 . كذلك نجوى كيرة : مرجع سابق ، ص 317 .

(3) جمال بدوي : مرجع سابق ، ص 7 .

(4) المقرئزي : الخطط ، 355/2 .

(*) مُصَلَّى العيد : يقع شرقي القصر الكبير خارج باب النصر من أبواب القاهرة . قام ببنائه جوهر الصقلي لأجل عيد الفطر لسنة 358 هـ / 968م. ثم جَدَّده الخليفة العزيز بعد ذلك وظَلَّت آثاره باقية إلى أيام المؤرخ المقرئزي (عصر المماليك) = المقرئزي : الخطط ، 257/2 .

(5) المقرئزي : مُسوِّدة الخطط ، ص 123-124 .

وكان الاهتمام بركوب صلاة العيد يبدأ منذ العشر الأواخر من شهر رمضان ، وهو عندهم ثلاثون يوماً غير نقصان . فكان إذا حلَّ الأول من شَوَّال سار صاحب بيت المال إلى المصلّى ، وفرش الطَّرَاحات بمحرابه وعلّق ستريين على يمينه ويساره ، في الأيمن سورة الفاتحة وسورة الأعلى ، وفي الأيسر الفاتحة وسورة الغاشية . ويُركّز في جانبي المصلّى لواءين مشدودين على رحمين مُلبَّسين بأنايب الفضة ، ويضع أعلى المنبر طَّرَاحة من شاميات أو ديبقي ، ويفرش باقيه بسترٍ من بياض⁽¹⁾ .

وبعد أن تتم هذه التجهيزات يسير الوزير من داره إلى قصر الخليفة ، ثم يركب الخليفة بميَّاته في المواكب العظام على ما تقدّم في أول العام من المِظلة والتاج وغير ذلك من الآلات ، ويكون لباسه الثياب البيض الموشَّحة . فيخرج من باب العيد محفوفاً بحاشيته ، ويسير إلى المصلّى ويدخل من شرقيه إلى مكانٍ يستريح فيه قليلاً ، ثم يسير إلى الحراب ووراءه الوزير والقاضي . فيصلي صلاة العيد بالتكبيرات المسنونه ، ويقرأ في الركعة الأولى ما في الستر الذي على يمينه ، وفي الثانية ما في الستر الذي على يساره ، فإذا فرغ وسلّم صعد المنبر لخطبة العيد ، وعندما ينتهي من الخطبة يعود في هيأته - التي أتى فيها إلى المصلّى - إلى قصره ، ويدخل من باب العيد الذي خرج منه ، ويجلس في الشباك الذي بالإيوان الكبير^(*) وقد مُدَّ فيه سِمَاط العيد⁽²⁾ .

(1) القلقشندي : مصدر سابق ، 512/3 . كذلك ابن تغري بردي : مصدر سابق ، 98/4 - 99 .

(*) الإيوان الكبير : بناء العزيز بالله سنة 369هـ / 979م . وبه كان جلوس الخلفاء الفاطميين بمجلس الملك إلى أيام الخليفة الأمر بأحكام الله ، حيث نقل الجلوس إلى قاعة الذهب (قصر الذهب) = المقريري : مُسَوِّدَةُ الخَطَط ، ص 69 .

(2) القلقشندي : مصدر سابق ، 513/3 - 514 . كذلك ابن تغري بردي : مصدر سابق ، 99/4 - 100 .

وكان من عادة الفاطميين في هذا العيد أن يُقيموا سِمَاطين ، أحدهما يُجهَّز من الليل ويُمدُّ بعد صلاة فجر يوم العيد ، ويبلغ طوله حوالي ثلاثمائة ذراع وعرضه سبعة أذرع مَلِيء بحلويات العيد المختلفة المعمولة بدار الفطرة من الخشكناج والبسندود والفانيد . فيأكل الناس منه دون منع أو حجر وينقلون منه إلى بيوتهم⁽¹⁾ .

أما السِّمَاط الثاني المُقدَّم ذكره ، فكان يُقام بعد صلاة العيد في وسط الإيوان ، وهو أكثر بهاءً وروعةً من السِّمَاط الأول ؛ حيث يجلس الخليفة أمام مائدة من الفضة يُقال لها "المدورة" ، تُوضع عليها أواني الذهب والفضة المملوءة بأفخم ألوان الطعام وأشهاها . وقبالة هذا السِّمَاط سِمَاطٌ آخر ضخم يبلغ طوله القاعة ، وعرضه عشرة أذرع ، وقد نُثرت عليه الأزهار والرياحين ، وصُنِّفت على جانبيه الأطباق الحافلة بصنوف الشواء والطيور والحلوى ، ويُوضع في وسطه واحد وعشرون طبقاً في كل طبق واحد وعشرون خروفاً ، ومن الدجاج ثلاثمائة وخمسون طائراً ومثلها من الحمام . ثم تُمدُّ في جنباته صحون من الخزف يبلغ عددها خمسمائة صحن في كل منها تسع دجاجات في ألوانٍ فائقة من الحلوى . ويوضع في أوله قطعتان من الحلوى على شكل قصرين يبلغ زنة كل واحد منها سبعة عشر قنطاراً . ويجلس على هذا السِّمَاط رجال الدولة وعظماؤها ، ويظل قائماً إلى وقت الظهر، فيصل منه الكثير إلى العامة حتى لا يبقى منه شيء⁽²⁾ .

(1) ابن الطُّوَيِّر : مصدر سابق ، ص 212-213 . كذلك القلقشندي : مصدر سابق ، 514/3 . المقرئزي :

الخطط ، 113/2 . ابن تغري بردي : مصدر سابق ، 101/4 .

(2) ابن تغري بردي : مصدر سابق ، 101/4-102 . كذلك حسن إبراهيم حسن : الاحتفال بعيد الفطر

في العصور الإسلامية ، مجلة لواء الإسلام ، العدد الثاني للسنة الثالثة (القاهرة ، 1949م) ص 48-49 .

وكان من عادة الفاطميين في هذا العيد أن يُوزَّعوا الكُسوات (الحُلل) على الوزراء والأمراء وسائر رجال الدولة وموظَّفوها على اختلاف مراتبهم، لذلك أطلقوا على عيد الفطر "عيد الحُلل" ، لأن الحُلل كانت تُعمُّ فيه جميع رجال الدولة دون استثناء ، بما فيهم أولادهم وزوجاتهم ، في حين كان في غيره من الأعياد للأعيان خاصة⁽¹⁾.

6- الاحتفال بعيد الأضحى المبارك :

كان إذا ما انقضى شهر ذي القعدة وأهلّ ذو الحجة، اهتمَّ الفاطميون بركوب عيد الأضحى (النَّحر)، وهو اليوم العاشر منه . فيجري حاله - من الزَّيِّ والترتيب والركوب إلى المصلَّى ، ثم خطبة الخليفة والعودة إلى القصر - كما في عيد الفطر من غير زيادة ولا نقصان ، ويكون لباس الخليفة فيه الأحمر المُوشَّح ، ومِظَلَّته كذلك⁽²⁾.

وبعد عودة الخليفة إلى القصر يخرج منه من جديد فيجد الوزير راكباً في انتظاره . فيترجّل الوزير ويمشي في خدمته إلى المنحرجوار القصر ، وهو عبارة عن فضاء واسع لائناء فيه إلا مصطبة مفروشة ، فيطَّلع عليها الخليفة والوزير وقاضي القضاة والأستاذون المُحنِّكون وأكابر الدولة . ويكون قد سبق إلى المنحرجوار قبل قدوم الخليفة واحد وثلاثون فصيلاً وناقاة للأضحية. فتقدّم الأضحى للخليفة واحدة بعد الأخرى، فيذبحها بيده حتى يأتي عليها جميعاً⁽³⁾.

(1) ابن المأمون : مصدر سابق ، ص 48 - 53 .

(2) القلقشندي : مصدر سابق ، 515/3 .

(3) ابن الطَّوَّير : مصدر سابق ، ص 183-184 .

وفي اليوم الثاني كان الخليفة يركب إلى المنحر مرة أخرى ، ويذبح بيده سبعة وعشرين أضحية ، كما يذبح في اليوم الثالث ثلاثة وعشرين . فإذا ما انقضى ثالث أيام النحر يعود الخليفة إلى القصر ، وهناك يجلس على الوزير عمامته وثيابه الحمر التي كانت عليه يوم العيد ، بالإضافة إلى عقدٍ منظومٍ بالجواهر . فيركب الوزير بالخلعة من القصر شاقاً القاهرة حتى يصل إلى دار الوزارة⁽¹⁾.

وكان إلى جانب الأضاحي التي يذبحها الخليفة بيده ، أضاحي أخرى تُذبح يبلغ عددها بالآلاف⁽²⁾. حيث جرت الرسوم منذ عصر الخليفة العزيز⁽³⁾، على أن تُوزَّع لحوم الأضاحي على موظفي الدولة وطلبة العلم والقائمين بشؤون المساجد والجوامع - على يد قاضي القضاة وداعي الدعاة - في أطباقٍ خاصة للتبرك⁽⁴⁾. هذا إلى جانب ما كان يُوزَّع على الفقراء والمساكين في القرافة وغيرها⁽⁵⁾.

أما أول أضحية يذبحها الخليفة فكانت تُقدِّد وتُرسل إلى داعي اليمن ، ليوزَّعها على من هناك من الشيعة قطعاً صغيرة تتراوح فيما بين نصف درهم ، وربع درهم للتبرك أيضاً⁽⁶⁾.

ومن رسوم الاحتفال بهذا العيد أن يُقام في أول يوم النحر سِمَاطٌ كبير يحضره الخليفة والوزير وكبار رجال الدولة ، ويُدعى إليه الكثير من أفراد الشعب

(1) ابن الطُّوَّير : مصدر سابق ، ص 184-185 . كذلك القلقشندي : مصدر سابق ، 3/ 515 . المقرئ : الخطط ، 226/2-227 .

(2) ابن المأمون : مصدر سابق ، ص 41-42 . كذلك المقرئ : تعاط الحنفا ، 3/ 95 .

(3) المقرئ : تعاط الحنفا ، 1/ 269 . كذلك المقرئ : الخطط ، 2/ 224 .

(4) ابن الطُّوَّير : مصدر سابق ، ص 184-185 . كذلك القلقشندي : مصدر سابق ، 3/ 516 .

(5) ابن المأمون : مصدر سابق ، ص 41 ، 42 . كذلك المقرئ : الخطط ، 2/ 226 .

(6) القلقشندي : مصدر سابق ، 3/ 515-516 . كذلك المقرئ : الخطط ، 2/ 227 .

على النحو الذي كان مُتَّبَعاً في عيد الفطر⁽¹⁾. ويليه في اليومين التاليين العديد من الأسمطة - وإن كانت أقل مقاماً - يُمدُّ بعضها في بعض أنحاء القصر وبعضها الآخر في دار الوزير⁽²⁾. كما اهتمت الدولة بتوزيع الكُسوات بيد أنّها في هذا العيد مُخصّصة لبعض الأعيان من رجال الدولة فقط⁽³⁾.

(1) القلقشندي : مصدر سابق ، 527/3-528 . كذلك ابن تغري بردي : مصدر سابق ، 101/4-102 .

(2) ابن المأمون : مصدر سابق ، ص 26 .

(3) المصدر نفسه ، ص 25 ، 40 .

المبحث الثاني : المناسبات والأعياد الشيعية الخاصة

أسسَ الفاطميون دولةً شيعية في مصر تختلف في مذهبها عن مذهب الشعب المصري السني والأكثر عدداً ، فكان لزاماً عليهم كي يُحافظوا على تقوية الدعوة في نفوس أتباعهم وتجديدها ، أن يعملوا على إبقاء ذكريات مذهبهم الشيعي منذ ظهوره وصراعه إلى أن أصبح دولةً كبرى ، فنجحوا في ذلك من خلال مناسبات جعلوا منها أعياداً رسمية تُحييها الدولة ، وإن كانت تتمحور في أوساطهم الخاصة⁽¹⁾. وهذه المناسبات هي :

1- عيد الغدير :

هذا العيد ذو صلة وثيقة بنشأة المذهب الشيعي ، فهو يُعيد ذكرى وصاية النبي (ﷺ) لعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه) في إمامة المسلمين من بعده - كما يعتقد الشيعة - في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة ، بعد حجة الوداع بمكانٍ بين مكة والمدينة يُعرف باسم "غدير خم"⁽²⁾.

وقد احتفل بهذا العيد لأول مرة في مصر في أيام الخليفة المعز لدين الله سنة 362هـ / 972م⁽³⁾. وكان من رسومه أن يُحيوا ليلته بالصلاة ، وفي صبيحته

(1) عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ، 125/2-126 .

(2) يُنظر الفصل الثاني من هذا الكتاب ، ص 119 ، هامش (*) . كذلك القلقشندي : مصدر سابق ، تحقيق محمد عبد الرسول إبراهيم ، المطبعة الأميرية الكبرى (القاهرة ، 1913م) 407 / 2 .

(3) المقرئزي : اتعاط الحنفا ، 142/1 . ولم يكن للفاطميين فضل في ابتداء عيد الغدير ، حيث إن أول من احتفل به معز الدولة ابن بويه في العراق ، وكان قد أحدثه سنة 352 هـ / 963م ، فاتخذه الشيعة من حينئذ عيداً = المقرئزي : الخطط ، 116/2 .

يُصلُّون ركعتين قبل الزوال ، ثم يهتمون بركوب الخليفة ورجال الدولة والمتشيعين إلى الإيوان الكبير - دون خروج عن القاهرة - للاستماع لخطبة قاضي القضاة⁽¹⁾. وكان موكب الخليفة لا يتحرك إلا بعد دخول الوزير القصر ، الذي كان يُستدعى بالاستدعاء الذي جرت به العادة ، فيسرع بتقديم احترامه ، ويذهب ليأخذ مكانه في الموكب ، الذي يتحرك مباشرةً وعلى رأسه الخليفة بغير مظلة وبدون آلات الركوب ، وحواليه الحرس ومن وراءه الأمراء وطوائف العسكر (الفرسان والرجالة) ، ثم الوزير وحاشيته ورجال القصر والحُجَّاب ، ويكون عدد الجند في هذا الركوب أكثر من سبعة آلاف ، كلهم بالأزمنة والبنود والرايات والأسلحة وغيرها بترتيب مريح مُستحسن⁽²⁾.

فيجد الخليفة القاضي - وقد لبس بدلة مُميزة في هذا اليوم - والشهود في انتظاره عند الدهليز الذي يُؤدي إلى الإيوان الكبير فيُسلم القاضي على الخليفة بتقبيل رجله الواحدة التي من جهته ، والشهود واقفون أمام رأس دابة الخليفة غير بعيد . فيدخل الخليفة والمشركون في الموكب إلى الإيوان الذي يكون قد فُرش بالستور ، فيجلس في الشباك وهو ناظر إلى القوم . ويتجه القاضي إلى كرسي الدعوة ، الذي يشبه المنبر فيه تسع درجات ، فيجلس عليه وأمامه الشهود والأمراء وأكابر الأجناد والمتشيعين وغيرهم . ويأخذ الوزير وحاشيته مكانهم قريباً من كرسي الدعوة ، فإذا ما أخذ الجميع أماكنهم قرأ قاضي القضاة نصَّ وصاية النبي (ﷺ) لعلي بن أبي طالب (عليه السلام) بزعمهم ، فإذا فرغ نزل عن الكرسي وصلى بالحاضرين ركعتين . وعندما تنقضي الصلاة يقوم الوزير إلى الشُّباك ليقدم فروض

(1) المقريري : الخطط ، 117/2 - 118.

(2) ابن الطَّوَّير : مصدر سابق ، ص 186-187 .

الولاء للخليفة من جديد ، ثم ينفض الحاضرون - المتشيعون - بعد تبادل التهاني بينهم ، وهذا العيد عندهم أعظم من عيد النحر (الأضحى) وفيه يَنحَر أكثرهم⁽¹⁾ .
بعد ذلك كان الخليفة يتوجه لذبح الأضاحي بالرسوم نفسها التي كانت تُتبع في عيد الأضحى إلى أن يخلع ثيابه على الوزير . ثم يُقام بعدها سِمَاطين على حكم سِمَاط أول يوم عيدي الفطر والأضحى ، بالإضافة إلى آخر ثالث مُخصَّص للخليفة وأقاربه وحاشيته⁽²⁾ .

وكان من رسومه توزيع التَّحائر (الأضاحي) على رجال الدولة وتفريق الكُسوات عليهم ، بالإضافة إلى الهبات والأموال . وفيه تَعْمَل الدولة على تزويج الأيامي ، وعتق الكثير من الرقاب ، وغيرها من ضروب البرِّ والخير⁽³⁾ . لذلك كان عيد الغدير من أسعد الأعياد عند الشيعة وأفضلها ، لما كان يحفل به من مظاهر الكرم والسُّرور والغبطة⁽⁴⁾ .

2- الاحتفال بالموالد الأربعة :

وهي مولد الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) في 13 من شهر رجب ، ومولد السيدة فاطمة الزهراء (رضي الله عنها) في 20 من جمادى الآخر ، ومولد الحسين بن علي (عليه السلام) في 5 من ربيع الأول ، ومولد الحسن بن علي (عليه السلام) في 15 من شهر رمضان⁽⁵⁾ .

(1) المقريري : الخطط ، 118/2-119 . كذلك عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ، 127/2-128 .

(2) ابن المأمون : مصدر سابق ، ص 43 .

(3) المصدر نفسه ، ص 42-44 . كذلك المقريري : الخطط ، 355/2 .

(4) أحمد شليبي : موسوعة النظم والحضارة الإسلامية ، مكتبة النهضة المصرية ، ط 8 (القاهرة ، 1987م) ص 5 / 425 .

(5) المقريري : الخطط ، 117/2 . كذلك أيمن فؤاد سيد : مرجع سابق ، ص 371 .

وكانت هذه الموالد من المواسم الجليلة لدى الفاطميين ، يجري الاحتفال بها - لعدم التكرار - كالاحتفال بالمولد النبوي الشريف تماماً من غير زيادة ولا نقصان⁽¹⁾.

3 - الاحتفال بذكرى مقتل الحسين بن علي (عليه السلام) (يوم عاشوراء) :

يوم عاشوراء هو اليوم العاشر من محرم من كل عام هجري . وهو يومٌ معظمٌ في الجاهلية والإسلام . كان العرب يرون فيه يوماً مُفضلاً له ميزة خاصة على الكثير من الأيام ؛ فقد رَوَى الإمام مالك (93-179 هـ/711-795م) في الموطأ أن عائشة (رضي الله عنها)، قالت : " كان يوم عاشوراء يوماً تصومه قريش في الجاهلية، وكان رسول الله (ﷺ) يصومه . فلما قدم رسول الله (ﷺ) المدينة صامه وأمر بصيامه ، فلما فرضَ رمضان كان هو الفريضة ، وثُرِكَ يوم عاشوراء ، فمن شاء صامه ومن شاء تركه " ⁽²⁾. وكان الرسول (ﷺ) قد أوصى المسلمين بصيام يوم قبله أو بعده حتى لا يتشبهوا باليهود الذين كانوا يصومونه هم أيضاً⁽³⁾. وقد وافق في ذكرى يوم عاشوراء من العام الواحد والستين من الهجرة/ ستمائة وثمانون ميلادية ، مقتل الحسين بن علي (عليه السلام) في مواجهة مع جيش الخليفة الأموي يزيد ابن معاوية (60- 64 هـ/679-683م) في موقعة كربلاء

(1) المقرئزي : الخطط ، 218/2 .

(2) مالك بن أنس : الموطأ "رواية يحيى بن يحيى الليثي الأندلسي" ، حققه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه بشّار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي ، ط2 (بيروت ، 1997م) 402/1 .

(3) ابن بطّال ، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك : شرح صحيح البخاري ، ضبط نصّه وعلّق عليه أبو تميم ياسر بن إبراهيم ، مكتبة الرشد (الرياض ، بدون تاريخ) 142/4-143 . كذلك أحمد شلبي : موسوعة النظم ، مكتبة النهضة المصرية ، ط5 (القاهرة ، 1986م) 171/7 .

بالعراق⁽¹⁾. وقد حزن الشيعة لمقتله حزناً شديداً ، وظلوا يقيمون المآتم في ذكرى هذا اليوم من كل عام ، ويعتبرونه يوم حزنٍ عام ، يطوفون فيه الأسواق ويندبون ويكفون وينشدون ، ولازال الأمر على هذا إلى يومنا الحاضر في إيران والعراق حيث يسود المذهب الشيعي⁽²⁾.

وفي مصر لما قامت الدولة الفاطمية اتّخذ الاحتفال بذلك اليوم شكلاً رسمياً، وأصبحت الدولة تُحييه وتعتبره عيداً من أعيادها المنصوصة . بيد أنه على العكس من الأعياد الأخرى ، كان عيد حزن وبكاء ، ففيه كانت تُعطل الأسواق ، وتُقفل الدكاكين ، ويخرج الناس ومعهم المنشدون إلى الجامع الأزهر ، فتتعالى أصواتهم بالنحيب والنوح والنشيد . وعندما نُقل رأس الحسين (عليه السلام) إلى القاهرة ، وُبني لها المشهد الحسيني في أواخر الدولة ، كان خروج الناس إلى هذا المشهد لا إلى الجامع الأزهر⁽³⁾.

أما عن صفة إحياء هذا اليوم داخل القصر الفاطمي ، فمن رسومه أن يحتجب الخليفة عن الناس إلى أن يعلو النهار ، عندها يركب قاضي القضاة والشهود وقد لبسوا قماش الحزن (ملابس الحداد) ، ويذهبوا إلى المشهد الحسيني وكانوا قبل ذلك يذهبون إلى الجامع الأزهر . فإذا ما جلسوا فيه - بمن معهم من الأمراء والأعيان وقراء الحضرة والمتصدرين في الجوامع - جاء الوزير وجلس في صدر المكان وعلى جانبه القاضي والداعي. عندئذ يبدأ القراء في قراءة القرآن ، ومن بعدهم يُنشِدُ جماعة من الشعراء شعراً في رثاء آل البيت (عليهم السلام) لمدة ثلاث

(1) السيوطي : تاريخ الخلفاء، راجعه وعلّق عليه جمال محمود مصطفى ، دار الفجر للتراث (القاهرة ، 1999) ص 164- 165 .

(2) جمال الدين الشيال : دراسات في التاريخ الإسلامي ، ص 85 .

(3) المرجع نفسه ، ص 85- 86 .

ساعات ، يُستدعون بعدها إلى القصر عند الخليفة . فيركب الوزير مُنصرفاً إلى داره في حين يدخل قاضي القضاة والداعي ومن معهما إلى باب الذهب من أبواب القصر، فيجدون الدهاليز قد فُرِشَتْ بالحصور بدلاً من البسط ، وصاحب الباب جالسٌ هناك . فيجلس القاضي والداعي إلى جانبه ، ثم يجلس سائر الناس ، فإذا اكتمل الجمع بدأ القراء يقرؤون والمنشدون ينشدون للمرة الثانية . ثم يُمدُّ سِمَاطٌ يُسمَّى "سِمَاطُ الحزن" ؛ لأنه يُختلف عن أسمطة الاحتفالات الأخرى ، فلا تُقدَّم فيه الحلوى والأطعمة الفاخرة ، وإنما تُقدَّم فيه ألف زبدية تحتوي على العدس والملوحات والمخلَّلات والأجبان والألبان الساذجة وعسل النحل ، والخبز والفطير المصنوعين من الشعير ، وقد غُيِّرَ لونهما قصداً . فإذا قرب الظهر أدخل صاحب الباب الناس والحصور للأكل من هذا السِّمَاط⁽¹⁾ .

وكان الخليفة الفاطمي يحضر السِّمَاط وهو جالسٌ على كرسي من الجريد بغير مخدَّة ، مُثلثاً هو وجميع رجال حاشيته . فيسلِّم عليه الوزير والأمرء والقاضي والداعي والأشراف وهم مُلثَّمون حفاة ، وكان يُبدي على وجهه أبلغ مظاهر الحزن والأسى⁽²⁾ . فإذا ما فرغ القوم من السِّمَاط انصرفوا بذلك الزِّي الذي ظهروا فيه من قماش الحزن ، في حين يطوف التُّوَّاح بالقاهرة ، ويغلق الباعة حوانيتهم إلى ما بعد العصر ، والتُّوَّاح لا يزال قائماً بجميع شوارع القاهرة وأزقتها ، فإذا ما فات العصر فتح الناس دكاكينهم وتصرفوا في بيعهم وشرائهم⁽³⁾ .

(1) ابن الطُّوَّير : مصدر سابق ، ص 223-224 . كذلك ابن تغري بردي : مصدر سابق ، 152/5-153 .

(2) ابن المأمون : مصدر سابق ، ص 35، 59 . كذلك المقرئبي : الخطط ، 213/2 .

(3) ابن الطُّوَّير : مصدر سابق ، ص 224 . كذلك ابن تغري بردي : مصدر سابق ، 153/5 .

ومن عادة الفاطميين في يوم عاشوراء أنهم كانوا ينحرون الإبل والبقر والغنم عند مشهد الحسين ويوزعون لحومها على الفقراء والمساكين⁽¹⁾. ولما زالت الدولة الفاطمية وقامت الدولة الأيوبية - وهي سنية المذهب - اتخذت سلاطينها من هذا اليوم يوم سرور يُوسعون فيه على عيالهم ويكثرون من الأطعمة الفاخرة ، ويصنعون صنوف الحلوى ، ويتخذون الأواني الجديدة ، ويكتحلون ويدخلون الحمام ، وذلك جرياً على عادة أهل الشام التي سنّها لهم الحجاج بن يوسف الثقفي (40 - 95 هـ / 660 - 713 م) ، في أيام الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (65 - 86 هـ / 684 - 705 م) ، ليرغموا بذلك أنوف شيعة علي بن أبي طالب (عليه السلام) الذين اتخذوه يوم عزاء وحزن⁽²⁾. وقد ظلّ الأمر في مصر - في طريقة الاحتفال بيوم عاشوراء - على النمط الذي رسمه الأيوبيون مُتبعاً طوال عصر المماليك والعصور التالية لهم إلى وقتنا الحاضر⁽³⁾.

(1) المقريري : الخطط ، 204/2 . كذلك حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص 655 .

(2) المقريري : الخطط ، 348/2 - 349 .

(3) جمال الدين الشيال : دراسات ، ص 87 . كذلك السندوبي ، حسن : تاريخ يوم عاشوراء ، مجلة لواء الإسلام ، العدد الخامس للسنة الثانية (القاهرة ، 1948م) ص 50 .

المبحث الثالث : احتفالات أهل الذمة وأعيادهم

كان لأهل الذمة في مصر الكثير من الأعياد التي يحتفلون بها ، فالأقباط منهم كان لهم أربعة عشر عيداً شرعياً في كل سنة من سنيهم القبطية ، منها سبعة يُسمونها أعياداً كباراً ، وسبعة يُسمونها أعياداً صغاراً . والأعياد الكبار هي : عيد البشارة ، وعيد الزيتون (الشّعائين) ، والفصح ، وخميس الأربعين ، وعيد الخميس ، والميلاد ، والغطاس . أما الصغار فهي : عيد الختان ، وعيد الأربعين ، وخميس العهد ، وسبت النور ، وأحد (حدّ) الحدود ، والتجلي ، وعيد الصليب . هذا بالإضافة إلى مواسم أخرى هي عندهم ليست من الأعياد الشرعية وإنما من المواسم العادية ، ومنها يوم النيروز⁽¹⁾.

في حين كان لليهود سبعة أعياد ، منها ما نطقت به التوراة بزعمهم وهي خمسة : عيد رأس السنة اليهودية ، وعيد صوماريا (الكبور) ، وعيد المظلة ، والفطير (الفصح) ، وعيد الأسابيع ويُسمى أيضاً العنصرة وعيد الخطاب . ومنها ما أحدثوه زيادةً على ما زعموا أن التوراة نطقت به ، وهما عيدان : عيد الفوز ، وعيد الحنكة⁽²⁾.

وسيقترن حديثي في هذا المبحث على بعض هذه الأعياد ، ولاسيما تلك التي شارك في الاحتفال بها الكثير من المسلمين من الشعب المصري ، والتي جعلت منها الدولة الفاطمية أعياداً رسمية يُحتفل بها في أوقاتها إلا في بعض الفترات .

(1) للمزيد يُنظر المقريري : الخطط ، 732/1-738.

(2) للمزيد يُنظر القلقشندي : مصدر سابق ، 426/2-428 .

فكانت هذه الأعياد - بما يحدث فيها من احتفالاتٍ شعبية كبيرة ومن لهو وتسلية - كأنها للمصريين كافة.

ويلاحظ أنها كانت كلها من أعياد القبط ، فلم يُورد الكتاب والمؤرخون أيَّ عيداً لليهود قام الفاطميون بإحيائه ، أو شارك فيه المسلمون من المصريين . ويبدو ذلك لِقلة تأثيرهم في المجتمع المصري ، حيث كان عددهم قليلاً يُعدُّ بالآلاف ، مقارنةً بالأقباط الذين شكّلوا أقلية نشطة كبيرة العدد - لها تأثيرها الواضح في المجتمع - تُقدَّر بحوالي ثلث سكان مصر في العصر الفاطمي⁽¹⁾ .
ومن أشهر الأعياد القبطية التي احتُفلَ بها في العصر الفاطمي :

1- عيد الثوروز (النيروز) :

الثوروز - في الأصل - هو أعظم أعياد الفرس وأجملها ، يُقال إن أول من اتَّخذه جمشيد أو جمشاد أحد ملوكهم الأول⁽²⁾ . وهو رأس السنة الشمسية عندهم وأول شهر فرودين ماه ، ويُسمَّون هذا اليوم هرمزاً وهو اسم من أسماء الله تعالي⁽³⁾ . ويبدو أن الأقباط اتخذوا هذا اليوم عيداً على طريقة الفرس واستعاروا اسمه منهم ، فسَمَّوا اليوم الأول من الشهر الأول من سنتهم (1توت / الحادي عشر أو الثاني عشر من سبتمبر) نيروزاً وجعلوه عيداً من أعيادهم المشهورة في مصر⁽⁴⁾ . وكان الاحتفال به يأخذ طابعاً شعبياً كبيراً في مصر ؛ حيث كان الكثير من المسلمين يشاركون النصارى فيه، فتتعطَّل حركة الأسواق ويقلَّ سعي الناس في

(1) سلام شافعي محمود : مرجع سابق ، ص 7 (من المقدمة) .

(2) النويري : مصدر سابق ، تحقيق مُفيد قميحة ، دار الكتب العلمية (بيروت ، 2004م) 175/1 .

(3) القزويني : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات (بيروت ، 2000م)

ص 77 .

(4) القلقشندي : مصدر سابق ، 419/2 .

الطرقا⁽¹⁾. إذ كان من عادة المحتفلين أن يخرجوا ليلته إلى البساتين والحدائق ليُمتنعوا أنفسهم بروائح الأزهار ومنظرها ، ويظلّوا هناك وهم في فرحٍ ومرحٍ يُغنون ويرقصون الليل كله انتظاراً لطلوع فجر النيروز⁽²⁾.

ومن مظاهر الاحتفال به أن ينتخب العامة رجلاً يُسمونه "أمير النيروز" ، يطلي وجهه بالدقيق أو الجير ، ويرتدي ثوباً أحمر أو أصفر ، يركب في الشوارع على حمارٍ ومعه جمعٌ كبير ، فيتسلط على الناس في طلب رتبة وفي يده دفتر مثل دفتر المحتسب ، فمن لم يدفع الرسم يُرَشُّ بالماء الممزوج بالأقذار⁽³⁾. وفيه أيضاً يجتمع المحتفلون تحت قصر اللؤلؤة بحيث يشاهدهم الخليفة وبأيديهم الملاهي والألعاب . وكانوا يشربون الخمر والمزِر في الشوارع والطرقا⁽⁴⁾ شرباً ظاهراً دون حياء . والعامّة يتراشون بالخمر والماء القذر وإن أخطأ مستور وخرج من بيته لقيه من يرشّه بالماء ويُفسد ثيابه ويستخف بجرمته ، فإمّا أن يفدي نفسه وإمّا أن يلقى مالا يُرضيه . وكان أهل المنكر يجدون في هذا العيد مُتنفّساً لهم ، فيرتكبون فيه الكثير من المعاصي في البيوت والخمّارات وغيرها⁽⁴⁾.

لذلك وضع بعض الخلفاء الفاطميين قيوداً حول بعض مظاهر الاحتفال به ، لكي يجتدوا من الفجور والعهور ، ففي سنة 363 هـ / 973م منع الخليفة المعز الناس من وقود النيران ليلة النيروز ، ومن صب الماء في يومه⁽⁵⁾. بيد أنه في السنة

(1) المقريري : الخطط ، 356/2 .

(2) عبد المجيد ، عبد العزيز : النيروز في التاريخ والأدب ، مجلة الكتاب ، العدد الرابع للسنة السادسة (القاهرة ، 1951م) المجلد العاشر ، ص 407 .

(3) المقريري : الخطط ، 357/2 . كذلك آدم متز : مرجع سابق ، 294/2 .

(4) المقريري : الخطط ، 357/2-358 .

(5) المقريري : اتعاظ الحنفا ، 214/1 . كذلك ابن إياس : مصدر سابق ، 36/1 .

التي تليها خرج الناس في الاحتفال به عن المألوف ، إذ زاد اللعب بالماء وكثر وقود النيران ، وطاف أهل الأسواق ومعهم الملاهي ، وخرجوا إلى القاهرة بلعبهم وأظهروا السَّمَاجات في اللعب بالأسواق ، واستمروا على ذلك لمدة ثلاثة أيام ، فتجددت أوامر الخليفة المعز وئودي في الناس بالكفّ عن كل ما يحدث ، وأنزل العقاب بمن لم يمتثل للنداء ، فَحَسِبَ قومٌ في حين طيفَ بآخرين على الجمال للتشهير بهم⁽¹⁾.

وكذلك أصدر الخليفة الحاكم أوامره بمنع النصارى من الاحتفال به على شواطئ النيل ، كما حرّم الألعاب التي كانت تُقام عند إحيائه⁽²⁾. ولم يختلف الخليفة الظاهر عن أبيه الحاكم - على الرغم من سياسته المضادة له - في فرض قيودٍ على الاحتفال بهذا العيد ، ففي اليوم التاسع عشر من جمادى الآخرة سنة 415 هـ / 1024م ، أمر بضرب الأجراس في آخر النهار بألاّ يلعب أحدٌ بالماء في يوم النيروز ، سواء في مدينة الفسطاط أم القاهرة⁽³⁾.

وعلى الرغم من تشدد هؤلاء الخلفاء في مظاهر الاحتفال بهذا العيد ، إلاّ أنّ خلفاء العصر الفاطمي الثاني اهتموا به وجعلوا منه عيداً رسمياً . فقد ذكر ابن ميسّر (م: سنة 677 هـ/1278م) أن الخليفة الأمر بأحكام الله قد احتفل في سنة 516هـ/ 1112م ، بالنيروز احتفالاً عظيماً حسب رسومٍ معروفة . وكان من رسومه أن تُجلب الكسوة مخصوصة من دور الطراز للخليفة وجهاته⁽⁴⁾، وكذلك لرجال الدولة وأرباب الوظائف مع نسائهم وأولادهم . بالإضافة إلى ما كان يُوزّع

(1) المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، 224/1 . كذلك المقرئزي : الخطط ، 356/2 .

(2) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص 662 .

(3) المسيحي : مصدر سابق ، 46/1 . كذلك المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، 149/2 .

(4) ابن ميسّر : مصدر سابق ، ص 92 .

عليهم من الأموال ، وأصناف الأطعمة والفواكه ، المتمثلة في البطيخ والرمان والموز والتمر والعنّاب والسفرجل ، ومن الهرائس مختلفة الأنواع من لحوم الدجاج والضأن والبقرة ، تُفرّق جمعياً مع الخبز ، فيشمل ذلك الجميع ممّن لهم جاهٌ ورسمٌ في الدولة⁽¹⁾.

2- عيد الميلاد :

وهو اليوم الذي وُلِدَ فيه المسيح عيسى بن مريم (عليه السلام) ، في بيت لحم (قرية من أعمال فلسطين) كما يقول النصارى . ويحتفل به قبط مصر في التاسع والعشرين من كيهك/ السابع من يناير . وهم يقولون إنه وُلِدَ يوم الإثنين ، فيجعلون عشيةً الأحد ليلة الميلاد فيوقدون فيها المصابيح بالكنائس ويزيّنونها⁽²⁾.

وهذا العيد من الأعياد المشهورة في مصر الفاطمية ، دأبت الحكومة على الاحتفال به . ومن رسومه تفرقة الحلويات القاهرية ، والمتارد التي فيها السمك ، وصحون الزلابية ، بالإضافة إلى سمك البوري وشراب الجلاب ، فيشمل ذلك جميع رجال الدولة وأرباب الوظائف من أصحاب السيوف والأقلام بتقريرٍ معلومٍ لكل منهم⁽³⁾.

وكان من عادة النصارى في ليلة الميلاد اللعب بالجوز ، وإشعال النيران واللعب بها⁽⁴⁾. ومن أحسن ما قيل في ذلك :

(1) ابن المأمون : مصدر سابق ، ص65 . كذلك المقرئزي : الخطط ، 357/2 .

(2) القلقشندي : مصدر سابق ، 416/2 .

(3) المقرئزي : الخطط ، 359/2 .

(4) ابن بابويه القمي ، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى : عِلل الشرايع ، قَدّم له محمد صادق بحر العلوم ، المكتبة الحيدرية (النجف ، 1966م) 79/1 .

ما اللعب بالنار في الميلاد من سفه
ففيه بهت النصرى أن ربهم
وإنما فيه للإسلام مقصود
عيسى بن مريم مخلوق ومولود⁽¹⁾.

3- عيد الغطاس :

يحتفلون به في اليوم الحادي عشر من شهر طوبة/ التاسع عشر أو العشرين من يناير . ويقولون إن يحيى بن زكريا (عليه السلام) - والمعروف عندهم ببوحنا الممداني - عمّد فيه المسيح عيسى (أي غسّله) في بحيرة الأردن ، وعندما خرج المسيح (عليه السلام) من الماء اتّصل به روح القدس على هيئة حمامة . فاتّخذه النصرى لذلك عيداً ، وصاروا يغمسون أولادهم في الماء في مثل هذا اليوم من كل عام ، ويتزلون فيه بأجمعهم ، ولا يكون ذلك إلا في شدة البرد⁽²⁾، حيث يرون فيه وقاية من الأمراض وطرداً للداء⁽³⁾.

وليلة الغطاس هذه من أحسن الليالي وأشملها سروراً في مصر . كان الناس يجتمعون فيها عند شاطيء النيل ، فتتنصب الخيام هناك على جانبيه ، وتوضع الأسيرة لأعيان القبط من الرؤساء . وكان البحر يمتليء بالمراكب والزوارق ، يجتمع فيها السواد الأعظم من الخاص والعام من المسلمين والنصارى . فإذا دخل الليل تُزِينُ المراكب بالقناديل وتُشْعَلُ فيها الشموع ، وكذلك على جوانب الشطوط من برّ مصر وجزيرة الروضة . وكان يُنْفَقُ في تلك الليلة من الأموال ما لا يُحصى في المآكل والمشرب ، ويتجاهر الناس بشرب الخمر ، ويجتمع أصحاب الملاهي

(1) المقريري : الخطط ، 735/1.

(2) النويري : مصدر سابق ، 181/1 . كذلك القلقشندي : مصدر سابق ، 416/2 . المقريري : الخطط ، 735/1 - 736.

(3) المسعودي : مصدر سابق ، 359/1 . كذلك المقريري : الخطط 736/1 .

والألعاب من كل فن ، فيخرج الناس فيها عن الحدّ في اللهو والفرجة . وبعد العشاء كانوا يغطسون في النيل جميعاً النصرارى مع المسلمين⁽¹⁾ . وكانت الحكومة الفاطمية تُحافظ على الأمن في هذه الليلة ، وتحرص على راحة المحتفلين الأقباط ؛ فكان مُتولّي الشرطة يركب في موكبٍ كبيرٍ مُتحمفاً بالشموع والمشاعل ، ويطوف شوارع القاهرة ، وهو يُنادي في الناس بأن لا يختلط المسلمون مع النصرارى عند نزولهم في الماء ليلاً ، ولا يُنكّدوا عليهم عيدهم⁽²⁾ .

وكان النصرارى الملكيون واليعاقبة يختلفون بهذا العيد معاً ، وكان من رسم الملكيين خاصة أن يخرجوا في تلك الليلة من الكنيسة الكاثوليكية التي بقصر الشمع ، وهم يرتلون بالقراءة المُلحّنة والنغمات الجميلة ، والصلبان والشموع مشهورة في أيديهم ، إلى أن يصلوا شاطئ النيل ، فيقومون بالصلاة هناك ثم يُخطب بهم أسقفهم باللغة العربية ، ولا ينسى الدعاء للخليفة الفاطمي ولبعض خواصه . ثم يقفلون بعدها عائدين إلى كنيستهم - بالطريقة التي جاؤوا فيها حاملين الشموع والصلبان - ليختموا صلواتهم فيها⁽³⁾ .

وكان النصرارى قد مُنِعوا من الاحتفال به في زمن الخليفة المعز وكذلك الحاكم ، لما كان يظهر فيه من اختلاطٍ بين الرجال والنساء ، وما ينتج عن ذلك من مظاهر البغي والفساد ، والتجاهر بشرب الخمر وغيرها من المساويء⁽⁴⁾ . بيد أن الخليفة الظاهر سَمَحَ لهم بإحيائه ، وكان كثيراً ما يحضر ليلة الاحتفال به ،

(1) ابن إياس : مصدر سابق ، 46/1 .

(2) المسيحي : مصدر سابق ، 71/1 . كذلك الأنطاكي : مصدر سابق ، ص 281 .

(3) الأنطاكي : مصدر سابق ، ص 281-282 .

(4) المصدر نفسه ، ص 282 . كذلك ابن إياس : مصدر سابق ، 26/1 ، 46 .

فيتزل بقصر جدّه العزيز عند النيل ومعه حريمه ، وكان يأمر بزيادة إيقاد المشاعل والنار في الليل ، ليتمتع بالفرجة على الناس وهم يغطسون⁽¹⁾.

ولم يلبث أن أصبح هذا العيد في العصر الفاطمي الثاني ، من أعياد الدولة الرسمية ، يُحتفلُ به ، ومن رسومه أن يُفرّق على رجال الدولة الفواكه من الأترجج والتارنج والليمون ، وكذلك أطنان من القصب والبوري بحسب الرسوم المقررة بالديوان لكل واحد⁽²⁾.

4- عيد خميس العهد :

يُحتفل به قبل الفصح بثلاثة أيام^(*)، وسُنّتهم فيه أن يأخذوا إناءً يملؤوه بالماء ويُزْمِزْمُوا عليه (أي يרטونوا بكلماتٍ غير مفهومة) ، ثم يُغسّل البطريرك به أرجل جميع النصارى الحاضرين . حيث يزعمون أن المسيح عيسى (عليه السلام) فعل هذا بتلاميذه - في مثل هذا اليوم - ليعلمهم التواضع ، وأخذ عليهم العهد أن لا يتفرّقوا ، وأن يتواضع بعضهم لبعض . وعامة النصارى يُسمّون هذا الخميس بخميس العدس ؛ لأنهم يطبخون فيه العدس بأنواعه المختلفة⁽³⁾.

وكان هذا العيد من جملة المواسم العظيمة في مصر ، تعمر فيه الأسواق ويأخذ الناس في شراء البيض المصبوغ من عدة ألوانٍ بكثرة لغرض المقامرة ، وفيه يتبادل النصارى الهدايا ، كما يُهادون المسلمين بأنواعٍ من السمك مع العدس

(1) المسيحي : مصدر سابق ، 70/1-71 . كذلك المقريري : اتعاط الحنفا ، 163/2.

(2) ابن المأمون : المصدر السابق ، ص 63 . كذلك المقريري : الخطط ، 737/1.

(*) عيد الفصح من أعياد القبط الكبار ، يقع في ذكرى صلب المسيح بزعمهم ، في اليوم التاسع عشر من شهر برمهاث/ الثامن والعشرون من مارس = عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ، 135/2 ، هامش (3) .

(3) النويري : مصدر سابق ، 182/1 . كذلك القلقشندي : مصدر سابق ، 417/2.

المُصَفَّى والبيض⁽¹⁾. أما أهل الإسكندرية فكان يخرج الكثير منهم في هذا اليوم إلى المنارة بماكلهم ، التي لا بُدَّ أن يكون من ضمنها العدس ، فيدخلون إليها ، فمنهم من يذكر الله ، ومنهم من يُصَلِّي ، ومنهم من يلهو ويلعب ، ويمكثون على هذه الحال حتى منتصف النهار ثم ينصرفون⁽²⁾.

ومن عادة الحكومة الفاطمية في خميس العهد أن تضرب نقوداً خاصة من ذهب تُسمَّى "خرّوبة" ؛ لِتُفَرَّقَ على رجال الدولة وأرباب المناصب فيها . وقد بلغ عدد النقود المضروبة في هذا العيد في إحدى سنِّي حكم الخليفة الأمر بأحكام الله حوالي عشرين ألف خرّوبة⁽³⁾.

5- عيد الزيتونه :

ويُعرف أيضاً بعيد الشّعّانين ، ومعناه بالعربية التّسبيح . يحتفلون به في سابع أحد من صومهم ، وهو يوافق - كما يزعمون - ذكرى ركوب المسيح اليعفور (الحمار) في القدس ، ودخوله صهيون^(*) وهو راكب ، والناس يُسبّحون بين يديه وهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر⁽⁴⁾.

وكان من عادة النصارى في هذا العيد لبس الثياب البيض⁽⁵⁾، وتزيين كنائسهم بأغصان الزيتون وقلوب النخيل ، وأن يُفَرَّقوا منها على الناس على سبيل

(1) المقريري : الخطط ، 738/1 .

(2) المصدر نفسه ، 441/1 .

(3) ابن المأمون : مصدر سابق ، ص 95 .

(*) صهيون : قيل هي بيت المقدس ، في حين يرى ياقوت الحموي بأنها موضع معروف ببيت المقدس ، أو محلّة فيها كنيسة صهيون = ياقوت الحموي : مصدر سابق ، 436/3 .

(4) النويري : مصدر سابق ، 180/1 - 181 . كذلك القلقشندي : مصدر سابق ، 415/2 .

(5) الشريف الرضي ، محمد بن أبي أحمد الحسين : ديوان الشريف الرضي ، صحّحه أحمد عباس الأزهرى ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات (بيروت ، 1310هـ) 917/2 .

الترك⁽¹⁾. وكان نصارى الإسكندرية يشقون شوارع المدينة في ليلة هذا اليوم ، وهم يحملون أغصان الزيتون وسعف النخيل ويبتهلون بالدعاء والقراءة والتمجيد والصلبان في أيديهم⁽²⁾. في حين كان من عادة نصارى مدينة إخميم أن يخرج القساوسة والشمامسة بالمحامر والبخور والصلبان والأناجيل والشموع المشتعلة ، إلى أن يقفوا على باب القاضي فيبخروا ويقرؤوا فصلاً من الإنجيل ، ويأخذوا في مدحه ، ثم يُكرّروا ذلك المشهد على أبواب الأعيان من المسلمين⁽³⁾.

وقد نال هذا العيد حظاً من المنع في عصر الخليفة الحاكم ، حيث صدرت أوامره في سنة 378هـ / 988م⁽⁴⁾، وتجددت في سنة 398هـ / 1007م⁽⁵⁾، بمنع النصارى من تزيين كنائسهم ومن حمل أغصان الزيتون وسعف النخيل في أيديهم كما جرت عادتهم ، وتشدد في ذلك كثيراً حتى قبضَ على مَنْ لم يمتثلوا لأوامره . بيد أنهم لم يلبثوا أن عاودوا الاحتفال به في أيام الخليفة الظاهر ، والخليفة المستنصر ، الذي كان نصارى الإسكندرية في أيامه يُقيمون شعائر هذا العيد - كما جرت به العادة- في أمنٍ وسلام ، فإذا ما اعترضهم المسلمون ساروا في حماية والي المدينة⁽⁶⁾.

(1) الأنطاكي : مصدر سابق ، ص 276 .

(2) سلام شافعي محمود : مرجع سابق ، ص 188 .

(3) جاك تاجر : مرجع سابق ، ص 150 .

(4) المقريري : اتعاظ الحنفا ، 71/2 . كذلك المقريري : الخطط ، 733/1 .

(5) الأنطاكي : مصدر سابق ، ص 276 .

(6) سلام شافعي محمود : مرجع سابق ، ص 189 .

6- عيد الفصح :

ويُسمّونه أيضاً عيد القليلة⁽¹⁾، وهو العيد الكبير عندهم يعملونه يوم الفطر من صومهم الأكبر . يزعمون أن المسيح قام فيه بعد صلبه بثلاثة أيام وخلص بني آدم من الجحيم ، وأقام في الأرض أربعين يوماً آخرها يوم الخميس ، ثم صعد بعدها إلى السماء⁽²⁾.

وكان القبط في مصر يحتفلون به احتفالا كبيراً، شاركهم فيه المسلمون أيضاً . فقد ذكر المسيحي في تاريخه ، أنه في يوم الثلاثاء لخمس بقين من شهر المحرم من سنة 415هـ/1024م ، كان الاحتفال بعيد الفصح ، فاجتمع خلقٌ كثير من النصارى والمسلمين عند قنطرة المقس في الخيام المنصوبة وغيرها ، وذلك للأكل والشرب واللهو ، ولم يزالوا هناك إلى أن قُضيَ ذلك اليوم ، وكانوا قد أظهروا خلال احتفالهم الكثير من التهتك والمجون ؛ إذ اختلط الرجال مع النساء وهم يشربون الخمر ، واستشرى الفساد لدرجة أن حُمِلتْ الكثير من النساء قفأف الحمّالين من شدّة السكر . كما ذكر أن الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله شاهد الاحتفال بهذا العيد ، حيث خرج في موكبه إلى المقس وعليه أفخر الثياب ، فتفقد مكان الاحتفال ودار هناك طويلاً ثم عاد إلى قصره⁽³⁾.

7- عيد الصليب :

يُحتفل به في اليوم السابع عشر من شهر توت/ السابع أو الثامن والعشرون من سبتمبر . وهو من الأعياد المُحدثة ، وسبب الاحتفال به أنه في مثل هذا اليوم

(1) المسيحي : مصدر سابق ، 19/1 .

(2) القلقشندي : مصدر سابق ، 415/2-416 .

(3) المسيحي : مصدر سابق ، 19/1-20 ، 21 .

من عام 328م ، وجدت الملكة هيلانة - أم الإمبراطور قسطنطين (306-337م)- الصليب الذي صُلبَ عليه السيد المسيح (الصلب) كما يزعم النصارى . فأمرت أن تُطلى خشباته بغلافٍ من ذهب ، كما أمرت ببناء كنيسة القيامة بيت المقدس على قبر المسيح بزعمهم . لذلك اتخذ النصارى من هذا اليوم عيداً سموه عيد الصليب⁽¹⁾.

وهو من المواسم العظيمة في مصر ، يخرج الناس فيه إلى حِطَّة بني وائل^(*) بظاهر الفسطاط ، ويتظاهرون بالمنكرات من جميع أنواع المحرّمات مما يتجاوز الحد⁽²⁾. لذلك كان الخلفاء الفاطميون مُتحفظين بشأن هذا العيد ، ففي رجب سنة 381 هـ / 991م منع الخليفة العزيز بالله الناس من الخروج إلى بني وائل ، وضبط الطرقات والدروب وتشدّد في الرقابة ، وذلك خوفاً من تَفشّي المنكرات والفسوق⁽³⁾. بيد أن العزيز - بما عُرف عنه من تعاطف مع النصارى - لم يلبث أن سمح لهم بإحيائه والاحتفال به في رجب العام التالي ، فجرى الناس في اجتماعهم ولهوهم على ما كانوا عليه من قبل⁽⁴⁾.

ولما تولّى الخلافة الحاكم بأمر الله منع النصارى من الاحتفال به مُجدداً ، وذلك من جملة أوامره التي تشدّد بها عليهم ، فصدر مرسومه في شهر صفر من سنة

(1) النويري : مصدر سابق ، 103/1 . كذلك المقرئبي : الخطط ، 741/1.

(*) بنو وائل : بطن من قبيلة ربيعة من العدنانية ، ينقسمون إلى العديد من القبائل . كانوا من ضمن جيش عمرو بن العاص الذي فتح به مصر ، فاحتطوا لهم -كغيرهم- حِطَّة في المدينة الجديدة الفسطاط عُرِفَت بهم = ابن عبد الحكم ، عبد الرحمن بن عبد الله : فتوح مصر والمغرب ، تحقيق عبد المنعم عامر ، الهيئة العامة لقصور الثقافة (القاهرة ، 2001م) ص 175 .

(2) المقرئبي : الخطط ، 741/1 .

(3) المقرئبي: اتعاط الحنفا ، 272/2 . كذلك المقرئبي: الخطط ، 741/1.

(4) المقرئبي: اتعاط الحنفا ، 276/1 . كذلك المقرئبي: الخطط ، 741/1.

402 هـ / 1011 م - الذي قُريء بالجامع العتيق وفي الطرقات - بمنع النصارى من الاجتماع في يوم عيد الصليب ، وألاً يظهرُوا بزِينتهم فيه ، وألاً يقربوا كنائسهم ، وأن يُمنَعُوا منها⁽¹⁾ .

ويبدو أن محاربة الفاطميين لهذا العيد كانت سبباً من أسباب ترك الناس في مصر الاحتفال به تدريجياً ، حتى إنه أصبح لا يكاد يُعرف البتة في أواخر عصر المماليك⁽²⁾ .

8- عيد الشهيد :

كان من أعظم أعياد النصارى في مصر ، يحتفلون به في الثامن من شهر بشنس/ السادس عشر من مايو . وهم يعتقدون أن النيل لا يزيد في كل سنة حتى يُلقوا فيه تابوتاً من خشب فيه إصبع من أصابع أسلافهم الموتى ، فيكون ذلك اليوم عيداً ، يخرجون من قراهم ومُدُنهم كافة للاحتفال به . كما كان يخرج عامة أهل الفسطاط والقاهرة - على اختلاف طبقاتهم ودياناتهم- إلى شواطئ النيل والجزر المقابلة له ، فينصبون هناك الخيام وغيرها ، ويجتمع عالمٌ عظيم " ولا يبقى مُغنٌ ولا مُغنية ، ولا صاحب لهو ولا ربّ ملعون ، ولا بغي ولا مُحَنّت ولا ماجن ولا خليع ولا فاتك ولا فاسق إلا ويخرج لهذا العيد "⁽³⁾ .

وفي الاحتفال به تُصرف أموالٌ لا حصر لها ، ويتجاهر الناس بما لا يُحتمل من المعاصي والفسوق ، وتثور الفتن ، ويُقتل أناسٌ ، ويقبل الكثيرون على شرب الخمر ، التي يُباع منها في ذلك اليوم ما يزيد على مائة ألف درهم فضة ، وخمسة

(1) المقريري : الخطط ، 741/1 .

(2) المصدر نفسه والجزء والصفحة .

(3) المصدر نفسه ، 199/1 .

آلاف دينار ذهباً . وكان اجتماع الناس في هذا العيد دائماً ما يكون بناحية شبرا من ضواحي القاهرة . فكان ذلك فرصة لفلاحيها لوفاء الخراج (الضرائب) بما يبيعونه من الخمر فيه ، ففي يومٍ واحد باع نصراني ما مقداره اثنا عشر ألف درهم فضة من الخمر⁽¹⁾ .

(1) المقرئزي : الخطط ، 199/1 . كذلك سلام شافعي محمود : المرجع السابق ، ص 200-2001 . جاك تاجر : مرجع سابق ، ص 149 .

المبحث الرابع : الاحتفالات والأعياد القومية

1- الاحتفال بعيد الخروج لسجن يوسف (عليه السلام) :

كان من الأعياد الكبرى عند النصارى بمصر ، ولكن سرعان ما اتّخذها المسلمون عيداً لهم⁽¹⁾. ولم يلبث أن أصبح بمرور السنين احتفالاً شعبياً قومياً يُشارك فيه الجميع على السواء . وقد أسلفت الذكر - عند حديثي عن فئة التجار - بأنه كان وثيق الصلة بأصحاب الأسواق والحوانيت⁽²⁾. حيث كان من عادة العامة والسوقة أن يطوفوا قبل خروجهم للسجن أسواق البلد بالطبول والأبواق ، ليجمعوا من التجار ما يُنفقونه في خروجهم . بيد أنه في عام 415 هـ / 1024م حدث أن اشتدّ الغلاء ، فامتنع التجار من الدفع ، فَشكّا المحتفلون ذلك إلى الخليفة الظاهر ، الذي أمر متولّي الشرطة بأن يُشدّد على التجار حتى يدفعوا ما جرت عليه العادة ، وأن يشتركوا في الاحتفال ، ووعدهم أن يُطلق لهم ضعف ما أُطلق لهم في السنة الماضية من الهبات⁽³⁾. إذ يبدو أن الدولة كانت تُشجّع وتشارك في هذا الاحتفال بدفع بعض الأموال للمحتفلين به .

فأقام أهل الأسواق قرابة الأسبوعين وهم يطوفون الشوارع بالخيال والسّماجات والتمائيل ، ويذهبون إلى القاهرة بحالتهم هذه ليشاهدتهم الخليفة ، ولا يزالون على ذلك إلى أن تكامل جمعهم ، عندها ساروا إلى مكان السجن شاقين شوارع القاهرة بألعابهم وملاهيهم ، فتعطلّ الناس في ذلك اليوم عن أشغالهم

(1) آدم متر : مرجع سابق ، 291/2 .

(2) يُنظر الفصل الثاني من هذا الكتاب ، ص 137 .

(3) المسيحي : مصدر سابق ، 39/1-40 . كذلك المقريري : اتعاظ الحنفا ، 144/2-145 .

ومعايشهم ، واجتمع في الأسواق خَلْقٌ عظيمٌ للتفرّج ، وظلّ الأمر أكثر اليوم على ذلك ، وكان قد أُطلق للمحتفلين من خزانة الدولة ثمانية آلاف درهم ، وكانوا في اثني عشر سوقاً⁽¹⁾.

ولم يفت الخليفة الظاهر المشاركة في الاحتفال ، فذهب إلى مكان السجن بالجيزة ومعه حريمه وخواصه ، فأقام هناك يومين وليلتين مُتمتّعاً بالفرجة على المحتفلين ، الذين يلعبون بالتمثيل والمضاحك والحكايات والسّماجات ، فضحك منهم واستظرفهم ، وعاد بعدها إلى قصره مسروراً⁽²⁾.

2- الاحتفال بتخليق (تعطير) عمود المقياس^(*) وفتح الخليج :

دأب المصريون منذ أقدم العصور على الاحتفال بوفاء النيل (أي اكتمال زيادة مياهه) وافتننوا به كثيراً ، وكان الاحتفال يأخذ أشكالاً متباينة وصوراً مختلفة تبعاً لاختلاف العصور والحكومات والأديان⁽³⁾. بيد أنه في العصر الفاطمي امتاز - كبقية الأعياد - بالفخامة والأبهة ؛ حيث كانت طريقة الاحتفال به أن يخرج الخليفة في موكبين كبيرين : أحدهما لتخليق المقياس عند وفاء النيل ، والآخر لكسر

(1) المسيحي : مصدر سابق ، 42/1-43 . كذلك المقريري : اتعاط الحنفا ، 146/2 .

(2) المقريري : الخطط ، 580/1 .

(*) هو المقياس الذي تقاس به زيادة مياه النيل عند فيضانه كل سنة . وهو عبارة عن عمود مُثَمَّن من الرخام الأبيض ، تُحيط به فسقية يدخلها الماء وقت الفيضان ، وهو مُفصّل على اثنين وعشرين ذراعاً ، كل ذراع مُقسّم إلى أربعة وعشرين قسماً مُتساوية تُعرف بالأصابع . ويقع هذا المقياس بجيزة الروضة بالقرب من الفسطاط = ابن جُبَيْر ، أبو الحسين محمد بن أحمد : رحلة ابن جُبَيْر ، تحقيق كرم البستاني ، دار صادر (بيروت ، بدون تاريخ) ص 29-30 .

(3) جمال الدين الشيال : دراسات ، ص 78 .

الخليج^(*) لتساب المياه إلى الترع والمزارع والقُرى . وكان يشارك في هذا الاحتفال (الركوب) - كالعادة - الوزير والأمراء والقادة والقضاة والفقهاء والشعراء ، بالإضافة إلى طوائف الأجناد المختلفة من الفرسان والراجلة ، والكثير من الشعب المصري . وقد أورد المؤرخون وصفاً مُفصلاً للركوبين، وهما كالآتي :

أ- ركوب تخليق المقياس :

يتوقف هذا الركوب على ظروف ارتفاع منسوب المياه في النيل ، فلا يحدث إلاّ عندما يصل المنسوب إلى ست عشرة ذراعاً ، وهو ارتفاع يعد كافياً لتستقبل أرض مصر الخير ، وعندئذٍ تحتفل الدولة بوفاء النيل^(**) . وكان احتفال الفاطميين به يتصل اتصالاً وثيقاً بتقاليد الشعب المصري. حيث إن أهالي مصر حتى مجيء المسلمين ، كانوا يُكرمون النيل في كل سنة - لكي يجري- بإعطائه هدية تتمثل في جارية بكر جميلة يُلقونها فيه بعد أن يلبسوها أفضل الحلبي والثياب . ولكن لما جاء المسلمون منعوا هذه العادة المُتبعة ، واكتفوا بإلقاء بطاقة فيه كُتبت فيها بعض الجمل الدعائية إلى الله⁽¹⁾ . واستمر الأمر على ذلك إلى أن جاء الفاطميون ، فأحدثوا تجديداً في طريقة الاحتفال (التكريم) ؛ فلم يلجأوا إلى إلقاء

(*) هذا الخليج بظاهر القاهرة من جانبها الغربي فيما بينها وبين المقس ، عُرف في أول الإسلام بمصر بخليج أمير المؤمنين ، ثم عُرف بعد ذلك بالخليج الحاكمي وخليج اللؤلؤة = المقريري : الخطط ، 208/1 .

(**) المتفق عليه في تاريخ مصر الإسلامية أن يُحتفل بوفاء النيل إذا بلغ ست عشرة أو سبع عشرة ذراعاً . ويعتبر النيل مُقصرًا إذا قلّ عن الرقم الأول ، في حين يعتبر الفيضان خطراً إذا زاد عن الرقم الثاني = جمال الدين الشيال : دراسات ، ص 80 .

(1) المقدسي : مصدر سابق ، ص 207 . كذلك المقريري : الخطط ، 171/1 .

فتاة جميلة أو بطاقة قرآنية أو دُعائية ، وإنما كان الخليفة يخرج بنفسه لتعطير عمود المقياس بالطيب ، وهو ما يُعبّر عنه بركوب تخليق المقياس⁽¹⁾ .

ويبدأ الاحتفال عندما يرسل المسؤول عن المقياس رقعة إلى ديوان الإنشاء - لا يطلع عليها إلا الخليفة والوزير - تُفيد باكتمال زيادته ووفائه ، فعند ذلك يُؤمّر بأن يبيت في جامع المقياس في تلك الليلة ، قراء الحضرة والمتصدرون بالجوامع التي بالقاهرة والفسطاط ، ومن يجري مجراهم لختم القرآن ، وهناك ثمّ لهم الأسمطة المعبأة بالأطعمة الفاخرة وتوقد لهم الشموع الكثيرة . فإذا أصبح الصبح يركب الخليفة في هيئة عظيمة من الثياب الفاخرة والموكب العظيم ، والوزير وراءه في الجمع العظيم على ترتيب الموكب ، فيخرج من القصر شاقاً القاهرة والفسطاط إلى أن يصل منظره دار الملك الواقعة على النيل ، ومنها يركب - بعد أن يستريح قليلاً - هو والوزير وبعض كبار رجال الدولة في العشاري الخاص به (الحراقة) ، فيشق بهم النيل من أمام باب المنطرة إلى المقياس ، فيدخل الخليفة ومن معه إلى الفسقية التي بها المقياس ، وهناك يُصلي هو والوزير كل منهما ركعتين بمفرده . ثم يُؤتى بالزعفران والمسك فيذيبه الخليفة في إناء بيده بآلة معه ، ويناوله إلى صاحب بيت المال ، ومنه إلى ابن أبي الرّدّاد القائم بأمر المقياس ، فيلقّي هذا الأخير بنفسه في الفسقية ويتعلق بالعمود برجلية ويده اليسرى ، في حين يُخلّقه بيده اليمنى . وفي أثناء ذلك يتناوب قراء الحضرة قراءة القرآن ، فإذا فرغ ابن أبي الرّدّاد من عمله ، خرج الخليفة إلى العشاري الذي قد يعود به إلى دار الملك ومنها يركب عائداً إلى القاهرة ، وأحياناً ينحدر إلى المقس فيتبعه الموكب ومن هناك يركب إلى القاهرة .

(1) عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ، 105/2 ، 106 .

ويكون في النيل في ذلك اليوم نحو ألف مركب مشحونة بالناس لغرض المشاهدة وإظهار الفرح⁽¹⁾.

فإذا كان اليوم الثاني من التخليق ، أُقيم حفلٌ خاص لابن أبي الرِّدَّاد ، الذي كان يأتي إلى الإيوان الكبير الذي فيه الشُّبَّاك بالقصر ، فيجد خلعة مُذهَّبة بطيلسان مُقَوَّر في انتظاره ، ويُدفع إليه خمسة أكياس في كل منها خمسمائة درهم ، يحملها خمسة مُستخدمين من بيت المال ظاهرة في أكفِّهم وهم راكبون بغالاً على ظهورها الأحمال المُزَيَّنة بالحُلِي . فيلبس ابن أبي الرِّدَّاد الخلعة ويسير في موكب من أقاربه وأصدقائه والمستخدمين الخمسة ، والأبواق تُضرب أمامه والطبل من ورائه مثل الأمراء . فيشوق بين القصرين وكلِّما مرَّ على باب من أبواب القصر - التي يدخل منها الخليفة أو يخرج - نزل فقبله ، ثم يخرج طالباً الفسطاط فيمر بالجامع العتيق ، وأخيراً يعبر النيل إلى أن يصل المقياس ، وهناك يأخذ من الأكياس قدرًا مُقرَّراً له ويُفرِّق الباقي على بني عمِّه وغيرهم⁽²⁾.

ب- ركوب فتح الخليج :

هذا الركوب تَتِمَّة للركوب السابق ، ويأتي بعد ثلاثة أيام أو أربعة من يوم التخليق . وكان يقع الاهتمام به من حين يأخذ النيل في الزيادة ، وفيه يركب الخليفة على عادته في المواكب العظام ، بالمِظَلَّة وتوابعها من السيف والرمح والألوية والدِّوَاة وسائر الآلات⁽³⁾ . ويكون الموكب في ترتيبه غير بعيد عن موكب أول

(1) ابن الطُّوَيِّر : مصدر سابق ، ص 190-194 . كذلك القلقشندي : مصدر سابق ، 516/3-517 . المقريري: الخطط ، 314/2-315 .

(2) ابن الطُّوَيِّر : مصدر سابق ، ص 194-195 . كذلك القلقشندي : مصدر سابق ، 517/3-518 . المقريري : الخطط ، 315/2 ، 316 .

(3) القلقشندي : مصدر سابق ، 518/3-519 .

العام ، وإن كانت طوائف الجند التي فيه أكثر عدداً منه في أول العام⁽¹⁾ . كما أنه يتميز بتشريفٍ خاص للقاضي وأعيان الشهود ، حيث يكون هؤلاء بانتظار الخليفة عند باب الجامع الطولوني بالفسطاط ، فإذا وصل الخليفة بموكبه وقف لهم وقفةً قصيرة للسلام عليهم ، فيتقدم القاضي ويُقبّل رجله التي بجانبه ، ثم يُسَلّم الخليفة على الشهود وهم واقفون أمام وجه فرسه، بعدها يركب الجميع ويسير الموكب حتى يأتي ساحل الخليج⁽²⁾ .

وعلى حافة الساحل يكون قد نُصِبَ للخليفة الخيمة العظيمة المعروفة بالقاتول^(*) ، ويُقام له فيها سرير الملك ، الذي توضع عليه مرتبة عظيمة لجلوسه ، في حين يُوضع للوزير كرسي ، أمّا كبار رجال الدولة فيقفون صَفِّين من سرير الملك إلى باب الخيمة . ويبدأ الاحتفال بالاستماع إلى القرآن الكريم من قراء الحضرة ، فإذا ما فرغوا ألقى شعراء الدولة قصائدهم بترتيب درجاتهم واحداً تلو الآخر ، وكان الحاضرون ينتقدون لكل شاعر ما يقوله ، ويُحَسِّنون ما حَسَنَ ويوهنون ما وَهَى⁽³⁾ .

فإذا انقضى هذا الحفل غادر الخليفة ومعه الوزير إلى منظره قريبة يُقال لها السَّكْرَة ، تطل على الخليج وقد هُيِّتَ بالفُرش الفخمة في ذلك اليوم ، بينما يبقى وجوه الدولة في خيامٍ عديدةٍ مختلفة الأشكال والألوان على قدر مراتبهم . وبعد بُرهة يطل من المنظره أستاذٌ من الأستاذين المحنكين لينقل أمر الخليفة بفتح الخليج

(1) ناصر خسرو : مصدر سابق ، ص 109-111 .

(2) القلقشندي : مصدر سابق ، 519/3 . كذلك المقرئزي : الخطط ، 317/2 .

(*) هي أعظم خيام الفاطميين ، يبلغ طول عمودها سبعين ذراعاً ، وسعتها ما يزيد على الفدانين في التدوير . سُمِّيت بالقاتول لأن فراشاً سقط من أعلاها عند نصبها فمات = القلقشندي : مصدر سابق ، 475/3 .

(3) المصدر نفسه ، 518/3-520 .

فينهدم أمام أعين الحاضرين تحت المعاول ، وتُضْرَب الطبول والأبواق من البرّين⁽¹⁾ . في حين كان بعض الخلفاء الفاطميين قد يتزلون بأنفسهم إلى السّد الذي يغلق الخليج وفي يدهم مزراقٌ (حربة) يضربونه به ، فيُعَجِّل الرجال عندئذٍ بهدمه بالمعاول والفؤوس⁽²⁾ . وعندما ينساب الماء في الخليج تدخل العشاريات الملكية تتهادى فيه - وهي مُزَيَّنة بأحلى زينة - إلى أن ترسو في حوضٍ خاص على برّ منظره الخليفة⁽³⁾ .

وفي أثناء ذلك يصل السّمّاط من القصر صحبة صاحب المائدة الخلافية ، يتكوّن من مائة طيفور (وعاء) مُعبأة بالأطعمة ومُغطّاة بالطرحة النفيسة ، وريح المسك والتوابل تفوح منها . فتوضع في خيمةٍ واسعة مُعدّه لذلك ، ثم يُوزَّع منها على الوزير وأولاده والقاضي والشهود ورجال الدولة على قدر مراتبهم . كما كان يُقدّم لهم تماثيل من الحلوى مختلفة الأحجام والأشكال . فإذا انتهى الاحتفال وصَلَّى الخليفة صلاة العصر، لبس ثياباً جديدة غير التي كانت عليه أوّل النهار وغير مِظلتته لتكون مناسبة لثيابه ، وباقي الموكب يبقى على حاله . فيركب عائداً إلى القصر والوزير تابعه على الرسم المعتاد ، فيدخل الخليفة قصره ويمر الوزير إلى داره على عادته في مثل ذلك اليوم⁽⁴⁾ .

(1) القلقشندي : مصدر سابق ، 520/3 . كذلك عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ، 108/2 - 109 .

(2) ناصر خسرو : مصدر سابق ، ص 112 .

(3) القلقشندي : مصدر سابق ، 520/3 - 521 . كذلك المقرئبي : الخطط ، 320/3 .

(4) ابن الطُّوَيِّر : مصدر سابق ، ص 202-203 . كذلك القلقشندي : مصدر سابق ، 520/3 - 521 .

المقرئبي : الخطط ، 2 / 320 - 321 . عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ، 109/2 .

وكان هذا العيد (ركوب فتح الخليج) من أعظم الأعياد في مصر ؛ ففيه يخرج معظم سكان الفسطاط والقاهرة لمشاهدة فتح الخليج⁽¹⁾. ولشدة إقبال الناس على ذلك كانوا يضعون أحشاباً مُتراكبة بعضها على بعض يجلسون فوقها للفرجة . كما كانت الدولة تبني دوراً واسعة لهذا الغرض مقابل مبلغ رمزي لمن يدخلها من الناس⁽²⁾. وفي هذا اليوم يتمتع الناس باللهو والتسلية بالألعاب العجيبة⁽³⁾، وبالفرجة على المناظر الطبيعية الخلابة والمنتزهات الجمالية ، ولاسيما أن أرض مصر في هذا الوقت من السنة تكون على أبداع ما يكون⁽⁴⁾.

3- الاحتفال بمولد الخليفة الحاضر :

أي الاحتفال بمولد الخليفة الفاطمي المتولي للحكم . ويُسمى هذا المولد مع الموالد الخمسة السابقة (مولد النبي ﷺ، ومولد علي بن أبي طالب ، والحسن ، والحسين ، وفاطمة الزهراء ﷺ) بالموالد الستة . وطريقة الاحتفال به مثل الاحتفال بالمولد النبوي الشريف تماماً⁽⁵⁾، وإن كانت الخطبة التي تُلقى - والخليفة جالسٌ في منظرته - تختصُّ بذكر الخليفة والوزير ، يلي الخطيب آخر يُنشد في فضائل المولود - أي الخليفة - وحسناته ، ويُختتم الاحتفال بأن تُفرَّق الصدقات من الأموال على الفقراء والمساكين الذين بالجامع الأزهر والجامع العتيق والقرافة وغيرهم⁽⁶⁾.

(1) ناصر خسرو : مصدر سابق ، ص 108، 113 .

(2) المقرئزي : اتعاط الحنفا ، 107/3 .

(3) ناصر خسرو : مصدر سابق ، ص 113 .

(4) أبو الصلت الأندلسي : مصدر سابق ، ص 20 .

(5) ابن الطُّوَيِّر : مصدر سابق ، ص 217-219 . كذلك المقرئزي : الخطط ، 216/2-218 .

(6) ابن المأمون : مصدر سابق ، ص 60 . كذلك المقرئزي : الخطط ، 216/2 .

وكانت الحكومة تستعد لهذا المولد استعداداً كبيراً ؛ ففي ذكرى مولد الخليفة الأمر بأحكام الله سنة 516هـ/ 1122م ، تقدّر أن يُعمل أربعون صينية مُعبّأة بالحلوى والخشكناجج والكعك ، وأن يُعطى للمشاهد الشريفة لكل منها : سكر وعسل ولوز ودقيق وشيرج ، وأن يُعمل خمسمائة رطل حلوى تُفَرَّق على قَوْمَة (خُدَّام) المساجد والأضرحة ، وعلى القراء والفقراء . للقومة ومن معهم في صحون ، وللفقراء على أرغفة السّميد ، هذا إلى جانب ما يُفَرَّق على سكان القصر من الجهات والإخوة والأولاد ، وعلى خواص الخليفة من الوزير والقاضي والداعي ومُفتي الدولة وغيرهم⁽¹⁾.

4- الاحتفال بتولية وليّ العهد :

قد أسلفت الذكر - عند حديثي عن الخليفة الفاطمي - أن الإمامة عند الفاطميين كانت تنتقل من الأب إلى الابن الأكبر ، فهي في الأعقاب ولا تجوز في غير ذلك⁽²⁾. ومن الشروط الأساسية والمهمة لديهم لصحة الإمامة الوصيّة أو النصّ . أي أن ينص الإمام السابق على الإمام اللاحق من أولاده ، فهو عندهم بمثابة أمر بالتعيين صادر عن الإمام السابق ، حيث كانوا لا يأخذون بفكرة الاختيار كوسيلة لتعيين الخليفة أو الإمام ، بل هم يؤثرون النص ويؤمنون به⁽³⁾. لذلك أوّلَى الفاطميون اهتماماً كبيراً بالاحتفال بإعلانه ، أو ما يُسمّى بتولية وليّ العهد ، فجعلوا منه عيداً من أعياد الدولة يعم فيه الخير على الخاصة والعامة سواء .

(1) ابن المأمون : مصدر سابق ، ص 35 - 36 . كذلك المقرئبي : الخطط ، 215/2 - 216 .

(2) يُنظر الفصل الثاني من هذا الكتاب ، ص 101-102 .

(3) مجموعة الوثائق الفاطمية : مصدر سابق ، ص 24 (من مقدمة المحقق) .

وقد أورد المقريري وصفاً لما كان يُعمل في هذا الاحتفال ، وذلك عند تولية المستنصر ابن الخليفة الظاهر لولاية العهد في سنة 421 هـ/1030م ، فيقول : " بَايَعَ الناس بولاية العهد للمستنصر بن الظاهر ، وعمره ثمانية أشهر ، فَخُلِعَ على كافة أهل الدولة ، وعُمِلَ من الطعام ما كَفَى أَهْلَ القاهرة ومصر والطارئين من البلاد ، وَثُرَّ مالٌ عظيم فلم يبقَ أحدٌ حتَّى وصل إليه من خير هذه البيعة . واجتمعت العامة تحت المنطرة من القصر ، واستغاثوا أن يَشْرُفُوا برؤية أمير المؤمنين ، فأشرف عليهم الظاهر من المنطرة ، فَقبَّلوا الأرض وانصرفوا" (1).

ويبدو أن الاحتفال كان لا ينتهي على ذلك ، ويتبعه احتفالٌ آخر عند ركوب وليّ العهد لأول مرة خارج القصر . حيث إن المستنصر لما رَكِبَ في سنة 424 هـ/ 1032م من القاهرة إلى الفسطاط كانت المدينة قد زُيِّنَتْ لاستقباله والاحتفال به ، وكان إذا أُقبل على الناس قَبَّلوا له الأرض ، وَثُرَّ يومئذٍ على العامة خمسة آلاف دينار ، وعلى الخاصة عشرون ألف دينار ، فكان يوماً عظيماً (2).

5- الاحتفال بعيد النصر :

يُحتفل بهذا العيد في اليوم السادس عشر من شهر مُحرَّم من كل عامٍ هجري. وأول من استنّه الخليفة الحافظ لدين الله، لِيُحيي به ذكرى خلاصه من السجن ، الذي اعتقله فيه الوزير أبو علي أحمد بن الأفضل . حيث كان قد حجر عليه وحجبه عن الناس واستبدَّ بشؤون الدولة دونه . واستمرَّ على ذلك إلى أن تمكَّن حرس الخليفة الخاص ، من القضاء على الوزير وإطلاق سراح الخليفة في

(1) المقريري : اتعاظ الحنفا ، 179/2 .

(2) المصدر نفسه ، 181/2 .

تاريخ هذا اليوم من سنة 526 هـ/1131م . لذلك اتخذته الحافظ عيداً ، سَمَّاهُ "عيد النصر" وصار يُعْمَلُ كل سنة⁽¹⁾.

وكانت مظاهر الاحتفال به مثل الاحتفال بأغلب الأعياد الأخرى ؛ من الخطبة والصلاة والزينة والتوسعة في النفقة⁽²⁾، هذا بالإضافة إلى احتفال خاص كان يُقام في القصر الفاطمي ، في مجلس المَحَوَّل مُقابل الإيوان الكبير ، حيث يُنصب للخليفة مرتبة هائلة في صدر المجلس ، ويأتي هو راكباً إلى أن يصل باب المجلس ، فيترجّل وبين يديه الخواص ، ثم يجلس على المرتبة في حين يجتمع رجال الدولة من أرباب السيوف والأقلام واقفين صَفَّين أمامه إلى باب المجلس . ويوضع مقابل الخليفة كرسي الدعوة (المنبر) وأمامه ستارة . فيصعد قاضي القضاة عليه ويُلقِي منه خطبة - سبق إعداد نَصَّها في ديوان الإنشاء - بنظمٍ مليح ، تحتوي على ذكر من أصابهُ من الأنبياء والصالحين والملوك شدة وفرح الله عليه ، يتلوهم القاضي واحداً واحداً حتى يصل إلى ذكر ما أصاب الخليفة الحافظ وتفريح الله عليه ، فإذا انتهت الخطبة نزل من المنبر ودخل على الخليفة لتحيّته ، وبهذه المناسبة يكون قد مُنِحَ بدلة مميزة يلبسها للخطابة ، وبعد انتهائه يُوصَلُ إليه خمسون ديناراً⁽³⁾.

هذه هي الاحتفالات والأعياد والمواسم التي كانت تُحَيَّى بمصر في العصر الفاطمي . وقد ظهرت الصبغة الفاطمية واضحة عليها ، فتميّزت بألوانٍ من البذخ والترف والبهاء قلَّ أن تجدها في أيِّ عصرٍ آخر من عصور مصر الإسلامية . وللشاعر عُمارة اليميني قصيدة جميلة ومؤثرة يرثي فيها الدولة الفاطمية بعد سقوطها

(1) المقرئزي : الخطط ، 45/2 .

(2) المصدر نفسه ، 349/2 .

(3) ابن الطَّوَّير : مصدر سابق ، ص 34-35 .

، واصفاً من خلالها بعض مواكبها وأعيادها ، ومكارمها ومحاسنها ، ومظاهر
جودها وبذخها مع الرعية . ومطلع هذه القصيدة :

رَمَيْتَ يَا دَهْرُ كَفَّ المجد بالشَّلَلِ وجِيدُهُ بعد حُسْنِ الحَلِيّ بالعَطَلِ

ومنها :

لَهْفِي وَلَهْفَ بني الآمال قاطبةً على فجعتنا في أكرم الدُّوَلِ
مررت بالقصر والأركان خالية من الوفود ، وكانت قبلة القُبَلِ
فملت عنها بوجهٍ خوفٍ مُنتقِدِ من الأعادي ، وَوَجْهَ الوُدِّ لم يَمِلِ
أسبلت من أسفي دمعي غداةً خَلَّتْ رِحَابُكُمْ وغدت مهجورة السُّبُلِ
أبكي على ما تُراثِ من مَكَارِمِكُمْ حَالَ الزمان عليها وهي لم تُحَلِ
دارُ الضيافة كانت أنسَ وإفدِكُمْ واليوم أَوْحَشُ من رَسْمٍ ومن طَلَلِ
وَفِطْرَةُ الصَّوْمِ إذ أضحت مَكَارِمِكُمْ تشكو من الدهر حيفاً غير مُحْتَمَلِ
وكسوةُ الناس في الفضلَيْنِ قد دَرَسَتْ وَرَثَ منها جديدٌ عندهم وبَلِي
وموسمٌ كان في يوم الخليج لَكُمْ يَأْتِي تَجَمُّلُكُمْ فيه على الجَمَلِ
وأوّل العام والعيدين كم لَكُمْ فيهنّ من وَبَلِ جُودِ ليس بالوشَلِ
والأرضُ تهتُّ في يوم الغدير كما يهتُّ ما بين قصرَيْكُمْ من الأَسَلِ
والخيل تُعْرَضُ في وشي وفي شِيَةِ مثل العرائس في حَلِي وفي حُلَلِ
وما حَمَلْتُمْ قِرَى الأضيافِ من سَعَةِ الـ أ طَباقِ إلا على الأكتافِ والعَجَلِ
وما خصصْتُمْ بَرّاً أهلَ مملكةٍ حَتَّى عَمَمْتُمْ به الأَقْصَى من المِلَلِ
كانت رَوَاتِبِكُمْ للوافدين وللضَيِّبِ فَالمُقيمِ وللطَّارِي من الرُّسُلِ
ثم الطَّرَازِ بَتْنَيْسِ الذي عَظُمَتْ منه الصَّلَاتُ لأهل الأرض والدُّوَلِ
وللجَوَامِعِ من أحباسِكُمْ نَعَمٌ مِمَّنْ تَصَدَّرَ في عِلْمٍ وفي عَمَلِ

ورُبَّمَا عَادَتِ الدُّنْيَا فَمَعَّقَلَهَا مِنْكُمْ وَأَضْحَتْ بِكُمْ مَحْلُولَةَ الْعُقَلِ
 وَاللَّهُ ! لَافَازَ يَوْمَ الْحَشْرِ مُبْغِضُكُمْ وَلَا نَجَا مِنْ عَذَابِ النَّارِ غَيْرُ وَلِيٍّ (1).

إلى آخر تلك القصيدة ، التي كانت آخر أسباب موت قائلها ، الذي كان
 مُوَالِيًّا لِلْفَاطِمِيِّينَ ، فَصَلَّبَ فِيْمَنْ صَلَّبَ بَيْنَ الْقَصْرِيِّينَ مِنْ أَتْبَاعِ الدَّوْلَةِ الْفَاطِمِيَّةِ (2).

المبحث الخامس : الاحتفالات والمناسبات الأسرية

1- الاحتفال بالزواج (العُرس) :

يعد الزواج من أهم الاحتفالات الأسرية وأكثرها فرحاً ، ولأهميته في حياة
 الإنسان فقد حدّدت الشريعة الإسلامية نظمه ومراحله ، بدءاً من اختيار الزوجة
 والخطوبة ، ومروراً بعقد النكاح وشروطه ، ونهايةً بطرق معاملة الزوجين كل
 منهما للآخر ، وحقوق الزوج وحقوق الزوجة وغير ذلك مما تتطلّب هذه الرابطة
 الشرعية .

وقد اهتم أهالي مصر في العصر الفاطمي بالكثير من هذه الأمور ، فكان
 زواج الحرائر من الأشياء المستحبة في ذلك الوقت (3) ، كما كان الزواج من
 العذارى مُفضّلاً لدى جميع طبقات المجتمع عن الزواج بالثيبات (4) . ومن المحتمل أن
 الفتيات في العصر الفاطمي كُنَّ يتزوجن في سن مبكرة جداً ، تقريباً عند سن

(1) القلقشندي : مصدر سابق ، 530/3 - 532 . كذلك المقرئبي : اتعاظ الخنفا ، 332/3 - 334 .

المقرئبي : الخطط ، 362/2 - 366 .

(2) القلقشندي : مصدر سابق ، 532/3 .

(3) عمارة اليميني : مصدر سابق ، ص 147 .

(4) آدم متز : مرجع سابق ، 180/2 .

البلوغ⁽¹⁾. وكان اختيار العروس يتم عن طريق الأهل الذين يقومون بتعيين عدّة فتيات للرجل على أن يختار إحداهن⁽²⁾. وقد يكون عن طريق الخطبة ، التي من غير شك قد لعبت دوراً كبيراً في زيجات ذلك العصر⁽³⁾، وهي لا تزال تلعب هذا الدور في مصر إلى وقتنا الحاضر .

وبعد الخطوبة يأتي عقد القران ، وفيه يُحدّد مبلغ الصّدّاق ، وكان لأبّد له من شاهدين على موافقة الزوجين لشروطه ، بالإضافة إلى مُتولّي العقد (الشيخ)⁽⁴⁾. وكانت عقود زواج عامة الناس تُسجّل على البرديات أو الورق بخط الرقاع ، في حين كانت عقود الطبقة الاستقرائية (الخاصة) تُسجّل على قِطْع من النسيج- المغموس في مادة نشوية لكي يبقى مُدّة طويلة- بالخط الكوفي الذي شاع استخدامه على تُحف العصر الفاطمي⁽⁵⁾.

كما يُلاحظ أن عقود الخاصة تنفرد باحتوائها على خطبة تختلف في الطول والقصر حسب مكانة صاحب العقد . وهي تحتوي على مجموعة من العبارات الدُعائيّة ، وبعض الأحاديث النبوية المتعلقة بالزواج والحاضّة عليه ، فضلاً عن بعض العبارات الشيعية التي ذاعت بصفه خاصة في العصر الفاطمي ، مثل : " ...وأشهد أن محمداً رسوله المصطفى وأمينه المرتضى... ﷺ وعلى وصيّه علي أمير المؤمنين ،

(1) نريمان عبد الكريم أحمد : مرجع سابق ، ص 121.

(2) عمارة اليميني : مصدر سابق ، ص 147.

(3) نجوى كيرة : مرجع سابق ، ص 261 . كذلك نريمان عبد الكريم أحمد : مرجع سابق ، ص 121-122 .

(4) أوراق البردي : مصدر سابق ، 1/ وثيقة (145) ، ص 101 .

(5) عبد الرازق ، أحمد : عقد مراجعة من العصر الفاطمي " مقال نُشر ضمن كتاب ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط ، تحرير قاسم عبده قاسم و رأفت عبد الحميد " ، دار المعارف (القاهرة ، 1983م) المجلد الثاني ، ص 31 .

وعلى ابنته فاطمة سيّدة نساء العالمين ، وعلى سبطيه الحسن والحسين بابي الرحمة ، وعلى الأئمة من ولد الحسين ، بدور السُّجى وشموس الضُّحَا وأمناء الله على الورى... " (1).

أما عن الصّدّاق فكان يتناسب غالباً مع ثراء الرجل ومكانته في المجتمع ، فهو عند العامة لا يتجاوز في الكثير من الأحيان الخمسة دنانير⁽²⁾ ، وأكثر المهور كانت لا تتجاوز الثمانين ديناراً⁽³⁾ . وهذه مبالغ ضئيلة جداً مقارنة بالصّدّاق الذي كان يدفعه أفراد الخاصة والذي يبلغ بالآلاف . فعلى سبيل المثال كان صّدّاق ابني عبد الرحيم بن إلياس على أرمليّ حسين بن جوهر^(*) ألفي دينار⁽⁴⁾ . وكان صّدّاق عبد العزيز بن محمد بن القاضي النعمان^(**) ، على ابنة القائد جوهر الصقلي ثلاثة

(1) عقد زواج باسم أبي المنصور هاشم بن ماكنون بن شبيب ، وسلامة ابنة الأمير ناصح الدولة الصيادي ، المدوّن على قطعة نسيج حريرية ، وهو محفوظ بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة تحت رقم (9381) . نقلاً عن أحمد عبد الرازق : مرجع سابق ، ص 16-17 .

(2) أوراق البردي : مصدر سابق ، 1/ وثيقة (45) و(46) ، ص 97 ، 100 .

(3) نجوى كيرة : مرجع سابق ، ص 269 .

(*) أبو عبد الله حسين ابن القائد جوهر الصقلي ، ولأه الخليفة الحاكم في سنة 390هـ/999م النظر في أمور الناس وتديير أمر البلاد ، ولكنه لم يلبث أن انقلب عليه وأمر بقتله سنة 401هـ/1010م = ابن خلكان : مصدر سابق ، 1/271 ، 380 . كذلك المقرئزي : المقفى الكبير ، 3/495-496 .

(4) المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، 2/98 .

(**) هو حفيد القاضي النعمان (المؤرخ) . كان القضاء لا يخرج من أسرهم ، حيث تولّاه من بعد أبيه وعمّه ومن قبلهم جدّه . وقد ضمّ إليه الخليفة الحاكم إلى جانب القضاء النظر في المظالم ، وهو ما لم يجتمع لأحدٍ قبله من أهله ، فعلت مرتبته في الدولة إلا أن الحاكم لم يلبث أن تنكّر له وأمر بقتله سنة 401هـ/1010م . وكانت ولادته بأرض المغرب سنة 354هـ/965م = ابن خلكان : مصدر سابق ، 5/415-423 .

آلاف دينار⁽¹⁾، في حين كان صدّاق الخليفة العزيز على امرأة تزوجها مبلغاً كبيراً جداً حوالي مائتا ألف دينار⁽²⁾.

ويبدو أن مال الصدّاق - كما هو الحال اليوم - ينقسم قسمين ، قسم مُعجّل يُسلّم للزوجة نقداً في يدها عند توقيع العقد ، وقسم مُؤجّل يُعطى لها عند انقضاء المدّة الزمنية المتفق عليها في العقد ، تكون لعدّة أيام وقد تصل إلى السنة⁽³⁾. وإن كان لا يُعدم وجود قادرين كانوا يدفعون الصدّاق مُعجلاً مرة واحدة ، ولاسيّما من الخاصة .

وكان الأهل يُجهّزون بناهم بجهاز حسب مقدرة كل منهم ، فكان أصحاب الثروات والأغنياء يُبالغون في ذلك كثيراً على عادة أهالي العصور الوسطى الإسلامية . فمثلاً كان جهاز أخت كاتب السيّدة العزيزية ، عندما زُفّت إلى زوجها بُلتكين التركي^(*) مائة ألف دينار ، عدا صناديق مُعبأة يحملها ثلاثون بغلاً⁽⁴⁾. كذلك الوزير يعقوب بن كلس جهّز ابنته بما قدره مائتا ألف دينار⁽⁵⁾.

(1) الكندي : الولاة والقضاة ، ص 592 .

(2) النويري : مصدر سابق ، 158/28 . كذلك المقرئبي : اتعاظ الحنفا ، 252/1 .

(3) أوراق البردي : مصدر سابق ، 1/ وثيقة (44) و(45) ، ص 97،100 . كذلك أحمد عبد الرازق : المرجع السابق ، ص 15 . وهم يختلفون في ذلك على ما جرى عليه العرف اليوم، الذي يقضي بتأجيل الصدّاق لأقرب الأجلين ؛ الطلاق أو الموت = شعبان ، زكي : الأحكام الشرعية للأحوال الشخصية ، جامعة قاريونس ، ط6 (بنغازي ، 1993م) ص 273 .

(*) والي دمشق زمن الخليفة العزيز بالله ، تُوفي سنة 381هـ/991م = ابن مُيسّر : مصدر سابق ، ص 170 .

(4) المصدر نفسه والصفحة . كذلك المقرئبي : اتعاظ الحنفا ، 271/1 .

(5) المقرئبي : الخطط ، 382/2 .

ومن غير شك كانوا يعملون وليمة للعُرس وحفلة للزفاف ؛ فأُحت كاتب السيدة العزيزية المذكورة سلفاً، عُمِلَ لها صنيعٌ يوم زفافها ، ذُبِحَ فيه عشرون ألف رأس ، مابين كبشٍ وخروفٍ وجدِيٍّ وإوزةٍ ودجاجةٍ وفَرَّوَجٍ⁽¹⁾.

أما عن حفلات الزفاف فكانت تُقام للنساء - كما في وقتنا الحاضر في بعض المدن في ليبيا وغيرها من الدول العربية - في دُورٍ مخصصة تُستأجر من أصحابها لهذا الغرض . وكان على مُلاك هذه الدور التزام جانب الأخلاق الحميدة ، والمحافظة على حُرمة أصحاب الحفل ، وعدم تسوّر أسطح هذه الدور للتطلع إلى النساء المجتمعات فيها . وكانت الدولة تأخذ عليهم عهداً بذلك ، ويُوقع صاحب الدار وثيقة بعدم التعرض لمؤجّري داره للأفراح ، وإلّا حُرِمَ من تأجيرها لهذا الغرض⁽²⁾. وكان للمحتسب دوره في المحافظة على أمن هذه الدور ونظامها ، والتأكد من أنها خالية من الزوائد والجوانب التي قد يستخدمها أحد من الجيران للتسلّق والفُرجة على النساء الموجودات ، وإذا ما حدث ذلك فإن مُرتكِبها يتعرّض للمساءلة والعقاب⁽³⁾.

2- الاحتفال بالمولود :

إذا كان المولود القادم يُخصّ أحد الخلفاء الفاطميين ، فإن الاحتفال به يأخذ طابع الاحتفالات القومية التي تُعمُّ البلاد كلها . فعلى سبيل المثال عندما وُلِدَ للخليفة المستنصر ولدٌ في سنة 420 هـ / 1029م ، زُيِّنَت مصر والشام بأحسن

(1) ابن مُيسّر : مصدر سابق ، ص 170 . كذلك المقرئبي : اتعاظ الحنفا ، 271/1 .

(2) المقرئبي : اتعاظ الحنفا ، 101-100/2 .

(3) ابن بسّام المحتسب ، محمد بن أحمد : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، تحقيق حسام الدين السامرائي ، مطبعة المعارف (بغداد ، 1968م) ص 19-20 .

زينه، وأنفق من الأموال في الاحتفال به في مصر مالا يُحصى عدده⁽¹⁾. كذلك في سنة 524هـ / 1129م ، عندما وُلِدَ للخليفة الأمر ولد ، زُيِّنَت القصور الفاطمية وجميع القاهرة والفسطاط ، وكُسِبَت العساكر ، وعُمِلَت الملاهي في الإيوانات وبجانب أبواب القصر . وأُخْرِجَ الخليفة لهذه المناسبة الكثير من الأقمشة والمصاغ والآلات المختلفة وأواني الذهب والفضة ، وغير ذلك مما استلزمه الاحتفال الذي استمرَّ لأربعة عشر يوماً⁽²⁾.

وفي صبيحة المناسبة كان الخليفة يجلس لتلقي التهاني ، وفي اليوم السابع (السُّبُوع) يُحضر الكباش الذي يُعَقُّ به عن المولود (العقيقة)^(*) ، وعليه لباسٌ من ديباج وقلائد من فضة ، فيُذبح بحضرة الخليفة والمولود وبعض الخواص من رجال الدولة⁽³⁾. وبعد الذبح يأتي المزيّن لخلق المولود⁽⁴⁾ أتباعاً للسنة⁽⁵⁾. وبعد أن تنتهي هذه المراسم جميعها تُمدُّ الأسمطة داخل القصور ، ويعم الخير سائر الناس بما يُنثر على رؤوسهم من الدنانير⁽⁶⁾.

(1) ابن ظافر : مصدر سابق ، 225/1 - 226 .

(2) ابن مُيسر : مصدر سابق ، ص 109 . كذلك المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، 128/3 .

(*) العقيقة في الأصل هي الشعر الذي يُولد به المولود ، وسُمِّيت الشاة التي تُذبح عنه بذلك عندما يُخلَّق هذا الشعر ، وذلك لأن الشيء يُسمَّى باسم ما يُقاربه أو كان من سببه = القاضي النعمان : دعائم الإسلام ، 185/2 .

(3) المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، 55/2 ، 58 ، 128/3 .

(4) المصدر نفسه ، 58 ، 55/2 .

(5) ابن قِيَمُ الجوزية ، محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي : نُحفة المودود بأحكام المولود ، الشركة الجزائرية اللبنانية (الجزائر العاصمة ، 2006م) ص 103 - 106 .

(6) ابن مُيسر : مصدر سابق ، ص 109 . كذلك المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، 128/3 .

وفرِحاً بهذه المناسبة كانت تُعمل وليمة خاصة للنساء مثل التي أعدّها الوزير الأفضّل ابن بدر الجمالي ، فكانت مأدبة كبيرة اجتمعت فيها سائر نساء كبار الدولة⁽¹⁾ . وكان الخلفاء يُقدّمون الهدايا الثمينة لوزرائهم وكبار رجالهم بهذه المناسبة . فقد أهدى الخليفة العزيز وزيره يعقوب بن كِلْس عندما رُزق بولد ، مَهْداً من صندل مُرّصع ، وثلاثمائة ثوب ، وعشرة آلاف دينار ، بالإضافة إلى كمية كبيرة من الطيب ، وخمسة عشر فرساً بسروجها ولُجُمِها منها اثنان ذهب ، فكان مقدار الهدية مائة ألف دينار⁽²⁾ . كذلك أهدى الخليفة الحاكم لابن عمّه عبد الرحيم بن إلياس بهذه المناسبة ثلاثة أفراس مُسرّجة مُلحمة ، ومائة قطعة من الثياب ، وخمسة آلاف دينار عيناً وغير ذلك⁽³⁾ .

أمّا عن العامة فلم ترد نصوص تُبيّن كيفية استعدادهم أو احتفالهم بهذه المناسبة ، وإن كنت أعتقد أنّهم كانوا لا يُختلفون عمّا يفعله الخاصة ، أو ما هو معمول إلى يومنا هذا ؛ من ذبح العقيقة يوم السُّبوع ، وعمل مأدبة خاصة للنساء ، وأخرى للرجال إن أمكنت أحوال المعيشة صاحب المناسبة (أب المولود) .

3- الاحتفال بالخيّان :

كان الخيّان معروفاً في مصر في العصر الفاطمي كما كان معروفاً في غيرها من البلاد الإسلامية . فهو من شروط الإيمان وفرضه الله على جميع الأديان⁽⁴⁾ . ومن الغريب أن مؤرّخي الدولة الفاطمية لم يوردوا أيّ معلوماتٍ عن احتفالات الخيّان

(1) الدوّاداري : الدُّرّة المضية ، ص 470 .

(2) المقريري : تعاط الحنفا ، 252/1 .

(3) المصدر نفسه ، 98/2 .

(4) ابن قيّم الجوزيّة : مصدر سابق ، ص 166 ، 170 . كذلك القلقشندي : مصدر سابق ، تحقيق محمد عبد الرسول إبراهيم ، المطبعة الأميرية الكبرى (القاهرة ، 1916م) 75/9 .

في مصر سواء أكانت هذه المناسبة عند الخاصة من الناس أم العامة . في حين أنهم بالعكس أوردوا وصفاً جلياً لبعض احتفالاته التي أقامها الفاطميون في أثناء وجودهم في المغرب . وهي كعادتهم تغلب عليها سمات الأعياد وما يحفل فيها من الكرم والبذخ والفخامة . حيث كان الخليفة الفاطمي يكره أن يختن أبناءه وحدهم ، فكان يستغل هذه المناسبة ويجعل منها عيد ختان جماعي تشهده البلاد كلها ، يختن خلالها الكثير من أبناء الرعية ، فتكون مناسبة مشهودة بالخير تُوزَّع فيها الكُسوات والهبات من الأموال .

ففي سنة 340 هـ/951م ختن الخليفة المنصور بنصر الله أبناءه ، فختن معهم ألف صبي من أبناء أهل القيروان ، وقام بكسوتهم وأعطاهم ما ينفقون⁽¹⁾ . كما أمر أن يُكتب له أسماء أولاد القواد ووجوه الدولة من قبيلة كُتامة وغيرهم ، وأبناء الجند وعامة الناس ليختنوا في هذه المناسبة ، فكانوا أكثر من عشرة آلاف . فابتدياً في ختنهم ، وعملت الولايم لأجل ذلك لعامة الناس وخاصتها ، ووُزعت الكُسوات والأموال على الصبيان بقدر مراتبهم ، فكان يُختن في كل يوم مابين خمسمائة إلى ألف وثلاثمائة صبي ، واستمر الحال على ذلك لمدة سبعة عشر يوماً ، شوهد فيها من الإنفاق واللهم ما لم يُر مثله⁽²⁾ .

كذلك الخليفة المعز عندما أراد في سنة 351 هـ /962م ختن أولاده عبد الله ونزار وعقيل ، كتب إلى سائر عماله بالمغرب من برقة إلى سجلماسة ، وجزيرة صقلية ، أن يُسجلوا جميع الأطفال الذين في أعمالهم ، على اختلاف دياناتهم وطبقاتهم وفتاتهم ، لكي يُختنوا مع أولاده . كما أمرهم بالقيام بجميع نفقاتهم

(1) ابن حماد : مصدر سابق ، ص 81 .

(2) آدم متر : مرجع سابق ، 299/2 - 300 .

وكسوتهم ، وما يُصلح أحوالهم من مطعمٍ ومشربٍ وملبسٍ وطيبٍ وغيره على حسب رُتبهم وأحوالهم . فكان من جملة ما أنفق في ذلك مما حُمِلَ إلى جزيرة صقلية وحدها من المال - سُوى الخَلَع والثياب - خمسون حملاً من الدنانير في كل حمل عشرة آلاف درهم ، ومثل ذلك إلى كل عامل من عمّال الدولة يُفَرَّق على أهلها⁽¹⁾.

وقد وصف القاضي النعمان (م: سنة 363 هـ/973م) طريقة الاحتفال بهذا الخِتَان الجماعي كما شاهده بنفسه في حاضرة الدولة الفاطمية بالمغرب ؛ فذكر أنه لأجل هذه المناسبة نُصبت سرادقات ضخمة بساحة القصر الخلافي ، وكان الخليفة المعز يجلس داخلها لحضور مراسم الخِتَان ، فيدخل الصبيان المراد ختنهم ومعهم من يشاءون من آبائهم وأمهاتهم وخدمهم وعبيدهم ، ويكون الخِتَان جالسين على كراسي وأمامهم قومٌ يُمسكون الصبيان في حجورهم حتى ختنهم ، ومعهم مساحيق (الذرات) التي تُنثر على مكان الختن لمنع نزول الدم . كما يرشون على رؤوس الصبيان ووجوههم ماء الورد يُفَيِّقوا مما اعتراهم من الألم والرّوع . وكان أصحاب الملاهي والألعاب المُضحكة يُلهُوهم في أثناء عملية الخِتَان حتى يصرفوهم عن الألم والبكاء . وكان الصبيان بعد ختنهم يمرّون من أمام الخليفة لمنحهم الكُسوات والهبات المالية - التي تختلف مقاديرها باختلاف مراتب الناس - ثم يُزفون إلى بيوتهم بصحبة بعض أصحاب الملاهي⁽²⁾.

وقد استمرت احتفالات الختن هذه لمدة شهر ، كان يُختن في كل يومٍ منها ما بين خمسة آلاف إلى عشرة آلاف صبي ، وأنفق فيها من الأموال والخَلَع

(1) المقريري : تعاضد الحنفا ، 94/1 .

(2) القاضي النعمان : المجالس والمسائرات ، ص 556-557 .

والنفقات ممّا لا يحصيه إلاّ من وقف عليه ، فكانت أياماً كلها أعياد ومسرات وأفراح وهبات ، شملت كل أعمال الدولة ، وأدخلت المسرّة على كل أهل بيتٍ فيها⁽¹⁾.

ولمّا كانت الحياة الاجتماعية تتصف دائماً بنوع من الثبات والاستقرار وبطء التغيير ، ومن أنّها تتوارث من جيلٍ إلى آخر⁽²⁾، فإنّي أعتقد أن احتفالات الختن الجماعي هذه قد انتقلت مع الفاطميين من المغرب إلى مصر ، وأصبحت تُقام فيها بشكلٍ أو بآخر ، ولاسيّما أنّها انتشرت بعد ذلك في عصر حكم المماليك ، الذين من غير شك أخذوها (ورثوها) عن الفاطميين ، مثلما أخذوا عنهم الكثير من العادات والتقاليد والرسوم وغيرها . فقد ذكر ابن إياس (م: سنة 930هـ/1523م) أن السلطان الظاهر بيبرس (658-676هـ/1259-1277م) لمّا أراد ختنَ ابنه الملك سعيد محمد سنة 662هـ/1263م ، رُسِمَ للأمراء والجند والرعيّة أن من كان له ولدٌ فليجلبه إلى القلعة ليُختن مع ابن السلطان ، فأحضر الناس أولادهم ، فكانوا نحو ألف وستمائة وخمسة وأربعين ولداً ، عدا أولاد الأمراء والأعيان . فاستمرت أعمال الختن لمدة أسبوع ، ووُزِعَ على كل ولدٍ من أبناء الخاصة كُسوة على مقام أبيه ، في حين وُزِعَ على أبناء العامة لكل منهم كسوة ومائة درهم ورأس من الغنم⁽³⁾.

(1) القاضي النعمان : المجالس والمسائرات ، ص557-558 .

(2) سعيد عبد الفتاح عاشور : صُور من مجتمع القاهرة في العصور الوسطى ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد

الثامن عشر (القاهرة ، 1979م) ص 161 .

(3) ابن إياس : مصدر سابق ، 86/1 .

4- مناسبة الوفاة (المآتم) :

من العادات المتبعة بمصر في العصر الفاطمي أن تُعلن حالة الوفاة ويُنادى على صاحبها في الأسواق والشوارع ، ليجتمع الناس لحضور جنازته ومراسم دفنه⁽¹⁾. وإن كان المتوفى من الرجال ذوي الأهمية في الدولة ، أو من أسرة الخليفة الفاطمي ، فعند ذلك تُعطل الأعمال وتُغلق الدواوين والأسواق حزناً عليه⁽²⁾.

ويبدأ تجهيز الميت للدفن بتغسيله على يد شخص مُتخصّص ، وعند وفاة أحد الخلفاء أو ذويهم يقوم بتغسيلهم قاضي قضاة الدولة⁽³⁾. وإن كانت المتوفية امرأة تُغسل أيضاً على يد غاسلة مُتخصّصة ، حتى إن الخليفة الحاكم لما حرّم خروج المرأة من منزلها في عصره ، استثنى منهن المُغسلات ، لأنه لم يكن من الممكن الاستغناء عن خدماتهن⁽⁴⁾. أمّا المتوفون من أهل الذمة فيُجهّزون للدفن والصلاة عليهم من القساوسة والبطارقة⁽⁵⁾.

وكان الكفن يعدّ ويتدرّج طبقاً لإمكانات الميت وأهله المادية⁽⁶⁾. وقد بالغ الفاطميون - كعاداتهم - في الإنفاق والصرف على أكفان موتاهم ، فحين تُوفيت السيدة العزيزية زوجة الخليفة العزيز ، كُفنت بما قدره عشرة آلاف دينار ، وأخذت الغاسلة ما كان تحتها من الفرش وعليها من الثياب فكان مبلغ ذلك ستة

(1) المسيحي : مصدر سابق ، 102/1 .

(2) ابن ظافر : مصدر سابق ، 190/1 . كذلك المقرئبي : اتعاظ الحنفا ، 217/1 .

(3) ابن خلّكان : مصدر سابق ، 421/5 . كذلك المقرئبي : المُقَفَّى الكبير ، 588/2 - 589 .

(4) ابن سعيد : النجوم الزاهرة ، ص 64 . كذلك الذهبي : تاريخ الإسلام ، 21/28 .

(5) الأنطاكي : مصدر سابق ، ص 249 - 250 . كذلك المقرئبي : اتعاظ الحنفا ، 175/3 .

(6) نجوى كيرة : مرجع سابق ، ص 276 .

آلاف دينار⁽¹⁾. ولما تُوفي تميم بن الخليفة المعز في سنة 374هـ / 984م ، كُفّنَ في ستين ثوباً⁽²⁾. وكذلك جوهر الصقلّي عند وفاته كُفّنَ في سبعين ثوباً ما بين مُثقل ووشيّ مُذهّب⁽³⁾. وفي أزمان المساعِب والكوارث والمجاعات كان عامة الناس لا يجدون ما يُكفّنون به موتاهم فتكفّل الدولة بذلك⁽⁴⁾.

وبعد غسل الميت وتكفينه يوضع في تابوت (نعش) ، ويخرج به إلى المدفن مشياً على الأقدام والنعش محمولاً على الأيدي⁽⁵⁾. وكان عامة الناس يخرجون خلف الجنائز ويعتبرونها واجباً مُقدّساً يجب أدائه ، كما أنه رغبةً في الثواب من الله⁽⁶⁾. ويختلف عدد المُشيّعين من جنازة لأخرى حسب مكانة المتوفى (منصبه) وشهرته وسيرته في الناس⁽⁷⁾. وكان من عادة المصريين في ذلك الوقت طرح المناديل على جنائز الشرفاء أو الذين لهم مكانة مُتميزة في المجتمع⁽⁸⁾، ويبدو أن ذلك نوع من التكريم والوفاء للمتوفى . وفي كثير من الأحيان كان المسلمون يشاركون النساء يشاركن فيها أيضاً ، فيسرن خلف المُشيّعين باكياتٍ مُؤلّاتٍ ومعهن عددٌ

(1) ابن مُيسّر : مصدر سابق ، ص 172.

(2) المقرئزي : المقفّي الكبير ، 588/2 – 589 .

(3) المصدر نفسه ، 111/3 .

(4) المسيحي : مصدر سابق ، 71/1 .

(5) المصدر نفسه ، 92/1 . كذلك المقرئزي : اتعاط الحنفا ، 175/3 .

(6) نجوى كيرة : مرجع سابق ، ص 277 .

(7) المسيحي : مصدر سابق ، 93/1 ، 96 ، 102 .

(8) المصدر نفسه ، 108/1 .

(9) المصدر نفسه ، 107/1 . كذلك المقرئزي : المقفّي الكبير ، 516/2 .

من النائحات بالطبل والزَّمر على الميت⁽¹⁾. حيث يُستأجرَنَ بالمال من قبل أهل الميت لِيُحَمِّسَنَ الجنازة ، ولخلق جو من الحزن الشديد عليها⁽²⁾.

وكان المسلمون من أهالي الفسطاط والقاهرة يدفنون موتاهم في القرافة التي بجبل المُقَطَّم⁽³⁾. كما كانت لهم مقابر أُخرى خارج باب النصر من أبواب القاهرة، أنشئت بعد سنة 480هـ/1087م ، وأول تُربة بُنيت فيها تربة أمير الجيوش بدر الجمالي عند وفاته ودفنه⁽⁴⁾. في حين كان النصارى يدفنون موتاهم عند دير القصير، فقد كانت لهم في ظاهره العديد من المقابر⁽⁵⁾. كما كانت لهم مدافن كثيرة ومقابر في كنيسة مريم القنطرة بالفسطاط⁽⁶⁾. وكان هناك بعض الأسر يُفضِّلون دفن موتاهم في نفس دورهم⁽⁷⁾. أمَّا الخلفاء الفاطميون وذووهم فكانوا يدفنون في تُربة الأئمة ، أو كما عُرفت بالتربة المُعزِّية وبتربة الزعفران ، وهي من جملة القصر الكبير الشرقي⁽⁸⁾.

وعندما تصل الجنازة إلى القبر يُصَلَّى عليها ، فإن كان المتوفى من الخواص أو الذين لهم مكانة بارزة في المجتمع فقد يُصَلَّى عليه الخليفة بنفسه⁽⁹⁾. وإن لم يكن

(1) الأنطاكي : مصدر سابق ، ص 254 .

(2) يُنظر الفصل الثالث من هذا الكتاب ، ص 179 .

(3) المسيحي : مصدر سابق ، 101/1 ، 102 ، 103 . كذلك المقريري : الخطط ، 647/3 .

(4) المقريري : الخطط ، 696/3 .

(5) المسيحي : مصدر سابق ، 97/1 . كذلك الأنطاكي : مصدر سابق ، ص 282 - 283 .

(6) الأنطاكي : مصدر سابق ، ص 279 .

(7) المسيحي : مصدر سابق ، 103/1 ، 105 . كذلك ابن مُيسر : مصدر سابق ، ص 165 .

(8) المقريري : الخطط ، 161/2 .

(9) ابن خلكان : مصدر سابق ، 421/5 . كذلك المقريري : اتعاظ الحنفا ، 146/1 ، 149 ، 224 .

الخليفة فقاظي القضاة⁽¹⁾، أوداعي الدعاة⁽²⁾. أما المتوفون من العامة فكان يُصلي عليهم أحد منهم . وعند إدراج الميت في القبر ، كان من العادات أن يُقرأ القرآن الكريم ، ثم يتزل أحد المشيعين ليُلحدهُ (يضجعه) في قبره ، وفي بعض الأحيان كان الخليفة الفاطمي يتزل ليُلحدهُ رجال دولته المقربين له⁽³⁾.

وبعد إتمام الدفن يستعد أهل الميت لتقبّل العزاء (المأتم) ، الذي قد يُقام في بيت المتوفى⁽⁴⁾، أو بجوار ثرْبته التي دُفِنَ فيها⁽⁵⁾. ولم ينسَ الفاطميون أن يضيفوا صبغتهم المترفة على ماتمهم ، فكانوا يُقيمون السراذقات وبها القراء والوعاظ والمنشدون . فحين قُتل الأفضل بن بدر الجمالي ، كان عدد القراء والوعاظ والمنشدين عند عزائه أربعمائة وعشرين شخصاً ، أمر الخليفة الأمر بأن يُعطى لكل واحدٍ منهم ثمانون ديناراً ، فكان المبلغ المدفوع نحواً من أربعة وثلاثين ألف دينار⁽⁶⁾. كذلك عندما تُوفيت السيدة العزيزية أقامت ابنتها المناحة على قبرها لمدة شهر ، وراثها الكثير من الشعراء، فأطلقت لهم الجوائز ، وأجيز بعضهم بخمسائة دينار . كما أعطى للقراء الذين قرؤوا على قبرها ثلاثة آلاف دينار ، وطوال مُدة العزاء وفي كل ليلة من لياليه كان يُقدّم الطعام والحلوى للناس⁽⁷⁾.

(1) المسيحي : مصدر سابق ، 1/ 92، 96، 97 .

(2) المصدر نفسه ، 1/ 105، 106، 107 ، 111 .

(3) المقريري : اتعاظ الحنفا ، 1/ 149 .

(4) ابن مُيسر : مصدر سابق ، ص 173-174 . كذلك المقريري : اتعاظ الحنفا ، 2/ 126 .

(5) ابن مُيسر : مصدر سابق ، ص 172 . كذلك المقريري : الخطط ، 2/ 382 .

(6) ابن مُيسر : مصدر سابق ، ص 86 .

(7) المصدر نفسه ، ص 172 .

وهكذا فإن كانت المآتم التي تحلّ بالخلفاء الفاطميين وكبار رجال دولتهم تعد مناسبات حزن بالنسبة لهم ، فإنها على الفقراء من الرعية تعد مناسبات فرح وسرور ، لما كان يعمهم فيها من ضروب الخير والبر ، ومما كانوا يتحصّلون عليه خلالها من الهبات والصدقات ، التي تبدأ من ليلة الوفاة وتستمر إلى تمام الشهر يُنفقُ فيها مما لا يُحصى كثرة⁽¹⁾.

فسبحان الذي لا يموت ، " ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام ، وهكذا الدُّهور وأهل الدُّهور وإلى الله تصير الأمور"⁽²⁾.



(1) المقرئزي : تعاض الحنفا ، 57/3 .

(2) ابن حمّاد : مصدر سابق ، ص 109 .

الخاتمة

بعد أن أتممت دراستي هذه المعنونة بـ (الحياة الاجتماعية في مصر في عصر الدولة الفاطمية) ، التي تناولت فيها دراسة العناصر السكانية التي يحتويها هذا المجتمع في ذلك الزمن ، أتضح الدور الذي قام به المغاربة في توطيد أركان الدولة الفاطمية بمصر ، وكيف أنهم كانوا يشغلون أرقى المناصب وأعلاها ، إلا أنهم لم يلبثوا أن أصبحوا - بمرور السنين - من جملة الرعيّة ، بعد ظهور قُوى أُخرى في البلاد تمثلت في عنصري الأتراك والسودان ، اللذين دخلا في صراعاتٍ عنيفة فيما بينهم كادت أن تُبكر بسقوط الدولة الفاطمية . الأمر الذي نتج عنه بروز العنصر الأرميني كعنصر جديد مُسيطر ، إلا أن مصيره لم يلبث أن آل إلى ما آل إليه سابقوه من الضعف والأفول . ثم أدّت تطورات الأحداث السياسية بعد ذلك إلى ازدياد أعداد عنصري الغزّ والأكراد ونفوذهما ، ذلك النفوذ الذي تمخّض عنه سقوط الدولة الفاطمية بمصر وقيام الدولة الأيوبية الكرديّة فيها .

وكغيره من المجتمعات الأخرى في ذلك الوقت ، تكوّن المجتمع المصري في العصر الفاطمي من طبقات اجتماعية ، وهي طبقة الخاصة وعلى رأسها الخليفة الفاطمي ، الذي استحوذ على جميع السلطات في الدولة وكان على قمّة الهرم الاجتماعي . بيد أن سلطاته لم تلبث أن انتزعت منه في العصر الفاطمي الثاني وآلت إلى الوزراء الذين كانوا يتشبهون بالخلفاء في معيشتهم ، فكانت تتسم بالترف والرفاهية . وإلى جانب الخليفة والوزراء تضمّنت طبقة الخاصة على أرباب الوظائف الذين عاشوا أزهى أيامهم في العصر الفاطمي بما كانوا يتحصّلون عليه من امتيازات جعلتهم في رغدٍ من الحياة . وكانت هناك طبقة العامة التي احتوت

على معظم الشعب المصري بفتاته المختلفة ، وكانوا قد نالوا اهتماماً كبيراً من الحكومة الفاطمية بما وفرته لهم من استقرارٍ وأمنٍ وطمأنينةٍ ولوازم حياة . وبطبيعة الحال شكّلت المرأة جزءاً أساسياً من المجتمع لها أوضاعها وكذلك أدوارها المهمة فيه . ولاسيما المرأة الفاطمية التي تمتعت بالأموال والثروات الضخمة ، إلى جانب المكانة الاجتماعية الممتازة التي جعلتها تتشبه بالخلفاء في امتلاكها للخدم والجواري ، وكذلك التلقّب بالألقاب ، واتخاذها للأختام وغير ذلك . والمرأة المصريّة (العاميّة) أيضاً كان لها وضعٌ خاص ودورٌ كبير في المجتمع ، الذي لم يقتصر على دورها كابنة أو زوجة أو أمّ ، إنّما تعدّها إلى الخروج والمشاركة في الحياة الاقتصادية والعلمية ، بل والتدخل والتحريض على بعض السياسات الداخلية المتعلقة بالحكومة .

وقد عاش الأهالي - بصفة عامة - في العصر الفاطمي معيشة جيّدة إلى حدّ ما ، اتّضح ذلك في تنوّع الأطعمة والفواكه والحلويات التي كانوا يتناولونها ، وفي تعدد وسائل اللهو والتسلية التي أقبلوا عليها ، بالإضافة إلى كثرة الأعياد والمناسبات والمواسم التي كانوا يحتفلون بها ، والتي اهتمت بها الحكومة الفاطمية اهتماماً كبيراً مثيراً للإعجاب ، حيث كانت من الوسائل التي استخدمتها لتكسب بها ولاء الناس وانتماءهم .

ومن خلال الخوض والبحث في هذه المواضيع - التي تندرج تحت المُسمّى الأول المذكور آنفاً- تجلّت لي العديد من النتائج ، من أهمها :

1- إنّ الدولة الفاطمية أثبتت قدرتها على استيعاب معظم عناصر السكان المختلفة التي تكوّن منها المجتمع المصري ، وتسخيرها لخدمة مصالحها وأهدافها ، وقد

تجلى ذلك بوضوح في التطور الكبير الذي شهدته البلاد في مختلف مجالات الحياة .

2- إن من أسباب النهضة السريعة التي شهدتها مصر في جميع مجالاتها ، هي اهتمام الحكومة الفاطمية بأحوال موظفيها المعيشية اهتماماً لم يسبق له مثيل من قبل في مصر ولم يشهد مثله من بعد ، الأمر الذي جعلهم في رغدٍ من الحياة ، وسهّل عليهم القيام بواجباتهم خير قيام ، فلم يألوا جهداً في العمل على تقدّم مرافق البلاد ودفع أسباب الفساد عنها في كثيرٍ من الأحيان .

3- إن كانت طبقة الخاصة قد عاشت في رخاءٍ وترفٍ لما كانت تُقدّمه لها الدولة من مزايا معيشة عديدة ضمنت لها هذه الحياة ، فإن العامة لم يكونوا بعيدين عن هذا المستوى المعيشي ، حيث تأثروا كثيراً بمظاهر البذخ والثراء التي انطبعت بها معظم مظاهر الحياة في ذلك الوقت ، فكانوا كثيراً ما يتشبهون بالخاصة في معيشتهم كلما سمحت لهم الظروف ، ولاسيما أن الحال كان مفتوحاً لهم ، حيث لم يهتم الفاطميون كثيراً على تأكيد التفاوت الطبقي ، فقد كان هدفهم استقطاب الناس كافة دون مراعاةٍ لطبقاتهم أو فئاتهم أو مللهم أو نحلهم .

4- إن العصر الفاطمي بمصر يعدُّ العصر الذهبي لأهل الذمة ، نالوا فيه حريتهم وتمتعوا من خلاله بالكثير من التسامح والعطف ، الأمر الذي مكّنهم من أن يصلوا إلى أعلى المناصب في البلاد ، وأن يتركوا بصمةً لا بأس بها في المجتمع ، تجلّت في بروز أعيادهم الدينية واحتفالاتهم ، التي شاركهم الفرح بها السواد الأعظم من الشعب المصري ، بل وجعل الفاطميون من بعضها أعياداً رسمية تُحييها الدولة .

- 5- أكّدت المرأة الفاطمية على قوتها في البلاد ، وذلك من خلال تدخلها في السياسة الداخلية وتسييرها لِدَفَّة الحُكْم في الكثير من الأوقات ، إلى جانب إقامتها للعديد من المشاريع العمرانية المؤثرة في حياة الناس في المجتمع المصري .
- 6- إنّ الفاطميين لم يحطُّ من شأن المرأة المصرية أو يُقلِّلوا من كرامتها وقيمتها كجزء أساسي من المجتمع . ولم يكن تشدّدهم معها ومصادرتهم لحريتها في بعض الأحيان ، ولاسيما في عصر الخليفة الحاكم ، سوى وسيلة للتخفيف من عوامل الغواية والفتنة ومنع انتشار الانحلال والفساد في المجتمع .
- 7- إنّ التطور الكبير الذي شهدته مصر خلال العصر الفاطمي في مجال تعدد أنواع الأطعمة والحلويات وجودتها ، كان سببه المباشر حُبّ الفاطميين لحياة البذخ والترف من ناحية ، ولكثرة الأعياد والاحتفالات من ناحيةٍ أُخرى ، بالإضافة إلى أنّ الفاطميين كانوا من هُوَاة الاكتشاف والتجديد .
- 8- إنّ تعدّد وسائل اللهو التسلية والترفيه ما هو إلاّ انعكاس لحياة الترف والبذخ التي كان يعيشها الفاطميون ، والتي تأثّر بها عامة الناس في مصر .
- 9- أثبتت الدول الفاطمية أنّها دولة البهاء والبذخ الواسع ، الأمر الذي تجلّى بوضوح في كثرة الأعياد والمواسم والمناسبات ، وطريقة الاحتفال بها والرسوم المتبعة فيها ، والتي كانت أيضاً مظهراً من مظاهر قوتها وعظمتها وسطوتها .
- 10- من غير شك في أنّ الخلفاء الفاطميين كانوا من أكثر الخلفاء المسلمين حُبّاً للمظاهر والفخامة والأبهة .
- 11- كان الوازع الأخلاقي والإسلامي لدى الخلفاء الفاطميين الأوائل (المعز والعزيز والحاكم) أقوى منه عند الخلفاء الذين تلوهم ، وقد ظهر ذلك بوضوح في تشدّدهم ومنعم للكثير من المنكرات التي كانت تحدث في المجتمع

المصري ، بعكس الآخرين الذين تساهلوا وترخصوا للناس فيها ، ومنهم من شارك فيها أيضاً .

12- حَقَّقَ العصر الفاطمي لمصر تطوراً ونهضةً اجتماعية لم يسبق لها مثيلٌ من قبل ولا من بعد ، غَيَّرَت مجرى حياة السكان وأضافت إليهم الكثير من العادات والتقاليد التي لم يألفوها ، وإن كانوا قد اندمجوا فيها وانصهروا في بوتقتها ، فأصبحت جزءاً لا يتجزأ من حياتهم .

13- لم يتسنَّ للفاطميين فرض أسلوب حياتهم المتسم بالترف والرفاهية واللهو والتسلية إلا بفهم طبيعة الشعب المصري المحب لهذا النوع من الحياة . حيث كانت على خلاف طبيعة الشعب المغربي - التي اختبرها الفاطميون إبان وجودهم في المغرب - التي اتسمت بالجديَّة والرصانة والحياة البدوية القاسية . لذلك لم يتعب الفاطميون كثيراً في التأثير على الشعب المصري وصبغه بصبغتهم لما وجدوه منهم من ميول واضحة وقبول لهذه الصبغة .

14- وأخيراً فإنَّ الكثير من العادات والتقاليد والشعائر والرُّسوم المتداولة بين الناس في وقتنا الحاضر ، ولاسيما بين المصريين ترجع في أصولها إلى العصر الفاطمي ، ولا يزال الناس مُتَشَبِّثِينَ ومُحْتَفِظِينَ بها ، ممَّا يدلُّ على أنَّ العصر الفاطمي كان عصراً فريداً من نوعه في تاريخ مصر الإسلامية .

وهكذا وعلى الرغم من مُحاولتي جاهداً أن أُوفِّي هذا الموضوع حَقَّهُ من الإيضاح ونثر غبار الزمان عنه ، إلا أنَّ الكمال لله وحده ، فإنَّ دراستي هذه ينقصها الكثير من الموضوعات الاجتماعية المهمة ، التي للأسف لم تُشجَّعني المادة التاريخية على الخوض فيها ، منها على سبيل المثال العلاقات الإنسانية التي كانت تربط بين الأفراد والجماعات ؛ كالعلاقات بين الأسرة الواحدة (بين الآباء والأبناء

وبين الإخوة) ، والعلاقات التي بين الأقارب ، وكذلك بين الجيران ، وغيرها من الموضوعات الاجتماعية الحيوية التي لن تتضح صورتها إلا إذا عُثِرَ على نصوص تاريخية جديدة ، قصد مؤرّخوها - المعاصرون لها - التأريخ لها مباشرة وليست عرضاً في كتبهم . وإنّ محاولة استقراءها والكشف عنها من المادة المتاحة حالياً يعدّ - في نظري - ضرباً من الخيال ، أو فنّاً من فنون التأليف القصصي الذي لا يتماشى مع الدراسات التاريخية الرصينة الموثقة .

{ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا }

سورة البقرة ، الآية (285)

المؤلف

**قائمة
المصادر و المراجع**

(340)

- القرآن الكريم (برواية قالون عن نافع المدني) .
- أولاً : المخطوطات
- ابن رضوان الطبيب المصري ، علي (م:سنة 453 هـ /1061م) .
- كتاب دفع مضار الأبدان بأرض مصر ، مخطوط تحت رقم عام (156164) وتصنيف (355 طب عربي) بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة .
- الإسكندراني ، محمد أبو الحسن (مجهول الترجمة) .
- شَرْحُ لُمَعَةٍ من أخبار الإمام المعز لدين الله، مخطوط تحت رقم (1761) وميكروفيلم (507). بمتحف المخطوطات والكتب النادرة بمكتبة الإسكندرية .
- الدمشقي ، أبو الفضل جعفر بن علي (عاش في القرن السادس الهجري/الثاني عشر ميلادي) .
- كتاب الإشارة في محاسن التجارة ومعرفة جيّد الأعراض وردّيها وغُشوش المُدْلِسين فيها ، مخطوط تحت رقم عام (543) وتصنيف (330/أ.د) بقسم المخطوطات بجامعة الملك سعود بالرياض .
- الدَّوَاداري ، أبو بكر بن عبد الله بن أيك (م: بعد سنة 736 هـ /1335م).
- دُرر التَّيجان وغُرر تواريخ الأزمان ، مخطوط تحت رقم (3828/ج تاريخ) بمتحف المخطوطات والكتب النادرة بمكتبة الإسكندرية .

ثانياً : المصادر

- ابن أبي دينار ، أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيبي (م: سنة 1110 هـ /1698م) .

(341)

- المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس ، تحقيق محمد شَمَام ، المكتبة العتيقة ، ط3 (تونس ، 1387هـ) .
- ابن الأثير ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني(م: سنة 630 هـ /1232م) .
- الكامل في التاريخ ، تحقيق أبي الفدا عبد الله القاضي ، دار الكتب العلمية (بيروت ، 1987م) .
- ابن الأخوة ، محمد بن محمد بن أحمد القرشي(م: سنة 729 هـ /1328م) .
- معالم القربة في أحكام الحسبة "جاء ضمن كتاب في التراث الاقتصادي الإسلامي مع كتابي نهاية الرتبة في طلب الحسبة لابن بسّام والحسبة في الإسلام لابن تيمية " ، دار الحداثة (بيروت ، 1990م) .
- ابن إياس ، محمد بن أحمد (م: سنة 930 هـ /1523م) .
- بدائع الزهور في وقائع الدهور ، دار ومطابع الشعب (القاهرة ، 1960م) .
- ابن بابويه القمي ، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى (م: سنة 381هـ /991م) .
- عللُ الشرايع ، قدّم له محمد صادق بحر العلوم ، المكتبة الحيدرية (النجف ، 1966م) .
- ابن بسّام المحتسب ، محمد بن أحمد (عاش في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر ميلادي) .
- نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، تحقيق حسام الدين السامرائي ، مطبعة

(342)

المعارف (بغداد ، 1968م) .

- ابن بَطَّال ، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (م: سنة 449 هـ - 1057/م) .
- شرح صحيح البخاري ، ضبط نَصَّه وعلَّق عليه أبو تميم ياسر بن إبراهيم ، مكتبة الرشد (الرياض ، بدون تاريخ) .
- ابن البيطار ، ضياء الدين عبد الله بن أحمد (م: سنة 646 هـ - 1248/م) .
- الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ، مكتبة المثنى (بغداد ، بدون تاريخ) .
- ابن تَغْرِي بَرْدِي ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (م: سنة 874 هـ - 1469/م) .
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، تحقيق محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية (بيروت ، 1992م) .
- ابن جُبَيْر ، أبو الحسين محمد بن أحمد (م: سنة 614 هـ - 1217/م) .
- رحلة ابن جُبَيْر ، تحقيق كرم البستاني ، دار صادر (بيروت ، بدون تاريخ) .
- ابن الجوزي ، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي (م: سنة 597 هـ - 1200م) .
- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية (حيدر آباد الدكن ، 1357هـ) .
- ابن حَمَّاد ، أبو عبد الله محمد بن علي (م: سنة 628 هـ - 1230م) .
- أخبار ملوك بني عُبيد وسيرتهم ، تحقيق ودراسة التهامي نقرة وعبد

(343)

- الحلّيم عويس ، دار الصحوة (القاهرة ، 1401هـ) .
- ابن حوقل النصيبي ، أبو القاسم (م: سنة 380 هـ /990م) .
- كتاب صورة الأرض ، تحقيق ج. ك. كرامرز ، مطبعة برييل ، ط2 (ليدن ، 1938م) (أعدت طبعه بالأوفست دار صادر بيروت) .
- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (م: سنة 808 هـ /1405م) .
 1. العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، تحقيق تركي فرحان المصطفى ، دار إحياء التراث العربي (بيروت ، 2006م) .
 2. المقدمة ، دار الجيل (بيروت، بدون تاريخ) .
- ابن خلّكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (م: سنة 681 هـ /1282م) .
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان فيما ثبتَ بالنقل أو السماع أو أثبتته البيان ، تحقيق إحسان عبّاس ، دار صادر، ط4 (بيروت ، 2005م) .
- ابن دقماق ، إبراهيم بن محمد بن أيّدَمَر العلاتي (م: سنة 809 هـ /1406م) .
- الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، المكتب التجاري (بيروت ، بدون تاريخ) .
- ابن الزُّبير ، الرشيد أبو الحسن أحمد بن الرشيد (عاش في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي) .
- كتاب الذخائر والتُّحف ، تحقيق محمد حميد الله ، مطبعة حكومة

(344)

- الكويت (الكويت ، 1984م) .
- ابن زولاق ، الحسن بن إبراهيم بن الحسين بن سليمان (م:سنة 387 هـ/997 م) .
- فضائل مصر وأخبارها وخواصها ، تحقيق علي محمد عمر ، مكتبة الأسرة (بدون مكان ، 1999م) .
- ابن السّاعي ، تاج الدين أبو طالب علي بن أنجب (م:سنة 614 هـ/1217 م) .
- نساء الخلفاء المُسمّى جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء ، حقّقه وعلّق عليه مصطفى جوّاد ، دار المعارف (القاهرة ، بدون تاريخ) .
- ابن سعيد الأندلسي ، علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك (م:سنة 685 هـ/1286م) .
1. المُعْرَبُ فِي حُلَى الْمُعْرَبِ "الجزء الأول من القسم الخاص بمصر" ، تحقيق زكي محمد حسن وشوقي ضيف وسيّدة كاشف ، جامعة فؤاد الأول (القاهرة ، 1953م) .
2. النجوم الزاهرة في حُلَى حضرة القاهرة "القسم الخاص بالقاهرة من كتاب المُعْرَبُ فِي حُلَى الْمُعْرَبِ" ، تحقيق حسين نصّار ، مطبعة دار الكتب (القاهرة ، 1970م) .
- ابن شدّاد ، بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم(م:سنة 632 هـ/1234م) .
- النوادر السلطانية والمحاسن اليُوسُفِيَّة ، تحقيق جمال الدين الشيال ،

(345)

- مكتبة الخانجي ، ط2 (القاهرة ، 1990م) .
- ابن الصيرفي ، أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان (م:سنة 542 هـ/1147 م) .
- الإشارة إلى من نال الوزارة " نُشِرَ معه في الكتاب نفسه وللمؤلف نفسه كتاب القانون في ديوان الرسائل " ، تحقيق أيمن فؤاد سيّد ، الدار المصرية اللبنانية (القاهرة ، 1990م) .
- ابن الطُوَيْر ، أبو محمد المُرتضى عبد السلام بن الحسن القيسراني (م: سنة 617هـ/1220م) .
- نُزْهة المُقلّتين في أخبار الدولتين ، أعاد بناءهُ وحَقَّقَهُ وقَدَّمَ له أيمن فؤاد سيّد ، فرانتس شتاينر (شتوتغارت ، 1992م) .
- ابن ظافر الأزدي ، أبو الحسن علي بن أبي المنصور(م:سنة 613 هـ/1216م) .
- أخبار الدول المنقطعة ، تحقيق عصام هزايمة ومحمد محافظة ومحمد طعّاني وعلي عبابنة ، دار الكتب والوثائق القومية (القاهرة ، 1969م) .
- ابن ظهيرة ، (لَعَلَّهُ) أبو إسحق إبراهيم بن علي بن محمد(م:سنة 825 هـ/1421م) .
- الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة ، تحقيق مصطفى السقّا وكامل المهندس ، دار الكتب والوثائق القومية (القاهرة، 1969م) .
- ابن عبد الحكم ، عبد الرحمن بن عبد الله (م:سنة 257 هـ/870 م) .

(346)

- فتوح مصر والمغرب ، تحقيق عبد المنعم عامر ، الهيئة العامة لقصور الثقافة (القاهرة ، 2001م) .
- ابن عبد الظاهر ، مُحبي الدين أبو الفضل عبد الله بن رشيد الدين(م:سنة 692هـ/1292م) .
- 1. تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ، تحقيق مراد كامل ، الشركة العربية للطباعة و النشر (القاهرة ، 1961م) .
- 2. الروضة البهية الزاهرة في خِطَط المُعزِّية القاهرة ، تحقيق أيمن فؤاد سيّد ، أوراق شرقية (بيروت ، 1996م) .
- ابن العديم ، أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله بن عبد العزيز بن أبي جرادة (م:سنة 660 هـ/1261م) .
- الوصلة إلى الحبيب في وصف الطيبات والطيب ، تحقيق سليمى محجوب ودُرِّيَّة الخطيب ، جامعة حلب (حلب ، 1988م) .
- ابن عِداري المراكشي ، أبو العباس أحمد بن محمد(عاش في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي) .
- البيان المُعرب في أخبار الأندلس والمُعرب ، تحقيق ج. س. كولان و إ. ليفي بروفنسال ، دار الثقافة (بيروت ، بدون تاريخ) .
- ابن العماد ، شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي أحمد بن محمد العسكري الحنبلي(م:سنة 1089 هـ/1678م) .
- شَدَرَات الذهب في أخبار من ذهب ، تحقيق عبد القادر الأرنؤوط ومحمود الأرنؤوط ، دار ابن كثير (دمشق ، 1986م) .
- ابن فضل الله العُمري ، أحمد بن يحيى(م:سنة 749 هـ/1348م) .

(347)

- في الإنصاف بين المشرق والمغرب " قطعة من مسالك الأبصار في ممالك الأمصار " ، دراسة وتحقيق زينب طاهر ساق الله ، دار المدار الإسلامي (بيروت ، 2004م) .
- ابن فضّالان ، أحمد بن فضالان بن العباس بن راشد بن حمّاد(عاش في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي) .
- رسالة ابن فضّالان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة 309 هـ / 921م ، حقّقها وعلّق عليها وقدم لها سامي الدّهّان ، الجمع العلمي العربي (دمشق ، 1960) .
- ابن الفقيه ، أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني (م: سنة 290 هـ/ 902م) .
- مختصر كتاب البلدان ، مطبع بريل (ليدن ، 1302هـ) .
- ابن قُتَيْبَةَ الدِّينَوْرِي ، أبو محمد عبد الله بن مسلم (م: سنة 27 هـ/ 889م) .
- كتاب عيون الأخبار ، تحقيق محمد الإسكندارني ، دار الكتاب العربي (بيروت ، 1994م) .
- ابن القلّانسي ، أبو يعلي حمزة (م: سنة 555 هـ/ 1160م) .
- ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق هـ. ف. آمدروز (بيروت ، 1908م) (أعدت طبعه بالأوفست مكتبة المثقّين ببغداد) .
- ابن قيّم الجوزيّة ، محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي (م: سنة 751 هـ/ 1350م) .
- تُحفة المودود بأحكام المولود ، الشركة الجزائرية اللبنانية (الجزائر العاصمة ، 2006م) .

(348)

- ابن كثير ، عماد الدين أبي الفدا إسماعيل بن عمر (م:سنة 774 هـ/1372 م).
 - البداية والنهاية ، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي ، دار هجر (القاهرة ، 1998م) .
- ابن المأمون البطائحي ، جمال الدين أبو علي موسى (م:سنة 588 هـ/1192 م).
 - نصوص من أخبار مصر ، حَقَّقَهَا وَكَتَبَ مَقْدَمَتَهَا وَحَوَاشِيهَا وَوَضَعَ فَهَارِسَهَا أَيْمَنُ فَرْوَادِ سَيِّد ، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية (القاهرة ، 1983م) .
- ابن مَمَّاتِي ، أسعد بن مُهَدَّب بن أبي مليح (م:سنة 606 هـ/1209م) .
 - قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوريال عطية ، مكتبة مدبولي (القاهرة ، 1991م) .
- ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (م:سنة 711 هـ/1311 م).
 - لسان العرب ، دار صادر ، ط6 (بيروت ، 1997م) .
- ابن مُنْقَد ، أبو المظفر مؤيد الدولة مجد الدين أسامة بن مُرْشِد بن علي (م:سنة 584هـ/1188م) .
 - كتاب الاعتبار ، تحقيق قاسم السَّمْرَائِي ، دار الأصاله (الرياض ، 1987م) .
- ابن مُيَسَّر ، تاج الدين محمد بن علي بن يوسف بن جَلَب رَاغِب (م:سنة 677هـ/1278م) .

(349)

- المنتقى من أخبار مصر ، حَقَّقَه وكتب مقدمته وحواشيه ووضع فهرسه أيمن فؤاد سيِّد ، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية (القاهرة ، 1981م) .
- أبو شامه ، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (م:سنة 665 هـ/1266م) .
- 1. الروضتين في أخبار الدولتين الثوربية والصلاحيية ، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد ، المؤسسة المصرية العامة (القاهرة ، 1962م) .
- 2. عُيون الروضتين في أخبار الدولتين ، تحقيق أحمد البيسومي ، وزارة الثقافة (دمشق ، 1991م) .
- أبو الصلت الأندلسي ، أمية بن عبد العزيز (م:سنة 528 هـ/1133م) .
- الرسالة المصرية "وردت ضمن سلسلة نوادر المخطوطات" ، جمع وتحقيق عبد السلام محمد هارون ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، ط2 (القاهرة ، 1972م) .
- أبو المطهر الأزدي ، محمد بن أحمد (عاش في القرن الرابع أو الخامس الهجري/ العاشر أو الحادي عشر الميلادي) .
- حكاية أبي القاسم البغدادي ، كرل ونترل (هيدلبرج ، 1902م) . (أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثني ببغداد) .
- أبو الفدا ، عماد الدين إسماعيل (م:سنة 732 هـ/1331م) .
- المختصر في أخبار البشر ، دار المعرفة (بيروت ، بدون تاريخ) .
- الأصطخري ، أبو إسحق إبراهيم بن محمد الفارسي(عاش في النصف الأول من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي) .

(350)

- المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني ، دار القلم (القاهرة ، 1961م) .
- الأنطاكي ، يحيى بن سعيد بن يحيى (م:سنة 458 هـ/1065م) .
- تاريخ الأنطاكي " المعروف بصلة تاريخ أوتينا " ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري ، جرّوس برسّ (طرابلس الشام ، 1990م).
- أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية ، نشر نصوصها ونقلها إلى اللغة الإنجليزية وعلّق عليها أدولف جروهمان ، وترجم تعليقات الأجزاء الأول والثالث والخامس حسن إبراهيم حسن ، والجزء السادس عبد العزيز الدالي ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ط2 (القاهرة ، 1994م).
- بازيار العزيز بالله الفاطمي ، أبو عبد الله الحسن بن الحسين (ظنّاً) (عاش في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي) .
- الببيرة ، نظر فيه وعلّق عليه محمد كرد علي ، دار صادر ، ط2 (بيروت ، 1995م) .
- البكري ، أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز (م:سنة 487 هـ/1094 م) .
- المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب " وهو جزء من كتاب المسالك والممالك " ، دار الكتاب الإسلامي (القاهرة ، بدون تاريخ) .
- البلاذري ، أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر (م:سنة 279 هـ/892 م) .
- فتوح البلدان ، راجعه وعلّق عليه رضوان محمد رضوان ، دار الكتب العلمية (بيروت ، 1978م) .
- البلوي ، أبو محمد عبد الله بن محمد المديني(عاش في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي) .

(351)

- سيرة أحمد بن طولون ، تحقيق محمد كرد علي ، مكتبة الثقافة الدينية (القاهرة ، بدون تاريخ) .
- الجَوْدَرِي ، أبو علي منصور العزيزي (م: سنة 386 هـ/996م) .
- سيرة الأستاذ جُوذَر " و به توقيعات الأئمة الفاطميين " ، تحقيق محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة ، دار الفكر العربي (القاهرة ، بدون تاريخ) .
- الدَّوَادَرِي ، أبو بكر بن عبد الله بن أبيك (م: بعد سنة 736 هـ/1335 م).
 1. الدُّرَّة المُضِيَّة في أخبار الدولة الفاطمية "وهو الجزء السادس من كتاب كثر الدرر وجامع العُرَر" ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، المعهد الألماني للآثار (القاهرة ، 1961م) .
 2. الدرّ المطلوب في أخبار ملوك بني أيُّوب "وهو الجزء السابع من كتاب كثر الدرر وجامع العُرَر" ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور ، المعهد الألماني للآثار (القاهرة ، 1972م) .
- الذهبي ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (م: سنة 748هـ/1347م) .
 1. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري ، دار الكتاب العربي ، ط2 (بيروت ، 1990م) .
 2. دُول الإسلام ، تحقيق حسن إسماعيل مَرَوَة ، دار صادر (بيروت ، 1999م) .
 3. سِيرَ أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرنؤوط وإبراهيم الزبيق ، مؤسسة الرسالة ، ط11 (بيروت ، 1996م) .

(352)

- الرَّازِي ، أبو بكر محمد بن زكريّا (م:سنة 320 هـ/932م) .
- كتاب منافع الأغذية ودفع مضارها "وبهامشه كتاب دفع المضار الكليّة عن الأبدان الإنسانيّة لأبي عليّ الحسين بن عبد الله الشهير بابن سينا" ، المطبعة الخيرية (القاهرة ، 1305هـ) .
- الرَّوْذِرَاوَرِي ، أبو شجاع محمد بن الحسين بن عبد الله بن إبراهيم (م:سنة 488هـ/1095م) .
- ذيل كتاب تجارب الأمم ، تحقيق هـ. ف. أمدروز ، شركة التمدن الصناعيّة (القاهرة ، 1916م) .
- الرَّبَيْدِي ، مُحَبّ الدين أبو الفيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي (م:سنة 1205 هـ/1790م) .
- تاج العروس من جواهر القاموس ،
الجزء 5 ، تحقيق مصطفى حجازي ، وزارة الإعلام (الكويت ، 1989م) .
- الجزء 8 ، تحقيق عبد العزيز مطر ، وزارة الإرشاد والأنباء ، ط2 (الكويت ، 1994م) .
- الجزء 13 ، تحقيق حسن نصّار ، وزارة الإعلام (الكويت ، 1974م) .
- الجزء 20 ، تحقيق عبد الكريم العزبّاوي ، وزارة الإعلام (الكويت ، 1983م) .
- الجزء 28 ، تحقيق محمود محمد الطّناحي ، وزارة الإعلام (الكويت ، 1993م) .

(353)

- الجزء 31 ، تحقيق عبد العليم الطّحاوي ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (الكويت ، 2000م) .
- الجزء 34 ، تحقيق علي هلاي ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (الكويت ، 2001م) .
- ساويروس بن المُفَّع ، أسقف الأثمنونين (م: بعد سنة 377 هـ/987م) .
- تاريخ البطارقة "وبهامشه تاريخ مصر من بدايات القرن الأول الميلادي حتى نهاية القرن العشرين" ، إعداد وتحقيق عبد العزيز جمال الدين ، مكتبة مدبولي (القاهرة ، 2006م) .
- السِّجَلَاتُ المُسْتَنْصِرِيَّةُ ، سِجَلَاتٌ وتوقيعاتٌ وكُتُبٌ لمولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين إلى دعاة اليمن وغيرهم قَدَّسَ اللهُ أرواح جميع المؤمنين ، تحقيق عبد المنعم ماجد ، دار الفكر العربي (القاهرة ، 1954م) .
- السِّيُوطِي ، جلال الدين عبد الرحمن (م: سنة 911 هـ/1505م) .
1. تاريخ الخلفاء ، راجعه وعلّق عليه جمال محمود مصطفى ، دار الفجر للتراث (القاهرة ، 1999م) .
2. حُسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية (القاهرة ، 1967م) .
- الشَّابُشْتِي ، أبو الحسن علي بن محمد (م: سنة 388 هـ/998م) .
- الدِّيَّارات ، تحقيق كوركيس عوَّاد ، مكتبة المثنى ، ط2 (بغداد ، 1966م) .
- الشَّريف الرِّضِي ، محمد بن أبي أحمد الحسين (م: سنة 404 هـ/1013م) .

(354)

- ديوان الشريف الرّضي ، صَحَّحه أحمد عبّاس الأزهرى ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات (بيروت ، 1310هـ) .
- الشهرستاني ، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (م:سنة 548 هـ/1153م) .
- المَلَل والنَّحَل ، تحقيق أبو عبد الله السعيد المندُوه ، مؤسسة الكتب الثقافية ، ط2 (بيروت ، 1998م) .
- الشيرازي ، المؤيّد في الدين هبة الله بن موسى بن داود(م:سنة 470 هـ/1077م) .
- سيرة المؤيّد في الدين داعي الدعاة "ترجمة حياته بقلمه" ، تحقيق محمد كامل حسين ، دار الكاتب المصري (القاهرة ، 1949م) .
- الشَّيْزَرِي ، عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله (م:سنة 589 هـ/1193م) .
- كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، تحقيق السيّد الباز العريبي ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (القاهرة ، 1946م) .
- الصَّفْدي ، خليل بن أيك بن عبد الله(م:سنة 764 هـ/1362م) .
- الوافي بالوفيات ، تحقيق أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى ، دار إحياء التراث العربي (بيروت ، 2000م) .
- عبد اللطيف البغدادي ، موقِّع الدين أبو محمد بن يوسف بن محمد (م:سنة 629هـ/1231م) .
- الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، أشرف على إعداده وقَدّم له عبد الرحيم عبد الله الشيخ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط2 (القاهرة ، 1998م) .

(355)

- العماد الأصفهاني ، محمد بن محمد بن حامد بن عبد الله بن هبة الله (م:سنة 597هـ/1200م) .
- حريدة القصر وحريدة العصر" قسم شعراء مصر" ، تحقيق أحمد أمين وشوقي ضيف وإحسان عباس ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية (القاهرة ، 2005م) .
- عماد الدين ، إدريس (م:سنة 872 هـ/1467م) .
1. تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب "القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار وفنون الآثار في ذكر النبي المصطفى ووصييه الكرار وآلهما الأطهار" ، تحقيق محمد اليعلاوي ، دار الغرب الإسلامي (بيروت ، 1985م) .
2. عيون الأخبار وفنون الآثار في فضائل الأئمة الأطهار "السبع السادس أخبار الدولة الفاطمية" ، تحقيق مصطفى غالب ، دار الأندلس (بيروت ، 1978م) .
- عمارة اليمني ، أبو محمد عمارة بن أبي الحسن الحكمي (م:سنة 569 هـ/1173م) .
- كتاب التُّنُكْت العصريّة في أخبار الوزارة المصريّة ، تحقيق هرتويغ درنبرغ ، مطبع مَرَسُو (شالون ، 1897م) (أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المُتَنَّى ببغداد) .
- الغزولي ، علاء الدين علي بن عبد الله البهائي (م:سنة 815 هـ/1412م) .
- مطالع البُدور في منازل السرور ، مكتبة الثقافة الدينية (القاهرة ، 2006م) .

(356)

- القاضي النعمان ، أبو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيّون (م:سنة 363 هـ/973م) .

1. دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن أهل بيت رسول الله عليه وعليهم أفضل السلام ، تحقيق آصف بن علي أصغر فيضي ، دار المعارف ، ط3 (القاهرة ، 1969م) .

2. رسالة افتتاح الدعوة "رسالة في ظهور الدعوة العبيديّة الفاطمية" ، تحقيق وداد القاضي ، دار الثقافة (بيروت ، 1970م) .

3. كتاب المجالس والمسائرات ، تحقيق الحبيب الفقي وإبراهيم شُبُوح ومحمد اليعلاوي ، دار المنتظر (بيروت ، 1996م) .

- القرماني ، أحمد بن يوسف بن أحمد (م:سنة 1019 هـ/1610م) .

- أخبار الدُول وآثار الأُول في التاريخ ، تحقيق فُهي سعد وأحمد حَطيّط ، عالم الكتب (بيروت ، 1992م) .

- القزويني ، زكرياء بن محمد بن محمود (م:سنة 682 هـ/1283م) .

1. آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر (بيروت ، بدون تاريخ) .

2. عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات (بيروت ، 2000م) .

- القُصّاعي ، محمد بن سلامه بن جعفر بن علي بن حكمون (م:سنة 454 هـ/1062م) .

- عُيُون المعارف وأخبار فنون الخلائف ، تحقيق جميل عبد الله المصري ، مركز البحوث وإحياء التراث الإسلامي (مكة المُكرّمة ، 1995م) .

(357)

- القلقشندي ، أبو العباس أحمد بن علي (م:سنة 821 هـ/1418م) .
- صُبْحِ الأَعْشَى فِي كِتَابَةِ الإنْشَاءِ ، الأجزاء 2، 3، 9، 14، تحقيق محمد عبد الرسول إبراهيم ، المطبعة الأميرية الكبرى (القاهرة ، 1913-1919م) .
- الكاتب البغدادي ، محمد بن الحسن بن محمد بن الكريم(م:سنة 637 هـ/1239م) .
- كتاب الطبخ ، تصحيح أحمد النعيمي ، القيروان للنشر والتوزيع (بغداد ، 2006م) .
- الكليني ، أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق(م:سنة 328 هـ/939م) .
- الأصول من الكافي "مع تعليقات نافعة مأخوذة من عدة شروح" ، صحَّحه وعلّق عليه علي أكبر الغفّاري ، دار الكتب الإسلامية ، ط3 (طهران ، 1388هـ) .
- الكندي ، أبو عمر محمد بن يوسف (م:سنة 350 هـ/961م) .
 1. فضائل مصر ، تحقيق إبراهيم أحمد العدوي وعلي محمد عمر ، دار الفكر (بيروت ، 1971م) .
 2. كتاب الولاة وكتاب القضاة ، تحقيق رفن كست ، مطبعة الآباء اليسوعيين (بيروت ، 1908م) (أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثني ببغداد) .
- مالك بن أنس ، الإمام (م:سنة 179 هـ/795م) .

(358)

- الموطأ " رواية يحيى بن يحيى الليثي الأندلسي " ، حققه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه بشّار عوّاد معروف ، دار الغرب الإسلامي ، ط2 (بيروت ، 1997م) .
- مجموعة الوثائق الفاطمية ، وثائق الخلافة وولاية العهد والوزارة ، جمعها وحقّقها وأعدّها للنشر مع دراسات تحليلية مقارنة جمال الدين الشيال ، مكتبة الثقافة الدينية (القاهرة ، 2002م) .
- المسبّحي ، عزّ الملك محمد بن عبّيد الله بن أحمد بن إسماعيل بن عبد العزيز (م:سنة 420 هـ/1029م) .
- الجزء الأربعون من أخبار مصر ، حقّقه وكتب مقدمته وحواشيه ووضع فهرسه أيمن فؤاد سيّد وتيّاري بيانكي ، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية (القاهرة ، 1978م) .
- المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (م:سنة 346 هـ/957م) .
- مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق سعيد محمد اللّحّام ، دار الفكر (بيروت ، 2005م) .
- مسكويه ، أبو علي أحمد بن محمد(م:سنة 421 هـ/1030م) .
- كتاب تجارب الأمم وتعاقب الهمم ، تحقيق هـ.ف. آمدروز ، شركة التمدن الصناعية (القاهرة ، 1915م) (أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثني ببغداد) .
- المقدسي ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر (م:سنة 380هـ/990م) .

(359)

- كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، تحقيق دي غوية ، مطبعة بريل، ط2 (ليدن ، 1909م) (أعادت طبعه بالأوفست دار صادر بيروت) .
- المقرئزي ، تقيّ الدين أحمد بن علي (م:سنة 845 هـ/1441م) .
 1. اتعّاظ الحنّفاً بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاً ، الجزء الأول (ط2) تحقيق جمال الدين الشّيال ، الجزأين الثاني والثالث تحقيق محمد حلمي محمد أحمد ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية (القاهرة ، 1996م) .
 2. إغاثة الأُمّة بكشف العُمّة ، تحقيق محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشّيال ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، ط3 (القاهرة ، 2002م) .
 3. كتاب المُقَفّى الكبير ، تحقيق محمد اليعلّاوي ، دار الغرب الإسلامي (بيروت ، 1991م) .
 4. المواعظ والاعتبار بذكر الخطّط والآثار ، تحقيق محمد زينهم و مديحة الشرقاوي ، مكتبة مدبولي (القاهرة ، 1998م) .
 5. مُسَوِّدَة كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، حَقَّقَهَا وكتب مقدمتها ووضع فهرسها أيمن فؤاد سيّد ، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي (لندن ، 1995م) .
- ناصر خَسْرُو ، (م:سنة 481 هـ/1088م) .
- سَفَر نامة ، ترجمة يحيى الخشّاب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط2 (القاهرة ، 1993م) .

(360)

- التُّوبَخْتِي ، الحسن بن موسى وسعد بن عبد الله القُمِّي (عاشا إلى أواخر القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي) .
- كتاب فِرَق الشيعة ، حَقَّقَه وَصَحَّحَ نصوصه وَعَلَّقَ عليه وَقَدَّمَ له بدراسة وافية عبد المنعم الحفني ، دار الرشاد (القاهرة ، 1992م) .
- التُّوَيَّرِي ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (م: سنة 733 هـ/ 1332م) .
- نهاية الأرب في فنون الأدب ، الجزء الأول ، تحقيق مُفيد قَمِيحَة ، دار الكتب العلمية (بيروت ، 2004م) .
- الجزء الثامن والعشرون ، تحقيق محمد محمد أمين ومحمد حلمي محمد أحمد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة ، 1992م) .
- ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبو عبد الله (م: سنة 626 هـ/ 1228م) .
- مُعْجَم البلدان ، دار صادر (بيروت ، 1977م) .

ثالثاً : المراجع

- أحمد ، نريمان عبد الكريم :
- المرأة في مصر في العصر الفاطمي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة ، 1993م) .
- إدريس ، محمد محمود :
- تاريخ الحضارة الإسلامية في مصر (العصر الفاطمي) ، مكتبة نهضة الشرق (القاهرة ، 1986م) .

(361)

- أمين ، أحمد :
- 1. ضُحى الإسلام ، دار الكتاب العربي ، ط 10 (بيروت ، بدون تاريخ) .
- 2. ظُهر الإسلام ، دار الكتاب العربي ، ط 5 (بيروت ، بدون تاريخ) .
- أيُّوب ، إبراهيم رزق الله :
- التاريخ السياسي الفاطمي ، منشورات جامعة سبها (سبها ، 1996م) .
- بدوي ، جمال :
- الفاطمية دولة التفاريح والتباريح ، دار الشروق (القاهرة ، 2004م) .
- البرَّاوي ، راشد :
- حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة ، 1948م) .
- تاجر ، جاك :
- أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام 1992م ، كُرَّاسات التاريخ المصري (القاهرة ، 1951م) .
- تامر ، عارف :
- الحاكم بأمر الله خليفة وإمام ومُصلح ، دار الآفاق الجديدة (بيروت ، 1982م) .
- التَّليسي ، بشير رمضان وجمال هاشم النَّويب :

(362)

- تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، دار المدار الإسلامي (بيروت ، 2002م) .
- جمال الدين ، عبد الله محمد :
- الدولة الفاطمية قيامها ببلاد المغرب وانتقالها إلى مصر إلى نهاية القرن الرابع الهجري مع عناية خاصة بالجيش ، دار الثقافة (القاهرة ، 1991م) .
- حسن ، حسن إبراهيم :
- 1. تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، مكتبة النهضة المصرية ، ط15 (القاهرة ، 2001م) .
- 2. تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب ، مكتبة النهضة المصرية ، ط3 (القاهرة ، 1964م) .
- حسن ، حسن إبراهيم وطه أحمد شرف :
- المعز لدين الله ، مكتبة النهضة المصرية ، ط2 (القاهرة ، 1963م) .
- حسن ، زكي محمد :
- كنوز الفاطميين ، دار الرائد العربي (بيروت ، 1981م) .
- حسن ، علي إبراهيم :
- مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي إلى الفتح العثماني ، مكتبة النهضة المصرية ، ط5 (القاهرة ، 1993م) .
- حسن ، محمد عبد الغني :
- ملامح من المجتمع العربي ، دار المعارف (القاهرة ، 1951م) .

(363)

- حسين ، محمد كامل :
 1. الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربي حتى آخر الدولة الفاطمية ، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة ، 1959م) .
 2. في أدب مصر الفاطمية ، دار الفكر العربي (القاهرة ، 1950م) .
- حلمي ، أحمد كمال الدين :
 - السلاجقة في التاريخ والحضارة ، ذات السلاسل ، ط2 (الكويت ، 1986م) .
- الحمد ، عادلة علي :
 - قيام الدولة الفاطمية ببلاد المغرب ، دار المستقبل (القاهرة ، 1980م) .
- حنفي ، أحمد عبد اللطيف :
 - المغاربة والأندلسيون في مصر الإسلامية من عصر الولاة حتى نهاية العصر الفاطمي (21- 567 هـ/ 642- 1171م) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة ، 2005م) .
- خانجي ، القس أنطون :
 - مختصر تواريخ الأرمن ، دَيْر الأبا الفرنسيسكانيين (أورشليم ، 1868م) .
- الرافي ، عبد الرحمن وسعيد عبد الفتاح عاشور :
 - مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي حتى الغزو العثماني ، دار النهضة العربية (القاهرة ، بدون تاريخ) .

(364)

- الزرّكلي ، خير الدين :
- الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين) ، دار العلم ، ط15 (بيروت ، 2002م).
- زيدان ، جرجي :
- تاريخ التمدّن الإسلامي ، دار مكتبة الحياة (بيروت ، بدون تاريخ).
- سرور ، محمد جمال الدين :
- الدولة الفاطمية في مصر سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة في عهدها ، دار الفكر العربي (القاهرة ، 1966م) .
- سعد ، فهمي :
- العامّة في بغداد في القرنين الثالث والرابع للهجرة (دراسة في التاريخ الاجتماعي) ، دار المنتخب العربي (بيروت ، 1993م) .
- سلطان ، عبد المنعم عبد الحميد :
- الأسواق في العصر الفاطمي (دراسة وثائقية) ، مؤسسة شباب الجامعة (الإسكندرية ، 2005م) .
- سليمان ، سمير عبد الله :
- الدواوين في مصر خلال العصر الفاطمي (358- 567 هـ/ 969- 1171م) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة ، 2006م) .
- سيّد ، أيمن فؤاد :
- الدولة الفاطمية في مصر (تفسير جديد) ، الدار اللبنانية المصرية (القاهرة ، 1992م) .
- سيمينوفا ، ل . أ . :

(365)

- تاريخ مصر الفاطمية (أبحاث ودراسات) ، ترجمة وتحقيق حسن بيومي ، المجلس الأعلى للثقافة (بدون مكان ، 2001م) .
- شعبان، زكي :
 - الأحكام الشرعية للأحوال الشخصية ، جامعة قاريونس ، ط6 (بنغازي ، 1993م) .
 - شُقَيْر ، نُعُوم :
 - جغرافية وتاريخ السودان ، دار الثقافة (بيروت ، 1967م) .
 - الشَّيَال ، جمال الدين :
 - 1. تاريخ مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي ، دار المعارف (القاهرة ، 1967م) .
 - 2. دراسات في التاريخ الإسلامي ، دار الثقافة (بيروت ، 1981م) .
- الصَّاوي ، أحمد السيد :
- مجاعات مصر الفاطمية (أسباب ونتائج) ، دار التضامن (بيروت ، 1988م) .
- طُقُوش ، محمد سهيل :
- تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقية ومصر وبلاد الشام ، دار النفائس (بيروت ، 2001م) .
- عاشور ، سعيد عبد الفتاح :
 - 1. أورُبَّا العصور الوسطى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط6 (القاهرة ، 1975م) .

(366)

2. العصر المالكي في مصر والشام ، دار النهضة العربية (القاهرة ،
1965م) .

3. المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، دار النهضة العربية
(القاهرة ، 1992م) .

- العبادي ، أحمد مختار :

1. في التاريخ الأيوبي والمملوكي ، مؤسسة شباب الجامعة (الإسكندرية
، 1992م) .

2. في التاريخ العباسي والفاطمي ، دار النهضة العربية (بيروت ، بدون
تاريخ) .

- عبد الهادي ، جمال :

- فتح مصر (20هـ/641م) ، دار الطباعة والنشر الإسلامية (القاهرة
، 1999م) .

- العَدوي ، إبراهيم أحمد :

- يقظة السودان ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط2 (القاهرة ، 1979م).

- العقَّاد ، عباس محمود :

- فاطمة الزَّهراء و الفاطميُّون ، نهضة مصر ، ط7 (القاهرة ،
2008م) .

- عِنان ، محمد عبد الله :

- الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ، مكتبة الخانجي ، ط3
(القاهرة ، 1983م) .

(367)

- عَوَّاد ، كور كيس :
- ذيل كتاب الدِّيَّارات "جاء ملحق لكتاب الدِّيَّارات للشَّابُّشْتِي" ،
مكتبة المثنَّى ، ط2 (بغداد ، 1966م) .
- كاشف ، سيِّدة إسماعيل :
- مصر في عصر الإخشيديين ، مطبعة جامعة فؤاد الأول (القاهرة ،
1950م) .
- كخالة ، عمر رضا :
- أعلام النساء في عالميَّ العرب والإسلام ، مؤسسة الرسالة (بيروت
، 1959م) .
- كبيرة ، نجوى :
- حياة العامة في مصر في العصر الفاطمي (358-567 هـ/969-
1171م) ، مكتبة زهراء الشرق (القاهرة ، 2004م) .
- لوبون ، غوستاف :
- حضارة العرب ، ترجمة عادل زُعَيْتَر ، دار إحياء الكتب العربية ،
ط3 (القاهرة ، 1956م) .
- لينبول ، ستانلي :
- سيرة القاهرة ، ترجمة حسن إبراهيم حسن وعلي إبراهيم حسن
وادوارد حلیم ، مكتبة النهضة المصرية ، ط2 (القاهرة ، بدون
تاريخ) .
- ماجد ، عبد المنعم :

(368)

1. الإمام المستنصر بالله الفاطمي ، مكتبة الأنجلو المصرية (القاهرة ، 1961م) .
2. تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط5 (القاهرة ، 2004م) .
3. الحاكم بأمر الله الخليفة المقتدى عليه ، مكتبة الأنجلو المصرية (القاهرة ، 1959م) .
4. ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر (التاريخ السياسي) ، دار الفكر العربي ، ط4 (القاهرة ، 1994م) .
5. نُظُم الفاطميين ورسومهم في مصر ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط3 (القاهرة ، ج1= 1985م ، ج2 = 1978م) .

- مبارك ، علي :

- الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ، المطبعة الكبرى الأميرية (بولاق ، 1306هـ) .

- محمد ، سعاد ماهر :

1. القاهرة القديمة وأحيائها ، دار القلم (القاهرة ، 1962م) .
2. مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية (القاهرة ، 1971م) .

- محمد ، علي جمعة :

- المكايل والموازن الشرعية ، القدس للإعلان والنشر والتسويق ، ط2 (القاهرة ، 2001م) .

- محمود ، سلام شافعي :

(369)

- أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة ، 1995م) .
- مشرفة ، عطية مصطفى :
- نُظُم الحكم بمصر في العصر الفاطمي (358-567هـ/968-1171م) ، دار الفكر العربي (القاهرة ، 1948م) .
- مصطفى ، محمود :
- الأدب العربي في مصر من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الأيوبي ، دار الكتاب العربي (القاهرة ، 1967م) .
- مُعَوِّض ، أديب ناصيف :
- الأئمة الكرديّة ، دار الغمّار (الحازميّة ، بدون تاريخ) .
- المناوي ، محمد حمدي :
- الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي ، دار المعارف (القاهرة ، 1970م) .
- منيمنة ، حسن :
- تاريخ الدولة البويهية السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي - مقاطعة فارس- (334-447هـ/945-1055م) ، الدار الجامعية (بدون مكان ، 1987م) .
- نصر ، سوسن محمد :
- صُور حضارية من التاريخ الإسلامي ، القاهرة الحديثة للطباعة (القاهرة ، 1982م) .

رابعاً : المجلّات والدوريات والصُحف والندوات والمؤتمرات العلمية

- إسماعيل ، عبّاس حلمي :
- القاهرة المُعزّية ، مجلة الأزهر ، العدد الأول للسنة الحادية والأربعون (القاهرة ، 1969م) .
- البّنا ، محمد :
- ندوة لواء الإسلام " أصل الاحتفال بالمولد النبوي وتاريخه " ، مجلة لواء الإسلام ، العدد السابع للسنة السابعة (القاهرة ، 1953م) .
- جروناوم ، جوستاف فون :
- إنجازات العصر الفاطمي "مقالة وردت ضمن أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة مارس- أبريل 1969م" ، المجلد الأول ، مطبعة دار الكتب (القاهرة ، 1970م) .
- حزين ، سليمان :
- سُكّان مصر ودراسة تاريخهم الجنسي ، المجلة التاريخية المصرية ، العددان الأول والثاني ، المجلد الأول (القاهرة ، 1948م) .
- حسن ، حسن إبراهيم :
1. الاحتفال بعيد الفطر في العصور الإسلامية ، مجلة لواء الإسلام ، العدد الثاني للسنة الثالثة (القاهرة ، 1949م) .
2. شهر رمضان في تاريخ الإسلام ، مجلة لواء الإسلام ، العدد الأول للسنة الثانية (القاهرة ، 1948م) .

(371)

3. المولد النبوي في تاريخ الإسلام ، مجلة لواء الإسلام ، العدد السابع
للسنة الثانية (القاهرة ، 1949م) .

- حسن ، علي إبراهيم :

- عظمة الفاطميين ، مجلة الكتاب ، العدد الأول للسنة الثانية ، المجلد
الثالث (القاهرة ، 1946م) .

- زكي ، عبد الرحمن :

- نشأة القاهرة وامتدادها في أيام الأيوبيين ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد
الثامن عشر (القاهرة ، 1971م) .

- زيادة ، محمد مصطفى :

- نقد كتاب سيرة الأستاذ جُوذِر تصنيف أبو علي منصور العزيزي
الجُوذَرِي ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الخامس (القاهرة ، 1956م) .

- زِيُود ، محمد :

- التجارة بين مصر والشام في العصر الفاطمي ، مجلة دراسات تاريخية ،
العددان 57، 58 للسنة السابعة عشر (دمشق ، 1996م) .

- السندوبي ، حسن :

- تاريخ يوم عاشوراء ، مجلة لواء الإسلام ، العدد الخامس للسنة الثانية
(القاهرة ، 1948م) .

- طلس ، محمد أسعد :

- الحياة الاجتماعية في القرنين الثالث والرابع مجاليتها ومباهجها
ومفاسدها وما ألف في ذلك من آثار ، مجلة المجمع العلمي العراقي ،
الجزء الثاني ، المجلد الثاني (بغداد ، 1951م) .

(372)

- عاشور ، سعيد عبد الفتاح :
 - صُورَ من مجتمع القاهرة في العصور الوسطى ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثامن عشر (القاهرة ، 1979م) .
- عبد الرازق ، أحمد :
 - عقد مراجعة من العصر الفاطمي "مقال نُشر ضمن كتاب ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط ، تحرير قاسم عبده قاسم ورأفت عبد الحميد" ، المجلد الثاني ، دار المعارف (القاهرة ، 1983م) .
- عبد المجيد ، عبد العزيز :
 - النيروز في التاريخ والأدب ، مجلة الكتاب ، العدد الرابع للسنة السادسة ، المجلد العاشر (القاهرة ، 1951م) .
- عبد الوهاب ، حسن :
 1. رمضان ، مجلة لواء الإسلام، العدد الأول للسنة الأولى (القاهرة ، 1947م) .
 2. الفروسية في العصر الإسلامي بمصر ، مجلة لواء الإسلام ، العدد الرابع للسنة الأولى (القاهرة ، 1947م) .
 3. مكافحة المنكرات في تاريخ مصر ، مجلة لواء الإسلام ، العدد الخامس للسنة الأولى (القاهرة ، 1947م) .
- عِنَان ، محمد عبد الله :
 1. إحياء المولد النبوي الكريم بعض رسومه ومناظره في مصر الإسلامية ، مجلة الرسالة ، العدد 51 للسنة الثانية (القاهرة ، 1934م) .

(373)

2. الخليفة العزيز بالله وزوجته النصرانية وأصهاره البطارقة ، مجلة الرسالة ، العدد 184 للسنة الخامسة (القاهرة ، 1937م) .
3. رسوم الفطر والأضحى في عهد الدولة الفاطمية ، مجلة الرسالة ، العدد 140 للسنة الرابعة ، المجلد الأول (القاهرة ، 1936م) .

- فائق ، حسن توفيق :

- الشطرنج ، مجلة الكتاب ، العدد الخامس للسنة الثالثة ، المجلد الثامن (القاهرة ، 1948م) .

- فتحي ، حسن :

- القاعة العربية في المنازل القاهريّة تطورها وبعض الاستعمالات الجديدة لمبادئ تصميمها "مقالة وردت ضمن أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة مارس - أبريل 1969م" ، مطبعة دار الكتب (القاهرة ، 1970م) .

- قاسم ، حسن :

- الجامعة الأزهرية ، مجلة لواء الإسلام ، العدد الثاني عشر للسنة الثانية (القاهرة ، 1949م) .

- ماجد ، عبد المنعم :

- أصل حفلات الفاطميين في مصر (358 - 567هـ / 969-1171م) ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد ، العدد الثاني للسنة السادسة ، المجلد الثاني (مدريد ، 1954م) .

(374)

- محرز ، جمال :

- منازل الفسطاط كما تكشف عنها حفائر الفسطاط "مقالة وردت

ضمن أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة مارس - أبريل 1969م" ،

المجلد الأول ، مطبعة دار الكتب (القاهرة ، 1970م) .

خامساً : الموسوعات والمعاجم والقواميس والأطالس ودوائر المعارف

- أطلس التاريخ العربي الإسلامي ،

إعداد شوقي أبو خليل ، دار الفكر ، ط5 (دمشق ، 2005م) .

- دائرة المعارف الإسلامية ،

أعدّها بالانجليزية والفرنسية والألمانية كبار المستشرقين في العالم ، يُشرف

على تحريرها تحت رعاية الاتحاد الدولي للمجامع العلمية كُلٌّ من هوتسما

وفنسك وجب وبروفنسال وشادة وباسيه وهارتمان وأرنولد وباور ولويس

وبلاوشاخ ، ترجمها إلى العربية محمد ثابت الفندي وإبراهيم زكي

خورشيد وأحمد الشتاوي وعبد الحميد يونس وآخرون ، انتشارات جهان

(طهران ، بدون تاريخ) .

- كتاب دائرة المعارف ،

إعداد بطرس البستاني ،

الجزء السادس ، مطبعة المعارف (بيروت ، 1882م) .

الجزء العاشر ، مطبعة الهلال (القاهرة ، 1898م) .

- محيط المحيط ،

إعداد بطرس البستاني ، مكتبة لبنان (بيروت ، بدون تاريخ) .

- مختار القاموس (مُرتَّب على طريقة مختار الصَّحاح والمصباح المنير) ،

(375)

- إعداد الطاهر أحمد الزاوي ، الدار العربية للكتاب (بدون مكان ،
1983م).
- المعجم الوسيط ،
إعداد مَجْمَع اللغة العربية بمصر ، مكتبة الشروق الدولية ، ط4 (القاهرة ،
2004م) .
- موسوعة التاريخ الإسلامي ،
إعداد أحمد شلبي ، الجزء الحادي عشر ، مكتبة النهضة المصرية ، ط11
(القاهرة ، 1999م) .
- موسوعة تطوّر أزياء العالم عبر العُصُور ،
إعداد عليّة عابدين ، دار الفكر العربي (القاهرة ، 2001م) .
- الموسوعة العربية الميسّرة ،
إعداد لجنة من العلماء والباحثين العرب ، دار القلم (القاهرة ، 1965م) .
- موسوعة المغرب العربي ،
إعداد عبد الفتاح مقلد الغنيمي ، مكتبة مدبولي (القاهرة ، 1994م) .
- موسوعة النُظُم والحضارة الإسلامية ،
إعداد أحمد شلبي ،
الجزء الخامس ، مكتبة النهضة المصرية ، ط8 (القاهرة ، 1987م) .
الجزء السابع ، مكتبة النهضة المصرية ، ط5 (القاهرة ، 1986م) .

(376)

سادساً : رسائل علمية غير منشورة

- البنداري ، فاتن محمد : الحياة الاقتصادية والمظاهر الاجتماعية للمغاربة في القاهرة في العصر الفاطمي (358-567 هـ / 969-1171م) ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة (القاهرة ، 1995م) .
- داود ، سوزي أباطة : السُّودانيون في جيش مصر الإسلامية حتى سقوط الدولة الفاطمية ودورهم في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية ، جامعة القاهرة (القاهرة ، 1989م) .
- التَّيْهُوم ، هُدَى حسن : دور الصقالبة في الأندلس منذ عصر الإمارة حتى نهاية عهد الطوائف الأول (180-468هـ) ، كلية الآداب ، جامعة قاريونس (بنغازي ، 1998م) .

سابعاً : المواقع الإلكترونيّة

<http://st-takla.org>

(وفيه مقابلة تواريخ الأيام في السنوات الإفريقية مع تواريخ الأيام في السنوات القبطيّة) .



فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
3	آية قرآنية.....
4	الإهداء.....
5	شكر وتقدير.....
7	المقدمة
17	التمهيد.....
	الفصل الأول : عناصر سكان مصر في العصر الفاطمي وأثرهم في الحياة الاجتماعية .
34	
37	المبحث الأول : المغاربة.....
46	المبحث الثاني : الأتراك.....
60	المبحث الثالث : السّودان.....
74	المبحث الرابع : الأرمن.....
79	المبحث الخامس : عناصر أُخرى.....
99	الفصل الثاني : طبقات المجتمع المصري في العصر الفاطمي .
101	المبحث الأول : طبقة الخاصة.....
127	المبحث الثاني : طبقة العامة.....
152	المبحث الثالث : أهل الذمّة.....
161	الفصل الثالث : المرأة و دورها في المجتمع المصري في العصر الفاطمي .
162	المبحث الأول : المرأة الفاطميّة.....

الصفحة	الموضوع
177	المبحث الثاني : المرأة المصريّة (العَامِيَّة).....
189	الفصل الرابع : مظاهر الحياة الاجتماعيّة في مصر في العصر الفاطمي .
190	المبحث الأول : أحوال المعيشة.....
239	المبحث الثاني : وسائل اللهو والتسلية.....
256	المبحث الثالث : أهم المظاهر السلبية
264	الفصل الخامس : الاحتفالات والمناسبات والأعياد الدينية في مصر خلال العصر الفاطمي .
266	المبحث الأول : الاحتفالات والمناسبات والأعياد الإسلاميّة العامة.....
285	المبحث الثاني : المناسبات والأعياد الشيعيّة الخاصة.....
292	المبحث الثالث : احتفالات أهل الذمّة وأعيادهم.....
306	المبحث الرابع : الاحتفالات والأعياد القوميّة
318	المبحث الخامس : الاحتفالات والمناسبات الأُسُريّة.....
333	الخاتمة.....
339	قائمة المصادر والمراجع.....
377	فهرس الموضوعات.....

